البروفسور الياس موريس معلوف

الآباء اليسوعيون

من الإيمان إلى المعرفة

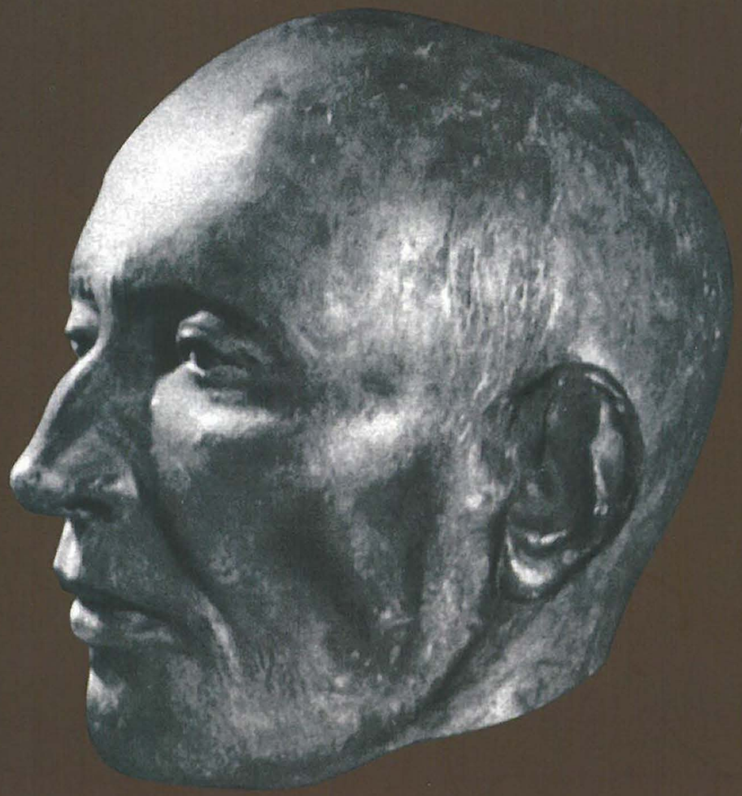

الفارابي

البروفسور الياس موريس معلوف

الآباء اليسوعيون

من الإيمان إلى المعرفة

LAU

دار الفارابي

النادي الثقافي العربي

الكتاب: الآباء اليسوعيون من الإيمان إلى المعرفة
المؤلف: البروفسور الياس موريس معلوف
لوحة الغلاف: الأب المؤسس أغناطيوس دي لويولا

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2013
ISBN: 978-9953-71-901-6

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

Riyad Nassar Library

المقدمـة

الآباء اليسوعيون
تاريخ وتأريخ

للسفير فؤاد الترك
أمين عام وزارة الخارجية سابقاً
رئيس منتدى سفراء لبنان

هذا كتاب خارج عن المألوف بموضوعه ومضمونه.

لست من أصحاب الاختصاص لإبداء الرأي في الأحداث والتفاصيل الواردة فيه بل أترك ذلك لذوي الشأن أو لمن هم أجدر مني به، ولكني أود أن أسجل بعض الانطباعات التي رسخت في ذهني بعد مطالعته...

الأول: أن يعمد علماني كالبروفسور النقيب الياس معلوف إلى جمع كل هذه الوقائع بأشخاصها وتواريخها وخلفياتها بمثل هذا الدأب والصبر والأناة،

الثاني: إنه يزيح القناع عن الكثير من الأسرار والخفايا «القابعة» سواء في زوايا الكرسي الرسولي ودهاليزه أو في سائر المؤسسات والرهبانيات، وخصوصاً العلاقة بين البابا الأبيض والبابا الأسود،

الثالث: يؤكد لنا أن الكمال ليس من هذا العالم، حتى في أعرق المؤسسات وأعظمها، وأنّ هذه المؤسسة العملاقة التي هي الكنيسة تواجه هي أيضاً، إلى قدسيتها وعطاءاتها وإنجازاتها البهية الباهية، التجارب والإغراءات والضعف البشري والأخطاء والخطايا وذلك، ربما، للدلالة مرّة أخرى أن الله وحده هو العلي القدير الصمد الكلي التمام والكمال،

الرابع: يبقى أن الآباء اليسوعيين عنوان هذا السفر، قد أدّوا للعالم أجلّ الخدمات في التربية والتعليم، ورفدوا مجتمعاته بجحافل من رجالات الدولة والعلماء والمفكرين والمبدعين وأعلاماً في كل حقل ومجال وعطاءات لا يمكن أن ينكرها إلّا الحسّاد والجاحدون، وأنّ لبنان، على الأخص، غنم من هذا المعين ما مكّنه من الإضافة إلى عماراته الثقافية مدماكاً حضارياً شامخاً يفخر به ويباهي...

ويبقى كذلك، أنّ البروفسور الياس معلوف أثبت أنه، إلى ألمَعيّته المهنية، رجل متعدد الموهبة والمعرفة، طبيباً مميزاً، باحثاً جلوداً، كاتباً جذاباً، ولبنانياً باراً وصديقاً عزيزاً.

Riyad Nassar Library

التمهيـد

السبب الكامن وراء قراري في التطرق إلى موضوع الرهبانية اليسوعية الشائك والشيّق، ثم الغوص في أدق تفاصيله، عائد إلى مجموعة من التساؤلات حول جماعة بشرية نذرت نفسها من أجل خدمة الله تعالى ونشر الرسالة المسيحية وتعليم الأجيال الناشئة.

فبعد إحالتي على التقاعد خلال صيف العام 2010 ، طويت صفحة من حياتي المهنية، وانصرفت إلى التأمل في ما فشلت أو نجحت في تحقيقه طوال ثماني وأربعين سنة في جامعة القديس يوسف في بيروت. فتسنى لي اكتساب مجموعة من المعارف والكفاءات المبنية على التربية اليسوعية، علماً أنّ طباعي الاستقلالية المنقوشة في حَجَري الزحلي والمتناقضة تماماً مع «الطاعة العمياء» مهما كانت دوافعها، زادتها رسوخاً وصلابة سنوات طويلة أمضيتها على مقاعد الدراسة في مدرسة الحكمة في بيروت.

بعد الاطلاع على مجموعة من المنشورات حول هذا الموضوع، ازداد فضولي، وأردت الإحاطة بأكبر قدر ممكن من المعلومات حول هؤلاء الآباء الأفاضل في ثيابهم السوداء. فتملكتني دوماً الحيرة حول الغموض الذي يلفّ هذه المؤسسة والصرامة التي تتحكم بمقدراتها وهذا التواضع المغلّف أحياناً بنوع من الكبرياء. ولكن يجب ألا ننسى بأنه، وعلى الرغم من كل شيء، تبقى التربية اليسوعية عنوان الجودة والتفوق.

مما لا شك فيه أن الرهبانية اليسوعية أدت خدمات جلّى للبنان ودول الجوار، وكانت مشتل المثقفين ورجال الدولة والعلم، ولكن النجاح لا بل التألق الذي عرفته الجامعة اليسوعية في بلادنا، عائد أيضاً إلى مجموعات من الرجال والنساء العلمانيين اللبنانيين الذين أسهموا إلى حد بعيد في تنشئة الكوادر والاختصاصيين في الحقول كافة.

لقد اطلعت على كمّ هائل من المعلومات حول الآباء اليسوعيين خصوصاً بعدما دققت في تاريخهم الحافل بالمآسي والاضطهادات والنفي والتشرد والاستشهاد؛ فالرهبانية اليسوعية أثارت الحقد والحسد في جميع الأزمنة، ولكنها حازت، في المقابل، على إعجاب الكثيرين وتقديرهم. لقد أردت، وبكل تواضع، إغناء المكتبة العربية بكتاب موضوعي حول هذه المؤسسة الكاثوليكية الرائدة من دون أن أغفل التطرق إلى الأمور التي صنعت مجدها وعارها.

إنّ مجرد الادعاء بأن هذه الرهبانية ليست من صنع البشر، هو قمة التعجرف، خصوصاً وأنّ التغيّرات التي طرأت عليها منذ نشأتها في القرن السادس عشر حتى اليوم، هي خير دليل على طابعها البشري مع كل ما يَحمله هذا الطابع من محاسن وسيئات... أولم يدفع كل ذلك بالرئيس العام المميّز بدرو أروبي، خلف أغناطيوس دي لويولا الثامن والعشرين للتصريح يوماً بأنّ الأمور لم تعد كما كانت على أيام الأب المؤسس. فهلا وصلت الرسالة إلى أسماع المعنيين، خصوصاً وأنّ جيش الاحتياط أي، العلمانيين هم على أهبة الاستعداد بغية تصويب المسار وإكمال المسيرة.

Riyad Nasser Library

الفصل الأول

السيرة والمسيرة

نشأة الرهبانية اليسوعية ناتجة عن تلاقي زمن استثنائي ورجل متميز؛ إذ في القرن السادس عشر طرأت تغيّرات لم يكن لها مثيلٌ في تاريخ البشرية، من اكتشاف العوالم الجديدة مع كريستوف كولومبوس وفاسكو دي غاما وماجلان وكوبرنيك، إلى إعادة اكتشاف قيم الأنسنة (Humanisme) في الأزمنة الغابرة والعالم الملحد. أما رجل اللحظة التاريخية تلك، فهو إينيغو لوبيز دي لويولا أو أغناطيوس، وهو من بلاد الباسك الإسبانية، الذي أبصر النور عام 1491.

في تلك الفترة شعرت أوروبا أنها محاصرة من جميع الجهات، فهلعت عندما اتضح لها أنها لم تعد وحيدة في العالم بعد اكتشاف أميركا، وأنها محاطة بممالك ذات شأن ونفوذ، فأخذت تبحث عن وصيّ يدافع عنها. لذلك، حاولت سلالة الهابسبورغ(*) إعادة إحياء «الأمبراطورية المقدسة»(**)، الأمر الذي لم يكن يحوز على رضا عائلات الفالوا(***)

(*) الهابسبورغ: سلالة تولت حكم الأمبراطورية المقدسة في فترات متلاحقة (1273–1291، 1438–1740، 1765–1806).

(**) الأمبراطورية المقدسة: تأسست عام 962 م. وتم حلها عام 1806 عندما تخلى فرانسوا الثاني عن تاج الأمبراطورية الألمانية.

(***) الفالوا: عائلة حكمت فرنسا من عام 1328 حتى عام 1589 .

والتودور(*) والبابا في روما، إضافة إلى الأمراء الألمان البروتستانت كما الأتراك.

عندما أصبح فرانسوا الأول وهنري الثامن ويوليوس الثاني وشارلكان على أهبة الاستعداد، كانت القارة القديمة عرضة لحرب مدمّرة اجتاحتها باستثناء مملكة إسبانيا التي عرفت عصرها الذهبي. ففي جنوب البيرينيه أرست الملكة إيزابيل والملك فرديناند الكاثوليكيان، ركائز دولة منيعة بعد سقوط الأندلس وفتح أميركا والسيطرة على إيطاليا وأوروبا الوسطى، وبسطا عبر هذه الطريقة الهيمنة على العالم. لكن على الرغم من قوّتها وتوسعها، لم تكن إسبانيا في بداية القرن السادس عشر في أحسن حالاتها، ولم يتمكن ذهب أميركا وكنوزها التي موّلت الجيوش والأساطيل، من منع هجرة سكان قشطالة وأراغون وكاتالونيا، وذلك بسبب تكاثر عمليات السطو والفوضى الأمنية في أرجاء المملكة.

أما في نافارا ومقاطعة كويبوذكوا مسقط رأس إينيغو وعائلة دي لويولا، التي تعني «مواجهة العدو»، فقد كانت الخلافات الداخلية على أشدها بين مختلف مكوّنات هذه المناطق، من الناحية الاجتماعية والإكليريكية، في حين أنّ الكنيسة الكاثوليكية التي توالى على حكمها خلال تلك الفترة بابا من عائلة بورجيا أي اسكندر السادس، ثم حبر أعظم من سلالة ميديسيس أي لاون العاشر، وثالث من قبيلة فارنيزي أي بولس الثالث، أصبحت مكاناً تتجمع فيه المياه الآسنة، وغدت روما مركز الفساد من جميع النواحي وعلى كل الأصعدة.

يقول المؤرخ اليسوعي إميل ريدو[1]: إن «القديسين الكبار يظهرون في الأوقات المناسبة، لهذا السبب كانت المجموعة البشرية التي أسسها القديس إغناطيوس متأتية من عصر النهضة في اتحاد وثيق مع أهدافها، ولكن أيضاً في تناقض وحرب مفتوحة مع كل ما تحمله روح النهضة من أمور زائفة وغير إنسانية». ونلاحظ في هذا السياق بوادرالإعجاب بعصرالنهضة عند القديس إغناطيوس حتى بعد اهتدائه، ما يفسر لجوءه إلى وسائل زمنية من أجل الوصول إلى غايات روحية، وربما يفسر أيضاً انزلاق الرهبانية اليسوعية إلى خبايا السلطة وإلى واجهة المآسي السياسية.

عندما باشر إغناطيوس وضع سيرته الذاتية[2] أو «حكاية الحاج»، طلب مساعدة

(*) التودور: عائلة انكليزية تولت العرش من عام 1485 حتى عام 1603 .

البرتغالي لويس غونسالفيز دا كامارا الذي كتب أنه يتحدر من عائلة نبيلة وعريقة بالقرب من مدينة إثبيتيا الصغيرة، وهي التي لم تكن تقبل بين رعاياها أي مسيحي مهتدٍ من اليهود أو المغاربة المسلمين. تجدر الملاحظة، هنا، إلى أن قصر دي لويولا قد تم تشييده بطريقة تسمح لقاطنيه بمقاومة أي حصار، وأنّ المنزل العائلي (*La casa y solar*) الذي ورثه والد إينيغو كان نوعاً من منزل ريفي يتضمن حصناً منيعاً لصد الغزوات.

وهب والد إغناطيوس ابنه الأصغر إلى الحياة الأكليريكية كما كانت تقضي العادات في القرن السادس عشر، ثم اختار له قبل وفاته مهنة السلاح... أغناطيوس هو الابن الأصغر لبلتران دي أوناز وزوجته الدونا مارينا سانشيز دي ليكونا، وكان إخوته من العسكريين، الذين قتل أحدهم في ساحة الحرب في هنغاريا، واثنان منهم أمام جدران مدينة نابولي، في حين لقي الأخ الرابع مصرعه في أميركا مع جيوش المستعمرين الإسبان. لقد أرسل إينيغو بعد وفاة والديه إلى بلاط قشطالة حيث أصبح الملك فرديناند يحكم إسبانيا وحيداً بعد وفاة زوجته الملكة إيزابيل الكاثوليكية قبل سنتين، وكان إينيغو يبلغ من العمر 14 عاماً، فاحتضنه الدون خوان فيلاسكيز دي كويلار خازن قشطالة العام، الذي كان يسكن في مدينة أريفالو الواقعة بين فالادوليد العاصمة السياسية وسلمنكة العاصمة الثقافية، حيث بقي عشر سنوات وأتقن فن الخط، الأمر الذي كان يتباهى به، والذي لعب دوراً محورياً في حياته الروحية.

نشأ إينيغو في جو مشاغب ومترف صنع منه عاشقاً لألعاب القمار والنساء والسلاح وجميع أنواع الملذات. في عام 1515 أقحم نفسه مع أخيه بدرو في مشكلة خطيرة لم تؤدِ إلى إعدامهما بعد الدعوى القضائية التي أقيمت في حقهما. هذا يؤكد أنّ ما ارتكباه لم يكن جريمة قتل، إذ لم تُعرف فحوى الارتكابات في النصوص التي صدرت في هذا الشأن. تبيّن لاحقاً من نتائج التحقيق أنها كانت أعمال عنف في حق الإكليروس الرعوي وتمت تحت جنح الظلام، وعن سابق تصور وتصميم.

من جهته، تحدّث الأب ألبير لونشان اليسوعي[3] عن خلاف بين عائلة لويولا واكليروس إثبيتيا، لا تزال وثائقها محفوظة حتى اليوم. تجدر الإشارة إلى أن بدرو أخ أغناطيوس الذي أصبح لاحقاً رئيس دير سان سيباستيان في مدينة إثبيتيا القريبة من قصر دي لويولا كان له

Riyad Nassar Library

أربعة أولاد غير شرعيين. هرب إينيغو إلى بمبلونه وسلّم نفسه إلى المحكمة الأسقفية التي قضت بسجنه مدة قصيرة، ولم تتم إدانة شقيقه بدرو الذي أفاد من حماية نافذة لعبت دوراً هاماً في تهربه من العدالة.

في عمر الست عشرة سنة كان إينيغو حليق الشعر دائرياً في أعلى الرأس، وهي الإشارة التي كانت تدل على كونه ينتمي إلى السلك الأكليريكي. على أثر وفاة دون خوان فيلاسكيز الذي فقد حظوته في البلاط الملكي بعد أن أرهقته الديون، والذي وافاه الأجل عام 1517، زودت زوجة الدون خوان إينيغو بمبلغ 1500 إيسكودس(*)، ونصحته بالذهاب إلى بمبلونه وعرض خدماته على الدوق دي ناخيرا الذي كان قد عيّن في أيار 1516 نائباً لملك نافارا. وعندما ثارت ناخيرا على سيدها، أرسل هذا الأخير إينيغو على رأس حملة عسكرية تأديبية انتهت باستسلامها وتعرّضها للنهب.

عام 1521 كانت بمبلونه مهددة من قبل جيوش فرانسوا الأول، فأوكلت إلى إينيغو مهمة العودة إلى منطقته طلباً للمساعدة، فعاد مع سوقة عسكرية تحت إمرة أخيه مارتن. رفض السكان منطق الحرب، وفضلوا الاستسلام دون إراقة الدماء، لكنّ إينيغو في ذروة حماسه، صمم على الدفاع عن الشرف والكرامة. بدأ الهجوم الفرنسي بجيش قوامه ثلاثة عشر ألف جندي تحت إمرة أندره دو فوا. بعد انسحاب فرنسيس دو بومون المكلف الدفاع عن المدينة، قرّر إينيغو، وخلافاً لرأي الجميع، التصدي والقتال على الرغم من تفوق العدو عدداً وعدة.

بدأت المعركة وتم قصف المدينة بالمدافع طوال ست ساعات، مما أدى إلى إصابة إينيغو في رجله اليمنى وفخذه الأيسر. تهاوت عزيمة المحاصرين مع إصابة إينيغو، واستسلم الحصن يوم اثنين العنصرة في 20 أيار 1521، مما وضع حداً نهائياً لمسيرته العسكرية. من جهتهم، عامل الفرنسيون المنتصرون القوات المهزومة بطريقة لائقة معربين عن إعجابهم بشجاعة إينيغو، وأعادوه إلى قصر دي لويولا حيث وضعوه في عهدة الجراحين. لكن بعد فشل العملية الجراحية الأولى، ساءت أحواله الصحية إلى أقصى الحدود في أواخر شهر

(*) إيسكودس: عملة قديمة من ذهب وفضة.

حزيران، وتزوّد الأسرار الأخيرة في يوم عيد القديس بطرس. تحمّل الألم بصبر وشجاعة، واعتقد الجميع أنه على شفير الموت، لكن حالته الصحية تحسنت فجأة، وطلب من الأطباء إجراء عملية أخرى على الرغم من معارضة أهله ومقرّبيه. وها هو أغناطيوس يصر على اختبار الألم والعذابات الدنيوية لأن «المجزرة» الجراحية الثانية على الرغم من نجاحها تركت نتوءاً في العظم حيث أصبحت الساق المكسورة أقصر من الأخرى. مرةً ثالثة خضع إينيغو إلى عملية تركت بصماتها وبات يعرج حتى أواخر أيام حياته.

أثناء فترة نقاهته الطويلة أخذ أغناطيوس يحلم بالحب والفوز بقلب سيدة من طبقة النبلاء الكبار حرص دوماً على عدم الافصاح عن اسمها تقيداً بمبادىء الشرف التي كانت عزيزة عليه. أمّا المرأة التي سيطرت على عقله وتفكيره فكانت على الأرجح الدونا كاتالينا أخت الأمبراطور شارلكان التي احتجزتها معها سابقاً في قلعة torديسيلاس والدتها «جَان المجنونة» حيث تسنى لإينيغو مقابلتها في عداد وفد رسمي.

مرّت فترة النقاهة ببطء مما جعله يطالب بالكتب من أجل تمضية الوقت، فزوّدته زوجة أخيه مجدلينا بكتاب عن حياة يسوع للودولف الكرتوزي وآخر عن حياة القديسين لجاك الفوراجيني، تركا لديه كبيرالأثر. عندما طلب أغناطيوس الورق بغية الكتابة، أخذ وقته في التأمل والمقارنة بين أحاسيسه المتضاربة، ولكنه شعر في قرارة نفسه أنّ شيئاً ما قد تغيّر، إذ في ليلة من الليالي رأى صورة السيدة مريم العذراء مع الطفل يسوع، مما جعله يقرر الابتعاد كلياً عن ملذات الحياة الدنيوية، ولم يعد يقبل بالأحاسيس الجنسية أبداً.

في أواخر شهر شباط عام 1522 غادر أغناطيوس المنزل العائلي بصحبة شقيقه مارتن وخادمين، وهم يرتدون ثياباً فاخرة في اتجاه نافاريت، حيث قابل الدوق وتسنى له إيفاء بعض الديون القديمة، ثم عمد إلى مقايضة ثيابه الفاخرة بأخرى بالية، من أجل البدء بالرحلة نحوالقدس على طريقة الحجاج. كان إينيغو يعمل على تحقيق بعض الإنجازات مردّداً: «القديس دومينيك فعل ذلك، يجب أن أفعله أيضاً. القديس فرنسيس حقق ذلك ، يجب أن أحققه أيضاً» .

إن الممر الذي لم يكن هناك أي مجال للالتفاف عليه هو دير مونسرات أو الجبل

Riyad Nasser Library

المنشور على طريق برشلونة، من حيث تبحر السفينة في اتجاه القدس مروراً بالبندقية[4].
في طريقه من نافاريت إلى مونسرات لحق به أحد المغاربة راكباً بغلة، وهو المسلم الذي كان قد اعتنق المسيحية مكرهاً بعد صدور مرسوم عام 1492. دارت بينه وبين المغربي نقاشات حول استحالة عذرية مريم بعد ولادة يسوع، ثم ذهب المغربي في طريقه، عندها قرر أغناطيوس اللحاق به وقتله دفاعاً عن شرف السيدة مريم العذراء. وعندما وصل إلى مفترق طرق احتار في الوجهة التي عليه أن يسلكها، عندها أرخى العنان لبغلته وقرر في حال توجهت الدابة نحو القرية التي قصدها المغربي لحق به وطعنه حتى الموت، أما اذا سلكت الدابة الطريق الأخرى فإنه سوف يتركه وشأنه. لكن الدابة سلكت «درب الخلاص» واضعة حداً لنيات أغناطيوس الإجرامية؛ فهل هذا يعني أنّ حكمة الدابة هي التي ساهمت في إنقاذ المغربي ووضع أغناطيوس على طريق رئاسة الرهبانية اليسوعية ثم القداسة لاحقاً[5]؟ لقد رأى أحد كتاب سيرة أغناطيوس دي لويولا فيه «ديكتاتور النفوس»[6] الذي كان يجهل في منريسا حقيقة روما الفاسدة وما يجري فيها من فضائح وخطايا، على الرغم من أنّ كل ما شهده ولمسه لاحقاً لم يمس بولائه المتناهي إلى الحبر الأعظم والكرسي الرسولي.

في 21 آذار وصل أغناطيوس إلى دير الرهبان البينديكتيين[7]، حيث أمضى ثلاثة أيام في التأمل والاعتراف، وحصل على مغفرة خطاياه، ثم خرج مع الفجر مردداً: «في خدمة إلهنا وسيدنا يسوع المسيح». وطوال ثلاثة أيام قام بكتابة اعترافه العام، الذي سلّمه تحت ختم السرية إلى الراهب الفرنسي يوحنا شينون، وقام بتعليق سيفه وخنجره على طريقة الفرسان فوق مذبح السيدة العذراء السوداء (*Virgen Morena*) على جبل مونسرات، ثم نزع عنه ثياب الفارس وأمضى ليلة عيد البشارة في التأمل والصلاة[8]. عند الفجر قصد منريسا التي تبعد مسافة 300 كلم عن أثبيتيا حيث مكث فيها سنة كاملة خلافاً لتوقعاته. ولقد ساورته خلال تلك الفترة مرحلة من الشكوك والقلق، وأمضى جلسات طويلة في التأمل على سفح الجبل في منريسا وانصرف إلى استجداء الصدقات مبتعداً عن تناول اللحوم وشرب النبيذ باستثناء أيام الآحاد، تاركاً شعره وأظفاره تنمو تكفيراً عن ذنوبه القديمة في التأنق وحب الملذات حتى وصل إلى حد التفكير في الانتحار.

بعد مرور سنة على أغناطيوس وهو على هذه الحالة النفسية المضطربة، حصل حادث سوف يكون له كبير الأثر على حياته لاحقاً؛ ففي رحلته نحو صومعة القديس بولس، وعلى الطريق الذي يشرف على الكاردونر وهي البحيرة التي تروي منريسا، جلس إينيغو متأملاً، إذ حدث انبهار لم يتمكن من تفسيره أو من تحديد نوعه استناداً إلى أقوال المؤرخين (استنارة الكاردونر). في نهاية حياته تطرق أغناطيوس إلى وقع هذا الحدث الذي بقي مبهماً، والذي جعل منه إنساناً مختلفاً. عندما ارتفع بالروح، وخرج من هذا الانخطاف تغير تغيراً عميقاً، وهذا ما نجده في كتيبه «الرياضات الروحية»، أساس كل الروحانية اليسوعية. هكذا، تحرّر أغناطيوس من وساوس الشيطان وأصبح عقله يرتفع وكأنه يرى الثالوث الأقدس أو جسد السيد المسيح على صورة أشعة بيضاء، أو ينكشف له كيف خلق الله تعالى العالم. بقي أغناطيوس وفياً لمشروعه الأول، أي الذهاب إلى القدس، وفي شهر آذار عام 1523 توجه إلى برشلونة بهدف الإبحار إلى إيطاليا بغية الحصول على مباركة الحبر الأعظم أدريان السادس وفقاً للتقاليد المتبعة في تلك الأزمنة. في رحلته سيراً على الأقدام نحو مدينة البندقية وهو يتسوّل، مرّ بمدينة بادوفا حيث ظهر له السيد المسيح، ثم أكمل طريقه إلى أن وصلها منهكاً متعباً.

في 14 تموز وهو على وشك الإبحار على متن السفينة نيغرونا أصابته حمى قوية، ونصحه الأطباء بالتخلي عن الذهاب لأن البحر سوف يكون مثواه الأخير، في حال أصر على السفر. ولكن عناده ساهم في إصراره على متابعة السفر، وإلى معاناة طويلة أثناء الرحلة حيث ذاق الأمرّين. وصل أغناطيوس أخيراً إلى جزيرة قبرص حيث كانت باخرة الحجاج إلى الأراضي المقدسة في انتظار المسافرين، والتي أبحرت لاحقاً نحو مرفأ مدينة يافا. في الرابع من أيلول عام 1523 وصل الحجاج إلى المدينة المقدسة تحت حماية الأتراك على الرغم من تجاوزاتهم وسوء معاملتهم للحجاج المسيحيين. اصطدم أغناطيوس فور وصوله بالرهبان الفرنسيسيين حراس الأماكن المقدسة المسيحية الحريصين كل الحرص على امتيازاتهم، والذين أقنعوه مرغماً بالعودة إلى أوروبا حفاظاً على حياته. في طريق العودة إلى

Riyad Nassar Library

إسبانيا حصلت معه استنارة جديدة في مدينة البندقية، حيث قرّر الانصراف إلى الدراسة من أجل مساعدة النفوس والتعليم، معلناً هكذا في طريقة غير مباشرة عن مشروعه «اليسوعي».

بعد رجوعه إلى إسبانيا اتخذ قراراً بمساعدة النفوس، مما يدل على رغبته ونيته في تجنيد رجال مؤمنين مثله على أتم الاستعداد لمساعدة الفقراء والتبشير بالإنجيل المقدس. رأى أغناطيوس أنّ من واجباته أن ينصرف إلى الدراسة بعض الوقت، فانتسب إلى جامعة ألكلا دي هناريس في برشلونه، حيث التقى ثلاثة شبان أقنعهم بمرافقته إلى مدينة القدس. ضمّت هذه المجموعة في عدادها فرنسياً واحداً وكانت معروفة بلباسها، إذ أطلق عليها لقب الأردية الرمادية أو المستنيرين. أقلق هؤلاء راحة محاكم التفتيش، ثم ما لبث أن ألقي القبض على أغناطيوس في 19 تشرين الثاني 1526، وجاء الحكم مخففاً، إذ ألزم أغناطيوس ورفاقه بأن يلبسوا ثياباً سوداء كباقي رجال الإكليروس. بعد الإفراج عنه قصد سلمنكة حيث تمّ التعرف إليه وإتهم بالهرطقة بسبب تعاليمه، وأودع السجن مجدداً، ولم يطلق سراحه إلّا بعد 25 يوماً.

بعد التدقيق في كتابه «الرياضات الروحية» بعناية فائقة، جاء حكم سلمنكة مطابقاً لحكم ألكلا أو القلعة، أي عدم وجود أية آثار للهرطقة في كتاب أغناطيوس كما في تعاليم باقي أعضاء المجموعة. لكن الحكم الذي صدر قضى بمنعهم عن التحدث في علم اللاهوت قبل تمضية أربع سنوات إضافية في البحث والدراسة. نفذ صبر أغناطيوس، ومحاكم التفتيش في أثره تفرض عليه الشروط التعجيزية، فترك إسبانيا متوجهاً إلى باريس التي وصلها في 3 شباط 1528، وهي المدينة التي كانت تضم أربعة آلاف طالب، وخمسين معهداً وأفضل جامعة في أوروبا. انتسب إينيغو أو أغناطيوس إلى معهد مونتيغو، ولم يثنه أي شيء عن مواجهة النظام الصارم الذي كان عرضة لتهكم إراسموس. كان يستجدي طعامه في الشوارع ويسكن في مستشفى القديس يعقوب، وفي فترة الصيام كان يذهب إلى منطقة الفلاندر طالباً الحسنة من التجار الإسبان الأغنياء. عام 1530 وصل حتى لندن ساعياً إلى تأمين احتياجاته الضرورية من أجل الانصراف إلى الدراسة في معهد مونتيغو ثم في معهد القديسة بربارة ابتداءً من الأول من تشرين الأول عام 1529، وكان يرتدي لباس رجال الإكليروس الباريسيين، وهو الزي الذي حافظ عليه حتى مماته.

يعتقد المؤرخ اليسوعي الإسباني بدرو دي ليتوريا[9] أنّ الرفاق السبعة الأوائل كان هدفهم خلاص النفوس في فلسطين وحمل «الكفار» على اعتناق المسيحية حتى ولو أدى ذلك إلى استشهادهم كما السيد المسيح على طريق الجلجلة. ولكن هؤلاء اصطدموا بالواقع عندما اقتنعوا باستحالة الوصول إلى القدس في الوقت الذي كانت فيه الأراضي المقدسة محظورة، والوصول اليها غير ممكن، بحيث أصبحت هذه المهمة التبشيرية مستحيلة. لذلك استعاضوا عن مشروعهم الأساسي وتحولوا نحو روما مطالبين بالخضوع التام إلى الكرسي الرسولي الذي كان في أمسّ الحاجة إلى هذا النوع من المؤمنين الزاهدين الأنقياء والأتقياء. نعم، لقد استسلم اليسوعيون الأوائل إلى الواقعية وتأقلموا معها، وأعادوا توجيه نشاطاتهم نحو بلاد الهند الشرقية والغربية، واستبدلوا المكان الرمزي أي القدس بمركز إستراتيجي وهو روما.

عند تمركزهم في المدينة الخالدة حاز الآباء اليسوعيون سريعاً على ثقة البابا واحترامه، وهو الذي كان قد بدأ حركة إصلاحية كنسية هامة في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية برمتها مهددة بالهلاك. تلقف البابا بولس الثالث المتمرس في فن السياسة والمناورات، هذه المجموعة الزاهدة واستمع إليها بعناية واستعملها بدراية من أجل استعادة مركز الكنيسة الكاثوليكية ومجدها في هذه الحقبة الحرجة والمأساوية من تاريخها...

كان إينيغو يتشارك غرفة مع بيار فافر وهو من منطقة السافوا، ونبيل آخر من منطقة النافارا يدعى فرانسوا كزافير. اضطر أغناطيوس إلى التخلي مؤقتاً عن ساعات التأمل الطويلة صارفاً اهتمامه إلى المنطق الفلسفي، حيث حاز في 14 آذار 1535 على درجة «أستاذ في جامعة باريس الكاثوليكية» الشهيرة. أصبح هكذا مطمئناً لانصرافه نحو إنقاذ النفوس من دون التعرض للمضايقات مع أنّ هذه المحاولة عرفت انتكاسة خطيرة. وأثناء دراسته لم ينسَ أغناطيوس الهدف الرئيسي من مجيئه إلى باريس أي إكثار العدد من معاونيه ورفاقه في الرحلة التبشيرية، فأهدى كتابه «الرياضات الروحية» إلى ثلاثة من رفاقه وهم من الجنسية الإسبانية الذين في ذروة إيمانهم واندفاعهم منحوا ثرواتهم إلى الفقراء، مما أثار استياء

Riyad Nassar Library

السلطات المدنية التي هدّدت أغناطيوس بالجَلد في الساحة العامة. استغرق إقناع فرنسوا كزافير بالمهمة الأغناطية ثلاث سنوات، وهو الرسول إلى الهند الذي ترك المسيحية متجذرة في آسيا عند وفاته. تجدر الإشارة إلى أنّ فرنسوا كزافير قبل انضمامه إلى المجموعة كان يُطلق على أغناطيوس لقب «أحمق شارع الكلاب».[5]

هكذا بدأت المجموعة تتكاثر ببطء، والتف حول أغناطيوس، فافر ثم كزافير ولاحقاً البرتغالي سيمون رودريغز الذي وصل باريس عام 1527 إضافة إلى اثنين من قشطالة هما الفونس سالميرون ولينيث. هذا الأخير كان متحدراً من عائلة يهودية غنية اعتنقت المسيحية، وهو أول خلف لأغناطيوس في عام 1558 على رأس الرهبانية اليسوعية. أما سالميرون المولود عام 1515 وصديق لينيث الحميم، فلقد كان سابع شخص ينخرط في عداد الرهبانية قبل نيكولا بوباديلا الذي أزعج أغناطيوس إلى حد بعيد بسبب تصرفاته الصبيانية وطباعه الاستقلالية. إتبع الرفاق طريقة عيش الفقراء استناداً إلى تعاليم الإنجيل المبارك، وحافظوا على مبدأ العفة، وكانوا يقيمون في ما بينهم ندوات روحية، وأعربوا عن عدم رغبتهم في الانضمام إلى أية رهبانية ولم يسعوا إلى تأسيس رهبانية جديدة.

قرّرت المجموعة الذهاب إلى القدس عند انتهاء الدراسة، وفي حال استحالة هذا المشروع، القيام بالسفر إلى روما ووضع أنفسهم تحت تصرف الحبر الأعظم؛ هكذا اتخذ أعضاء المجموعة قرار الانضواء إلى السلك الكهنوتي وقرروا قسم اليمين يوم عيد انتقال السيدة العذراء. في 15 آب 1534 قصدت المجموعة محلة مونمارتر في الصباح الباكر، واجتمعت في كنيسة القديس دوني، وشاركت في القداس الإلّهي الذي ترأسه فافر والذي كان قد رُسم كاهناً في 30 أيار. عندما حان وقت المناولة، أعلنوا عن نذورهم وهي الطريقة نفسها التي يتبعها الآباء اليسوعيون حتى اليوم، عندما يضعون على مذبح الكنيسة نصاً مكتوباً وموقعاً يعلن عن التزاماتهم الدينية... هذه النذور تشمل التعهد باتباع حياة الفقر الإنجيلي، والتبتل، والطاعة الدائمة، وتوفير العلم للأطفال والمعوزين، والتقيد بجميع المهمات التي يحددها البابا دون تردد أو شروط.

إن نذور مونمارتر التي لم تتخذ طابعاً رسمياً لا يمكن دمجها في إعلان تأسيس الرهبانية

اليسوعية، ولكنها تؤكد على تمايز هذه الرهبانية المستقبلية، من سمات الحياة المشتركة إلى الانفتاح على العالم، إلى الطاعة العمياء في هذه الحقبة الصعبة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية.

في هذا الوقت، برزت تيارات دينية كثيرة تدعو إلى ضرورة ضخ دم جديد وأفكار جديدة في جسم الكنيسة المتعب وسط أزمة روحية عميقة في تاريخ الديانة المسيحية. في هذه الأجواء انعقد مؤتمر أوكسبورغ(*) عام 1530 الذي أرسى قواعد اللوثرية(**) انطلاقاً من 28 بنداً حرّرها ميلانشتون الذي نجح في استقطاب قسم كبير من الأمراء الألمان، وتخلّى ملك إنكلترا هنري الثامن عن روما في كانون الثاني 1533، وهو الذي حكم بعقوبة الموت عام 1535 على طوماس مور الذي رفض الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية.

وفي عام 1536 نشر كالفن(***) الطبعة اللاتينية لـ«المؤسسة المسيحية»، مما أدى إلى موجة عارمة من الروحانية عمّت جميع أرجاء إسبانيا الكاثوليكية وإلى انفصال الكثيرين عن روما. لاحقاً، برزت قضية الملصقات الجدارية (l'affaire des placards) في تشرين الأول 1534 التي زرعت التشويش والحيرة في جميع أرجاء باريس، مما أدى إلى وقوع اضطرابات دامية استمرت ردحاً من الزمن. أصدر الملك فرانسوا الأول مرسوماً عام 1535 أمر فيه بالقضاء على النزعة اللوثرية، والجدير بالذكر أنه في ليل 17–18 تشرين الأول 1534 استفاق المواطنون في باريس وأمبواز على ملصقات تهاجم العقيدة الكاثوليكية ورموزها، حتى قيل إن بعضها وجد ملصقاً على باب غرفة نوم ملك فرنسا.

في عام 1534 تمّ انتخاب البابا بولس الثالث الذي سارع إلى تعيين لجنة بغية درس الإصلاحات اللازمة. منذ نهاية أعمال مجمع لاتران الديني في العام 1517، اتخذت عدة إجراءات من أجل إعادة تقييم أوضاع الكنيسة الكاثوليكية السيئة. لكنه تمّ القضاء على محاولات الاصلاح بسبب سوء إدارة مختلف أجهزة الكرسي الرسولي، إضافة إلى

(*) أوكسبورغ: مدينة في المانيا عُقد فيها مؤتمر حدد أسس الحركة اللوثرية في عام 1530.

(**) اللوثرية: حركة دينية اصلاحية تابعة لمارتن لوثر الألماني الأصل وعالم اللاهوت الذي ادانته روما عام 1520.

(***) كالفن: جان كالفن اصلاحي فرنسي داعم لأفكار لوثر، استقر في مدينة جنيف محاولاً أن يجعل منها مركزاً لنظام متشدد.

Riyad Nasser Library

الخلافات بين الأمراء والكنيسة، والتنافس المستمر والعقيم بين كبار رجال الدين، مما أدى إلى فقدان الثقة بالكنيسة.

في مثل هذه الأجواء المحمومة، تصدت مجموعة مونمارتر للواقع الأليم، وفي 25 آذار 1535 غادر أغناطيوس رفاقه من أجل إنهاء دروسه اللاهوتية، وانتظار وصول أعضاء مجموعته. وصل «الباريسيون» إلى البندقية في الثامن من كانون الثاني 1537، إضافة إلى ثلاثة رفاق جدد تمت رسامتهم كهنة في شهر حزيران، استعداداً للسفر إلى الأراضي المقدسة في فلسطين. ولكن ذلك لم يحصل خلال تلك السنة، ولم تغادر أية باخرة مرفأ البندقية نظراً لكون البحار غير آمنة في هذا الوقت؛ وتنفيذاً للنذر الذي قطعه هؤلاء الرفاق العشرة غادروا إلى روما من أجل وضع أنفسهم في تصرف الحبر الأعظم. قبل دخوله عاصمة الكثلكة، كانت كنيسة نوتردام دو لاستورتا الصغيرة، المحطة الأخيرة لأغناطيوس قبل روما، وفي هذا المكان يُقال إن السيدالمسيح عليه السلام ظهر له وطلب منه أن يخدمه. من هنا أتى اسم رفقة يسوع، وبقي هذا المعبد على (via Cassia) وجهة حج اليسوعيين... وفي الرابع من أيلول عام 1983، وفي هذا المكان بالذات، أعلن الجنرال اليسوعي بدرو أروبي وهو في حالة المرض الشديد عزمه على الاستقالة من منصبه، وهو الوعد الذي لم يستطع المحافظة عليه إذ كان النذر الرابع أي الطاعة العمياء للحبر الأعظم أهم وأقوى من كل شيء. بعد المداولات توزع الرفاق الأوائل إلى عدة مجموعات، كي لا يسافروا معاً، وتناقشوا في ما يقولون إن سُئلوا في روما عمن يكونون، وعندما لمسوا أن لا رئيس لهم إلا السيد المسيح، رأوا أنه من المستحسن أن يطلقوا على أنفسهم تسمية شركة أو رفقة يسوع.

فور وصول المجموعة إلى روما، تعرضت إلى أسوأ حملات التشهير، وكانت إشاعة الكفر أسرع من الهواء إذ سبقت قدوم أغناطيوس ورفاقه. بعد التغلب على هذه المحنة في كانون الأول 1538، حصلوا على إذن مقابلة البابا، ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه وأعربوا عن استعدادهم للذهاب إلى أية وجهة يختارها رئيس الكنيسة الكاثوليكية. أعجب البابا بتفاني هؤلاء الكهنة وطاعتهم، وكان في أمسّ الحاجة إلى هذا النوع من الإكليريكيين، فأوكل إليهم مهمة نشر التعليم المسيحي لدى أطفال روما، وعندما ذاع صيتهم بسرعة فائقة،

طالب شارلكان بإرسالهم إلى الهند الإسبانية وبولس الثالث إلى الهند البرتغالية. في هذا الوقت وردت ترشيحات جديدة، فعاد أعضاء المجموعة إلى الاجتماع والتداول، وقرّروا تسمية رئيس لهم والمحافظة على تسمية «جمعية يسوع سيدنا وإلهنا»، ودامت النقاشات من آذار إلى حزيران 1539. في هذا الوقت بالذات، انكب أغناطيوس على تحضير ملف يتعلق بمميزات الرهبانية اليسوعية، على الرغم من انتشار أعضاء المجموعة في سيينا، وبارما، وبلايزنس، ونابولي وبرشيا.

حدّد أغناطيوس في كتاباته، كأولويات، مساعدة الناس ونشر الإيمان بواسطة التبشير والأعمال الخيرية والتعليم المسيحي، والولاء والطاعة العمياء للأب الأقدس بولس الثالث ومن يخلفه على الكرسي الرسولي، دون تردد أو مماطلة أو اعتراض. نعم، لقد أوضح القديس أغناطيوس بصراحة تامة أنه سيذهب مع رفاقه إلى «الأتراك أو إلى العوالم الجديدة أو عند اللوثريين أو أي طرف مؤمناً كان أم كافراً». وفي الوقت الذي كانت فيه طريق القدس غير سالكة، فتحت أمام الرهبان اليسوعيين جميع طرقات العالم القديم والعالم الجديد، مما جعلهم يحوزون على ثقة بولس الثالث، وتمت الموافقة الرسمية الخطية على هيكلية الرهبانية في 27 أيلول 1540، عندما وقع البابا البراءة البابوية *(Regimini Militantis Ecclesiae)* أي ولادة الرهبانية اليسوعية.

كانت الكنيسة الكاثوليكية واقعة في تلك الأزمنة تحت سيطرة البابوات المتاجرين بالمقدسات، والأولاد غير الشرعيين المتخاصمين، والعشيقات الشرهات، إضافة إلى كرادلة أطفال في عمر الـ 12 سنة. في مثل هذه الظروف وُجدت هذه المجموعة المُرسلة ربما من العناية الإلهية، التي أنشأت الرهبانية اليسوعية، محاولة إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من براثن الخطأة ودعاة الرذيلة، وربما كان هذا هو التحدي الأكبر[5]. شارلكان أو شارل الخامس الذي تولى عام 1519 رأس الأمبراطورية المقدسة (Saint Empire) كان المنافس الأهم للملك الفرنسي فرنسوا الأول، وخاض ضده ثلاث حروب لكنه لم يتمكن من القضاء على الحركة البروتستانتية. وانتهى شارلكان بتوقيع معاهدة السلام في أوكسبورغ عام 1555 ثم تخلى عن السلطة في عام 1556، حيث عاش في عزلة تامة في دير يوست (Yuste).

Riyad Nasser Library

من جهتهم، لم يكن رفاق باريس العشرة، يعلمون بعد أن البعثة إلى القدس سوف تنتهي في روما، عندما اتفقوا على اللقاء بعد مرور سنة ونصف في البندقية تمهيداً للإبحار نحو الشرق. بين شهري نيسان وكانون الأول 1536 وأثناء إقامته في إسبانيا، انصرف أغناطيوس إلى التبشير والتعليم المسيحي في الوقت الذي توجه فيه رفاقه نحو مناطق الشامبانيا واللورين وسويسرا والتيرول في جولة إصلاحية، وذلك بين شهري تشرين الثاني 1536 وكانون الثاني 1537. وعند وصول دي لويولا إلى مدينة البندقية قبل رفاقه، التقى بعض الأصدقاء الإسبان وجند شاباً يدعى دييغو هوسيس، وأخذ يبشر ويساعد المرضى متابعاً دراسة عِلم اللاهوت عند الرهبان الدومينيكيين الذين استاؤوا منه إلى درجة أن ادعوا أن دمية تمثله، أحرقت في سلمنكة وباريس. في كانون الثاني 1537 لحق به فافر وكزافير ولينيث وغيرهم إلى البندقية قبل التوجه إلى روما من أجل الحصول على مباركة الحبر الأعظم قبل الإبحار إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، ولكنه تبين لاحقاً أنّ سيطرة الأتراك على منطقة البحر الأبيض المتوسط الشرقية كما ذكرنا وصولاً إلى أبواب الأدرياتيك جعلت من «الحلم الفلسطيني سراباً».

إزاء ذلك تحول الرفاق العشرة إلى ممرضين في مستشفيات مدينة البندقية التي كانت تزدحم بالمرضى على شفير الموت خصوصاً المصابين بمرض الطاعون. تبعثروا لاحقاً في مدن إيطاليا الشمالية حيث توفي من الإرهاق والمرض آخر المجندين دييغو هوسيس. لقد شاخ أغناطيوس وسط آلام جسدية مبرحة متأتية عن قرحة معوية ألزمته الفراش وجعلته يعيش في سعادة الأبرار بين سيل من الدموع، من جرّاء الانتقادات التي تسبب بها سيمون رودريغز في البرتغال، والتجاوزات التي قام بها بوباديلا، وممانعة تمركز اليسوعيين في فرنسا، والصراعات مع الأمبراطور شارلكان وصولاً إلى الخلاف بين الكرسي الرسولي والرهبانية اليسوعية مع انتخاب البابا الجديد بولس الرابع، وهو الكاردينال كارافا العدو اللدود للإسبان.

هكذا شارفت حياة أغناطيوس على نهايتها من دون أن يسمح لأي كان بالتحديق فيه، وهي قاعدة ضمن النظام اليسوعي الصارم، يذكّر بها وكيل أسراره دا كمارا كلما حاول إطالة

النظر والتدقيق في ملامح وجهه... وبدءاً من عام 1550 وأغناطيوس في وضع الاحتضار ولكنه في بداية عام 1556 استمر في الحياة في شكل عجائبي؛ وفي الثاني من شهر تموز تمّ نقله إلى مزرعة المعهد الروماني، ثم أعيد إلى مكان إقامته في روما في السابع والعشرين من الشهر نفسه. في 30 تموز طلب أغناطيوس من بولانكو إعلام الحبر الأعظم بدنو أجله، وفي الليل سمعه الأخ الممرض يتمتم «إلهي ... إلهي». في الصباح الباكر أسلم الروح من دون الحصول على «المشحة الأخيرة» تاركاً هذا العالم بطريقة عادية. دومينيك برتران[10] أطلق على علم المجتمع البشري وكيفية حُكم الرجال اسم Sociodoxie وعلى أغناطيوس لقب المهندس الاجتماعي. وهكذا طغت على الأب الرئيس الأول ملامح السياسة، وهو الذي أنشأ مؤسسة عظيمة ونافذة على صعيد الكرة الأرضية. في 31 تموز 1556، طويت صفحة الفارس الذي تحول إلى ناسك، والناسك إلى حاج، والحاج إلى معلم أرسل تلامذته إلى جميع أنحاء المعمورة.

Riyad Nassar Library

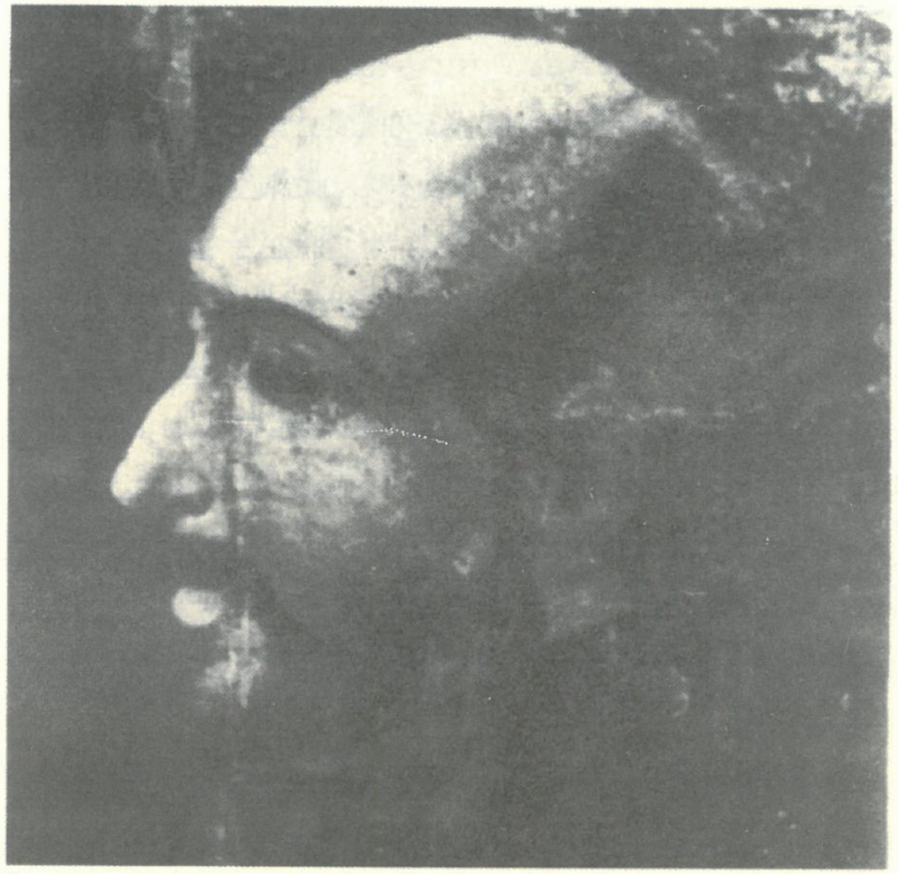

رسم أغناطيوس دي لويولا عائد إلى عام 1543

المنزل الذي ترعرع فيه أغناطيوس دي لويولا، الواقع قرب أثبيتيا

الفصل الثاني

اليسوعيون ونقاوة الدم

نشأت الرهبانية اليسوعية انطلاقاً من إسبانيا في القرن السادس عشر، في الوقت الذي أعلن فيه الملك فرديناند والملكة إيزابيل الكاثوليكيان عن شعارهما الشهير الموجّه إلى اليهود والمغاربة، أي المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة: العماد أو المنفى(*Bautismo o expulsion*). يعتقد المؤرخ الإسباني اليسوعي أوزيبيو راي أنّ «عملية 1492 الجراحية» كانت الحلّ الوحيد من أجل مقاومة خطر اليهود على العالم الكاثوليكي، إذ منذ نهاية القرن الرابع عشر كانت كنيسة إسبانيا قد تكاثرت فيها أعداد المهتدين الجُدُد. في الوقت الذي بدأ فيه الرهبان الفرنسيسيون مرحلة الإصلاح الكاثوليكية التي غيّرت وجه المسيحية الإسبانية، لم يتخلّ هؤلاء اليهود المعتنقون للديانة المسيحية عن معتقداتهم الدينية القديمة بعد مرور25 سنة على صدور مرسوم الملكين الكاثوليكيين.

المسيحيون الجُدُد الذين اعتنقوا المسيحية طوعاً أو بالإكراه، كانوا من اليهود المهتدين الكافرين (*marranes*)، الذين حاولوا إخفاء ولائهم لديانتهم الأولى تحت هدايتهم الشكلية. أما القسم الثاني فهم المهتدون الجُدُد (*conversos*) الذين اهتدوا قلباً وقالباً إلى المسيحية الكاثوليكية، وما لبثوا أن لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الرهبانية اليسوعية وتاريخ إسبانيا. مع حلول العام 1530 كان ثلث معتنقي المسيحية في إسبانيا من أصل يهودي، وفي هذا الجو

Riyad Nassar Library

هرب أغناطيوس من بمبلونه وسلّم نفسه إلى المحكمة الكنسية بعد ملاحقته من «شرطة الإيمان». بعدئذٍ، تمّ سجنه لبعض الوقت، إذ كانت محاكم التفتيش تتربص بكل من يتجرأ على التفوّه بأمور قد تعتبر كفراً، موجِهَة سهامها إلى هؤلاء المسيحيين الجُدُد.

شدّد الأب أوزيبيو راي على أهمية انخراط هؤلاء في الرهبانيات الكاثوليكية وفي الهرمية الكهنوتية، لأنه رأى لهذا الانخراط أسباباً اجتماعية، خصوصاً وأنهم كانوا يجدون داخل الرهبانيات الكاثوليكية ملاذاً آمناً في مجتمع كثير الحساسية تجاه نقاوة الدم (*Limpiezia de sangre*). القرار الملكي لعام 1492 نقل النقاش من الحقل الديني إلى الحقل العرقي ووضع أسس إستراتيجية التطهير، وإنه بدل أن يوحّد المجتمع الإسباني، قسّمه إلى فئتين: الأنقياء وغير الأنقياء، يميزهما مبدأ نقاوة الدم الذي نشر عام 1547 على يد المونسينيور مارتينيز سيليسايو رئيس أساقفة توليدو. كانت عملية التطهير هذه تتم على ثلاث مراحل: التفريق، ثم العزل، وأخيراً النفي أو الموت، مما حرّض محاكم التفتيش على ملاحقة المهتدين الكافرين، والقضاء عليهم في جو يسوده الشك والتخوين[11].

إن أغناطيوس الذي مثل أمام محاكم التفتيش في مدينة ألكلا ردّ على سؤال أحد القضاة إذا كان يتبع تقاليد السبت مع أتباعه، قائلاً بحدة: إنه ليس على علم بالسبت لأن البلاد التي يتحدر منها لا تعرف أي شيء عن اليهود، مما يدل على الجو المعادي لهم السائد في إسبانيا الكاثوليكية في ذلك الوقت. يعتقد بعض المؤرخين أن عائلة دي لويولا ارتبطت بالزواج مع عائلات يهودية، وهم يلمحون باحتمال كون دي لويولا يهودياً، والمؤرخ الألماني يورغ لومر يتحدث عن لويولا باعتباره نصف يهودي، ولكن من المؤكد أن أغناطيوس أصرّ على استقبال العبرانيين ومَنَع حظر دخولهم إلى الكنيسة الإسبانية مذكراً بالأصول اليهودية للديانة المسيحية .

دافع الأب ماركوريان الخلف الثالث لأغناطيوس من خلال قناعاته عن الأب الرئيس الأول للرهبانية اليسوعية وترداده أمام الجميع أنه سوف يكون ممتناً لله تعالى لو أنه تحدّر من أصل يهودي. دافع دي لويولا أيضاً عن اليهود في تلك الفترة التي تمّ فيها اضطهادهم كما المسلمين من طرف المسيحية الكاثوليكية، والظلم الذي لحق بهم جرّاء المرسوم

الملكي الصادر عام 1492 عن فرديناند وإيزابيل. في هذا الشأن اتخذ أغناطيوس قراراً يقضي بتأسيس منظمة تسهّل اعتناق اليهود الديانة المسيحية، وقراراً آخر يقضي بقبول جميع طلبات الانتساب إلى الرهبانية اليسوعية من طرف المسيحيين الجدد دون استثناء أو تمييز. تجاهل أغناطيوس في هذا الشكل ردّات فعل باقي الرفاق أو الحبر الأعظم، على مثال بولس الرابع المناهض «للسامية»، أو أي بلاط ملكي كما أي هرمية كاثوليكية إسبانية.

عملية اهتداء اليهود إلى المسيحية موضوع كثير الحساسية لا يمكن التطرق إليه بخفة، إذا حاولنا أن نعرف حقيقة مشاعر اليهود الرافضة ضمنياً وقلبياً الاهتداء إلى المسيحية، مما جعل أحفاد ابراهيم يعتنقون مبادىء ديانة وكنيسة مهرطقة في نظرهم، وكانت سبب آلامهم وشقائهم. في هذه الأجواء، حاول أغناطيوس جاهداً إقناع الحبر الأعظم بتسهيل عملية الاندماج الاجتماعية والاقتصادية للمسيحيين الجُدُد على الرغم من معارضة بعض أتباعه، كما الكنيسة في روما. هنا، انتفض الأب الرئيس الأول على ظلامية مرسوم 1492 ومفاعيله، وعلى الغبن اللاحق بالمهتدين الجُدُد واضعاً قاعدة أساسية لقبول الانتسابات إلى الرهبانية اليسوعية وهي عدم وجود أي عائق يتعلق بأصول طالبي الانتساب. كان أغناطيوس ربما، على بيّنة من أصول ديغو لينيث اليهودية منذ مرحلة مونتمارتر، وهو الذي كان أول من خلفه على رأس الرهبانية اليسوعية.

من الضروري التساؤل هنا، هل أخذ أغناطيوس في عين الاعتبار أصول خوان بولانكو أو خوان دي أفيلا أو فرانشيسكو دي توليدو أو خوان باتيستا رومانو أو غيرها من الأسماء المثيرة للجدل، وهي أسماء توحي هكذا باعتناق المسيحية منذ فترة قصيرة. لقد أتى موقف أغناطيوس في هذا الشأن جريئاً إذ كان يعلم أنه يشكل عليه وعلى مؤسسته الناشئة خطراً جسيماً وإمكانية استعداء الهرمية الإكليريكية وبلاط قشطالة كما بلاط البرتغال.

أما أشد الذين حاربوا أغناطيوس بسبب ميوله اليهودية فكان رئيس أساقفة توليدو الذي حاول الضغط عليه من أجل رفض دعوات المسيحيين الجُدُد وعدم قبول أي انتساب منهم إلى الرهبانية اليسوعية، ولكن محاولته باءت بالفشل. كذلك الأمر بالنسبة إلى بلاط إسبانيا، وأهم رجل مقرّب من ملك إسبانيا دون روي غوميز دا سيلفا الذي أجابه أغناطيوس قائلاً:

Riyad Nassar Library

«إن الرهبانية اليسوعية لا يمكن ولا يجب أن تستثني أحداً». هكذا، عمل أغناطيوس وأعوانه على هداية اليهود ودمجهم في المجتمعات المسيحية ونجح في إقناع الحبر الأعظم بولس الثالث في إصدار البراءة البابوية *cupientes judaeos* في آذار 1542 التي نصّت على أن اليهود الذين يعتنقون الديانة المسيحية يستطيعون المحافظة على جميع ثرواتهم وممتلكاتهم. وقد لحظت هذه البراءة البابوية أيضاً أن الأولاد اليهود الذين يهتدون إلى المسيحية رغماً عن إرادة أهلهم يرثون كما لو أنهم ما زالوا يهوداً.

يقول المؤرخ هرقل رازييل (Hercule Rasiel) إنّ «هذه الإجراءات نجحت في تحويل بعض اليهود من الكنيس إلى الكنيسة، ولكنها فشلت في هدايتهم. تسرّعت الكنيسة الكاثوليكية في الإعلان عن انتصارات عظيمة ولكن وهمية، مكتفية بالقشور دون الغوص في الحقائق والوقائع». ولكن الهجوم الصاعق أتى من أحد مقرّبيه أنطونيو أرأوز الذي شنّ حملة شعواء ضد التحاق المهتدين الجُدُد بصفوف الرهبانية اليسوعية، وهو الذي كان الأكثر تعصباً ضد اليهود، مهاجماً، دون هوادة، المتحدرين من أصل يهودي في الرهبانية اليسوعية أي لينيث وبولانكو خصوصاً.

إن القبول باليهود لم يكن ليلقى في تلك الأيام رضا السلطات الإسبانية، كما البابوية، مع أنّ الكرسي الرسولي كان قد أظهر في بعض الأوقات نحو اليهود مشاعر إنسانية عندما سمح باستقبال المبعدين والمنفيين منهم في روما وأفينيون. تجدر الإشارة إلى أن البابا إسكندر السادس المولود من عائلة بورجيا الإسبانية أطلق على فرديناند وإيزابيل لقب «الملكين الأكثر كاثوليكية» تحية منه إليهما على قرار أصدراه عام 1492 والذي أكد ضرورة تحوّل اليهود والمسلمين إلى المسيحية تحت طائلة العقوبات الصارمة. ثم أتى البابا بولس الرابع الذي كان يتحدر من مدينة نابولي في إيطاليا، والمناهض بشدة للإسبان بحيث أنه كان يشتمهم قائلاً: «إنهم حثالة من بقايا المغاربة واليهود». هذه هي نقطة الخلاف الكبرى بين بولس الرابع وأغناطيوس، بولس الرابع (كارافا)، هذا الذي جعل منه الكرادلة في روما خليفة بطرس على عرش روما.

كان عدد المهتدين الجُدُد في قرطبة كبيراً، وكانت تحكم المدينة عائلة الكونت دو

بريبغو النافذة التي منحت الرهبانية اليسوعية هبات كثيرة بواسطة الكونتيسة دي بريبغو. هذا الأمر جعل هذه الأخيرة تعتقد أنه بإمكانها الطلب من الأب الرئيس منع انتساب المهتدين الجُدُد من أصل يهودي إلى رهبانيته، يدعمها الرئيس الإقليمي للرهبانية والأب أرأوز. إن الرسالة التي وجهها رئيس معهد قرطبة إلى ثاني خلف لأغناطيوس الأب فرنسوا دي بورجيا خير معبّر عن الوضع القائم عندما قال إن مؤسسته تضم أكثر من 600 طالب كلهم من النبلاء ولا أحد أعرب عن نيته في الالتحاق باليسوعيين. أضاف رئيس معهد قرطبة: إن «الذين عندهم الدعوة يلتحقون بدير سان بابلو التابع للرهبان الدومينيكيين، بينما في معهدنا، اليهود وحدهم يلتحقون بالرهبانية اليسوعية، وإذا التحق أحد الشجعان على الرغم من ذلك يُنظر إليه وكأنه يرتدي الثوب الأصفر الذي يوجد عليه من الجهتين الأمامية والخلفية صليب القديس أندريه، الذي يعني ارتكاب جريمة خطيرة».

فوق باب إحدى الغرف الثلاث في شارع الروح القدس (borgo Santo Spirito ,4) وحيث يعيش الرئيس العام للرهبانية اليسوعية، توجد صورة دييغو لينيث خلف أغناطيوس الذي حاول خلال تسع سنوات (1556–1565) إثبات أن وفاة دي لويولا لا تعني إطلاقاً موت الرهبانية اليسوعية. لينيث هو من عظماء الرجال الذين لم تكرمهم روما، ربما بسبب أصوله اليهودية التي تسببت بنقاشات حادة بين مؤرخي اليسوعية، وبالتخوف من الإساءة إلى الرهبانية في حال ظهرت هذه الحقيقة إلى العلن. ففي عائلة لينيث يوجد ثلاثة كهنة وراهبة، مما يلقي بعض الضوء على إسبانيا في القرن السادس عشر، بعد مضي عشرات السنين على إعلان مرسوم عام 1492.

في العام 1908 قال الأب بالاسان واستناداً إلى الأب أنطونيو أسترين[12]: إن «اهتداء أفراد عائلة لينيث إلى المسيحية تعود إلى أربعة أجيال». أما المؤرخ الإيطالي المعروف تاتشي فنتوري فإنه يلوم بدرو دي ريبادينيرا لأنه لم يتجرأ كمؤرخ على أن يتطرّق صراحة إلى موضوع حساس كهذا، وهو الذي عاصر الأب المؤسس أغناطيوس ومن بعده لينيث. ولكن أفضل برهان على يهودية هذا الأخير الغضب العارم في بلاط إسبانيا وفي أسقفية توليدو بعد انتخابه رئيساً عاماً للرهبانية اليسوعية وإعلان أصوله اليهودية على الملأ، مما أثار فضيحة

Riyad Nassar Library

كبرى بعد نصف قرن على موته. وخلال عاميّ 1614 و 1622 على التوالي، نشر في أنفيرس أول جزءين من «تاريخ اليسوعيين» الذي كان قد عُهد بكتابته قبل عشرين سنة إلى الأب أورلنديني الذي استلم هذه المهمة بعد وفاته وأكملها من بعده، أستاذ التاريخ في المعهد الروماني الأب باولو ساشيني الذي عُرف العمل باسمه. إلتحق هذا الأخير بالرهبانية بعد مرور خمس سنوات على وفاة لينيث أي عام 1570 واستمع إلى رفاقه وخصوصاً ريبادينيرا الذي كان قد ورث عن أغناطيوس نظرة إيجابية إلى الموضوع اليهودي المسيحي. لذلك تفاجأ ساشيني بالعاصفة التي أثارها كتابه في إسبانيا خصوصاً في الأندلس وتوليدو، وسيل الاعتراضات التي تلت نشره، مطالبة بحذف المقاطع المتعلقة بأصول لينيث اليهودية.

طلبت مقاطعة توليدو تصحيح النسخة الأولى المعيبة وأعادت التركيز في النسخة الثانية على طهارة سلالة الأب لينيث ونبلها، فجاء رد باولو ساشيني على آباء توليدو مشدداً على احترام التفاصيل التاريخية وأهمية نقلها بكل مصداقية، خصوصاً أنّ المؤرخ أب يسوعي، معرباً عن فخر الرهبانية اليسوعية واعتزازها بالأب الرئيس لينيث رفيق ووريث أغناطيوس دي لويولا. من جهته الأب فليتشيانو سيريسيدا حاول تبرير إعلان الآباء اليسوعيين في توليدو عام 1622 بالاشمئزاز الذي أعرب عنه بلاط فيليب الثاني ملك إسبانيا بعد انتخاب لينيث.

لكنّ الجنرال السادس لليسوعيين الإيطالي موتزيو فيتليتشي، ومن أجل تهدئة خواطر الآباء اليسوعيين في توليدو، ونظراً للصعوبات والمشاكل العرقية التي كانت تعصف بإسبانيا في تلك الفترة، طلب حذف جميع المعلومات المتعلقة بأول خلف لأغناطيوس. كل هذه الحلقة من الخلافات والاضطرابات أدت إلى اعتماد نقاوة الدم بعد أعمال مؤتمر الرهبانية اليسوعية عام 1593. ويمكن للمراقبين الرجوع إلى العقلية والأوضاع المظلمة السائدة يومها من أجل تبرير لجوء الرهبانية إلى نقاوة الدم عام 1593، ولكن هذا لا يفسر انزلاق اليسوعيين يومها إلى هذا القعر. طوال أكثر من 25 سنة تصدت اليسوعية إلى هذا الهاجس القومي الإسباني، ولكن في النهاية انتصرت نقاوة الدم على ما عداها، كما فعلت عند باقي الرهبانيات الكاثوليكية. ولكن هذه المرة انتقلت العدوى من البرتغال إلى إسبانيا التي عاد

اليها فيروس الإقصاء، عندما كتب بلاط لشبونة إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر عام 1573 محذراً من احتمال انتخاب بولانكو على رأس الرهبانية اليسوعية، مما قد يؤدي مع انتخاب أشخاص ينتمون إلى هذا العرق من تدمير الرهبانية.

فبولانكو، هو ثاني كبار اليهود في الرهبانية اليسوعية، ثم خوان دي أفيلا وفرنشيسكو دي توليدو، لكنّ دخول المسيحيين الجُدُد أي الذين هم من أصول يهودية أو إسلامية إلى الرهبانية اليسوعية خلق جواً من القلق والحذر، مما أسهم إلى حد بعيد في إصدار المرسوم رقم 52 عام 1593 والقاضي بإقصاء جميع المتحدرين من أصل يهودي أو إسلامي عن الرهبانية اليسوعية. هكذا تمّت هزيمة أغناطيوس وأفكاره بعد مماته عام 1593 عندما أقرت الرهبانية اليسوعية أو بالأحرى فرعاها الإسباني والبرتغالي مبدأ نقاوة الدم من دون اعتبار أي استثناء، وكانت هزيمة دي لويولا على أيدي «أولاده» وأتباعه. ارتفع صوت ريبادينيرا مستهجناً وداعياً إلى احترام أراء أغناطيوس، موجهاً مذكرة من اثنتي عشرة نقطة إلى الأب الرئيس أكوافيفا مصرّاً فيها على عدم تغيير شروط الانتساب، خصوصاً أنّ «المسيحيين الجُدُد الذين اعتنقوا الديانة المسيحية الكاثوليكية لم يتسببوا لها بأي ضرر أو إساءة»، مع الإشارة إلى أنّ هذه الشروط الجديدة تتعارض مع شرف الرهبانية اليسوعية والأمة الإسبانية. إن قرار الاستثناء العائد إلى عام 1593 حمل في طياته مساوىء كثيرة إضافة إلى انخفاض عدد الدعوات الجديدة كما تدني الانتسابات على الرغم من ملاحقات ريبادينيرا الذي أصبح مسناً، ولم يجد أكوافيفا مخرجاً إلّا بإصدار المرسوم رقم 28 في عام 1608 الذي أبقى على استثناء المسلمين واليهود، ما عدا الذين يتحدرون من «عائلة شريفة» أو يتمتعون بـ«صيت حسن».

إن هذا المرسوم المداور والخبيث والباطني، مع أنه أفضل من مرسوم 1593 بكثير أعاد فتح الأبواب أمام المهتدين الجدد، خصوصاً وأنّ الكثيرين منهم كان باستطاعتهم البرهان أنّ اعتناق عائلاتهم المسيحية يعود إلى أيام صدور مرسوم فرديناند وإيزابيل عام 1492 أي إلى خمسة أجيال مضت. ويمكننا هنا تلخيص هذه الحقبة بصراع اليسوعيين الأسبان ضد دي لويولا، لأنه من المعروف أنّ العلاقات بين اليسوعيين واليهود مرّت بفترة صراعات وخلافات تلتها اضطهادات متعددة.

Riyad Nassar Library

منذ أكثر من 45 سنة أدلى آباء المجمع الفاتيكاني الثاني بتصريح «حول علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية» من خلال الوثيقة (*Nostra aetate*) التي تحمل في طيّاتها الكثير من المعاني والدلالات، بحيث كانت هذه الخطوة تعبيراً عن أولى بوادر التقدير والاحترام للديانات غير المسيحية من طرف الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. في هذا الإطار، يقول الأب سليم دكاش اليسوعي[13]: إن الدافع هو «تعزيز الوحدة والمحبة بين الناس لا بل بين الأمم». إن الكنيسة تعتبر البشر عائلة واحدة وهي «لا ترذل شيئاً مما هو حق مقدس في هذه الديانات» على الرغم من الاختلافات الأساسية في المعتقدات الإيمانية.

إن المقطع الرابع في هذه الوثيقة يتطرق إلى علاقة المسيحية باليهودية، أما المقطع الخامس فهو يؤكد على أن «الأخوة الشاملة تنفي كل تفرقة أو تمييز... على أساس العرق أو اللون أو الانتماء الديني». كما أنّ هذا التصريح المجمعي عندما يتحدث عن أتباع الديانات الأخرى، فإنه «للمرة الأولى، لا ينعتهم بالهراطقة والمارقين بل يعتبرهم شركاء في المصير الواحد، أي مصير البشرية». كذلك فإنّ الأب الرئيس العام المستقيل بيتر هانس كولفنباخ[14] يشدّد على أهمية الحوار بين الأديان السماوية قائلاً: «إلّا أن الكنيسة تؤمن بالحوار، كما أنّ قداسة البابا قد أكّد أن الحوار هو روحانية الألفية الثالثة».

في كتاب صدر عن دارالفارابي عام 2012 تحت عنوان: «نور العالم» يتحدث الحبر الأعظم بنيديكتوس السادس عشر[15] إلى الصحافي الشاب بيتر سيفالد في قصر «كاستل غوندولفو» مقر الباباوات الصيفي، عن أهم الأمور المطروحة حالياً، من العصمة البابوية وتطور مفهومها عبر القرون، إلى قضايا الاعتداءات الجنسية التي لوثت سمعة الكنيسة الكاثوليكية. يقول الصحافي الشاب: «لم يُحيِّ أحد بقوة انتخابك الرئاسي المئتين والخامس والستين كما حيّته المنظمات اليهودية... عندما أصبحت بابا دعوتَ حاخاماً إلى التكلم أمام سينودوس الأساقفة، وأوقفتَ تطويب كاهن فرنسي نُسبت إليه تصريحات معادية للسامية... صحيفة (Süddeutsche Zeitung) تقول: أقرّ قداسة البابا بنيديكتوس السادس عشر أن اليهودية مصدر الديانة المسيحية، إعلان لم يتفوه به أي بابا قبله». يجيب الحبر الأعظم قائلاً: «بالتأكيد. عليّ أن أقول إنّه منذ اليوم الأول لبدء دروسي في اللاهوت عن

الوحدة الجوهريّة للعهد القديم والعهد الجديد، أي الجزءيْن اللذين يؤلّفان كتابنا المقدّس، فهمت أنّه لا يمكننا قراءة العهد الجديد إلّا مع قراءة العهد الذي سبقه، وإلّا استحال علينا فهمه. من ثمّ، تأثرنا بالطبع كألمانيّين بما أصابنا في عهد الرايخ الثالث، فألزمنا أنفسنا أوّلاً أن ننظر إلى الشعب الإسرائيليّ بتواضع وخجل ومحبّة». هل هذا يعني أن الباباويّة عادت واعتمدت بعد مرور ما يقارب الخمسماية سنة، نظرية القديس أغناطيوس ورفضه لمبدأ نقاوة الدم؟ وهل هذا يعني أيضاً انفتاح كنيسة الألفية الثالثة على الإسلام واليهودية، والنظرة إلى أتباعهما كشركاء أساسيين في الإيمان الحقيقي بالله الواحد الذي لا شريك له؟ إنها ولا شك أهم خطوة إيجابية على طريق الحوار بين الثقافات والأديان، والسبيل الأنجح من أجل تفادي موبئات التعصب والكراهية والحروب الدينية.

Riyad Nassar Library

بيار فافر من أوائل رفاق أغناطيوس دي لويولا

دييغو لاينيث أول جنرال يسوعي بعد دي لويولا

Riyad Nassar Library

الفصل الثالث

دكاترة باريس

يدعي بعضهم أن الرهبانية اليسوعية كانت تتألف من ميليشيا عدادها جنود أفظاظ، أي نوع من الكوماندو البابوي يديره جنرال شبه عسكري يهاجم ويقمع الحركة الإصلاحية داخل الكنيسة الكاثوليكية. ويعتقد بعضهم الآخر أنّ هذه المجموعة من الرفاق الأوائل كانت تشكل بكل بساطة أخوية مؤلفة من تلامذة متنورين، في الوقت الذي كانت فيه باريس فرنسوا الأول المهد الثقافي للغرب. يقول المؤرخ اليسوعي الأب فوكورايه[16] يقول في بدايات القرن العشرين إن هذه «المجموعة التأسيسية عرفت كيف تبرهن أنها وليدة عصرها، وشدّدت على الاعتراف بأهمية الدراسات الأدبية والعلمية». يجب التركيز هنا على أنّ الرجال الستة الذين اجتمعوا حول شخص دي لويولا وأعلنوا عن نذورهم في كنيسة مونمارتر بتاريخ 15 آب 1534 كانوا من رجال الفكر الذين استحصلوا قبل كل شيء على ثقافة فلسفية وأدبية[17].

حصل هذا اللقاء بين نوابغ من قشطالة والنافارا والسافوا وبلاد الباسك والبرتغال في باريس عاصمة الغرب الثقافية بسبب فرض الدراسة الجبرية على هذه المجموعة من طرف محاكم التفتيش قبل الحصول على إذن رسمي في مناقشة الآخرين ومخاطبتهم في الأمور اللاهوتية. أسهم هذا الأمر في تنشئة «دكاترة باريس» الذين تركوا بصماتهم الخيّرة على تاريخ المسيحية الديني وعلى تاريخ البشرية العلمي والثقافي والتربوي. في هذه الحقبة

الزمنية الإشعاعية أنشأ الملك الفرنسي فرنسوا الأول «معهد اللغات الثلاث» أي اليونانية واللاتينية والعبرية، الذي أصبح لاحقاً «الكوليج دو فرانس» المرموق عام 1530. لكن الحركة الإصلاحية التي عُرفت تحت اسم «الرينيسانس» أو عصر النهضة انتشرت بسرعة فائقة في فرنسا على عكس إيطاليا وإنكلترا وهولندا وألمانيا ورينانيا.

إن رفاق مونمارتر الذين قصدوا باريس في تلك الفترة بحثاً عن المعرفة، تتلمذوا على أفكار كبار الأساتذة من أمثال القديس توما الأكويني الراهب الدومينيكي وعالِم اللاهوت الذي دعا إلى التوافق بين الإيمان والعقل (1225–1274)، وجان جيرسون (1363–1429) الفيلسوف المتصّوف، وعالِم اللاهوت الفرنسي الذي أسهم في وضع حد للانشقاق الكبير، وساعد على انعقاد مجمع كونستانس المسكوني(*)، وجورج بوكانن (1506–1582) الإسكتلندي الذي نادى «بالملكية المحدودة» وغيليوم بوستال (1510–1581) الذي كان في عداد البعثة الدبلوماسية التي أرسلها فرنسوا الأول إلى القسطنطينية والذي نادى بالمصالحة مع الأتراك والمسلمين، مما أدى إلى سجنه من قبل محاكم التفتيش.

يقول الأب فوكوراي: «بعد اراسموس أعلنت مجموعة من البحاثة أنّ دراسة الآداب العائدة إلى العصور القديمة سوف تجعل الإنسان أكثر تمدناً وأكثر إنسانية. هكذا نشأ تيار فكري هدّد في تقاليده الجديدة جامعة باريس القديمة، وكان بالإمكان ملاحظة وجود أنسنة مسيحية، وهي كناية عن مذهب فكري يُعنى بتنمية مناقب الإنسان، ولكننا وجدنا أنفسنا أمام أنسنة خلاعية فاجرة عملت على إشاعة النقد الفقهي أو الفلسفي». لقد قوّض هذا التيار الفكري الجديد ركائز السلطة ودعا إلى التحرر الفكري وفَسّر بطريقة جريئة ووقحة تعاليم الكنيسة والآباء، وجَعل المؤسسات والعقيدة موضع السخرية.

عام 1982، أكّد الأب اليسوعي الألماني يورغ شورهامر[18] على أن اراسموس قوّض سلطة الكنيسة وأساء بقوة إلى الإيمان المسيحي والهيكلية الكنسية، وقد تضاربت في شأن اراسموس أقوال الآباء اليسوعيين إذ إن الأب جوزف لوكلير[19] أشاد به مطولاً في مقالة كتبها عام 1950 في «مجلة علم اللاهوت الجديدة» قائلاً بأنه خدم مصالح الديانة المسيحية العليا،

(*) مجمع كونستانس: مجمع مسكوني انعقد بين 1414 – 1418 ووضع حدّاً للانشقاق الكبير في الغرب.

ونادى بالتسامح والإحسان وإصلاح العادات. ولكن اراسموس لم يتفرّد وحده بهذه الآراء عندما نرى نيكولا بوباديلا مثلاً، من أوائل رفاق اغناطيوس يقول: «إنه في هذه الحقبة التي بدأت فيها الهرطقة اللوثرية تنتشر في باريس، فكل من يعمل على دراسة اللغة اليونانية القديمة يساعد على تفشي الحركة والأفكار اللوثرية»، علماً أنّ أول رفيق لأغناطيوس بيار فافر كان من أكبر المجّندين في سبيل تعليم اللغة اليونانية، وأسهم في ترجمات متعددة لكتابات في هذه اللغة كان لها كبير الفائدة من جميع النواحي. لكن الحرية التي منحها فرنسوا الأول لرجال الفكر ساعدت في انتشار الأفكار المناوئة للكنيسة الكاثوليكية عندما انبرى لويس دي بيركان الدكتور في علم اللاهوت وصديق اراسموس الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية الكثير من مؤلفاته، لإشاعة النصوص الإصلاحية وإعلان نفسه من الحركة اللوثرية، مما أغضب جامعة السوربون وجعلها تطالب بإحراقه. الملك فرانسوا الأول نجح في إنقاذه للمرة الثانية قبل التخلي عنه وتسليمه إلى قاضي محكمة التفتيش نويل بيدا الذي لم يكن يرحم، والذي بعد محاكمته سلمه إلى المحرقة، التي كان قد سبقه إليها الكثيرون.

هكذا انتهت حقبة القرون الوسطى، على توقد نار المحارق وسط الخلافات العقائدية في مدينة باريس في أوج النهضة التجارية والهندسية والتوسع الديموغرافي، والحرب شبه المستديمة بين الملك فرنسوا الأول والأمبراطور شارلكان.(*) ولكن الكاثوليكية بقيت سيّدة الموقف خلال تلك الفترة حيث كانت تواجه شتّى أنواع الضغوطات، جراء الدعم الذي قدمه لها الملك الفرنسي على الرغم من اتهامه بالتراخي أمام الهراطقة.

عندما دخل أغناطيوس مدينة باريس في 2 شباط 1528 من بوابة القديس يعقوب، كان يركب حماراً محملاً بالكتب كما فعل قبل ثلاثين شهراً بيار فافر وفرانسوا كزافير. لم يشر المؤرخون إلى مسار أغناطيوس من برشلونة إلى باريس، ولكنه قطع الأراضي الفرنسية، في قمة عدائها للأمبراطور شارلكان في وقت كانت المملكة الفرنسية تعاني الفقر إضافة إلى أوقات صعبة جراء الحرب. حطّ أغناطيوس رحاله في شارع سان سامفوريان الملقب

(*) شارلكان: أو شارل الخامس الأمبراطور الجرماني وملك إسبانيا (1519–1556) الذي لم يتوصل إلى هزيمة البروتستانتية وأرغم على التوقيع على معاهدة أوكسبورغ عام 1555 .

Riyad Nassar Library

بـ«شارع الكلاب» حيث يقع معهد مونتيغو، وكانت باريس يومها مقسمة إلى ثلاثة أقسام من الجنوب إلى الشمال، بين الجامعة مركز المعرفة، والحاضرة موقع السلطات، والمدينة مركز التجارة.

عندما نتكلم عن الجامعة في باريس، نخص بالذكر الحي اللاتيني ملتقى الثقافات والعلوم والمعارف، إذ سارع أغناطيوس إلى تسجيل نفسه في معهد مونتيغو، في حين أنّ جامعة باريس كانت بمثابة جمهورية من الأساتذة الذين يعملون في أربع كليات متخصصة في اللاهوت والطب والقانون والفنون الجميلة. ففي كنيسة سان جوليان الفقير كان يتم انتخاب رئيس الجامعة من قبل الأساتذة ويصبح هكذا مطاعاً من الهرمية التعليمية ومن التلامذة على السواء كما يطاع الملك، أي دون منازع. أما بالنسبة إلى الدراسة، فلقد اختار أغناطيوس كما سائر رفاقه فرع الفنون، والتزموا التزاماً كاملاً بالقوانين المرعية الإجراء، في الوقت الذي كان فيه القصاص الجسدي صارماً وقاسياً، مع أنه فقد الكثير من وحشيته مع انتهاء حقبة القرون الوسطى.

لقد أتى المؤرخون على ذكر صراخ الأطفال الذين يتعرضون للعذابات الجسدية، أو للهيب السياط لأنهم تكلموا الفرنسية عوض اللاتينية، لكنّ أغناطيوس الذي تأثر كثيراً بهذه الطرق التربوية اللاإنسانية، حاول انتهاج طريقة جديدة، ولكنه وجد نفسه في مواجهة نويل بيدا في أواخر شهر شباط 1528 الذي اختص بإرسال الهراطقة إلى المحارق، بعد تسلمه إدارة معهد مونتيغو.

وجد أغناطيوس نفسه في هذا المعهد وليس في معهد القديسة بربارة حيث كان يدرس بيار فافر وفرنسوا كزافير، لأنه لم يكن لديه الإمكانيات المادية اللازمة والمؤهلات الكافية، مما اضطره للدراسة مع الشباب الأصغر سناً ومع الفقراء، وشارك في تقاسم الإهانات اللاحقة بهم، علماً أنه كان في الأربعين من العمر. يُذكر أنّ سلسلة من الأمور والأحداث الأخرى خلقت الاضطرابات المتنوعة في حياته، عندما عهد بكل ما كان يملك من مال (25 إكو)(*) إلى أحد رفاقه من التابعية الإسبانية الذي بدّد هذا المال، مما جعل أغناطيوس يعود إلى الاستعطاء مهملاً دروسه.

(*) إكو: عملة فرنسية ذهبية ثم فضية في تلك الأزمنة.

وهو على هذه الحالة المزرية ذهب مضطراً إلى منطقة الفلاندر التي كانت خاضعة وقتها إلى التاج الإسباني، بحثاً عن مساعدة التجار الإسبان الأغنياء في أنفرس وبروج، ثم في لندن، من أجل تأمين دراسته وإقامته وإعالته في باريس. ومع بداية عام 1529 حصلت حادثة غريبة في الحي اللاتيني في باريس، عندما اختفى فجأة عن الأنظار ثلاثة طلاب إسبان من اللامعين في دراستهم، الأمر الذي حرّك الجالية الإسبانية المقيمة في بلد أجنبي معاد، أي في باريس. وعندما تمّ العثور عليهم في مستشفى القديس يعقوب حيث انعزلوا عن العالم ونذروا الفقر، اقتحم الطلاب الإسبان أبواب المستشفى وأعادوهم بالقوة إلى معهد القديسة بربارة. وعند سؤالهم عن هوية المسؤول عن عملهم وعن الفضيحة التي حصلت أشاروا إلى أغناطيوس، مما أثار ضدّ هذا الأخير حفيظة مواطنيه والجامعة برمتها. لكن تجنباً للإحراج والمضايقات فضل أغناطيوس الهرب من باريس كما فعل سابقاً في ألكلا وسلمنكة متوجهاً نحو مدينة روّان من أجل مساعدة صديقه الإسباني الذي سبق وسلبه أمواله.

تجدر الإشارة هنا إلى ما ذكره الأب لونشان اليسوعي في كتابه[3] عن هذه الرحلة إلى روّان قائلاً عن أغناطيوس: «وقرّر أيضاً أن يجتاز 180 كيلومتراً تفصل باريس عن روّان، سيراً على الأقدام، حافياً، وبلا طعام أو شراب... وبعد أن تجاوز أوتاي، غمر الابتهاج قلبه، وأخذ يصيح وسط الحقول ويناجي الله. وفي ظرف ثلاثة أيام، وهو لا يزال ملتزماً بمقصده بالامتناع عن الأكل والشرب، وصل إلى مدينة روّان». وفي هذا السّياق يحق للقارىء أن يتساءل هل كان بإمكان أغناطيوس أن يقطع مسافة 180 كيلومتراً سيراً على الأقدام في ثلاثة أيام، وهو كان يعرج، من دون مأكل أو مشرب خصوصاً وأنه لم يكن قديساً وقتها قادراً على اجتراح العجائب؟!

عاد أغناطيوس إلى باريس ومثل أمام قاضي محكمة التفتيش بتهمة نشر تعاليم هرطوقية، وطلب منه الإسراع في محاكمته لكي يتمكن من العودة في أسرع وقت إلى متابعة دروسه في معهد مونتيغو. ولكن أغناطيوس المتعطش إلى المعرفة والمتحرر من إلزامية الاستجداء في الشوارع تحول إلى معهد القديسة بربارة، حيث تمّ اتهامه بقضية الشباب الإسبان الثلاثة وبالتعصب. شكّل هذا الحدث نقطة تحول هامة في حياة أغناطيوس ومصير الرهبانية

Riyad Nassar Library

اليسوعية، إذ كان الانتقال من معهد مونتيغو إلى معهد القديسة بربارة مماثلاً للانتقال من التعليم الثانوي إلى التعليم العالي.

وضع مدير معهد القديسة بربارة دييغو دي غويفا الذي كان إدارياً متفوقاً ودبلوماسياً متمرساً، أغناطيوس فور انتسابه إلى المعهد في غرفة مشتركة مع بيار فافر وفرانسوا كزافير وهما من الطلاب أيضاً، إضافة إلى أحد الأساتذة خوان دولابينيا. أثناء المناقشات الفلسفية نهار الأحد، كان أغناطيوس يلقي في التلامذة دروساً في التقوى والعبادة، مما دفع بأستاذ الفلسفة خوان دولابينيا إلى إبلاغ المدير دي غويفا عن خرق أغناطيوس للأنظمة والقوانين، محذراً من تحول معظم الطلاب إلى رهبان. دي غويفا المستاء أصلاً من قضية الإسبان الثلاثة في الماضي أمر بجَلد اغناطيوس علناً، الذي حضر بكل رباطة جأش معلناً على أن «لا شيء في العالم أنبل من التألم في سبيل الآخرين». فما كان من دي غويفا إلّا أن ارتمى على قدمي أغناطيوس هاتفاً: «إنه قديس لا يتوانى عن تحمل الألم»، معلناً العفو عنه لقاء التعهد بالمحافظة على الأنظمة والقوانين في المستقبل. أما دييغو لينيث والفونسو سالميرون اللذان قصدا باريس من أجل إكمال دراستهما في الفلسفة ، فإنهما بحثا أيضاً فور وصولهما إلى الحي اللاتيني في باريس عن أغناطيوس من دون أن يكون لهما معرفة سابقة به. التقى أغناطيوس لاحقاً سيمون رودريغز ونيكولا بوباديلا ورجلاً برتغالياً، وهؤلاء هم الكهنة الذين أسسوا الرهبانية اليسوعية، إضافة إلى ثلاثة رهبان فرنسيين انضموا إليهم لاحقاً، وهم كلود لوجاي، باسكاز بروت وجان كودور، من دون أن ننسى الشاب الإسباني دييغو هوسيس الذي وافته المنية باكراً.

عندما اجتمع الآباء المؤسسون في الحي اللاتيني كان الصراع على أشدّه بين اللوثرية والكاثوليكية، علماً أن هؤلاء الرجال ابتداءً من انعقاد مجمع ترنت(*)، أي بعد مرور عشرين سنة على الإقامة الباريسية، لم يأتوا على ذكر الظاهرة اللوثرية، علماً أنهم كانوا يضعون سلطة

(*) مجمع ترنت: مجمع مسكوني دعا إليه البابا بولس الثالث عام 1545 ودام حتى عام 1563 عندما أنهاه البابا بيوس الرابع ، والذي أخذ حيّزاً واسعاً من النقاشات بين الكاثوليك والبروتستانت ، وأدى إلى إدخال عدة إصلاحات على أنظمة الكنيسة الكاثوليكية.

الكنيسة الكاثوليكية فوق كل اعتبار. يومها، كان أغناطيوس في الواحد والأربعين والنصف من عمره، أي في آذار 1532، عندما تقدم من أجل نيل شهادته في دير سانت جنفييف، وحل في المركز الثلاثين على مئة، وكان عليه إقامة حفل تخرّج من أجل الحفاظ على التقاليد، مما استدعى شتّى أنواع الانتقادات من محيطه الأسباني. وهكذا انتقل إلى المرحلة الثانية التي امتحانين، الأول عبارة عن امتحان خاص يختاره الفاحص في سان جوليان الفقير والثاني امتحان عام في سانت جنفييف أمام لجنة فاحصة يترأسها مدير الكلية، ثم لاحقاً وفي موعد يحدده رئيس الجامعة يتم تسليم الشهادات إلى مستحقيها الذين يلبسون ثياب المناسبات، أمام مدير الكلية وفي وجوده، الذي يمنحهم الشهادة والبركة الرسولية البابوية.

تسلم أغناطيوس شهادته في 13 آذار 1533 وسط ضائقة مالية خطيرة مما استدعى الكتابة إلى محسنته في برشلونة الدونا إينيس باسكوال، التي هبّت إلى مساعدته بعد حصوله على الشهادة في الفنون (maître ès arts)، كما حصل لاحقاً على القبعة المربّعة (birettum) أو (barrette) وهي علامة فارقة عند الآباء اليسوعيين. هكذا، استعمل أغناطيوس عند توقيعه اسم دي لويولا للمرة الأولى، مختاراً أو مستوحياً ربما اسم القديس أغناطيوس الإنطاكي. تجدر الملاحظة إلى أن اسم (Ignace) يشتق من كلمة (Ignis) أي النار، لكنه عندما حصل على لقبه (maître ès arts)، بعد أن درس اللغة اللاتينية والقواعد اللغوية في معهد مونتيغو، وتعمّق في دراسة تعاليم أرسطو وبقية العلوم في معهد القديسة بربارة، وجد نفسه جاهلاً في أمور عِلم اللاهوت.

اختار أغناطيوس كأساتذة لاهوتيين الرهبان الدومينيكيين في شارع القديس يعقوب أي اليعقوبيين (Les Jacobins) ، وهم الذين كانوا وراء ملاحقته سابقاً من ألكلا إلى سلمنكة وباريس، ولم يلجأ إلى الرهبان الفرنسيسيين ولا إلى الرهبان الكرتوزيين الذين كان بيار فافر يقيم معهم علاقات أخوية، وكان يزورهم في فوبور سان جاك (Faubourg Saint Jacques). أمّا السبب الذي من أجله اختار أغناطيوس دير اليعقوبيين ووضع نفسه هكذا تحت تصرف وسيطرة قاضي محاكم التفتيش ماتيو أوري الذي أتعبه سابقاً، فهو أنّ التعاليم التي بشّر بها القديس توما الأكويني، الذي حاز منذ ثلاثمئة سنة على إجازته في علم اللاهوت، كانت كلها على أيدي اليعقوبيين.

Riyad Nasser Library

لم يكن أغناطيوس يوماً رجل الثورات الإيديولوجية، ولكنه عاد إلى ممارسة التعذيبات الجسدية التي أضنته حتى منعه الأطباء من القيام بها حفاظاً على حياته، لكنه بعد أن أنهى تحقيق أهدافه التعليمية انصرف إلى تأسيس الرهبانية. في عيد السيدة العذراء في شهر آب من العام 1534 ذهبت المجموعة إلى كنيسة نوتردام في مونمارتر للإعلان عن النذور والتوجه إلى القدس، «ووضع أنفسنا في تصرف الحبر الأعظم عند العودة»، وقد اختارت المجموعة قبو كنيسة نوتردام الصغيرة التي كانت في عهدة الرهبان البنديكتيين. من المعروف أن كنيسة نوتردام هي الموقع الذي استشهد فيه القديس دوني رفيق القديس بولس الذي نزل من التلة حاملاً رأسه بين يديه وصولاً إلى السهل حيث شيّدت الملكية الفرنسية البازيليك لاحقاً.

هكذا بدأ الرفاق السبعة التوّاقون إلى السفر نحو الأراضي المقدسة والاستشهاد في سبيل الله رحلتهم الطويلة على طريق القدس، وكذلك بدأت ربما «يسوعيتهم» جلّى في هذا المشروع الصعب التحقيق بسبب الحروب الدائرة والأمراض المنتشرة والسيطرة الإسلامية. توجّه الرفاق مؤقتاً إلى البندقية مرفأ الإبحار نحو القدس وانتظروا سنة ريثما تنجلي الأمور، وإلا توجهوا نحو روما من أجل مساعدة النفوس وخلاصها تحت سلطة الحبر الأعظم. إن فشل المشروع الأول، أي الذهاب إلى القدس، لا يجب أن يعني الفشل كلياً، بل الاستعاضة عنه بمشروع ثان وهو البقاء في روما. ولكن البعض أعرب عن نية أغناطيوس على «حمل الحقيقة إلى الكفار» في الأراضي المقدسة في الطريقة التي اتبعتها الحملات الصليبية.

وقتها قرّر أغناطيوس الذهاب من باريس إلى إسبانيا مسقط رأسه، وكان الأطباء قد نصحوه بالعودة من أجل المحافظة على عافيته بسبب مناخ باريس غير الملائم، فقبل على مضض ولكن من أجل عدة أسباب منها إقناع عائلات كزافير، لينيث وسالمرون بعدم إعاقة دعوات أولادهم، خصوصاً أنّ نذر الفقر كان له كبير التأثير على الميراث العائلي وانتقال الثروات.

عشية ذهابه علم أغناطيوس أنّ محاكم التفتيش هي مجدداً في أثره بسبب اجتماع مونمارتر السري والتخوّف من مؤامرة تحاك في الخفاء، فمثل بسرعة أمام القاضي فالنتين ليفين الذي حلّ مكان ماتيو أوري وهو أيضاً من الرهبان الدومينيكيين، فطلب من أغناطيوس

تزويده بنسخة عن كتيب الرياضات الروحية، الشيء الذي فعله اغناطيوس. أعجب القاضي بما قرأه ولكن أغناطيوس أصرّ على الحصول على براءة ذمة خطية فكان له ذلك. في شباط 1535 أي بعد مرور سنوات على إقامته الباريسية، غادر اغناطيوس العاصمة الفرنسية مطمئن البال وأعطى رفاقه الستة موعداً في البندقية في ربيع 1537 واضعاً حداً للمرحلة الأولى من هذه المغامرة الكبيرة.

من المضحك أن ديبغو دي غويفا هو الذي فتح أمام الأغناطيين أبواب آسيا عندما أصبح مستشاراً لدى ملك البرتغال يوحنا الثالث طالباً منه الاستعانة بمجموعة مونمارتر الذين أصبحوا «يسوعيين»، من أجل إضفاء طابع روحيّ على غزواته. إن رحلة فرانسوا كزافير إلى آسيا مع الغزاة البرتغاليين أثمرت نوعاً ما، ثم ابتداءً من العام 1548 مع تلاقي الحضارتين الأوروبية واليابانية خصوصاً عندما طلب أغناطيوس من كزافير أفادة أوروبا من كنوز المعرفة المكتشفة في قلب آسيا.

بعد وفاة فرنسوا كزافير، وجدت الرهبانية حقول عمل جديدة «تحت راية الصليب» كما كان يقول أغناطيوس. في ذلك الوقت كان البابا بولس الثالث يريد إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من الداخل والمحافظة على الوحدة، لذلك نشأت «حركة الإصلاح الكاثوليكي» Contre-Réforme(*) المغايرة للحركة الإصلاحية البروتستانتية(**) Réforme التي كانت أهم بوادرها مجمع ترنت.

إن فكرة هذا المجمع كانت موضع التفكير والبحث منذ مدة إذ كان الإمبراطور شارلكان قد اقترح مدينة ترانت منذ عام 1524 مكاناً لانعقاده، خصوصاً أنّ هذه المدينة كانت تقع ضمن أراضي الأمبراطورية المقدسة والتي كانت في الوقت نفسه مدينة إيطالية. لذلك يتبادر إلى الذهن نوع من التساؤل عن نية شارلكان في اختيار هذه المدينة، ولماذا تدخل

(*) الحركة الإصلاحية الكاثوليكية Contre-Réforme: حركة إصلاحية في القرن السادس عشر أتت ردّاً على الحركة الإصلاحية البروتستانتية واعتمدت على الرهبانية اليسوعية الحديثة بغية رد المنشقين إلى حظيرة الكنيسة الرومانية.

(**) الحركة الإصلاحية البروتستانتية Réforme: تيار ديني في القرن السادس عشر عائد إلى مارتن لوثر.

Riyad Nassar Library

الأمبراطور في شؤون الكنيسة؟ والسبب أنها ليست المرة الأولى التي تتدخل فيها سلطة زمنية في شؤون الكنيسة الداخلية. من ناحية أخرى، رأينا كيف أن ملك البرتغال كان وراء ذهاب فرانسوا كزافير في مهمته التبشيرية إلى الهند، نظراً لأنّ الملوك والأمراء المسيحيين في تلك الأزمنة كانوا يعتبرون أنفسهم حماة الحياة الإكليريكية، ويرخون في الوقت نفسه بظلالهم عليها ويتدخلون في شؤونها. في المقابل، أصبح رجال الكهنوت في غالبية الأحيان مستشاري رجال السلطة الزمنية المفكر، مما سمح لهم عامة وللآباء اليسوعيين خاصة بإحكام سيطرتهم والإفادة طويلاً من هذا الوضع. هكذا تمركزت الحركة الإصلاحية في ألمانيا تبعاً للشعار القائل *(cuius regio, eius religio)* أي بمعنى «ديانة الشعب هي ديانة الحاكم». الأمبراطور شارلكان الذي كان يعتقد جازماً أنه من المفترض أن يلعب دوراً في الدعوة إلى انعقاد مجمع ترنت وتأمين حسن سير أعماله، كان يعمل على تعميم هذه الرسالة، ولكن الحرب التي كانت تضعه في المواجهة مع الملك فرانسوا الأول منعت انعقاد هذا المجمع قبل معاهدة السلام في كريبي(*) Crépy .

توصّل المجمع الذي دعي إلى الانعقاد ثلاث مرات في أعوام 1534 و 1536 ثم في عام 1544 بعد معاهدة السلام في كريبي من طرف البابا بولس الثالث، إلى بدء أعماله في تاريخ 13 كانون الأول 1545، وضم 28 أسقفاً فقط شاركوا في جلسة الافتتاح من بينهم فرنسي واحد وألماني واحد، مما يشكل عدداً هزيلاً بالنسبة إلى مجمع مسكوني. ولكن عند انتهاء أعمال مجمع ترنت في 4 كانون الأول عام 1563 كان عدد الأساقفة الفرنسيين يتخطى السبعة والعشرين من أصل عدد إجمالي يناهز 237 اسقفاً. وقد شكل المجمع في كل الأحوال بداية الحركة الإصلاحية الكاثوليكية الحقيقية، ونحن نفهم اليوم معنى التعليمات التي أرسلها أغناطيوس دي لويولا إلى الآباء اليسوعيين الذين انتدبهم إلى المجمع بأمر من الحبر الأعظم، وهم جاك لينيث والفونس سالميرون وبيار فافر. توفي هذا الأخير في الأول من شهر آب من دون أن يستطيع تلبية أوامر الحبر الأعظم.

(*) معاهدة كريبي Crépy: اتفاق الهدنة الذي وضع حدّاً للحرب الدائرة بين جيوش الملك فرنسوا الأول والأمبراطور شارلكان (1544).

أمّا النص الذي أرسله الجنرال اليسوعي فإنه يتلخص بالتالي: «إذا تكلمت على كلامي أن يكون بطيئاً، ونتيجة تفكير عميق، ملؤه الحب، خصوصاً عندما يتطرق الموضوع إلى أمور يبحثها أو يمكن أن يبحثها المجمع». إن الآباء اليسوعيين «الاختصاصيين» في ترنت لم يكتفوا بإسداء النصح والابتعاد عن الخلافات البيزنطية، بل انصرفوا إلى التبشير والاستماع إلى إعترافات الناس وزيارة الفقراء. كانت تعليمات أغناطيوس إلى رفاقه تقضي بالابتعاد عن جميع نقاط الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت، والاكتفاء بالتطرق إلى العادات والأخلاق الحسنى والعبادة في الكنيسة. أصرّ أغناطيوس على رفاقه الطلب من الجميع أي الأطفال والخطأة والمرضى الصلاة بغية نجاح أعمال المجمع، كما أوصى المشاركين تخصيص كل مساء ساعة واحدة من أجل تلخيص أعمال الجلسة اليومية ووضع تصور وإستراتيجية للجلسة اللاحقة، مانعاً في الوقت عينه أي اعتراض على أي قرار قد اتخذه المجمع، وبصورة حازمة لا تقبل الجدل أو المراجعة.

خلال انعقاد مجمع ترنت تقيد هؤلاء الكهنة بحذافير تعليمات أغناطيوس وتوجيهاته، ولفتوا انتباه الأساقفة بلباسهم وتقشفهم وتواضعهم وطريقة عيشهم. وخلافاً للاعتقادات السائدة، لم يكن للآباء اليسوعيين أي تأثير على أعمال المجمع من الناحية اللاهوتية، خصوصاً وأنّ أيّاً منهم لم يشارك في الجلسة الختامية التي امتدت من شهر تشرين الثاني 1562 إلى شهر كانون الثاني 1563. يتبين من ذلك كله أن الآباء اليسوعيين لم يعلنوا الحرب على الكفر في اجتماعات ترنت، ولكنهم عملوا بكل طاقاتهم على تصحيح الأوضاع المتردية داخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

حاول أغناطيوس طوال حياته أن يكون حذراً من الكتب والأفكار المعاصرة، وبالتحديد من المفكرين الكبار بدءاً من اراسموس وهو عالِم هولندي في اللغات والآداب القديمة، ضليع باللغة اللاتينية، مستقل الفكر وناقد لاذع، عمل كما رفاقه على كتابة آلاف الرسائل من دون التوصل إلى أي بحث أدبي هام أو فلسفي أو لاهوتي، علماً أنّ الواقعية (Pragmatisme) بقيت هي السائدة.

لكنّ تخوف أغناطيوس من الأفكار الغريبة جعلت منه إنساناً غير متسامح وألب عليه

Riyad Nassar Library

الجميع بعد الرسالة التي بعث بها إلى بطرس كانيزيوس يطلب منه فيها إحراق جميع الكتب التي توحي بالهرطقة. خصّ الأب الرئيس الأول الكتب التي بحوزة أصحاب المكتبات أو عند الأشخاص العاديين، وطلب في أفضل الحالات إرسالها خارج مقاطعات المملكة بعد إجراء تحقيقات جدية طالباً إليه إحراق جميع منتجات الهراطقة حتى ولو كان المضمون خالياً من الهرطقة على مثال قواعد اللغة، وعلم البلاغة وفن الجدل على طريقة ميلنشتون. كان هذا الأخير مساعد لوثر وهو إصلاحي ألماني نصّ معاهدة أوكسبورغ وخلف لوثر بعد مماته. إضافة إلى ذلك حدّد له لائحة الممنوعات، ولكنه شجعه على إصدار كتاب التعليم المسيحي للأطفال، وهذا ما فعله عندما امتثل إلى تعليمات الجنرال وأصدر كتابه الشهير «موجز كتاب التعليم المسيحي» (Le petit catéchisme). شجّع الأب المؤسس في الوقت عينه على إصدار كتاب خاص من أجل الكهنة الأدنى ثقافة وذوي الإرادة الحسنة، وأخيراً الكتاب الموجّه إلى الطبقة المثقفة والذي يتعلق بالفلسفة المدرسية وعلم الكلام. إن حذر أغناطيوس بالنسبة إلى أساليب التعليم يومها جعله يقارب قضية تهيئة المرشحين وتثقيفهم لدخول الرهبانية بطريقة متأنية للغاية؛ هذا الوجه هو الذي سوف يحدّد في دوره وبشكل قاطع، التطور اللاحق للمهام التي سيضطلع بها الآباء اليسوعيون.

في الأصل، كان المرشحون لدخول الرهبانية من الرجال المثقفين، والحائزين كما الرفاق الأوائل على الدرجات الأكاديمية الرفيعة، ولكن بعدئذ تقدم أشخاص شباب لم ينهوا دراستهم، فتعيّن عليهم السكن مع الآباء ومتابعة الدروس في الجامعة. من هنا برزت فكرة إنشاء مؤسسة للطلاب اليسوعيين تسمح لهم بالدراسة في أماكن تواجدهم من دون الحاجة إلى الذهاب إلى الجامعة. وفي هذا السياق أسس فرنسوا دي بورجيا عام 1546 في غانديا (إسبانيا) أول معهد بحثي بهدف تعليم اليسوعيين المقبلين، وفي العام التالي تمّ تحويل المعهد إلى جامعة. للمرة الأولى، وفي مسّينا عام 1548، تمّ قبول طلاب الفلسفة المدرسية من دون أن يكون لديهم أي استعداد للانخراط لاحقاً في الرهبانية اليسوعية. إن هذه الفكرة التي لم تُقرر بناء على أية خلفيات سيئة لاقت استحساناً منقطع النظير، لكنّ أغناطيوس نفسه الذي لم تكن نيته خلق رهبانية تعليمية وتربوية، فقد صبّ جلّ اهتمامه على نوع العمل الذي

أنجز في صقليه موفداً إليها عشرة رفاق في السنة نفسها. على أثر ذلك طلب الجنرال من باقي المناطق أن يرسلوا إلى مسّينا خيرة الأساتذة، مما دفع بسيمون رودريغز بالرد عليه بأن هؤلاء الأساتذة من الأفضل إرسالهم إلى جامعات وأماكن مشهورة ومرموقة أكثر من مسّينا. على الأثر تم تأسيس معهد آخر في باليرمو، وأنشأ أغناطيوس لاحقاً في المدينة الخالدة المعهد الروماني الذي ضمّ ابتداءً من العام 1584 أكثر من ألفي طالب، والذي هو أصل الجامعة الغريغورية الحالية، إذ يعتبر أهم مركز للتنشئة اللاهوتية في الكنيسة الكاثوليكية. وعند افتتاح هذا المعهد كان التعليم فيه مجانياً، وتمّ استحداث الكراسي الأكاديمية (Chaires) في الفلسفة وعلم اللاهوت، ثم منحه البابا بولس الرابع لاحقاً الحق في إصدار درجات أكاديمية.

لعب المعهد الروماني دوراً هاماً بعد مجمع ترنت، خصوصاً تحت تأثير أستاذ اللاهوت روبرت بيلارمان الذي كان يعتقد كما معاصروه أنّ الكنيسة هي مؤسسة عظيمة وكاملة على غرار مملكة فرنسا أو جمهورية البندقية، ولكن خلافاً للاعتقادات السائدة بالسلطة البابوية المطلقة كان ينادي بالسلطة غير المباشرة للحبر الأعظم في الأمور الدنيوية. هذا الاقتراح لم يلقَ الاستحسان باعتبار مؤلفاته واقعة تحت تأثير الحظر(l'index)، وهو الدليل أو الفهرس المتضمن للكتب الممنوعة من طرف الكنيسة الذي أنشىء عام 1564 ولم يتم إلغاؤه إلّا بعد مرور أربعة قرون، أي في سنة 1966. من جهته أصرّ بيلارمان حينها على حصول البابا على موافقة الهيئة الأسقفية في القرارات المتعلقة بالكنيسة العالمية، مطلقاً هكذا أول نداء يتعلق بالإدارة الجماعية للمؤسسة الكنسية الذي حثه عليه وسانده في تنفيذه مجمع الفاتيكان الثاني. وفي هذا السياق، كانت الجامعة الغريغورية في صميم النقاشات التي هزّت ركائز الكاثوليكية من القرن السادس عشر حتى اليوم، وهي التي نشّأت معظم البابوات، على سبيل المثال لا الحصر بيوس التاسع، لاون الثالث عشر، بنديكتوس الخامس عشر، بيوس الحادي عشر، بيوس الثاني عشر ، بولس السادس ويوحنا بولس الأول.

عندما افتتح أغناطيوس معهدي مسّينا وروما، لم يكن يعي وقتها نتائج قراره، بل يقال إنه كان متردداً في قرارة نفسه أمام أمواج طلبات الانتساب التي تدفقت عليه. يجب التمعن

Riyad Nassar Library

هنا في المسوّدة التي تمّ التوافق عليها عام 1540 والبند الذي تمّ التخلي عنه لاحقاً، والذي يعبّر خير تعبير عن العقلية السائدة عند الرفاق الأوائل، «لا جامعة ولا معاهد في الرهبانية اليسوعية». ولكن تجدر الإشارة إلى أن الرهبانية اليسوعية كانت تدير عند وفاة مؤسسها 29 معهداً، ثم عام 1580 وصل العدد إلى 144 معهداً، وبعد مرور 40 سنة أصبحت الرهبانية اليسوعية رهبانية تعليمية في كل معنى الكلمة. إن المعاهد اليسوعية عملت على تنشئة وتعليم اليسوعيين الشباب ولكنها ما لبثت أن حادت عن مسارها وتوجهت نحو الشباب العلمانيين. وهي لم تبدأ نشاطاتها في روما بل في مسّينا وبرشلونة وبادوفا ولشبونة ونابولي ولوفان، ولم يستقبل المعهد الروماني أوائل تلامذته قبل عام 1551 تحت إدارة الكاهن الفرنسي جان بيلاتيه (Jean Pelletier) الذي عمل على اتباع الطريقة الباريسية في التعليم *modus parisiensis* العزيزة على قلب دي لويولا.

إن تعليم الشباب من الأهداف المعلنة في قرار تأسيس الرهبانية اليسوعية، فهل كان هذا التعليم يقتصر على التعليم المسيحي للأولاد؟ إن الكتاب الذي وجهه أغناطيوس إلى الدوق دوبافيار يدل على اهتمامه كما سائر رفاقه في مختلف قطاعات المعرفة، من العلم إلى اللاهوت والدين. لذلك، بدأ اليسوعيون في حقل التعليم الثانوي، وانتقلوا من ذهنية التخوف من الكتب والثقافة، إلى الرهبانية الأكثر تفوقاً ثقافياً وفكرياً في الكنيسة الكاثوليكية، ومن أكبر المدافعين عن الأنسنة العصرية. ولكن هذا التطور المعرفي أوجد الكثير من الإرباكات التي لا تعد ولا تحصى داخل الرهبانية، لأن جهازها التعليمي الهائل سمح لها بالتأثير الكبير داخل المجتمعات ولكنه صرف جلّ اهتماماتها عن أمور أخرى كثيرة، وأوجد مديونية أرهقتها من جرّاء المباني الضخمة التي شيّدها آباء كانت طموحاتهم تفوق قدراتهم وثرواتهم. يُذكر أنّ المعاهد ساهمت أيضاً في تقليص حركة الرهبانية التي كانت تشكل القوة الضاربة للكنيسة الكاثوليكية، والتي ابتعدت عن مهمتها الأساسية، وأصبحت كلفة المباني وإدارتها تشكل همّاً كبيراً بالنسبة إلى أغناطيوس الذي كان عليه الانصراف إلى كتابة قوانين الرهبانية التأسيسية بدءاً من عام 1540، وهي المهمة التي كلفه بها البابا بولس الثالث.

لكنّ هذه الظروف، إضافة إلى تشتّت الرفاق الأوائل في مهامهم التبشيرية اضطرت

أغناطيوس لكتابة القوانين التأسيسية وحده خلافاً لما كان قد إتفق عليه، ولكنه عمل على عرض نتاجه على موافقة الآباء المؤسسين الكبار *(primi patres)* وحتى على المنضوين الجدد الذين كان يرى فيهم الكفاية والمقدرة. بقي وضع القوانين التأسيسية عملية شاقة وطويلة تطلبت الكثير من الجهد والعمل، ولكنها اصطدمت أيضاً ببعض العوائق.

بعد عشر سنوات على الاعتراف بالرهبانية اليسوعية، اجتمع الآباء في روما بين عامي 1550–1551 واطلعوا على مشروع القوانين التأسيسية، وأجروا بعض التعديلات وأعادوا صياغة بعض المقاطع، ثم في عام 1552 عاد أغناطيوس وبولانكو المساعد الأمين إلى كتابة النص الجديد علماً أن أغناطيوس كان لا ينفك عن استشارة الآخرين. كان دي لويولا يتابع في دقة متناهية جميع التفاصيل خصوصاً الصغيرة منها، المتعلقة مثلاً باللباس والمأكل وطريقة التصرف في المجتمع وأمور الحياة العادية. وكان الأب المؤسس يصر على خفض العينين مثلاً عند التكلم مع شخص آخر، وهو الأمر الذي كان يدعونا إلى التساؤل عن السبب دون التجرؤ على طرح أسئلة محرجة على الآباء اليسوعيين الذين عاصرناهم، وهي طريقة النظر الملتوية عندهم (Le regard courbe du jésuite)، علماً أن بعضاً منهم لم يكن ليحترم هذه القاعدة التي تنم عن التواضع وليس عن شيء آخر كما يحلو للآخرين قوله. وهكذا انتهى العمل بمشروع القوانين التأسيسية عام 1553، ثم رحل نادال إلى صقلية والبرتغال وإسبانيا وألمانيا بغية تعميمه والاطلاع على وقعه في المجتمعات المتعددة والمختلفة في عاداتها وتقاليدها. أخيراً تمّ الاتفاق على اعتماد القوانين التأسيسية أثناء المجمع العام الأول الذي انعقد في عام 1558 أي بعد مرور سنتين على وفاة أغناطيوس.

في 23 أيار 1555 تمّ انتخاب الكاردينال جان بيار كارافا الذي حلّ محل البابا مارسيل الثاني الذي تبوأ السدة البابوية 21 يوماً وكان من كبار أصدقاء أغناطيوس. فالكاردينال كارافا الذي أصبح البابا بولس الرابع هو أحد مؤسسي رهبانية التياتان عام 1524 في روما. طالب الكاردينال المذكور والبابا العتيد اصلاح الحياة الإكليريكية، خصوصاً أنه كان قد اقترح مرتين على أغناطيوس الالتحاق بهذه الرهبانية، الأمر الذي رفضه أغناطيوس بشدة وحزم. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الخصوص أنّ بولس الرابع كان إيطالياً، وعندما اشتد

Riyad Nassar Library

النزاع بين هذا الحبر الأعظم والملك فيليب الثاني، اتهم البابا الرهبان اليسوعيين بالتواطؤ مع العدو، وأن الحزب الإسباني يخفي الأسلحة عندهم، مما يعني بكل بساطة أنّ الرهبان اليسوعيين إرهابيون.

إضافة إلى هذه الإهانة المشينة حاول بولس الرابع فرض الصلاة في الخوروس على مثال رهبانية التياتان، الأمر الذي كان يتناقض مع نظام اليسوعيين، نظراً لأنّ المسيحية في القرون الوسطى شدّدت على أولوية حاسة السمع والكلمة والترتيل (*auditum verbi Dei, id est fidem*) بينما اعتبر لوثر السمع (الأذن) الحاسة الأهم إذ إن التجارب تكون متأتية عن حاسة النظر. إغناطيوس من جهته اعتبر أن الصورة هي الأهم علماً أنه كان مولعاً بالموسيقى ولكنه كان أول من انتفض على الترتيل في الخورس، مما تسبب له بالكثير من المشاكل؛ فرضخ لمشيئة البابا، وراح اليسوعيون يرتلون صلاة الستار أو العصر (les vêpres) في كنيسة نوتردام دي لاسترادا أيام الآحاد والأعياد. هذه التسوية أو هذا الانصياع يدل على إمكانية حصول خلافات بين الكرسي الرسولي والرهبانية اليسوعية على الرغم من نذرالطاعة العمياء، وهذه الحادثة شكّلت مدخلاً لسلسلة من الخلافات.

انصاع أغناطيوس معتبراً أن هذا الإجراء مؤقتٌ، وكان واقعياً عندما تخلى عن عناده وكبريائه في انتظار حصول تغيّرات، ولكن الانتظار لم يكن يعني عدم فعل أي شيء، لذلك انصرف إلى حل النزاعات وإلى كتابة أو نص سبعة آلاف رسالة وإلى التنظيم والزيارات وتعليم الرياضات الروحية على الرغم من مرضه، الذي جعله يقدم استقالته عام 1551 التي تمّ رفضها. لكن طباعه ساءت مع سوء حال صحته، وذهب إلى حد معاقبة أتباعه الأقربين مثل لينيث من أجل أمور تافهة جعلت هذا الأخير يصرخ أثناء صلاته: «ربّي وإلهي ماذا فعلت لهذا الرجل القديس كي يعاملني بهذا الشكل؟». من أجل هذا السبب وفي أواخر أيام حياته، وبالرغم من أن الرهبانية كانت تضم أكثر من ألف عضو من دون ذكر الذين اضطروا إلى «الهرب» أو التخلي عن التحاقهم بالرهبانية اليسوعية بسبب تشدّد أغناطيوس وطباعه، فإنّ رفقة يسوع تابعت مسيرتها بخطىً ثابتة. وفي عيد العنصرة عام 1555 ولسبب بقي مجهولاً تمّ

طرد اثني عشر راهباً يسوعياً دفعة واحدة من المعهد الروماني، من بينهم نسيب جان دي فيغا نائب ملك صقلية وأكبر الداعمين للرهبانية اليسوعية.

بعد وفاته ترك أغناطيوس للرهبانية ميراثاً كبيراً يتمثل في روحانيته والقوانين التأسيسية، مع أنه لم يؤمّن خلفاً على رأس المؤسسة اليسوعية التي وجدت نفسها بدءاً من 4 آب 1556 مع اثنين من الرؤساء العامين المساعدين هما جاك لينيث وجيروم نادال، في حين كان بوباديلا يناور من أجل فرض رئاسة جماعية تتألف من جميع الآباء المؤسسين. في هذا الوقت فرض البابا بولس الرابع على الإدارة اليسوعية تزويده في مهلة أقصاها ثلاثة أيام القوانين التأسيسية للرهبانية، لكنّ اليسوعيين لم يكونوا يعرفون من له الحق في المشاركة في المجمع العام. الرهبانية اليسوعية أصبحت تضم عند وفاة أغناطيوس ألف عضو، مع 42 ناذراً احتفالياً، أي أولئك الذين يفرض عليهم الإعلان عن النذور الأربعة: الفقر والعفة والطاعة والانصياع إلى إرادة الحبر الأعظم.

دعي المجمع العام الأول إلى الانعقاد في 19 أيار 1558، وفي الثاني من تموز تمكن العشرون عضواً الذين يملكون حق الاقتراع من الوصول إلى روما حيث اجتمعوا تحت رئاسة الكاردينال باتشيكو في الغرفة التي فارق فيها أغناطيوس الحياة، وأعلم الكاردينال الحضور أن البابا يصر على بقاء الرئيس المنتخب في روما، ما سيكون له أهمية كبرى في تنظيم الرهبانية في المستقبل، تاركاً للمؤسسة إمكانية التحرك بكل حرية، مغادراً غرفة الاجتماع على عجل.

حاز دييغو لينيث على 13 صوتاً أي الغالبية اللازمة وأصبح الخلف الأول لأغناطيوس، وهكذا تمّ تدارك الخلافات والتباينات في وجهات النظر، ولكن سريعاً ما برزت الخلافات المبدئية بين الرهبان الذين تمسكوا بحرفية القوانين التأسيسية التي وضعها أغناطيوس وإرادة البابا بولس الرابع الذي كان يصرّ على الترتيل في الخورس في كنائس الرهبانية، والذي كان يرفض حتى الاستماع إلى موضوع انتخاب جنرال مدى الحياة.

وجدت الرهبانية نفسها في موقع حرج، إذ إن الرهبان أقسموا ولاء الطاعة للحبر الأعظم، ومن جهة ثانية أقسموا على طاعة الرئيس العام للرهبانية، وتمّ الاتفاق على نص

Riyad Nassar Library

رسالة موجهة إلى بولس الرابع بكلمات شديدة الاحترام والتواضع لافتة نظر قداسته إلى أن الولاية مدى الحياة قد تمّ التصويت عليها بالإجماع. وعندما أطلع البابا على فحوى الكتاب اليسوعي ثارت ثائرته وكان شديد الانفعال عندما عقد اللقاء المرتقب بينه وبين لينيث وسالميرون في السادس من أيلول، فبادر إلى التصريح قائلاً: إن حكم أغناطيوس كان استبدادياً، وإنها المرة الأولى التي حصلت فيها انتخابات جنرال حرة، وعليه أنه يرى أن مسؤولية الرئيس يجب أن تكون محدّدة بثلاث سنوات قابلة للتجديد ولمرة واحدة، كما هو متبع في الرهبانيات الأخرى. وعند الوصول إلى موضوع الترتيل في الخوروس ثارت ثائرته واتهم اليسوعيين بكونهم ثواراً وهكذا يدعمون وجهات نظر الهراطقة، وهو يتخوف من خروج شيطان جديد يوماً من صفوفهم.

يقول الأب رافير إن قداسة البابا توجه إلى لينيث وسالميرون بهذه الكلمات الغاضبة: «إنني أفرض عليكم الترتيل في الخوروس وإلّا سوف تنتهون كهراطقة، ويجب عليكم القيام بهذا التدبير مهما كان الثمن والويل لكم إذا لم تفعلوا ما آمركم به». ترك لينيث العاصفة تمر وبادر إلى القول:«اليسوعيون ثوار؟ لم يكن داخل الكنيسة أية رهبانية مطيعة لسلطة الحبر الأعظم كما الرهبانية اليسوعية. اليسوعيون كفار؟ إن الرهبانية اليسوعية كانت عرضة للاضطهادات بسبب ولائها للكرسي الرسولي وهم الذين أطلق عليهم لقب الباباويين». وهكذا ساعد دفاع لينيث في تهدئة خواطر بولس الرابع الذي تراجع عن فرض أي تغييرات أو تعديلات على القوانين التأسيسية، وأرفق أوامره بإضافات إلى محضر الاجتماع تصرّح بأن المطلوب لا يُلزم اليسوعيين بعد انتهاء ولاية بولس الرابع. هكذا تمّ إنقاذ الرهبانية اليسوعية مع هدوء العاصفة وتراجع الحبر الأعظم.

عند وفاة لينيث كانت الرهبانية اليسوعية تعد أكثر من 3500 عضو موزعين على 18 مقاطعة و 130 مؤسسة؛ فعلى عكس أغناطيوس الذي لم يغادر روما أثناء ولايته، كان لينيث من كبارالمسافرين، وها هو موجود في ندوة بويسي (Colloque de Poissy) يحاول ثني كاترين دوميديسيس عن البروتستانتية من دون أن ينسى مصالح الرهبانية اليسوعية لأن تموضعها في فرنسا كان صعباً.

منذ ربيع 1540 بعث أغناطيوس مجموعة صغيرة إلى باريس قوامها الطلاب، وفي عام 1550 التحق قسم من المجموعة بمقر الأسقف غليوم دو برات أو بيت كليرمون، ولقد نجح لينيث بالسماح للرهبانية بافتتاح معاهد في فرنسا والحصول على الاعتراف بالرهبانية اليسوعية، على الرغم من العداء المستفحل بينها وبين جامعة باريس والبرلمان الفرنسي والحذر المتنامي بعد تأسيس معهد بيلوم في أوفيرن عام 1556، خوفاً من المضاربة. هكذا تمّ افتتاح المعاهد اليسوعية في فردان، بورج، شارتر، تولوز، نيفير وبون أموسون. بعد وفاة لينيث مرهقاً عام 1565 تمّ انتخاب فرانسوا دي بورجيا خلفاً له فتولى المهمة طوال سبع سنوات، وهو من كبار النبلاء ويحمل لقب دوك دو غانديا و نائب ملك كاتالونيا، وقد تخلى عن جميع ألقابه من أجل الانخراط في الرهبانية اليسوعية، كما كان من رجال الإكليروس الأفاضل. إثر مماته جاء دور بولانكو الأكثر حظاً في خلافته خصوصاً وأنه كان اليد اليمنى لأغناطيوس وساعده كثيراً في وضع القوانين التأسيسية. ولكن البابا غريغوريوس الثالث عشر مارس الضغوطات على المجمع العام الذي اضطر إلى انتخاب البلجيكي إيفيرارد ماركوريان، ثم خلفه كلود أكوافيفا الذي أمضى فترة طويلة (1581–1615) في سدة الرئاسة، وعرفت الرهبانية سنوات عصيبة خلال هذه الولاية.

عندما تسلم أكوافيفا الرئاسة كان يبلغ من العمر 37 عاماً وهو الذي رأى مظاهر التراخي داخل الرهبانية، فاتخذ تدابير صارمة من أهمها برنامج الدروس أو التربية (Ratio studiorum) الذي بقي معمولاً به في الشرعة الأساسية في برامج تعليم الرهبانية اليسوعية، كما كان عليه التصدي للبابا سكستوس الخامس الذي أراد تعديل القوانين التأسيسية وإلغاء اسم شركة يسوع الذي كان يرى فيه احتقاراً للرهبانيات الأخرى. وفي إسبانيا كان بعض الرهبان اليسوعيين يحاولون إضفاء طابع ديموقراطي على الرهبانية، إلى درجة أن مستنداً إصلاحياً كان جاهزاً عند وفاة البابا عام 1590، فانتخب البابا كليمنس الثامن وشملت الانتفاضة الإسبانية طريقها محاولة نقل مقر اليسوعيين من روما إلى مدريد من أجل مراقبة نشاطات الجنرال عن قرب والحد من سلطته، وأتى موت كليمنس الثامن ليضع حداً لهذه الخطوة.

أثناء ولاية أكوافيفا استشهد أكثر من مائة راهب يسوعي في سبيل إيمانهم ومعتقداتهم،

Riyad Nassar Library

وكان لإنكلترا الدور البارز في هذا التاريخ اليسوعي الاستشهادي الدامي. بعد عودة قصيرة إلى الكاثوليكية تحت حكم ماري تودورأصبحت الأنغليكانية دين الدولة في المملكة الإنكليزية، لكن هذه الأمور لم تمنع اليسوعيين من إيفاد الأب روبرت بيرسونس وإدموند كامبيون إلى بريطانيا، حيث نجح الأول في الفرار من الاتهامات والملاحقات، وقبض على الثاني الذي تعرض للتعذيب قبل إعدامه في عام 1581. لم يثن ما حصل الآباء اليسوعيين عن إرسال المزيد من الكهنة سرّاً والذين تمّ إيواؤهم لدى السكان الكاثوليك خوفاً من خطر إلقاء القبض عليهم وإعدامهم، وقد عاودوا العمل التبشيري في الخفاء على طريقة المناضلين.

وصل عدد الكهنة إلى 150 عام 1625 وطوال مئتي سنة اهتم اليسوعيون الإنكليز بإرسال تلامذتهم إلى جميع أنحاء القارة الأوروبية وخصوصاً إلى فرنسا. تجدر الإشارة هنا إلى أن اليسوعيين الفرنسيين عندما تمّ طردهم من بلادهم في أوائل القرن العشرين لجأوا إلى إنكلترا وخصوصاً في مقاطعة جرسي (Jersey). هكذا اختار اليسوعيون الحركة ولم يحصلوا سوى على التشرد، إذ أثناء ولاية الجنرال اليسوعي السادس موتزيو فيتيلتشي (Muzio Vitelleschi) وطوال القرن السابع عشر، انتشرت المهمة التبشيرية التي أطلقها قديماً فرانسوا كزافير الذي كان قد كتب في 15 كانون الثاني 1544 إلى روما بطريقة لا تخلو من الحسرة: «في بعض الأحيان تتملكني الرغبة بالتنديد بالجامعات وخصوصاً جامعة باريس، وتوجيه خطابي ضد الذين يهتمون باكتساب المعرفة، لا في إفادة الآخرين من علمهم، وتحديداً أولئك الذين هم بحاجة إلى هذا العلم».

إن هذا النداء لواحد من اليسوعيين الأوائل ترك تأثيره لاحقاً؛ إذ منذ العام 1578، تردّد الأب الكسندر فالينيانو الرئيس الزائر مدة طويلة على اليابان الذي قرّر طرد اليسوعيين بعد فترة وجيزة. أما المغامرة الصينية فقد كانت غنية بالمآثر، علماً أن قصة انخراط اليسوعيين في الصين طويلة وليست من اهتمامات هذا الإنتاج على أهميتها والتي سوف نبحثها ربما لاحقاً لتفسير طرقهم التبشيرية ووقعها على مختلف المجتمعات، في الهند أو في الباراغواي أو البرازيل والولايات المتحدة الأميركية. ولكن حب السلطة حتى ولو كان متجرداً فإنه سوف يدفع بالآباء اليسوعيين نحو الاستبدادية، لأنّ هذا التمسك بالسلطة تسبب بحملة شعواء ضد

الآباء و«جرائمهم» من إسبانيا إلى البرتغال، كما يدعي بعضهم، حيث إن الملك الإسباني شارل الثالث أمر بطردهم تماماً من الباراغواي عام 1768 تحت نظر الكواراني (Guaranis) واضعاً حداً لأول محاولة «إشتراكية مسيحية».

هذه الرهبانية أو المؤسسة *(minima societas)* وهو اللقب الذي أطلقه عليها اغناطيوس بكل صدق عند تأسيسها والتي كانت لا تضم سوى عشرات المنضوين تحت لوائها، وضعت يدها كلياً على القطاع التربوي والتعليمي، لكن ما يجب الإشارة إليه هو أن البابا كليمنس الرابع عشر الذي تمّ انتخابه في 19 أيار 1769 والذي كان يحمل اسم غنغانيللي (Ganganelli) حاول التهرب من إلحاح سفراء إسبانيا والبرتغال وفرنسا وملاحقتهم له، ولكنه اضطر إلى الرضوخ مكرهاً فأصدر وثيقة *(Dominus ac Redemptor)* في 21 تموز 1773 التي قضت بحل الرهبانية اليسوعية تحت ضغوطات سفير إسبانيا الجديد جوزف مونينو الذي كان قد وصل إلى روما في صيف 1772. أما البابا كليمنس الرابع عشر الذي قال عن نفسه إنه «أرغم على حل الرهبانية» فلم يتوان عن سجن الجنرال اليسوعي الأخير لوران ريتشي الذي أنهى حياته في زنزانة قصر سانت أنج، والذي أعلن قبل وفاته أن الرهبانية «ألغيت من دون أي سبب وجيه»، وأنّ الرهبانية اليسوعية «تموت ولكنها لا تستسلم».

Riyad Nassar Library

الحبر الأعظم بولس الثالث يتسلّم نذور الأغناطيين

Riyad Nassar Library

الفصل الرابع

موجز عن الرياضات الروحية والقوانين التأسيسية

رأينا أنه ليس من الضروري التطرق مطولاً إلى الرياضات الروحية على الطريقة الأغناطية، خصوصاً وأنها دينية صرفة لا خبرة لدينا فيها من أجل التعمق في بحثها، ولكن يكفي أن نحيل القارىء إلى عدة منشورات في هذا الخصوص علها تشفي غليله وتروي ظمأه. الجدير بالذكر أنّ رياضات القديس أغناطيوس تتضمن عشرة فصول، وهذا الكتاب يُلهم الرياضات الروحية والخلوات التي يقوم بها العديد من العلمانيين والرهبان والكهنة والأساقفة. إن الطبعة الأولى من هذا الكتاب جاءت باللغة الإسبانية، وهي لغة أغناطيوس الأم، وتمت في عام 1527 إلى أن صدرت الطبعة الثانية عام 1535 في اللغة الإسبانية أيضاً، عندما أنهى أغناطيوس دروسه اللاهوتية في باريس.

في عام 1547 تمّ عرض نسخة أولى وثانية في اللغة اللاتينية على الكرسي الرسولي بغية الحصول على موافقته من أجل استخدام الكتاب وتداوله بين المؤمنين[20]. أما المخطوط الإسباني الأصلي المعروف تحت عنوان (Autographe) الصادر عام 1544، فلم يقم أغناطيوس نفسه بتحريره، بل بعض المتروضين الذين أرشدهم، وهذا النص هو الأكثر تداولاً، لذلك تمّ اختياره من أجل الترجمة العربية في عام 1981. إن الترجمة اللاتينية الأولى (Versio Prima) طُبعت عام 1541 قبل المخطوط الإسباني الأصلي، ومن المرجح

أن يكون أغناطيوس نفسه قد ترجمها أثناء دراسته في باريس بغية إيصالها إلى شرائح واسعة تجهل اللغة الإسبانية. أما الترجمة اللاتينية الشائعة (Vulgata) التي نُشرت عام 1546 في لغة لاتينية راقية على عكس النسخة السابقة، فمن الأرجح أن لا يكون أغناطيوس قد تدخل فيها شخصياً. على هذا الكتاب طلب أغناطيوس حفر الرمز(IHS)[21] وهو يعني يسوع مخلص البشر *(Iesus Hominum Salvator)* علماً أن دي لويولا لم يأتِ بشيء جديد استناداً إلى المؤرخين، وهذا الرمز كان يزيّن القربان المقدس، وبقي مرتبطاً بالتعبّد إلى يسوع المسيح منذ أواخر القرون الوسطى.

من ناحية أخرى، فإن القديس برناردين دو سيينا كان يستعمل في عظاته لوحات خشبية تمّ حفر هذا الرمز عليها، والذي كان يتصدر أيضاً مدخل معهد القديسة بربارة في باريس. يجب ألا ننسى أصول أغناطيوس الأرستقراطية وشغفه الشديد بالشعارات وما كانت تمثله في هذا الزمن، وعندما وجد فراغاً في أسفل الرمز، قرر وضع ختم الرهبانية فيه. ثم اختار إضافة صورة نصف قمر تحيط به نجمتان، مما يعني أن العذراء مريم هي القمر بينما النجمتان تمثلان القديسين.

وأدخل أغناطيوس أيضاً في صلب هذا الرمز صورة مسامير الصلب الثلاثة، إذ منذ القديس فرنسيس الأسيزي ونذور رجال الإكليروس ثلاثة أي الفقر والتبتل والطاعة، والمسامير الثلاثة تمثل هذه النذور التي ترمز إلى صلب أتباع السيد المسيح على الصليب.

وفي هذا السياق كتب أغناطيوس ما يلي: «كما يقال للتنزه والمشي والركض رياضة بدنية، هكذا أيضاً كل طريقة تُعدّ النفس وتؤهلها لقمع ما فيها من الأهواء المنحرفة وللبحث بعد ذلك عن إرادة الله والاهتداء إليها في تنظيم حياتنا لخلاص نفوسنا تسمى رياضة روحية». هذه الرياضة تستغرق ثلاثين يوماً تقريباً، ويمكن اختصارها في عشرة أيام أو ثمانية أو حتى أقل، أما الشعار الأغناطي فهو: «الله في كل شيء، وكل شيء في الله». إن الرياضات الروحية ليست هي نفسها بالنسبة إلى جميع المؤمنين، إذ « يقع أيضاً على عاتق المرشد أن يُكيّف كتاب الرياضات الروحية بحسب إمكانية من يمارسها، سناً وثقافة وفهماً». لقد جاء في الصفحة 21 من كتاب الأب أوليفييه[22]: «أمكننا استخدام عبارة اغناطية لم يرد ذكرها

في كتاب الرياضات الروحية ولكن مضمونها وارد فيه، وهي المحبة البصيرة *(Discreta Caritas)*، وذلك حتى يرشد المرشد المتروض خير إرشاد، ويجعله واعياً كيف يعامله الله وكيف يتعامل هو مع الله». لقد جاء في الصفحة 22: «ونشير أيضاً إلى أن أغناطيوس الذي اختبر اختباره الروحي التصّوفي ودوّنه في الرياضات الروحية فألقاها على القريب كان علمانياً ووجهها إلى العلمانيين، لا إلى الكهنة أو الرهبان. ولكن الظروف الكنسية حملته على تقبّل سر الكهنوت لتتسنى له إمكانية إلقاء الرياضات الروحية ومساعدة النفوس». يقول الأب الفاضل في الصفحة العاشرة من كتابه: «إن أردت أن أقيم دراسة عن طريق النصوص، في غاية الرياضات، وجب عليّ أن أقابل العدد 1 بالعدد 21 وأن أسأل: هل أنا أمام مجرد تكرار أو حشو، أم أنّ في العدد 21 أكثر مما في العدد 1؟». هذا التبرير يعيدنا إلى رأي بوباديلا أحد الرفاق الأوائل، الذي عندما أطلع على نصوص الرياضات الروحية الأولى، أعرب عن استيائه من التكرار والترداد، وهو أمر قريب من الواقع إذا ما تعمقنا في دراسة النصوص، وهو ما تسبب بخلافات بين أغناطيوس وبوباديلا. وأخيراً، يقول القديس أغناطيوس إنّ المراد بالرياضات الروحية، طريقة فحص الضمير والتأمل والمشاهدة والصلاة اللفظية والعقلية وسائر الأفعال الروحية.

من الناحية الإدارية، كما أن كل جمعية أو منظمة في فرنسا أو معظم دول العالم اليوم، عليها إيداع نسخة لدى الدوائر الرسمية عن نظامها وقوانينها التأسيسية بغية تشريع وجودها، هكذا كان الأمر بالنسبة إلى الرهبانيات التي عليها الالتزام بتزويد دوائر الكرسي الرسولي بنسخة مفصلة عن هذه الأنظمة والقوانين. هكذا تمّ تسليم الكاردينال كونتاريني نسخة عن القوانين التأسيسية الأغناطية المؤلفة يومها من خمسة بنود أساسية (*La Formula*) من أجل وضعها في عهدة البابا بولس الثالث.

أراد الآباء اليسوعيون إصلاح الكنيسة الكاثوليكية المتعبة ورجال الإكليروس، علماً أنه كان قد سبقهم إلى ذلك قبل ستين عاماً «حلقة الأنجيليين» الذين لم يحصلوا سوى على تهكم وسخرية اراسموس. لقد أراد الرفاق الأوائل ابتكار رهبانية مختلفة عن باقي الرهبانيات، ورفضوا التحصّن في أديرتهم وفضلوا الانتشار والتمركز في المجتمعات كافة.

Riyad Nassar Library

ولم يكتفِ هؤلاء الرهبان بالنذور الثلاثة الكلاسيكية، بل أضافوا إليها النذر الرابع المتمثل في الطاعة العمياء لسيد روما، رمز وحدة الكنيسة الغربية التي قصمت ظهرها حركة الإصلاح البروتستانتية والحروب والنزاعات. أما عن ترجمة القوانين التأسيسية[23] للرهبانية اليسوعية فإنها تمّت عن الترجمة الفرنسية للأصل الإسباني، واستُعين أيضاً بالترجمة اللاتينية، وهي النص الكنسي الرسمي.

أمّا الرئيس العام الثاني الأب لينيث فقد كتب أنّ: «القديس أغناطيوس لم ينشر قوانين رهبانيتنا ولا أنهاها»؛ فالرهبانية اليسوعية التي أنشأتها في القرن السادس عشر مجموعة من الطلاب المتحدّرين من جنسيات أوروبية مختلفة تعرضت لشتى أنواع الأزمات والعراقيل، علماً أن المهمة الرسولية بقيت علة وجودها. ولقد وافق البابا بولس الثالث في البراءة البابوية عام 1540 على صيغة نظام الرهبانية الجديدة في القرار رقم 12، لكن أغناطيوس قام عام 1550 بإضفاء بعض التعديلات عليها بعد الاتفاق مع الرفاق الأوائل والبابا الجديد يوليوس الثالث، الذي وافق عليها في 21 تموز من العام 1550 في براءة جديدة، بقرار من المجمع العام يحمل الرقم 49. إن الآباء الأجلاء اغناطيوس دي لويولا وبيار فافر وجاك لينيث وكلود جاي وبسكاز برويت وفرنسيس كسفاريوس والفونس سالميرون وسيمون رودريغز ونيكولا بوباديلا كانوا من المؤسسين لهذه الرهبانية التي انتشرت لاحقاً في جميع أنحاء العالم.

من ناحيته يؤكد الأب أندره رافيير[24] أن أغناطيوس «وضع القوانين التأسيسية شخصياً وفي طريقة دراماتيكية لا تخلو من القداسة». هذا النص التشريعي الذي يحمل أحياناً طابعاً معقداً هو أيضاً ثمرة خبرة عاشتها مجموعة من الرجال رهنت حياتها للإنجيل المبارك كما عاشته الكنيسة الكاثوليكية. وانطلاقاً من هذا المبدأ، فإنّ الفصول العشرة التي سوف تحدد شكل الرهبانية مستقبلاً، هي في الوقت نفسه صورة الالتزام الذي عاشته هذه المجموعة ونادت به. من ناحية التسلسل المنطقي، فإنّ الجزء الأول من القوانين التأسيسية يتناول شروط قبول طلبات المنتسبين، من الطباع الهادئة إلى الإرادة القوية والمظاهر الشريفة التي توحي بالثقة والاطمئنان، إلى فن الكلام، إلى الصحة الجسدية واقتناء القوة على تحمّل حياة الرهبانية الشاقة.

لم ينسَ الفصل الأول تحديد شروط استبعاد بعض المرشحين لسبب «عدم جدوى وجودهم أو لإمكان عرقلتهم حسن سير الرهبانية لا مساعدتها». ثم تتطرق المواد اللاحقة إلى المتطلبات المفروضة على الطلاب اليسوعيين انطلاقاً من شعار (*mutatis mutandis*) الشائع في تلك الأيام، أي «عند تنشئة الطلاب في معهد أو جامعة تابعة للرهبانية اليسوعية من أجل مهمة عند المغاربة أي المسلمين أو الأتراك، من المستحسن دراسة اللغة العربية أو الكلدانية، أو اللغة الهندية في حال كانت وجهة المهمة هي بلاد الهند، كما الحال بالنسبة إلى اللغات الأخرى المحكية في بلاد أخرى وللأسباب عينها». إنّ الجزء السادس من القوانين التأسيسية يتناول الحياة الشخصية للأفراد المنتسبين إلى الرهبانية، إذا كان هدف هؤلاء التنقل في بقاع الأرض في خدمة الله تعالى، وتبقى الطاعة بالنسبة إلى هذه المجموعة البشرية الرحّالة شرط البقاء والاستمرار، ويبقى الإذعان عند الأب اليسوعي مضرب المثل في الانصياع لرئيسه وتنفيذ أوامره دون الاعتراض، وترك العناية الإلهية تسدّد خطاه بواسطة رئيسه كجثة هامدة تسيّر إلى أية جهة كانت ويتصرف بها في أية طريقة كانت، مثل عصا في يد رجل عجوز يضعها أينما يريد ومن أجل أي شيء يريده (*perinde ac cadaver*).

إنّ مجرد تشبيه الطاعة العمياء بجثة هامدة تسببت للمؤسسة اليسوعية بأضرار كبيرة وانتقادات قوية وسخرية لاذعة، خصوصاً وأن طاعة الأفراد للأب الرئيس مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطاعة الرهبانية برمتها إلى الحبر الأعظم، وأنّ المفردات المستعملة في هذا السياق واضحة كل الوضوح ولا تحتمل أي تأويل، إذ إنّ «أعضاء المجموعة يمكن إرسالهم إلى أي مكان بناء على أمر صادر عن ممثل سيدنا يسوع المسيح على الأرض أو بناء على أوامر صادرة عن السلطات العليا في الرهبانية اليسوعية التي تمثل أيضاً البابا، الذي يمثل بدوره السلطة الإلهية». وعلى هذا الأساس، فإنّ أي سبب لرفض المهمة أو الاعتذار عنها يبقى مرفوضاً ولا يمكن الاستعاضة عنها بمهام أخرى مهما كانت في خدمة الله والكنيسة.

يعتبر الأب دومينيك برتران[10] أنّ كلمة الخضوع أو الإذعان لا تعبّر عن حقيقة الواقع ويُفضل على هذه الكلمة «المؤامرة في خدمة المهمة». يُذكر في هذا السياق أنّ الطاعة لا تعني عند اليسوعيين تفرّد رئيس الرهبانية بالسلطة المطلقة، كما ورد في بند انتخاب هذا

Riyad Nassar Library

الرئيس الذي لا يحق له رفض انتخابه، كما حصل لدى أغناطيوس الذي بدأ بالرفض وانتهى بالانصياع إلى قرار الهيئة الناخبة؛ أوليست هذه السمة من سمات اليسوعيين، وتبريراً، في شكل أو آخر، للسخرية اللاذعة التي أظهرها الكثيرون في حقهم؟ إنّ الرئيس العام هو الشخص الوحيد في الرهبانية اليسوعية الذي يتم انتخابه مدى الحياة من المجمع العام، الذي يبقى رأس السلطة ومركز القرار، ولا ينعقد إلّا استثنائياً أو كل ثلاث عشرة سنة.

افترضت القوانين التأسيسية إقامة مجموعة من المستشارين والمساعدين المنتخبين من أجل مساعدة الجنرال على إدارة المؤسسة والحد من الاستبدادية والحكم المطلق، إذ إنّ الرئيس العام لا يمكنه اتخاذ القرارات المتعلقة بمستقبل الرهبانية، وعليه في حالة الضرورة دعوة المجمع العام الذي لا يجتمع في أوقات معينة، علماً أنه وكل ثلاث سنوات تتم دعوة مندوبي العالم إلى اجتماع يضع فيه الممثلون الجنرال في حقيقة وضع المؤسسة، أو الطلب منه الدعوة إلى مجمع عام من أجل مناقشة الأمور المصيرية واتخاذ الإجراءات اللازمة. يُمكن أيضاً لهذا المجمع العام تجريد الأب الرئيس من صلاحياته وفرض حتى استقالته، الأمر الذي بقي حبراً على ورق، ولم يعرف يوماً طريقه إلى التنفيذ.

إنّ أغناطيوس نفسه لم يمزج بين الطاعة وانكسار الضمير وانسحاق الرجال، عندما يأمر مرؤوسيه باحترام أجسادهم وصحتهم وعدم التعرض إلى الصيام المضني مثلاً والذي يتأتى عنه ضرراً على الصحة العامة ويمنع بالتالي متابعة الرسالة وخدمة الله تعالى. في مركز الرهبانية في روما وقف أغناطيوس في وجه بعض الآباء الذين أرادوا ليس الامتناع عن بعض الأمور يوم الجمعة بل تحويل هذا النهار إلى صيام في منتهى القساوة، كما أصر على عدم إدخال تقاليد وصلوات وتعبّدات جديدة إلى الرهبانية من دون علمه. كذلك أراد أغناطيوس أيضاً عدم الإسراف في الصلاة والتعبّد بل الانصراف إلى الأعمال وإيجاد الله فيها. أما في ما يختص بالتضحيات، فلم يتردد أغناطيوس في ثني أعوانه عن أذية الجسم البشري من جراء الصوم القاسي والمضني، كما حصل مع الأب ريبادينيرا الذي نصحه الأطباء بالتمنّع عن الصيام، والذي خاف من صدم إخوانه بتصرفاته، عندها لجأ هذا الأخير إلى أغناطيوس طالباً

إسداء النصح، وهو الذي تبنى وجهة نظر الأطباء وهدد بطرد الذين ينتقدون تصرف ريبادينيرا وامتناعه عن الصيام.

فالمؤسس وضع صيغة تعبّر عن أنظمة هذه الرهبانية وشروط الانضمام إليها، هذا هو مضمونها:

أولاً: من أراد أن يناضل في سبيل الله تحت راية الصليب في رهبانيتنا، عليه أن يقتنع بأنه من عداد رهبانية أنشئت لتسعى إلى هدف رئيس هو الدفاع عن الإيمان ونشره وتقدم النفوس في الحياة والعقيدة المسيحية... على الراغب، نذر العفة والفقر والطاعة الدائمة... وعليه مساعدة الغير مادياً وروحياً، كل ذلك مجاناً على الإطلاق ومن دون أن يقبل أية أجرة لنفسه في جميع تلك الأعمال...

ثانياً: الرئيس العام، انطلاقاً من آراء رفاقه مع حق الأكثرية بالبت، هو الذي له السلطة لوضع القوانين التأسيسية التي تمكننا من إدراك الغاية المنشودة. منذ عام 1539 أجمع الرفاق الأوائل على انتخاب الرئيس العام لمدى الحياة، على مثال البابا والملوك. «يجب أن يكون هناك رئيس عام وأن يُعيّن لمدى الحياة». فمنذ العام 1974 هنالك على مقربة من البابا الأسود اليسوعي مستشار أو مراقب يمكنه مع مساعديه طلب استقالة الجنرال عندما لا يعود هذا الأخير قادراً على القيام بمهامه وتحمل مسؤولياته، خصوصاً في حالة إصابته بمرض عقلي.

ثالثاً: إن هذه الرهبانية بأجمعها وكل عضو من أعضائها يناضلون في سبيل الله في طاعة مخلصة لقداسة البابا بولس الثالث ولسائر خلفائه الأحبار الرومانيين... النذر الخاص الذي يُضاف إلى النذور الثلاثة أي العفة والفقر والطاعة الدائمة، هو «أنه مهما أمرنا به البابا الحالي وسائر الأحبار الرومانيين خلفائه، فيما يتعلق بتقدم النفوس وانتشار الإيمان، والمكان الذي يريدون أن يرسلونا اليه، نكون ملزمين بتنفيذه فوراً دون تردد ولا اعتذار، بقدر ما يعود الأمر إلينا، سواء أمرنا بالذهاب إلى الأتراك أم إلى سواهم من غير المؤمنين، حتى إلى قاطني تلك المناطق التي يسمونها الهند، أو إلى أي قوم من الهراطقة والمنشقّين أو المؤمنين».

رابعاً: تنبيه جميع الأشخاص المستعدين للانضمام إلى جيش يسوع المسيح بإلهام من الرب أن يفكروا ملياً بأعباء هذه الدعوة.

Riyad Nassar Library

خامساً: على الكل أن يفهم أنه لا يجوز له أبداً أن يتدخل بالمهمات أو الأقاليم لا بنفسه ولا بواسطة غيره، بل أن يترك القرار إلى الله والحبر الأعظم كونه نائبه وإلى رئيس الرهبانية العام.

سادساً: على كل واحد أن ينذر الطاعة لرئيس الرهبانية العام «فلا يكتفي كل واحد من المرؤوسين بالطاعة الدائمة لرئيس رهبانيتنا العام، بل عليه أن يرى فيه المسيح نفسه فيكرّمه إكراماً لائقاً».

سابعاً: في هذا البند، نهي عن الطمع واعتماد الفقر الإنجيلي والامتناع عن التمتع بأي حق في الموارد أو الإيرادات أو الملكية... «بل فليكتفوا بقبول الصدقات التي تُقدّم لهم عن محبة لضروريات المعيشة».

ثامناً: إمكانية الرهبانية في أن تملك مدارس لتسهيل الدروس للدارسين «الذين يصبحون «كمشتل لرهبانيتنا يشمل الناذرين احتفالياً». ثم يتطرق هذا البند إلى صلاحية تعيين الرؤساء أو المديرين واختيار الدارسين وقبولهم وفصلهم وتأديبهم وتزويدهم بالمأكل والملبس وبكل ما يلزم...«على أن يكونوا بعد إنهاء دروسهم، أهلاً لأعمال رهبانيتنا».

تاسعاً: «تلك هي الخطوط العريضة التي استطعنا أن نرسمها عن دعوتنا، في عهد حبرنا الأعظم بولس الثالث وبموافقة الكرسي الرسولي. لقد ارتأينا من الصواب أن لا يُقبل أحد لإبراز النذور الاحتفالية في هذه الرهبانية، ما لم تُمتحن حياته ومعتقده امتحاناً طويلاً دقيقاً، لأن نظام هذه الرهبانية يتطلب في الواقع أناساً على جانب كبير من التواضع والفطنة في المسيح، يمتازون بصفاء الحياة المسيحية وحسن الأخلاق، وإن الذين سيُقبلون بصفتهم مساعدين للأعمال الروحية والمادية وبصفتهم دارسين يجب عليهم جميعاً أن ينذروا نذورهم وهي غير احتفالية، باستثناء بعض الرفاق الذين يمكنهم، بموافقة الرئيس العام، أن ينذروا تلك النذور الثلاثة بالصورة الاحتفالية. «وقبل أن ينذروها، يجب أن يُمتحنوا بعناية ويكونوا أهلاً للغاية التي تنشدها رهبانيتنا وليقبلوا عندئذ في جيش يسوع المسيح هذا». جاء في الصفحة 269: «إن رهبانيتنا لم تنشأ بفضل الوسائل البشرية، فلا تستطيع أن تستمر وتنمو بواسطتها، بل بقدرة المسيح إلهنا وربنا».

Riyad Nassar Library

في الفصل الأول وفي الصفحة الثالثة والعشرين من القوانين التأسيسية التي وضعها أغناطيوس دي لويولا ورد حرفياً: «إنّ الجماعة الصغيرة هذه، التي سمّاها الكرسي الرسولي، عند إنشائها، رهبانية يسوع أو شركة يسوع وافق عليها، للمرة الأولى في السنة 1540، البابا بولس الثالث السعيد الذكر، وثبّتها هو نفسه عام 1543، ثم خليفته يوليوس الثالث في عام 1550». يترجم الأب صبحي حموي اليسوعي الكلمة الإسبانية (Companià) أو (Compagnie) بالفرنسية بكلمة رفقة يسوع، الكثيرة الاستعمال للدلالة على مجموعة دينية. يضيف الأب حموي: «إنّ المجمع الواحد والثلاثين للرهبانية اليسوعية الذي انعقد في عامي 1965–1966 لم يعدل القوانين التأسيسية، لكنه أصدر قراراً تطبيقياً جديداً، لتكييف ممارسة الفقر على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تطورت منذ القرن السادس عشر. فلقد عرض بوجه خاص على الحبر الأعظم قانوناً جديداً يقول بأن الفقر يُعبّر عنه، لا في العيش من الصدقات فقط، بل في العيش من عمل أيدينا، في أيامنا خصوصاً». وفي البند الخامس ورد ما يلي: «إضافةً إلى النذور الثلاثة المذكورة، فإن رهبانيتنا الناذرة نذوراً احتفالية تنذر للحبر الأعظم، الحالي أو العتيد، بصفته نائب المسيح ربنا، نذراً صريحاً بالذهاب، دون اعتذار ودون التماس أي مصروف للطريق حيثما يرسلها الأب الأقدس، إلى المؤمنين أو غير المؤمنين، للقضايا المختصة بالعبادة وخير الدين المسيحي». لقد ورد في تفسير هذا النص في الصفحة الخامسة والعشرين ما يلي: ترد هذه العبارات عدة مرّات، وكانت تدل، في آن واحد، على بلدان قد يختلط فيها المؤمنون وغير المؤمنين، كما كانت الحال في اليونان والهند... إن هذا التفسير هو تطور إيجابي بالنسبة إلى باقي الأديان في وجه عام، وبالنسبة إلى المسلمين في وجه خاص، إذ ورد في عدة منشورات ومؤلفات أن رغبة أغناطيوس عندما وصل إلى القدس في الخامس من أيلول عام 1523، كانت «هداية» المسلمين.

فئات الرهبان أربع هي: الفئة الأولى: يُقبل في الرهبانية اليسوعية لإبراز النذور الاحتفالية الأربعة الذين يتمتعون بثقافة كافية وأن يكونوا قد أظهروا لمدة طويلة كفاءتهم بحياتهم وسيرتهم، وعليهم جميعاً أن يكونوا كهنة قبل النذور. تضم الفئة الثانية من قبلوا

كمساعدين لخدمة الله ومعاونة الرهبانية اليسوعية في الأمور الروحية أو الزمنية، وينذرون بعد الاختبار والامتحان النذور البسيطة الثلاثة، أي الفقر والعفة والطاعة، من دون النذر الرابع وهو الطاعة للبابا، ولا أي نذر احتفالي آخر. تضم الفئة الثالثة من قبلوا كدارسين، وعليهم، بعد تحصيل العلم، أن يدخلوا إلى الرهبانية كناذرين احتفالياً أو كمساعدين، بحسب ما يرى مناسباً. ولكي يقبلوا كدارسين في الرهبانية اليسوعية، عليهم أن ينذروا النذور الثلاثة بطريقة علنية وغير احتفالية ولكن «أبدية»، وتحتفظ الرهبانية بحق الإعفاء منها، علماً أن الدارسين يقطعون الوعد بدخول الرهبانية في نهاية دروسهم، ويعتبر هذا الوعد معادلاً لنذر من النذور الثلاثة. أما الفئة الرابعة فهي تضم الذين يُقبلون دون أن يُبت في ما يكونون أهلاً له مع الزمن، ويجب أن يكون لديهم عند الدخول هذا «الاستعداد الباطني» أي غير منحازين عن أية درجة يستحسنها الرئيس. ثم يمضي المساعد أو الدارس في تمضية سنتين ابتداء قبل الارتباط بالرهبانية عن طريق النذور، ويمضي سنة ثالثة وهو «الابتداء الأخير» في مؤسسة «مدرسة القلب» كما كان يسميها القديس أغناطيوس.

لقد ورد في الحاشية 19 في الصفحة 28 ما حرفيته: «ليس هناك لباس معيّن، ومع ذلك فللمسؤول عن البيت أن يرى هل يدع مرؤوسيه يحافظون على الثياب التي أتوا بها من العالم أم يسألهم أن يبدّلوها. وإذا بليت، يقدم لهم ثياباً أخرى أكثر ملاءمة لعملهم أو لتلبية حاجات البيت». تجدر الملاحظة إلى أن أغناطيوس باع ثيابه واستبدلها هو كما رفاقه بثياب بالية، وأن الرفاق الأوائل عُرفوا في البدء «بالأردية الرمادية» (Robes grises) قبل أن تفرض عليهم محاكم التفتيش أن يلبسوا الرداء الأسود أسوة بالجميع.

يتطرق القديس أغناطيوس مطولاً في القوانين التأسيسية إلى جملة الموانع التي تحول دون قبول بعض الأشخاص في الرهبانية اليسوعية ومنها على سبيل المثال لا الحصر، انفصال الراغب في الدخول سابقاً عن «حضن الكنيسة المقدسة» و«احتقار سلطة أمنا الكنيسة المقدسة ورعايتها». أما السبب الثاني فهو يتمثل في كون الراغب فيما مضى « قاتلاً» أو عرف علناً بأنه «فضيح»، نسبة إلى فضيحة، علماً أنه إذا عاد تماماً إلى خدمة الله، فإنّ هذه

Riyad Nassar Library

الفضيحة لا تحول دون دخول الرهبانية اليسوعية. ومن المعروف أن حياة اغناطيوس قبل هدايته كانت أقل ما يقال فيها صاخبة وتملؤها الارتكابات والفضائح كما تم ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب.

تطال الموانع أيضاً الارتباط بوثاق الزواج، أو كونه يعاني من مرض يعرّض بصيرته للتشوش، أو من مرض عضال يمنعه من القيام برسالته. من جملة الأسئلة الواجب طرحها على الراغب في الانتساب إلى الرهبانية اليسوعية، إذا كان قد وُلد من زواج شرعي أم لا، وأسباب ولادته من زواج غير شرعي، وتحدّره من مسيحيين عريقين أم من مسيحيين حديثي العهد. إن مسألة الأصول عند وضع القوانين التأسيسية كانت لها الأهمية الكبرى، بسبب هداية بعض اليهود أو المغاربة الإسبان إلى المسيحية بكثير أو قليل من الإكراه، ابتداءً من سقوط الأندلس وغرناطة في أيدي الملكين المسيحيين عام 1492، وما تبعه من ضغوطات واضطهادات وقيود.

في الفصل الرابع يصل أغناطيوس إلى تخلي الراغبين في الانضواء تحت «راية الصليب» والرهبانية اليسوعية عن أملاكهم وأموالهم وتوزيعها على الفقراء والأعمال الخيرية المقدسة، وعلى «تجريد النفس من كل عاطفة بشرية نحو الأقارب» وتحويلها إلى حب روحي.

إنّ هذا الموضوع تسبب بالحقد نحو الرهبانية اليسوعية، لأنه في كل مرة كان يحوز أحد المهتدين الأغناطيين على إرث عائلي، كان ملزماً بالتخلي عنه أوتوماتيكياً لمصلحة الرهبانية، هكذا تحوّلت ربما بعض الثروات العائلية الكبيرة إلى خزائن الرهبانية اليسوعية «من أجل مجد الله الأعظم». وفي هذا السياق يوصي أغناطيوس المبتدئين بالتدرب بعد دخول البيت على مختلف الأشغال الحقيرة الوضيعة، جاعلاً من نفسه قدوة صالحة، وعلى شرح التعليم المسيحي للأولاد ولغير المثقفين، والقيام بالوعظ والإرشاد، وخلال الفترة التجريبية طوال سنتين لا يجوز الادعاء بالانتماء إلى الرهبانية اليسوعية.

بعد الخضوع إلى الاختبار الأول، يخضع المتروض إلى الاختبار الثاني وهو الخدمة في المستشفيات، ثم إلى الاختبار الثالث وهو زيارة بعض الأماكن المقدسة، ثم الاختبار

الرابع أي القيام بالأشغال الحقيرة الوضيعة في البيت، ثم الاختبار الخامس وهو تلقين التعليم المسيحي وصولاً إلى الاختبار السادس وهو الوعظ وسماع الاعترافات. ويتطرق أغناطيوس أيضاً إلى الأمور الحياتية العادية، كما الأكل واللبس والشرب والنوم، داعياً الراغبين بالالتحاق بالرهبانية اليسوعية إلى طريقة عيش الفقراء، وإلى التسوّل على الأبواب على مثال الرفاق الأوائل.

في حياتي الجامعية عرفت عدة آباء يسوعيين أتقياء وأنقياء، من بينهم على سبيل المثال لا الحصر الأب بيار مادي (Pierre Madet) والأب لويس دوما (Louis Dumas) اللذين كانا القدوة والمثال لي ولزملائي في حياتنا، وخصوصاً من الناحية الأخلاقية. إن كل هذه الشروط ضرورية قبل إعلان النذور، والانتشار في جميع أنحاء المعمورة في خدمة الله بناءً على أمر أو إشارة من نائب المسيح، وأن « نعمل كل ما نؤمر به دون توقع أية مكافأة في هذه الحياة الأرضية العابرة». بعد إكمال سنتي الابتداء، على الراغب في دخول الرهبانية أن يقدم نفسه وينذر، نذوراً احتفالية، إن كان ناذراً احتفالياً، ونذوراً بسيطة إن كان مساعداً أو دارساً، ولكن يستحيل عليه بعد إبراز النذور أن ينتقل إلى رهبانية أخرى من دون إذن يمنحه رئيس الرهبانية اليسوعية، باستثناء رهبانية الكرتوزيين. وفي حالة وجود شكوك في سلوك أو إمكانيات مرشّح بعد انقضاء وقت الابتداء المحدد بسنتين، يعطى سنة ثالثة إضافية للتأكد من سلامة الاختيار. وهنالك امتحانات أخرى للمساعدين وحدهم وللدارسين وللذين لا ينتمون إلى فئة معينة لن ندخل في تفاصيلها، وهي كثيرة ومتعددة.

الباب الأول: شروط القبول: يعود أمر القبول في الرهبانية اليسوعية إلى الرئيس العام أو رؤساء الأقاليم أو الذين يحملون تفويضاً من الرئيس العام أو من رئيس الإقليم. يقتضي الشرع الكنسي الحالي أن يكون المبتدىء قد بلغ السن السابعة عشرة على الأقل، أما شرع الرهبانية اليسوعية، فإنه يقتضي بلوغ السن الثالثة والثلاثين لإبراز النذور الاحتفالية، إلّا بإذن من الرئيس العام. إن المواهب البشرية التي من شأنها أن تسهم في نجاح البشارة وتمجيد الله هي الطبيعة الهادئة والليّنة، والميل إلى العبادة، وحب الفضيلة والقدوة الصالحة، والمظهر المقبول والعافية والعمر والذكاء والذاكرة من أجل اكتساب العلم وحفظه، وموهبة الكلام، إضافة إلى المواهب الخارجية التي كانت تضم أيام اغناطيوس، أي في القرن السادس عشر،

شرف النسب والغنى وغيره.

أما في تدريب الدارسين على وسائل مساعدة القريب: «يُستحسن البدء بالتمرن في نهايتها على الأسلحة الروحية الواجب استعمالها في مساعدة القريب»، من الوعظ في لغة الشعوب المتداولة إلى منح سرّي التوبة والقربان المقدس، وإلقاء الرياضات الروحية على الآخرين، وجعل التعليم المسيحي في متناول الأولاد والبسطاء، والمساعدة على الميتة الصالحة. أما في إدارة المدارس، فتنص القوانين التأسيسية على عودة الإشراف الإداري إلى الرهبانية اليسوعية، وعن كون «رئيس المدرسة رجلاً مثالياً في بنيان الآخرين وفي ضبط أهوائه المنحرفة، ومختبراً بالأخص في الطاعة والتواضع، وأن يُعنى بتطبيق قوانين الرهبانية التأسيسية، ويعلم بنفسه التعليم المسيحي مدة أربعين يوماً، والمحافظة على الأصدقاء واستمالة قلوب المعارضين للرهبانية». أما عن الجامعات، «تعم الفائدة على السواء، بفضل المواد التي تُدرّس والأشخاص الذين يترددون إليها والشهادات التي تمنح فيها، لكي يدرّسوا بجدارة في مكان آخر ما أتقن درسه فيها، لمجد الله ربنا»، أما قرار حلّ الجامعات القائمة فلا يمكن اتخاذه من دون موافقة المجمع العام. وفيما يختص مباشرة بحسن سير الجامعة، يُستحسن تنفيذ القضاء المدني أو الكنسي بالنسبة إلى قرارات رئيس الجامعة؛ «إن تمرّد دارس أو كونه حجر عثرة، فلا يمكن فصله من الدرس، بل يجب طرده من المدينة أو سجنه». أما عن المواد الواجب تدريسها في جامعات الرهبانية اليسوعية، فإنّ عِلم اللاهوت يأتي في المرتبة الأولى، مما يقتضي معرفة الأدب واللغات اللاتينية واليونانية والعبرية؛ وكان النص الأصلي الإسباني يذكر إضافة إلى اللغتين اللاتينية واليونانية، اللغات الكلدانية والعربية والهندية. وتحت عنوان الأدب، كان أغناطيوس يعني إلى جانب الصرف والنحو، ما يختص بالبيان والشعر والتاريخ. «وكما كانت دروس الطب والحقوق بعيدة إلى حد بعيد عن نظام رهبانيتنا، فلا يبحث فيها في جامعات رهبانيتنا، أو فلا تلتزم رهبانيتنا بهذا العبء على الأقل».

كانت ممارسة الطب محرّمة على رجال الإكليروس، أما درس الحقوق فكان يمهد للسلك الكنسي، والطموح إليه كان محرّماً على اليسوعيين. في الحاشية رقم 18 وفي

Riyad Nassar Library

الصفحة 151 من كتاب القوانين التأسيسية التي وضعها القديس أغناطيوس دي لويولا، يذكر الأب صبحي حموي اليسوعي أن حقل الدروس أصبح أوسع مما كان عليه في زمن القديس اغناطيوس، وإن «أردنا أن نكون أمناء للروح نفسه، وجب علينا ألّا نخاف الالتزام بجميع الحقول التي يعمل فيها الإنسان ويفكر». لقد ورد في الحاشية رقم507 ك: «وليبعث بهذه الرسائل مختومة، فلا يعلم أي أحد بما كتبه الآخر»، وكل شيء ينتهي بعبارة: «لمجد الله ربنا». تكاد صيغة إبراز النذور الاحتفالية أن تكرر حرفياً كلمات الصيغة التي لفظها الرفاق الأولون، في 22/ 4/ 1541 على الشكل التالي: «أنا فلان أنذر نذوراً احتفالية، فأعاهد الله القادر على كل شيء، بحضورأمه العذراء، والبلاط السماوي بأجمعه، والموجودين حولي جميعاً ، وأعاهدك أيها الأب المحترم، رئيس عام الرهبانية اليسوعية، القائم مقام الله وأعاهد خلفاءك بالفقر والعفة والطاعة الدائمة، وبما يراعيها من الاهتمام الخاص بتعليم الأولاد، على وجه العيشة الوارد ذكره في الرسائل الرسولية الخاصة بالرهبانية اليسوعية وفي قوانينها التأسيسية. وأعاهد أيضاً بطاعة خاصة للحبر الأعظم في شأن الرسالات، على ما ورد ذكره في الرسائل الرسولية والقوانين التأسيسية نفسها. ثم يتناول الناذر القربان المقدس، وبعد ذلك، يدوّن، في السجل الذي تحفظه الرهبانية، اسمه واسم الذي نذر بين يديه مع ذكر اليوم والشهر والسنة والمكان. ويجب حفظ نص النذور الخطي، ليتسنى دوماً إثباته لمجد الله ربنا».

الباب الثاني: في الطاعة المقدسة: على الجميع ممارستها لا في الأمور الإلزامية وحدها، بل وفي غيرها من الأمور، وإن لم يظهر فيها إلا تلميح إلى إرادة الرئيس، من دون أمر صريح، وأن يكون سلوكهم بروح المحبة، لا بروح الاضطراب الناشيء عن المخافة. ونوجه بوجه خاص جميع قوانا إلى ممارسة فضيلة الطاعة للحبر الأعظم أولاً، ثم لرؤساء رهبانيتنا.

وفي الحاشية رقم 3 الصفحة 182، جاء ما يلي: «يمكننا أن نقول إنّ الطاعة للحبر الأعظم، التي كثيراً ما تسمى النذر الرابع، هي النذر الأول في الواقع. قال بطرس فافر إنّ هذا النذر هو المبدأ والأساس اللذان تقوم عليهما رهبانيتنا». ويتطرق مجدداً إلى التكرار الوارد

Riyad Nassar Library

في القوانين التأسيسية، نافياً صفة التكرار من الناحية التنظيمية السلبية، ولكن التكرار واضح في كل النصوص. وكما أنّ الطاعة تستوجب المحبة، علينا أن «نلبي صوتها كأنه صادر عن فم المسيح ربنا... مقتنعين بأن ما نُكلف به أمر طوعي، متخلّين، بما يشبه الطاعة العمياء، عن كل رأي وحكم ذاتي يعاكسه، في كل ما يأمر به الرئيس وحيث لا نرى أي نوع من أنواع الخطيئة».

تشير الحاشية رقم 5 في الصفحة 182 إلى أن «هذا التلميح، الوحيد في القوانين التأسيسية، إلى طاعةً عمياء ينطبق أساساً على أكثر أنواع الخضوع مشقة، أي على خضوع الرأي». وهذا ما أثار حفيظة الكثيرين ضد الرهبانية اليسوعية من خلال هذه الطاعة العمياء (*Perinde ac cadaver*)، التي تنكّر لها طويلاً الآباء الأفاضل، مشددين لا على طاعة العبيد، بل على «طاعة أبناء يدعون عن طريقها، إلى الدخول في ظلمات الإيمان المطهّرة». أما عن الطاعة، «كما تكون الجثة بين يدي من ينقلها، أينما شاء، أو كما تكون العصا في يد العجوز، يستخدمها أينما شاء، وفيما شاء، بحسب حاجة الذي تكون العصا في يده، فعلى هذا النحو يجب على المُطيع أن ينفذ بنشاط كل ما يريد الرئيس أن يسلمه إياه من الأمور لمساعدة جسم رهبانيتنا كله، متيقناً أن يكون بذلك أكثر امتثالاً لإرادة الله مما لو أتبع إرادته ورأيه الخاص في جهة معاكسة فقام بغيره من الأعمال».

وفي الحاشية رقم 7 الصفحة 183، ورد الآتي: «إنّ التشبيه بالعصا في يد العجوز عودة إلى التشبيه بالآلة في يد النجّار، الوارد ذكره في القانون المنسوب إلى القديس باسيليوس. أما التشبيه بالجثة، فلقد ورد في سيرة القديس فرنسيس الأسيزي التي كتبها القديس بونافنتورا». ثم تشدّد القوانين على اللجوء إلى الرئيس العام الذي يقوم عند الراهب «مقام المسيح ربنا». في التوجيهات المتعلقة بالطاعة، عندما نستعرض فصول القوانين التأسيسية، نذكر هنا المقطع التالي الشهير: «إن من عاش تحت سلطة الطاعة، وجب عليه أن يسلّم أمره للعناية الإلهية لتتولى أموره بوساطة الرؤساء، وأن يكون بين أيديهم كما تكون الجثة بين يدي من ينقلها أينما شاء، ويتصرف بها كيفما شاء، أو كما تكون العصا في يد الشيخ يستخدمها أينما شاء وفيما شاء، بحسب حاجة الذي تكون العصا بيده».

إن «الطاعة بحسب روح اغناطيوس لا تقوم على الخضوع لسلطة مطلقة، بل على الالتزام الكامل في سبيل الخدمة الرسولية التي تشكل هدف الرهبانية. فما يحققه الحصن بالنسبة إلى الرهبان في الأديرة، تحققه الطاعة بالنسبة إلى اليسوعيين المرسلين على دروب العالم». إن الطاعة «تحقق إذاً رغبة الرفاق في أن يبقوا ملتحمين بعضهم ببعض في خدمة الكنيسة، كما أنها تجسّم الاتحاد بين الحريات المجتمعة طوعاً للرسالة. وهذه الرؤيا عينها قد أوحت بنذر الطاعة الخاص للبابا الذي ينذره رهبان النذور الاحتفالية في الرهبانية اليسوعية». لذلك فإنّ الغرض من النذر الرابع أي الطاعة المطلقة للحبر الأعظم، هو عدم الاستقرار في بلد معيّن بل الانتشار في جميع أنحاء العالم في خدمة الله والكنيسة، وإنّ الرفاق الأوائل القادمين من ممالك وجنسيات مختلفة، قد وضعوا أنفسهم في تصرف البابا كي يوزعهم في سبيل نصر إلهي أعظم.

لم يحاول أغناطيوس كسر الإرادة وإخضاعها للمشيئة البابوية، بل تحقيق رسالة اليسوعيين، وهذا ما حصل عندما اعتلى الكاردينال كارافا السدة البطرسية عام 1555. «كان كارافا حقوداً» كما ورد في الصفحة 96 من كتاب الأب البير لونشان3 اليسوعي، ولما علم أغناطيوس بانتخابه أصيب بانفعال شديد «واهتزت عظامه كلها» ودخل يصلي، «ثم خرج بعد قليل فرحاً مسروراً». أما شهادة الطالب اليسوعي الفلمنكي تيودوريك غيّرايرش في ما يتعلق بيوم 23 أيار 1555، فإنها أتت على الشكل التالي: بعد انتخاب الكاردينال كارافا أسقف رهبانية التياتان تحت اسم بولس الرابع، كان «أغناطيوس يقول إنه لم يرَ في الوقت الحاضر رجلاً آخرأجدر منه لإصلاح الكنيسة، وإنه ابتهج لهذا السبب لدى سماعه بالخبر ابتهاجاً لم يشعر به منذ زمن طويل». كان كارافا أو بولس الرابع من جنوبي إيطاليا وكان يكره الإسبان وعلى أشد العداوة مع الملك فيليب الثاني مما أدى إلى صراع عنيف. البابا من جهته اتهم الآباء اليسوعيين بالتآمر وتحويل مقرهم في لاسترادا إلى مستودع أسلحة، وحاول أيضاً فرض الصلاة في الخورس على الرهبانية اليسوعية والمس بقوانينها التأسيسية. أما أغناطيوس المرتبط بالقوانين وبالطاعة إلى البابا نائب المسيح، فقد انصاع إلى الإرادة البابوية مكرهاً، معتبراً أن الشهامة والبسالة ضروريتان من أجل «تحمل ضعف كثير من

الناس، وللإقدام على أعمال عظيمة لخدمة الله ربنا...». واصل أغناطيوس نشاطاته مرسِلاً من روما الدعوات الكثيرة إلى «كرم الرب»، مؤسّساً أخوية «النعمة» و «مبرّة القديسة مرتا». وفي 22 شباط 1550 في شارع «أراشلي» لاحظ المارة وجود إعلان كتب عليه «مدرسة الصرف والنحو والآداب والعقيدة المسيحية المجانية» مطلقاً هكذا تاريخ المعهد الروماني سلف الجامعة الغريغورية الحالية.

فالمعهد الروماني كان في الأساس من أجل تنشئة المرشحين للرهبانية اليسوعية ومن ثم من أجل الشباب المعوزين في روما. لقد تمّ تنفيذ هذا المشروع بفضل سخاء دوق غاندي، ولاحقاً في عام 1553 تمّ إحداث فروع في البلاغة والفلسفة واللاهوت، على الرغم من الأعباء المالية التي فرضت على أغناطيوس سابقاً بيع آثارات من العصر الروماني بغية تشييد بيت «سيدة الطريق». أسس الرئيس العام فرنسيس دي بورجيا المدرسة اليسوعية الأولى في مدينة غاندي، ثم في مسّينا عندما قبلت الرهبانية للمرة الأولى بين طلابها، علمانيين ليست عندهم النية في الانخراط في الرهبانية، معلنة بدء إمبراطورية تعليمية لا مثيل لها حتى اليوم في العالم أجمع. يجب ألّا ننسى هنا ما كتبه الرفاق الأوائل عام 1540: «لا جامعات في الرهبانية، ولا مدارس»، علماً أنّ هذه الرهبانية أصبحت تعد عام 1556 تسعاً وعشرين مدرسة، وفي نهاية القرن السادس عشر نحو 150 مدرسة. إنّ هذا التغيير الإستراتيجي الذي طرأ على الرهبانية، شرحه أغناطيوس في رسالته إلى الدوق دو بافيير، حيث جاء فيها: «تقوم مهمتنا على رفع شأن العلم واللاهوت والدين. ولا بد من إعداد الطلاب بوساطة العلوم الدنيا والآداب القديمة والفلسفة...». وأثناء رسالتهم إلى إيطاليا والبرتغال وإسبانيا، وفيما بعد في فرنسا والمانيا، «اكتشف اليسوعيون ضرورة مواكبة الحركة الإنسانية، بتعليم موثوق به يستند إلى الوعظ والاعتراف ومثل حياتهم الشخصية».

انتشرت المدارس في خضم حقبة مقاومة حركة الإصلاح، وفي عام 1549 أرسل أغناطيوس بعض الآباء إلى ألمانيا بناءً على طلب الدوق دو بافيير من أجل الدفاع عن الكرسي الرسولي «ضد الهراطقة» من دون اتخاذ أية مواقف متطرفة، وبمحبة، أي دون الخلط بين القساوة والتعصب، ولا بين المودة والتراخي، ولكن بطريقة لا توحي بروح

Riyad Nassar Library

المسالمة. إن رسائله المقدّرة بسبعة آلاف مخصصة في معظمها للقضايا الدينية الكبرى في أوروبا والعالم الجديد، وخير دليل على ذلك المراسلات التي بعث بها إلى شارلكان من جهة حيث يدعو الأمبراطور إلى تمويل إنشاء مدرسة ألمانية تعنى بتربية الشبان الذين يتعلمون اللغة الألمانية وتنشئة أساقفة ووعّاظ صالحين، ومن جهة ثانية الكتاب الذي أرسله إلى كانيزيوس، إذ كان في فيينا حيث كانت الكثلكة محتقرة والهرطقة منتشرة، واعداً متوعداً الهراطقة بالنفي والسجن وحتى الموت. والذي يزعجنا اليوم أشد الإزعاج التعليق على هذا الموضوع وبهذه الطريقة المستهجنة التي برّر بها الأب البير لونشان اليسوعي في الصفحة 103 من كتابه، قائلاً ما حرفيته: «إن هذه الإرشادات الشرسة تزعج مشاعرنا اليوم. ولكن في الواقع، يظهر فيها أغناطيوس معاصراً لهنري الثامن، ملك إنكلترا، الذي كان يضرب أعناق الكاثوليك، ولكالفين الذي أمر بحرق مناوئه ميشيل سيرفه. فالحركة المسكونية آنذاك، كانت تحسم مناقشاتها بالسيف...». إن ما يربكنا في هذا الموضوع التبرير الذي يقوم به الأب ألبير لونشان اليسوعي الذي يدعونا صراحة إلى تقبل ومعذرة أمور غير مقبولة فكرياً وأخلاقياً في أيامنا هذه لمجرد كونها من مخلفات القرون الغابرة وعقلياتها.

وفي عام 1546 تأسس الإقليم اليسوعي الأول تحت رئاسة سيمون رودريغز الذي تمّت إقالته في عام 1550، ولكنه رفض الانصياع إلى أوامر الرئيس العام، الذي بادر إلى إرسال رسالة في الطاعة وجهها إلى الآباء والأخوة في البرتغال ملخصاً الطاعة الأغناطية. وفي 20 أيار 1553 نصّ رسالة إلى رودريغز يأمره بالحضور حالاً إلى روما، ولكنه لم يرسلها إلّا بعد مرور شهرين مرفقاً معها حاشية تختلف لهجتها اختلافاً كاملاً، وهي مزيج من الحزم واللين. وتمّ تأسيس أول ثانوية يسوعية فرنسية في مدينة بيلوم عام 1556 حيث بلغ عدد تلامذتها الثمانمائة طالب. في الوقت الذي كانت فيه الحاجة ماسة وملحة لرجال الإصلاح في الأديرة ورفع مستوى الجامعات، ونقل بشرى الأنجيل الى العالم الجديد، وترفيع البرازيل إلى مرتبة إقليم، تأسس عام 1555 إقليم فرنسا، «أما السوربون الحاسدة فقد عرقلت بناء أية ثانوية»، لكن منذ عام 1550 فإنّ صحة أغناطيوس بدأت تتدهور، وفي عام 1556 كفّ عن إقامة القداديس، وفي منتصف حزيران ذهب إلى منزل يقع في «ألافنتان» في وسط كروم

العنب، ولكنه عاد في 27 تموز إلى منزل «لاسترادا». في 30 تموز ساءت حالته وطلب من بولانكو أن يذهب إلى الفاتيكان طلباً للبركة الرسولية، وعند الفجر بدأ أغناطيوس ينازع، فهرع بولانكو إلى الحبر الأعظم الذي أعرب عن حزنه العميق ومنحه البركة بحنان، وتمّ إعلانه قديساً كما فافر في 12 آذار عام 1622.

يقول الأب لونشان في الصفحة 115: «وقد رأى الناس فيها عرى شبكة منسوجة نسجاً دقيقاً لغزو العالم روحياً وزمنياً. فانهالت على الرهبانية الانتقادات والتهم الباطلة والحسد والاضطهادات، مما أدى إلى حلّها عام 1773، على يد البابا كليمنس الرابع عشر ثم عادت إلى الوجود عام 1814 بفضل البابا بيوس التاسع، وهكذا لم يسلم عمل أغناطيوس دي لويولا من ضروب الإهانات».

الباب الثالث: في الفقر: «الفقر حصن الحياة الرهبانية المنيع ... غير أن عدو الطبيعة البشرية يحاول عادة أن يُضعف هذا التحصين». في الحاشية رقم 12 الصفحة 186 ورد ما يلي: «يجب على كل واحد، بعد إبراز النذور الاحتفالية، أن يُضيف، أمام الرئيس العام والمحيطين به، وعداً يقدمه لخالقنا وربنا بألا يعدّل أبداً في القوانين التأسيسية ما يختص بالفقر ...» في الفقرة 555: «في البيوت أو الكنائس التي تتسلمها رهبانيتنا لتساعد النفوس، لا يجوز أن يكون أي دخل تتصرف به بوجه من الوجوه، حتى للسكرستيا أو الأوراق أو لأي شيء كان. وبما أن رهبانيتنا تتكل على الرب، وهي تخدمه بواسطة نعمته الإلهية، فهو الذي يؤمن لها، من دون أن يكون لها أي دخل، كل ما من شأنه أن يسهم في تسبيحه الأكبر ومجده الأعظم». أما في الفقرة 557 : «على الناذرين احتفالياً إذا لم يُرسلوا إلى الخارج، أن يعيشوا من الصدقات داخل البيوت، وألّا يشغلوا عادة منصب رئيس في مدارس رهبانيتنا أو جامعاتها (ما لم يكن ذلك ضرورياً أو مفيداً جداً لها، وعليهم ألّا يستعينوا في البيوت بدخل المدارس). ويشرح الأب صبحي الحموي اليسوعي أنّ الإقامة في المدارس والجامعات لا يجوز أن تدوم وقتاً طويلاً إلّا إذا كانت هناك ضرورة أو منفعة لخير المدرسة أو الجامعة. ويشرح الأب الفاضل في الصفحة 187 قائلاً: «فليس في ذلك ما يخالف فيه هذا القانون التأسيسي الذي يحرّم الاستعانة بدخل المدارس لتأمين الطعام واللباس أو سائر النفقات

Riyad Nassar Library

الخاصة بالبيت». وفي (البند 562 الفقرة هـ): «لا يكن لرهبانيتنا، على ما ورد في البراءة، أي حق مدني في المحافظة على أي مال ثابت، إلّا ما يقتضيه السكن والاستعمال، فمن واجبها أن تتخلص في أقرب وقت من كل الأموال الثابتة المقدمة لها، ببيعها لسد حاجات الفقراء، في داخلها وخارجها». وتذكّر القوانين التأسيسية على «العطاء مجاناً ما نالوه مجاناً، وعدم المطالبة بأية مكافأة أو صدقة ثمن القداديس والاعترافات والمواعظ أو الدروس ... وتجنباً لجميع مظاهر الطمع عدم وضع صناديق التبرعات في الكنائس، والتسول من باب إلى باب، إن دعت الطاعة أو الحاجة إلى ذلك». في المادة 570: «لا يجوز لأحد أن يتملّك لنفسه شيئاً مما في داخل البيت أو مما في خارجه عند أحد آخر، بل على الجميع أن يكتفوا بما يقدم لهم من الخيرات المشتركة، لسد ما يحتاجون إليه أو ما يفيدهم، دون زيادة». وللمحافظة على الفقر في صفائه، قرر المجمع العام الأول التقيد عموماً بعدم الوراثة وعدم تملّك ملك خاص، إلا إذا حصل هذا الأمر بناء على ترخيص من الكرسي الرسولي، لا يكون ذلك لاستعماله الشخصي، وشرط أن أسلم كل شيء إلى الرئيس العام. وأخيراً، وللتصرف أيضاً في هذا الأمر بطريقة تتناسب مع الفقر، لا يكون عادة في بيوت رهبانيتنا أية دابة لأي أحد، رئيساً كان أم مرؤوساً لكن نذر الفقر يرتبط بأوضاع اجتماعية أو اقتصادية متقلبة. لقد كتب أغناطيوس ورفاقه الأوائل: «ليس هنالك من حياة أكثر فرحاً ونقاوةً من تلك التي تضع الإنسان في منأى عن هذا الطاعون الذي اسمه حب المال».

الباب الرابع: العفة: «إن ما يختص بنذر العفة في غنى عن الشرح، فنجتهد في هذا الأمر أن نشابه الملائكة بطهارة أجسادنا وأرواحنا». في الحاشية رقم واحد الصفحة 181 ورد حرفياً: لا تخصص القوانين التأسيسية إلا بضعة أسطر لنذر العفة وممارسته. في كتاب صدر عن دار الفارابي[15] عام 2012 تحت عنوان: «نور العالم» يتحدث الحبر الأعظم الحالي بنديكتوس السادس عشر إلى الصحافي الشاب بيتر سيفالد عن البابا، الكنيسة وعلامات الأزمنة. إن هذا الحوار يُسلّط الأضواء على مشاكل العصر والكنيسة معاً، وكيفية التعاطي معها. يستهل البابا هذا اللقاء قائلاً: «يبدو الكثيرون ممن هم خارج الكنيسة وكأنهم داخلها، وكثيرون ممن هم داخلها وكأنهم خارجها». بيتر سيفالد المحاور اللامع يسأل الحبر الأعظم: «العديد

من الاعتداءات الجنسية التي لا يمكن تصورها، تبرز من الماضي إلى النور...اعتداءات جنسية اقترفها كهنة ورهبان...» البابا يُعرب عن صدمته أمام هذه الجرائم المشينة مستصعباً «رؤية الكهنوت ملوثاً على هذا النحو في الصميم، ومعه الكنيسة الكاثوليكية نفسها». يسأل الصحافي عن تزايد حالات الاعتداءات الجنسية داخل الكنيسة وعن تقرير راين الذي خَلُص الى حجم الاعتداءات الجنسية الهائل، ويجيب قداسته إن روما تدرس أسباب هذا الوباء اللاأخلاقي والإجراءات اللازمة من أجل تدارك حصوله في المستقبل، «لأن مَن مِن شأنه أن يساعد البشر على الوصول إلى الرب، أو مَن يفتح الطفل أو الشاب قلبه له لكي يجد الرب، يُلطخه ويُبعده عن الرب». بيتر سيفالد ينتقد الطريقة المتبعة في التعاطي مع هذه الفضائح ومحاولة التستير عليها معتبراً أن هذا التصرف هو «إعلان إفلاس لمؤسسة أدرجت الحب في رايتها». ويُكمل المحاور حديثه قائلاً: «لقد أعلنت مدرسة اليسوعيين في برلين عن أولى حالات الاعتداءات الجنسية، وسرعان ما توالى الكشف عن جرائم في مؤسسات أخرى، وليس في مؤسسات كاثوليكية فقط». يستنكر الحبر الأعظم حصول هذه الجرائم المشينة ويقول إنه «لم يكن في استطاعة وسائل الإعلام نقل هذه الأشياء بهذه الطريقة لو لم يكن الشر حاضراً في حضن الكنيسة».

يقول سيفالد: «الكثير من هذه الأحداث يعود إلى عقود خلت. ومع ذلك، فهي تلقي بثقلها على حبريّتك، هل فكرت في الانسحاب؟» ويأتي جواب خليفة بطرس واضحاً: «لا يجوز أن نهرب، عندما يكون الخطر كبيراً. بالتأكيد، لم يحن وقت الاعتزال... يمكن الانسحاب في وقت هادىء أو عندما لا نعود قادرين على معالجة الوضع». ولكن الصحافي يصّر على الحبر الأعظم قائلاً: «إذاً، هل يمكن تصور وضع تعتبر فيه مناسباً انسحاب قداسة البابا؟» ويأتي الجواب سريعاً: «نعم، عندما يدرك البابا بوضوح أنه لا يستطيع جسدياً، ونفسياً، وروحياً، تحمل مسؤولية وظيفته، فمن حقه، لا بل حسب الظروف، من واجبه الانسحاب». هل يدل هذا الحوار وهذه الأجوبة من رأس الكنيسة الكاثوليكية على أنّ الانتخاب مدى الحياة أصبح عرضة على أقله للنقاش؟ ويسأل سيفالد: «نقرأ أيضاً، تحت شكل اتهام عفوي، أن هنالك علاقة مباشرة تربط تعليم الكنيسة للجنس بالبتولية والاعتداءات...

Riyad Nassar Library

وقد ورد في تقرير صادر عن الحكومة الأميركية للعام 2008، أنّ نسبة الكهنة المتورطين في حالات بيدوفيلية(*)، هي نحو 0.03 %... أصدرت الصحيفة البروتستانتية «كريستشان ساينس مونيتور» دراسة تقول فيها «إن الكنائس البروتستانتية في أميركا، تطولها البيدوفيلية بنسبة أكبر بكثير». يجيب قداسته قائلاً: «علينا أن نلاحظ أن هذه الأمور ليست من خصوصية الكهنوت الكاثوليكي أو الكنيسة الكاثوليكية. إنها لسوء الحظ متأصلة في طبيعة الإنسان الخاطئة».

يتطرق بيتر سيفالد إلى أقوال البابا قبل أسابيع من انتخابه خلال الاحتفال بدرب الصليب يوم الجمعة العظيمة عام 2005 عندما قال: «كم من النجاسات في الكنيسة، وبخاصة بين الذين هم في الكهنوت». يجيب الحبر الأعظم: «الشيطان... ألقى كل هذه القذارة في وجهنا، كما لو أنه أراد أن يُظهر للعالم حجم الوساخة خصوصاً بين الكهنة... فقدنا بعض الشيء مفهوم التوبة». ويسأل المحاور: «أسباب الانتهاكات معقدة... نتساءل كيف مَن يقرأ الإنجيل كل يوم ويحتفل بالذبيحة الآلهية، من يتناول الأسرار كل يوم... أن يتيه إلى هذا الحد الرهيب». يرد البابا قائلاً: «يجب أن يكون قد شعر، أقلّهُ في يوم سيامته، برغبة عظمة ونقاء... فكيف يمكنه أن يسقط في هذا الشكل؟». ويسأل الصحافي قداسة البابا قائلاً إن «اكتشاف الحياة المزدوجة لمؤسس الجماعة الرهبانية «جنود المسيح» مارسييال ماسييل ديغولادو، هزّ أيضاً الكنيسة. توفي ماسييل في الولايات المتحدة الأميركية، في السنة 2008، قبل ذلك بعدة سنوات، شاعت عنه اتهامات بانتهاكات جنسية. اعترفت خِدْنُ مارسييال ماسييل بأنها أم طفليه. تُسمع الآن في المكسيك أصوات تقول بأن الاعتذار العلني «لجنود المسيح» غير كافٍ، وبأن على الجماعة أن تُحلّ. يجيب الحبر الأعظم: «لسوء الحظ، لم تصلنا هذه المعلومات إلا أخيراً وببطء كبير... ولم تكن لدينا أدلة ملموسة قبل العام 2000. وفي آخر الأمر كنا في حاجة إلى شهادات قاطعة لنتيقن من ثبوت الاتهامات... يجب إجراء بعض الإصلاحات، ولكن في المجمل الجماعة سليمة». ويستطرد سيفالد قائلاً: «قضية ماسييل لا مثيل لها في تاريخ الكنيسة. إلى جانب ذلك، هناك في كل مكان كهنة أيضاً يعيشون علاقة

(*) البيدوفيلية: لواط الغلمان أو انحراف جنسي نحو الأولاد.

شبه زوجية، في السر أو بعلم من جماعتهم أو حتى من السلطة الكنسية. الفضيحة كبيرة، لا سيما عندما يتم إبعاد الأطفال، ثمار هذه العلاقات، إلى مؤسسات، وتتولى الكنيسة دفع نفقاتهم». أتى جواب الحبر الأعظم في غاية الوضوح والصراحة إذ أجاب: «عندما يُعايش كاهن امرأة، يجب التحقق: هل لديهما رغبة حقيقية في الزواج؟ وهل يستطيعان أن يعقدا زواجاً صحيحاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فعليهما أن يتبعا هذا المسار... المشكلة الأساسية في النزاهة. والثانية في احترام حقيقة الرجل والمرأة والأولاد، بحيث نجد الحل المناسب. والثالثة في مسألة أن نعرف كيف يمكننا أن ننشىء مجدداً شباناً على البتولية، كيف يمكننا أن نساند الكهنة في أن يعيشوا البتولية».

Riyad Nassar Library

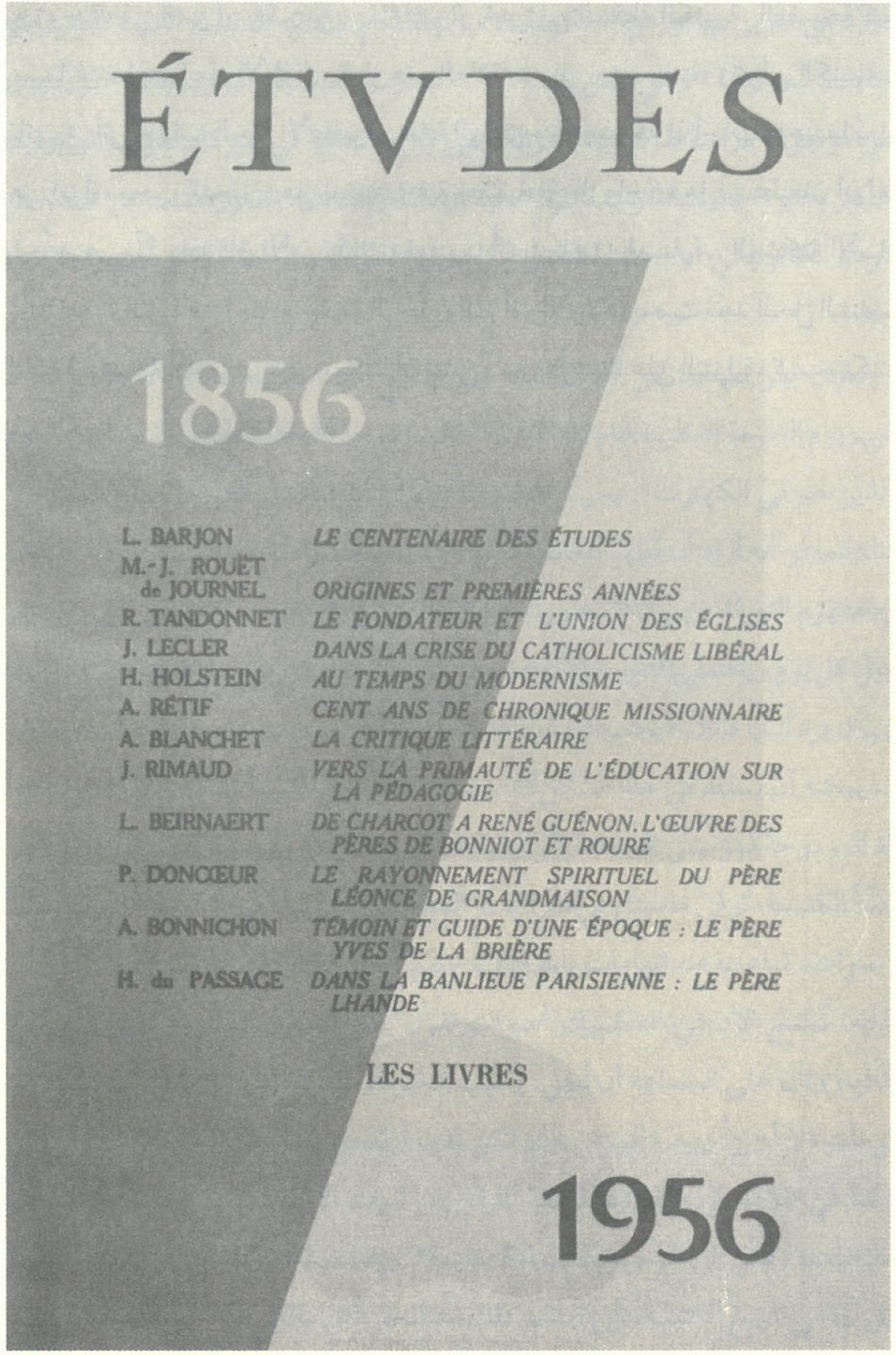
ÉTVDES

1856

L. BARJON	LE CENTENAIRE DES ÉTUDES
M.-J. ROUËT de JOURNEL	ORIGINES ET PREMIÈRES ANNÉES
R. TANDONNET	LE FONDATEUR ET L'UNION DES ÉGLISES
J. LECLER	DANS LA CRISE DU CATHOLICISME LIBÉRAL
H. HOLSTEIN	AU TEMPS DU MODERNISME
A. RÉTIF	CENT ANS DE CHRONIQUE MISSIONNAIRE
A. BLANCHET	LA CRITIQUE LITTÉRAIRE
J. RIMAUD	VERS LA PRIMAUTÉ DE L'ÉDUCATION SUR LA PÉDAGOGIE
L. BEIRNAERT	DE CHARCOT A RENÉ GUÉNON. L'ŒUVRE DES PÈRES DE BONNIOT ET ROURE
P. DONCŒUR	LE RAYONNEMENT SPIRITUEL DU PÈRE LÉONCE DE GRANDMAISON
A. BONNICHON	TÉMOIN ET GUIDE D'UNE ÉPOQUE : LE PÈRE YVES DE LA BRIÈRE
H. du PASSAGE	DANS LA BANLIEUE PARISIENNE : LE PÈRE LHANDE

LES LIVRES

1956

مجلة دراسات

Riyad Nassar Library

الفصل الخامس

لا للنساء في الرهبانية اليسوعية

جميع الرهبانيات من البندكتيين إلى الدومينيكيين إلى الفرنسيسيين والكرتوزيين (Chartreux) عندها نسخة أو فرع ثان نسائي باستثناء اليسوعيين. بعض هذه الرهبانيات النسائية اتبعت الرياضات الروحية والتزمت إلى أقصى الحدود بالقوانين التأسيسية. الأمثلة كثيرة في هذا الشأن، من راهبات معهد ماري وورد إلى الأب ميدايل إلى مجموعة الجمعيات الدينية الخمسين التابعة للقديس يوسف، إلى معتزلات كاترين دو فرانشفيل وراهبات القلب الأقدس، الخ... لقد اتهم بعضهم الآباء الأوائل خصوصاً أغناطيوس دي لويولا ببغض النساء (Misogynie)، وخير دليل على ذلك ما ورد في القوانين التأسيسية في هذا الشأن، وهو اعتراض مطلق على وجود المرأة في هذا التنظيم الديني الكاثوليكي، مما يعني استبعاد ما لا يقل عن نصف الجنس البشري.

تبرز عداوة النساء بوضوح عند أغناطيوس، عندما يعلن قائلاً: «من رأسهن إلى أخمص أقدامهن، كل شيء يشكل فخاً للرجال»، لافتاً إلى أوجه التشابه بين المرأة والشيطان، كما جاء في الرياضات الروحية[22-5] ضمن القاعدة الثانية عشرة حيث ورد: إن «العدو أي الشيطان يتصرف مثل المرأة. إن الشيطان ضعيف إذا قاومناه بقوة، وقوي إذا تركناه يعمل. فمن طبع المرأة إذا خاصمت رجلاً، أن تفقد عزيمتها وتلجأ إلى الفرار، إن وقف

في وجهها بحزم. وبالعكس، فإن أخذ الرجل يهرب ويفقد عزيمته، فلا حد لشدة غضب المرأة وانتقامها وتوحشها. كذلك، فمن طبع العدو أن يضعف ويفقد عزيمته ويهرب ومعه تجاربه، إن أبدى المتروض في الأمور الروحية إصراراً في مقاومة تجارب العدو، وتصدى له بنقيضها. وبالعكس، فإن أخذ المتروض يخاف ويفقد العزيمة من شدة التجارب، فليس على وجه الأرض وحش أكثر افتراساً من عدو الطبيعة البشرية في السعي وراء نية الأضرار بخباثة لا حد لها».

عارض أغناطيوس بشدة السماح بانشاء رهبانية يسوعية نسائية عبر توجيه رسالة إلى البابا بولس الثالث يطلب فيها من قداسته عدم السماح مطلقاً، وفي أي شكل كان، وفي أية ظروف كانت، إنشاء فرع نسائي لليسوعيين كي يبقوا أحراراً. هل علينا أن نرى هنا تمييزاً بين الرجل والمرأة، وتكريساً لدونية الجنس اللطيف وفوقية الرجل في عالم ذكوري، وهو الذي انغمس حتى أذنيه في ملذات الحياة الدنيا قبل انصرافه إلى دعوته الجديدة؟ أغناطيوس الذي نادى بمساعدة النفوس، هل كان يعتقد في قرارة نفسه أن للنفس جنساً معيّناً؟ وهل هذا يعني أنّ الإنسان الذكر له حق المساعدة ومد يد العون خلافاً للجنس الآخر؟ تجدر الإشارة إلى أنّ أغناطيوس على عكس رفاقه الأوائل مثل كزافير الذي اعترف إلى أحد رفاقه بأنه لم يعرف أية امرأة في حياته، كما فافر وغيرهما، كان له صولات وجولات في ميدان الملذات الدنيوية وحب النساء، إذ كان له في شبابه عدة عشيقات، وبعد هدايته عدة محسنات من طبقة النبلاء والنافذين في أوروبا.

لعبت زوجة أخيه الأكبر مجدلينا دي أرأوز بعد وفاة والدته، والتي أصبحت إحدى وصيفات الملكة الكاثوليكية إيزابيل الأولى، دوراً مؤثراً في حياته العاطفية والروحية، وكان لها التأثير الكبير على مجرى حياته. إن مجدلينا هذه كانت في حظوة ملكة إسبانيا التي أهدتها تمثالاً للسيدة العذراء زيّنت به الكنيسة الصغيرة[5] في البيت العائلي، والتي قال عنه بدرو دي ليتوريا أفضل المؤرخين المختصين في طفولة أغناطيوس، إنه كان أول شيء يؤثر في ولع أصغر أبناء دي لويولا. أغناطيوس واستناداً إلى دي ليتوريا حكى لأحد المبتدئين من رفاقه من أصل بلجيكي، قائلاً:

«إن تمثال السيدة العذراء كان يشبه مجدلينا في إشعاعها وجمالها، الأمر الذي كان يصرفه عن الصلاة، فاضطر إلى إخفاء وجه السيدة مريم بقطعة من القماش كي لا يعود يفكر فيها». يتبين لنا أنّ هذا كان أحد مفاتيح سر العداء للنساء وخوفه من إمكان صرفه كما رفاقه عن العبادة والصلاة والحوار مع الخالق. ثم تأتي قصة الوريثة الثانية (Infante) لعرش قشطالة كاترين، أصغر بنات «جَان المجنونة» (Jeanne La Folle) أخت الأمبراطور شارلكان. تجدر الإشارة إلى أنه في فصل الخريف من العام 1521 كانت إحدى القلاع محاصرة من الثوار عندما فكت الجيوش الملكية الحصار وأطلقت الملكة وابنتها كاترين، وهي التي أثرت بجمالها وشبابها في أغناطيوس إلى حد كبير، وقدمت له يد المساعدة لاحقاً في سعيه من أجل إنشاء الرهبانية اليسوعية.

التقى أغناطيوس بعدد كبير من النساء مثل إينيس باسكوال أرملة تاجر في برشلونة التي رأت في هذا الزاهد الأعرج عنوان التقوى والورع. ثم توالت سبحة النساء اللواتي لعبن دوراً هاماً في حياة أغناطيوس ومساعدته، وغالبيتهن من النساء المرموقات المقربات من الحكم والسلطة، مما أثار مجدداً حفيظة رجال محاكم التفتيش، خصوصاً بعد أن زارته في غرفته أم وابنتها الصبية بحثاً عن «التعبّد» كما كان يقول بعض الساخرين. ثم دخل اغناطيوس مدينة روما عام 1538 التي أفسدتها العاهرات والمجون، حيث مَنع أغناطيوس رفيقيه لينيث وفافر من التعاطي مع النساء إلا مع تلك المتحدرات من طبقة النبلاء منعاً للكلام المسيء والمشاكل.

وهنا لائحة بأسماء بعض المحسنات مثل جَان داراغون ومارغريت دي بارما أو «مداما» وهي الابنة غير الشرعية لشارلكان، وفيتوريا كولونا مركيزة بيسكارا، والكونتيسة كاربي والكونتيسة أورسيني والكونتسية سالفياتي والوريثة الثانية للعرش خوانا التي أصبحت ربما عن «طريق المصادفة» المرأة اليسوعية الوحيدة. لا يمكننا هنا أن نغفل ذكر السيدة إليونور دي ماسكاريناس زوجة خوان دي فيغا سفير ملك إسبانيا في روما التي فتحت في وجه الرهبانية اليسوعية أبواباً كثيرة وأوصدت أخرى كثيرة أيضاً. ولكن عاملين سلبيين أثرا شديد التأثير على الرهبانية، أولهما الغيرة من جانب الرهبانيات الأخرى في روما، وثانيهما الثمن الذي أرغمت الرهبانية اليسوعية على دفعه لقاء الوساطات.

Riyad Nassar Library

عام 1547 اشتدت حدة الضغوطات على الرهبانية اليسوعية من طرف الرهبانية الدومينيكية على لسان ميلكيور كانو العدو اللدود الذي راح يندد بـ«هؤلاء الرجال الذين يستمتعون بالنقاشات الحميمة مع النساء إلى حد الذهاب إلى منازلهن تحت عذر حَملهن على الاهتداء». هكذا كانت الحال مثلاً عند الأخ تيوفيل الذي تقدم بشكوى أمام محاكم التفتيش التي كان يسيطر عليها الآباء الدومينيكيون أنفسهم ضد «كهنة يطلقون على أنفسهم لقب شركة يسوع والذين يُعرفون أيضاً تحت اسم الأغناطيين والمتنورين، الذين أساؤوا أشد الإساءة إلى السيدتين النبيلتين جَان وكونستانس كونتي عندما أعلنوا بثرثراتهم إلى العلن فحوى اعترافهما وفضحوا سر الاعتراف المقدس عند الكهنة».

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الرهبانية الفرنسيسية عندما تقدم الأخ باربران بشكوى ضد اليسوعيين أمام الحبر الأعظم لا أمام محاكم التفتيش، متهماً إياهم بـ«سعيهم إلى طرد كل النساء الزانيات خارج جدران روما»، مما دفع باغناطيوس إلى التصريح قائلاً: «إذا أردنا أخذ أقوال الأخ باربران على محمل الجد، كل اليسوعيين من بربينيان إلى إشبيلية يستحقون الموت على المحرقة». إن خلف برباران الأخ ماثيو دي سان كاسيانو الفرنسيسي، والذي كان له موقع هام عند الكرسي الرسولي وعشيق إحدى السيدات النافذات التي لجأت إلى دير سانت مارت اليسوعي هرباً من عذاب الضمير أو من عشيقها الأخ ماثيو، جعل هذا الأخير يقول أمام بولس الثالث وهو في قمة الغضب: «أصبح دير سانت مارت مجرد سرايا تابعة لليسوعيين». نتيجة كل ذلك قامت التحقيقات وتقدم الشهود وقامت المحاكمات التي خلصت إلى براءة المتهمين.

وضع مؤسس الرهبانية اليسوعية قواعد من أجل تنظيم سر الاعتراف عند النساء، إذ اشترط وجود أخ ثان مرافق للراهب في مهمته الاعترافية وأن تكون الغرفة مضاءة والباب مفتوحاً. في رسالة وجهها أغناطيوس في شهر حزيران 1553 إلى كل الرهبان اليسوعيين تناول فيها سر الاعتراف عند النساء، طلب منهم الإسراع معهن وإنهاء المهمة في أقرب وقت ممكن، دون الذهاب إلى حد منع كل كاهن يبلغ من العمر أقل من 36 عاماً من منح سر الاعتراف إلى النساء. تعليمات أغناطيوس أتت واضحة في هذا الشأن عندما طلب

التحفّظ في هذه الحالات، خصوصاً إذا كانت النساء جميلات أو صبيات حتى ولو كان مظهرهن متعبدات ورعات أو قديسات، أو حتى من مستويات اجتماعية متدنية، أو فاسقات أو أصحاب سمعة سيئة.

كان أغناطيوس متساهلاً إلى حد ما بالنسبة إلى التبرّج خلافاً لأقرانه الذين كانوا يرون في هذه المظاهر تدخلاً للشيطان، لأن أغناطيوس كان يأخذ في عين الاعتبار حسن النيّة في حال كانت المرأة تحاول الحصول على إعجاب زوجها، إذ كان يرى في هذا الأمر مجرد هفوة يتوجب على الكاهن تنبيه الخاطئة منها، معتبراً أنه هنالك دوماً مكان للاستثناءات في هذا الموضوع. إن العلاقة المتينة بين الرهبانية اليسوعية وتاج مملكة البرتغال وبطلته الملكة كاترين التي عرفت أغناطيوس شاباً يافعاً متأثراً بجمالها الفائق، هي نفسها التي ساعدت أغناطيوس الذي أصبح رئيس أكثر الرهبانيات زهداً وبُعداً عن أمور الجنس، وإنّ البلاط الملكي في البرتغال أعطى دفعاً قوياً لهذه الرهبانية وفتح أمامها أبواب آسيا وسمح لها بالتمركز القوي في هذه القارة. لذلك، فإنّ الملكة كاترين لم يساورها الشك في تفاعل عواطف الشاب أغناطيوس نحوها ولم تعلم فحواها إلا بعد موته بمدة طويلة عام 1578 وهي على شفير الموت، عندما عاد لويس كونزالفيس داكمارا إلى لشبونة، وأخبرها بجميع التفاصيل.

أما قصة المرأة الثانية فهي تتعلق بزواج جَان داراغون أو خوانا «الديفا سينيورينا» (la diva signorina) المفروض من شارلكان لأهداف سياسية مع أسكانيو كولونا شقيق الشاعرة الشهيرة فيتوريا كولونا الصديقة المقربة من مايكل أنجلو وأغناطيوس. كان الدوق كولونا قد شارك في نهب روما (Saccage de Rome) وأخذ يبذرثروة وإرث «الديفا سينيورينا» في نابولي بينما كانت زوجته تحيط نفسها بالشعراء والفنانين والفلاسفة.

حاول أغناطيوس طويلاً ترميم هذا الزواج بين الديفا و«الوحش» الذي أصبح حديث أوروبا، مما دفع بأغناطيوس إلى السفر مع بولانكو في اتجاه الجنوب بعد مكوثه 12 سنة في روما، من أجل محاولة مصالحة الزوجين الأعداء. كانت الديفا الإسبانية قد بلغت من العمر 45 سنة وخسرت الكثير من نضارتها، وزوجها المغامر الإيطالي كان قد شاخ، عندما توجّه

Riyad Nassar Library

أغناطيوس نحو «صليبيته الزوجية». لم يتوصل الأب الرئيس إلى إقناع الديفا بالعودة إلى زوجها ولو شكلياً، وعند عودته إلى روما وجه أغناطيوس إلى الديفا رسالة تعبّر بكل وضوح عن الواجبات الزوجية وعن هرمية الأجناس وسلطة الرجل، في هذه العصور الغابرة. عدّد الأب الرئيس في هذه الرسالة الأسباب المتوجبة على انصياع المرأة إلى إرادة الرجل، وواجبها في إظهار الحب له كما التواضع والثقة. ومن واجبات المرأة يقول أغناطيوس الخضوع إلى إرادة الرجل وليس العكس، إذ إنّ الرجل حسب الشرائع يبقى رأس المرأة، مستشهداً بسارة زوجة النبي ابراهيم التي كانت تدعوه سيدي. ولم ينسَ أغناطيوس أيضاً تذكيرها بواجباتها في توفيرها لزوجها السلام والسعادة والكهولة السعيدة، وهو الذي شارف على الستين من العمر. لكن هذه المساعي كلها لم تفلح إذ بعد أشهر قليلة حرّر أسكانو وصيته وحرم ابنه مارك أنطوان بحجة أنه اقترف جرائم كثيرة لعل أهمها إقامة علاقات دنسة مع زوجة صاحب الوصية.

أما في قضية «مداما» كما كان أهل روما يسمّون مارغريت دي بارما ابنة شارلكان غير الشرعية التي ولدتها خادمة فلمنكية، فلقد اضطر أغناطيوس للتدخل مرةً أخرى في مشاكل الدولة. إن مارغريت دي بارما التي تزوجت في عمر الأربع عشرة سنة رجلاً سيء الأخلاق من فلورانس يدعى أليساندرو دي ميديسيس، أنقذها منه خنجر لورينزاسيو، عادت وتزوجت بعد مرور سنة حفيد الحبر الأعظم أوتافيو فارنيزي[5] الولد الذي عذبها أكثر من زوجها الأول. ومن أجل تدارك المشاكل بين حفيده وابنة الأمبراطور شارلكان، كلف البابا بولس الثالث اليسوعيين بمهمة مصالحة الزوجين، وأصبح جان كودور ثم دييغو لينيث ومن بعدهما أغناطيوس مسؤولين عن إدارة شؤون مارغريت، مفتتحين بذلك دورهم في الاطلاع على سر الاعتراف عند الملوك.

يركز المؤرخون[5] هنا على الدور الهام الذي لعبته مارغريت عبر تأثيرها على الحبر الأعظم في الحصول على اعتراف روما بالرهبانية اليسوعية على الرغم من معارضة الكرادلة غينوتشي وغوديتشيوني مما يجعل منها أحد مؤسسي الرهبانية اليسوعية، الشيء الذي ينكره بحدة الأب أغناطيوس. ورأى فيها آخرون التلميذة الأولى الكاملة والماهرة للآباء اليسوعيين، وأنّ الخدمات التي قدمتها إلى الرهبانية وكيفية استعمالها للسلطة في هولندا لاحقاً، جعلت منها رمز الإدارة اليسوعية في الشؤون العامة. في قصر مارغريت دي بارما

أو «مداما» الذي أصبح اليوم مركز مجلس الشيوخ في الجمهورية الإيطالية، كان أغناطيوس يؤمّن سر الاعتراف إلى مارغريت التي قدمت خدمات جلى إلى أصدقائها اليسوعيين. كانت «مداما» تجمع التبرعات من أجل المؤسسات اليسوعية، وخصوصاً مركز سانت مارت إضافة إلى تخفيف حدة عداء شارلكان في الأربعينيات «لدكاترة باريس». كان الإمبراطور يرى في اليسوعيين المرّوجين السريين للنفوذ الفرنسي، وأعداء الدومينيكيين والفرنسيسيين الذين كانوا في حظوته ويحوزون على ثقته، أو حلفاء اللوثرية الخفيين، أو كما رأت فيهم الملكية الفرنسية توازن السلطة، مما لا يتماشى مع نظامها المهيمن. في الستينيات من ذلك القرن وعندما كانت كاترين الوصية على عرش الفلاندر، أعطت الرهبانية دفعاً قوياً لا مثيل له عند إنشاء جامعة لوفان.

المرأة الأخرى التي كان لها الفضل الكبير في نجاح مسيرة أغناطيوس هي سيدة من برشلونة تدعى إيزابيل روسير وتتحدر من عائلة فائقة الغنى أصبح زوجها التاجر الغني أعمى. تعرّف أغناطيوس إلى السيدة روسير قبل سفره إلى القدس، ولكن بعد عودته إلى برشلونة ساعدته كثيراً في تأمين الأموال الضرورية لدراسته الطويلة في باريس إذ كانت تدفع الأقساط الشهرية عنه وغالباً عن فرانسوا كزافير. وكتب إليها أغناطيوس عام 1533 معرباً عن امتنانه، قائلاً: «إنني أدين إليك أكثر من أي شخص آخر في العالم». لقد نشأت مراسلات طويلة وهامة بين السيدة روسير وأغناطيوس الذي كان يزّودها بجميع التفاصيل من اضطهادات ودعاوى ومحن مرت بها المجموعة قبل أن تتخذ اسم رفقة يسوع.

بعد مرور أقل من ستة أشهر على انتخاب أغناطيوس توفي زوج إيزابيل التي حاولت الانعزال في دير سانت كلير التابع للراهبات الفرنسيسيات. ولكن صيت الأديرة السيء في منطقة كاتالونيا جعلها تتراجع عن هذا المشروع، وأتتها فكرة الالتحاق برفقة يسوع ووضع نفسها تحت تصرف مرشدها الروحي أغناطيوس. شعر رئيس الرهبانية اليسوعية بالخطر وحاول ثنيها بعنف عن مشروعها، ولكنها كتبت اليه في 6 تشرين الثاني 1542 رسالة تطلب منه فيها مساعدتها بدل وضع العراقيل أمامها، متطرقة إلى المساعدات التي منحته إياها في برشلونة معربة له عن عزمها في القدوم إلى روما من أجل مقابلته قبل موتها.

أثناء تطويبه قديساً تمّ نقل الوقائع التالية: عندما شاهد أغناطيوس إيزابيل في روما، أمسك برأسه بين يديه مستغرباً صارخاً: «من أتى بك إلى هنا؟». أجابته: «الله، وأنت يا

Riyad Nassar Library

أبناءه؟» ولكن بعد أن أوكل إليها إدارة مقرّي سانت مارت وسانت كاترين للنساء التائبات، حاولت أن تكون أول امرأة «يسوعية». من أجل وضع حد لطموحها هذا، أخذ أغناطيوس يتملص ويتهرب طوال سنتين ويرفض حتى الاستماع إليها، مما جعلها تلجأ إلى البابا بولس الثالث. كان هذا الحبر الأعظم قد شاخ كثيراً وانتهى بالرضوخ إلى طلبها، وفي عيد الميلاد عام 1543 تمكنت إيزابيل روسير وفرنسواز كرييولاس ولوكريس دي برادين من إعلان النذور التي تربطهنّ بالرهبانية اليسوعية وتفتح الطريق أمام إنشاء فرع نسائي لهذه الرهبانية الذكورية. ولكن أغناطيوس الأب الرئيس تخلى عن واجب الطاعة العمياء وتَحوُّل الإنسان إلى عصا في يد رجل عجوز يحركها على هواه، مستعيداً المبادرة، خصوصاً وأن السيدة التي أصبحت فخورة بلقبها الجديد أتت من كاتالونيا باثنين من أولاد أخيها لتؤمّن لهما زواجاً ناجحاً، محوّلة الرهبانية اليسوعية إلى وكالة أعراس (Agence Matrimoniale).

إن أغناطيوس في حكمته ودهائه طلب من الحبر الأعظم تحريره من كابوسه النسائي، ووجد المخرج المناسب بالرجوع إلى مقررات مجمع ترانت التي سمحت للكهنة بالوعظ والتبشير خارج الأديرة خلافاً للراهبات. لهذا السبب نرى أنّ الحبر الأعظم ببراءته البابوية جاء ليعزز الفصل السادس من القوانين التأسيسية، واضعاً حداً نهائياً لهذه المعضلة اليسوعية النسائية. أمّا أقرباء السيدة روسير فقد استنكروا الهبات الممنوحة من العمة إلى الرهبانية اليسوعية، وبدأت إيزابيل تعيد حساباتها وتطالب باستعادة أموالها معدّدة الهبات على أنواعها على مثال مناشف وفراش قش ودنتال مخرّم إلخ... في الأول من تشرين الأول عام 1546 وجه أغناطيوس كتاباً كان بمثابة حكم إلى إيزابيل، قائلاً: «كما شرحت مطولاً إلى قداسة البابا منذ ستة أشهر الأسباب التي تمنعني من القبول بك كابنة روحية تخضع لطاعتي، وكما أن الرهبانية اليسوعية لا يمكنها قبول النساء وخصوصاً في موضوع الطاعة، أحيلك إلى قرار قداسته». ولكن هذه المرأة لم تخضع لإرادة أغناطيوس وسارع ابن أخيها فيرير إلى اتهام اليسوعيين أسوأ الاتهامات كما أغناطيوس بأنه «خبيث وسارق حاول وضع اليد على ثروة عمته»، فاتحاً الباب أمام التطاولات على الآباء الأفاضل. ولكن إيزابيل روسير تملّكها الندم وطلبت الغفران من أغناطيوس والتحقت بدير الراهبات الفرنسيسيات في برشلونة مع صديقتها تيريزا ريخاديللا حيث وجهها أغناطيوس وبقيت فيه حتى وفاتها.

بعد 18 شهراً من إعلان نذور روسير وصحبها، وجه أغناطيوس في أيار 1547 كتاباً

إلى الحبر الأعظم يطلب منه إعفاء الرهبانية إلى الأبد من قبول النساء في صفوفها. ولكن أغناطيوس اعتقد دوماً بضرورة وجود الاستثناءات التي طالت سيدة هي جَان الوريثة الثانية لعرش إسبانيا التي وجدت نفسها وفي عمر الأربع سنوات على أثر وفاة والدتها تحت مسؤولية مربيتها إليونور ماسكاريناس التي لعبت دوراً هاماً لاحقاً في حياة أغناطيوس والرهبانية اليسوعية.

عندما انعزل شارلكان في دير يوست كي يتوفى هنالك، ترك لها مسؤولية الوصاية على عرش إسبانيا طوال خمس سنوات، وأصبحت المرأة اليسوعية الأولى في التاريخ حتى أيامنا هذه. لم تدخل جَان الرهبانية اليسوعية تحت اسمها الحقيقي المتألق بل تحت اسم ذكوري وعادي هو ماتيو سانشيز، علماً أن ابنة شارلكان بعد ترملها انسحبت إلى دير الراهبات الفرنسيسيات، وأعلمت في صيف 1554 محاوريها اليسوعيين بنيتها إعلان نذر الطاعة للرئيس اليسوعي، هي التي كانت حدود طاعتها تتخطى حدود إسبانيا.

عندما علم أغناطيوس بنيات جَان جمع على عجل مستشاريه بولانكو ونادال وكمارا، وتبين أنه من المستحيل رفض طلب صاحبة السمو الإسبانية. أتى القرار في تشرين الأول عام 1554 بعد استشارة الآباء، وكان كناية عن قطعة فنية في التوازن السياسي والروحي، أي استناداً إلى القوانين التأسيسية التي تمنع قبول أي طلب من هذا الشكل. نذكر أنّ ثلاث نساء قد تمّ قبولهن في البداية، ثم تمّ الاتفاق على قبول هذا الطلب عن طريق التجربة، وللرئيس حرية اختيار الفترة التجريبية، على أن يُبقي هذا الشخص انتماءه إلى الرهبانية سرّاً. إن هذا المخرج على الطريقة اليسوعية ترك حرية الحركة للرئيس ضمن رهبانية ذكورية في الحد الأقصى بقبول طلب انتساب أهم امرأة في أوج تألق إسبانيا وسيطرتها، ولكن بطريقة التجربة المؤقتة طوال سنتين وتحت ختم السر المطلق، إذ بقي هذا الانتساب خاضعاً لمشيئة الرئيس العام وعرضة للتغيير.

تجدر الإشارة إلى أنه وبعد وفاة أغناطيوس تمّ استبدال الاسم المستعار للأميرة باسم مونتويا. كان دي لويولا تابعاً للنظام الإقطاعي الإسباني، وكانت جَان أقوى من البابا الأسود في روما، لأن تاج إسبانيا كان أكثر سلطة من الرهبانية اليسوعية. لقد أكملت هكذا التدخل لأجل مصلحة الرهبانية خصوصاً ضد هجومات الدومينيكيين المستمرة ناهيك عن

Riyad Nassar Library

طبقة النبلاء التي راحت تتكلم عن إمبراطورية الأغناطيين، في هذه الطريقة ساعدت ابنة الإمبراطور في إحكام قبضة الرهبانية اليسوعية وانتشارها من الفلاندر إلى كاتالونيا. تكاثرت المراسلات بين جَان وأغناطيوس، وتضاعفت الطلبات والخدمات مما أشاع جواً من الغيرة والحسد والوشوشات والإساءات الكلامية والإشاعات التي ذهبت إلى حد علاقتها مع معرّفيها، إلى درجة أن أحد الآباء اليسوعيين أسف لتحول معهد فليادوليد اليسوعي إلى مستشارية حكومية، مما خلط بين السياسة والدين، والتداخل الحاصل بين الحاشية الملكية تحت سلطة اللباس الديني أو اللباس الديني في خدمة السلطة الزمنية.

إن الرسالة التي وجهتها جَان إلى الأب الرئيس[25] في شباط 1556 بغية منع الأب أرأوز كما الأب بورجيا من الانتقال إلى روما والبقاء في خدمتها في إسبانيا، ووضعهما في تصرفها كي تتمكن من إدارتهما انطلاقاً من نذر الطاعة، هو خير دليل على تداخل السلطة الزمنية في الأمور الكهنوتية. ماتيو سانشيز الذي أطلق على نفسه لاحقاً اسم مونتويا أي ابنة شارلكان وأخت فيليب الثاني توفيت عن عمر 38 سنة وحافظت على نذر العفة، ونذر الفقر عندما أنشأت في مدريد دير ديسكالزاداس.

بعد مرور سنوات على وفاة أغناطيوس فارقت «الراهبة اليسوعية» جان ابنة شارلكان الحياة من دون أن نعلم رأي الأب الرئيس في تجاهل روح القوانين التأسيسية. خصوصاً أنّ رفض انتماء النساء إلى هذه الرهبانية الذكورية أثار طوال الأجيال سيلاً من الاعتراضات، متذرعة بعدم وجود جنس أعلى وجنس أدنى عند الخالق، كذلك الأمر بالنسبة إلى العرق، وأنّ المرأة ليست في حالة دونية تمنعها من تحقيق مجد الله وخدمته. جان لاكوتور في حديث مع الأب كولفنباخ في ربيع 1990 يتكلم عن مهمة هذا الأخير كرئيس إقليمي في الشرق الأوسط والذي كان تحت ضغط متواصل من «سيدات القلب الأقدس» التي كان الرهبان اليسوعيون الشباب يطلقون عليهن لقب (five o'clock ladies) واللواتي كنّ يعتقدن أنفسهن مساعدات لرفقة يسوع، مما اضطر الأب كولفنباخ إلى مجابهتهن بالمحظورات الموجودة في القوانين التأسيسية.

إنه نقاش دائم منذ إيزابيل روسير وماريا وورد التي اتبعت عام 1609 تعاليم أغناطيوس بحذافيرها وحاولت إنشاء رهبانية يسوعية نسائية، ولكن الآباء تمكّنوا عام 1631 من الحصول على براءة بابوية تضع حداً لهذه المحاولات؛ فتحت قيادة الآباء اليسوعيين ميدايل

واكستاس في منتصف القرن السابع عشر تأسست في منطقة الأوفيرن (Auvergne) جمعية راهبات القديس يوسف واتخذت من نذور الآباء قاعدة جعلت هذه اليسوعانية المخنثة (Jésuitisme hermaphrodite) تنتشر في دول العالم وصولاً إلى الولايات المتحدة الأميركية وتنافس الآباء اليسوعيين، إذ وصل العدد عام 1980 إلى 25 ألف راهبة كما عدد الآباء. ولكن تبقى مؤسسة «سيدات القلب الأقدس» في فرنسا المنظمة النسائية الأكثر شبهاً برفقة يسوع الذكورية، والتي بقيت حتى اليوم تؤمّن التنشئة لفتيات الطبقات البورجوازية الميسورة في المجتمع الكاثوليكي الفرنسي على طراز الطريقة الباريسية *(modus parisiensis)* في القرن السادس عشر.

في العام 1995 صدر عن مجمع عام الرهبانية اليسوعية المرسوم رقم 14 المتعلق بـ«أوضاع النساء في الكنيسة الكاثوليكية والمجتمع»، متخذاً صفة الندامة وطالباً الصفح *(mea culpa)* أي خطيئتي عظيمة[21]، عن موقف الرهبانية اليسوعية الذي أهان النساء وأساء إليهن، واستعمل مشيئة الله تعالى ومجده من أجل تبرير الهيمنة الذكورية طوال حقبة طويلة من تاريخ البشرية.

موقف الآباء اليسوعيين الذين أعربوا عن ندامتهم، كان موضع اهتمام وسائل الإعلام، عندما تصدّر هذا الموضوع صفحات أهم الصحف في العالم، ولكن بعد مرور ست عشرة سنة على فعل الندامة هذا، لم يحصل أي تغيير في هذا الشأن. الحبر الأعظم يوحنا بولس الثاني فتح أبواب مراكز إدارة الكرسي الرسولي بخجل وحذر أمام النسوية الكاثوليكية، بينما البابا الحالي بينيديكتوس السادس عشر وعلى لسان مستشاره الكاردينال تارسيسيو برتوني أعاد طرح مكان النساء في الكنيسة، ووعد بتعيين بعضهنّ في المراكز الحساسة في إدارة حاضرة الفاتيكان. في تموز 2007 أعرب الأب اليسوعي أبيرهارد غيمنغر رئيس برامج راديو الفاتيكان في اللغة الألمانية، عن أمله في رؤية يوم يتم فيه انتخاب البابا من مجمع فاتيكاني مؤلف من ستين رجلاً وستين امرأة. ترك هذا الأب الفاضل الباب مفتوحاً أمام وصول كرادلة من الجنس اللطيف، قائلاً بأن هذا الأمر هو غير معقول وغير مقبول في الوقت الحاضر، ولكن من يعرف ماذا يمكن أن يحصل بعد مرور مئة عام، وعلى اليسوعيين المبادرة إلى قبول النساء في صفوفهم، وربما سوف تشهد البشرية يوماً أول رئيسة عامة للرهبانية اليسوعية.

Riyad Nassar Library

الجدير بالذكر أن الإرشاد الرسولي «يدعو إلى عناية خاصة بالنساء تضمن لهنّ حقوقهنّ في الحياة الإجتماعية والوطنية. والكنيسة دعت دائماً إلى المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، لأن كليهما صورة الله، والنساء القادرات على إظهار عبقريتهنّ في مختلف ظروف الحياة البشرية. كذلك، يجب أن تعطى المرأة قدراً أكبر في المشاركة والمسؤولية في الحياة والقرارات الكنسية». من جهته، يتحدث المطران أنطون حميد موراني في كتابه الذي يحمل عنوان: الإرشاد الرسولي رجاء جديد للبنان، الصادر عن دار المشرق في بيروت عام 2000 عن كرامة المرأة داعياً النساء «ليدافعن عن ذواتهنّ كي يحصلنّ على كل حقوقهنّ ولا يُعاملنَ كوسيلة، كما يجب على العائلة أن تؤمن التربية على الشعور بالمساواة بين الرجل والمرأة».

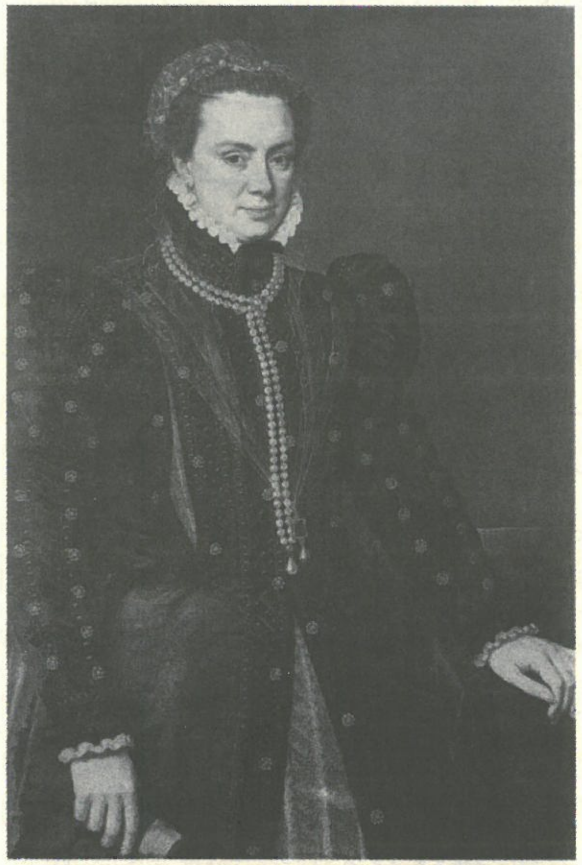

مارغريت دي بارما أو «مداما» ابنة شارلكان الغير شرعية

الفصل السادس

رهبانية دينية أم سرّية عسكرية؟

في روما الخالدة ظهرت نواة هذه المجموعة البشرية الغربية التائهة المؤلفة من حفنة من المغامرين المتعطشين للنظام والهرمية، الهارعين إلى الاستعباد من أجل الفوز بنوع من الحرية؛ ولم تكن، أي روما، في أيام أغناطيوس ورفاقه المدينة الأكثر فساداً في الغرب، بل أيضاً مدينة جريحة مذلولة تحاول لملمة جراحها المتقيّحة. فقبل عشر سنوات، هاجمت عاصمة الكثلكة جحافل الإمبراطور شارلكان تساندها جيوش بعض صغار الأمراء الإيطاليين المناوئين للكرسي الرسولي، وعملت فيها النهب والحرق والقتل والاغتصاب والتدمير تحت مرأى ومسمع البابا كليمنس السابع الذي أجهش بالبكاء وهو محاصر وراء جدران قصر سانت أنج المنيعة. ثمانية أيام من التدنيس على أيدي زعماء مسيحيين جعلوا سكان المدينة الأزلية يعتقدون أن ما حصل ويحصل هو لعنة من السماء شبيهة بلعنة سدوم وعامورة، جرّاء تمردها على الإرادة الإلهية.

اهتز الكرسي الرسولي على أثر هذه المأساة، إضافة إلى سيطرة الحركة اللوثرية على ربع القارة الأوروبية واحتلال منطقتي البلقان والدانوب من قبل جيوش الأتراك، واتساع سيطرة الإمبراطور دون أي رادع. بعد عشر سنوات على حدوث الزلزال الذي قضى على كليمنس السابع، تم انتخاب اليساندرو فارنيزي تحت اسم بولس الثالث في العام 1534، وأثناء ولاية هذا الحبر الأعظم، أبصرت النور رفقة يسوع التي صممها لقاء مونمارتر.

Riyad Nassar Library

من أجل الاطلاع على الأوضاع السائدة في هذه الحقبة الزمنية وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على وضع الكنيسة الكاثوليكية، علينا العودة إلى العام 1492 وانتخاب رودريغو بورجيا تحت اسم إسكندر السادس على رأس السدة البطرسية والذي دام عهده حتى العام 1503. لقد اشتهر هذا البابا بحبه للدسائس ومحاباة الأقارب وتدنيس المقدسات وانتهاك الحرمات، وهو الذي كان يتحدر من عائلة إسبانية نافذة. أما البابا يوليوس الثاني الذي خلف إسكندر السادس على عرش القديس بطرس حتى عام 1513، فيداه كانتا ملطختان بالدماء، ولم يتمكن مجمع لاتران الذي جمعه في العام 1512 من إنجاز أية إصلاحات في الكنيسة الكاثوليكية.

عام 1513 خلف يوليوس الثاني البابا لاون العاشر وكان يحمل اسم جان دوميديسيس ودام حكمه حتى عام 1521. كان هذا البابا يحب البذخ وعديم الاحتشام، وهو الذي أنهى أعمال مجمع لاتران الخامس بقرارات عادية في عام 1517، وهي السنة التي انطلقت فيها الحركة اللوثرية، وكان رئيسها عالِم لاهوت ألمانياً إصلاحياً أدانه الكرسي الرسولي عام 1520 مما جعله يحارب الكاثوليكية بشراسة حتى آخر أيامه.

اعتلى بولس الثالث أي أليساندرو فرنيزي سدة الكرسي الرسولي، وكان هذا الحبر الأعظم يتحدر أيضاً من عائلة أو بالأحرى من قبيلة ميديسيس الواسعة النفوذ كما غيرها من العائلات البابوية التي كانت تتولى إدارة شؤون الكنيسة وتزوّد أمراءها بالمال والملذات وتؤمن للجيوش البابوية زعماء الحرب. وذهبت محاباة الأقارب عند هذا الحبر الأعظم إلى حد توزيع الأراضي والأملاك والهدايا وقبعات الكرادلة الحمراء على أفراد عائلة أورفيتو وغيرها من العائلات النافذة والمحظيّة في روما.

يقول جان لاكوتور[5] إن «أولاد البابا غير الشرعيين كانوا يتساقطون مثل التفاح من الشجرة». هؤلاء البابوات وتصرفاتهم صنعوا من الأخ الدومينيكي جيروم سافونارولا شهيداً، وهو الذي تمّ حرمه كنسياً ثم إحراقه حيّاً. كذلك أدت هذه التصرفات إلى فقدان الثقة والاحترام بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية ما أدى إلى انفصال المؤمنين عن روما والتحاقهم بالحركة اللوثرية.

Riyad Nassar Library

ولكن البابا بولس الثالث الذي كان قد خدم ستة باباوات طوال أربعين سنة قبل تبوئه سدة الكرسي الرسولي، عرف الأزمات والحروب والمآسي، وعرف كيف يكون حيادياً بين شارلكان وفرانسوا الأول، مما سمح له أن يعتلي الكرسي الرسولي في عمر 67 سنة. لم يكن أي شيء يوحي في مسيرة هذا الحبر الأعظم بإمكانية قيامه بالإصلاحات الكنسية الهامة التي أسهمت فيها إلى حد بعيد الرهبانية اليسوعية الناشئة الفتية.

ومن أجل القيام بالاصلاحات الكنسية الجبّارة، بدأ بولس الثالث بتعيين لجنة من أجل تقويم أوضاع الكنيسة واقتراح الحلول، فأتى تقرير الحكماء على الشكل التالي: «أيها الأب الأقدس، كما من حصان طروادة تدفقت المآسي، هكذا انصبت على كنيسة الله مجموعة من الآلام والتجاوزات جعلتنا نفقد الأمل في خلاصها. لقد أصبح هذا الوضع معروفاً وشائعاً عند الكفّار مما جعلهم يسخرون من ديانتنا، وأصبح اسم سيدنا يسوع المسيح يلحقه العار. أيها الأب الجليل، جميع الغرباء تتملكهم الحيرة والاستهجان عند دخولهم كنيسة القديس بطرس ويستمعون إلى القداس الإلهي الذي تحتفل به مجموعة من الكهنة جاهلة وقذرة الملابس، وهكذا في جميع الكنائس الأخرى. المحظيّات يتجوّلن في أنحاء المدينة يحميهنّ في وضح النهار النبلاء والمقرّبون من الكرادلة دون حياء، لم نرَ مثل هذه الفوضى في أية مدينة أخرى. لقد اخترت اسم بولس، ونأمل بأنك انتخبت من أجل إعادة ترميم اسم السيد المسيح في قلوبنا والذي تمّ نسيانه من الشعب كما من رجال الإكليروس، بهدف أن تبعد عنا غضب يسوع والانتقام الذي استحققناه والمسلّط فوق رؤوسنا».

هكذا كانت روما في هذه الحقبة الزمنية القاتمة عندما قصدتها مجموعات صغيرة من طرق مختلفة مؤلفة من أغناطيوس ورفاقه. والسؤال هو لماذا تمّ اختيار روما الفاسقة الواقعة في الخطيئة، ولماذا قرّرت مجموعة مونمارتر وضع نفسها تحت رحمة رئيس الكرسي الرسولي الحائمة حوله الشبهات، ولماذا قرّرت هذه المجموعة المؤمنة الزاهدة الالتفاف حول العرش الروماني المضعضع والفاسد، وإعلان الولاء والطاعة العمياء له وإلى من يترأسه؟ ربما، أراد الآباء اليسوعيون التمركز الإستراتيجي في قلب القلعة الكاثوليكية التي تحوّلت إلى مركز قصف الكافرين من كل حدب وصوب، في انتظار المبادرة للهجوم

المضاد بغية بدء الإصلاح والتغيير، دون أن ننسى الطبيعة العسكرية التي واكبت أغناطيوس في بدايات حياته.

فالآباء اليسوعيون لم تكن مهمتهم الوحيدة نشر تعاليم الإنجيل عند الأتراك والمسلمين، بل إعادة اللوثريين والملحدين إلى حظيرة الإيمان الصحيح. لقد قصدت مجموعة أغناطيوس المدينة الخالدة لاعتبارها المركز الإستراتيجي الأهم في محاربة البروتستانت والاستيلاء على المقوّمات الكفيلة بإعادة سيطرة المسيحية تحت لواء الكاثوليكية الموحّدة والقوية. فالمؤرخ اليسوعي الإسباني بدرو دي ليتوريا[9] يعتقد أن الرفاق السبعة الأوائل كان هدفهم الأساسي خلاص النفوس في فلسطين وجعل «الكفّار» يعتنقون المسيحية حتى لو أدى ذلك إلى استشهادهم كما السيد المسيح على طريق الجلجلة، لكنهم اصطدموا بالواقع عندما اقتنعوا باستحالة الوصول إلى القدس لأن الأراضي المقدسة في فلسطين كان ممنوعاً الوصول إليها، فأصبحت هذه المهمة التبشيرية مستحيلة. لذلك استعاض الرفاق الأوائل عن مشروعهم الأول بمشروع ثان أكثر واقعية وهو التحول نحو روما، وخضعوا لسلطة الكرسي الرسولي من دون قيد أو شرط، وهو الذي كان في أمس الحاجة إلى هذا النوع من المؤمنين الزاهدين المخلصين الأتقياء الأنقياء. نعم، لقد استسلم هؤلاء إلى الواقعية وتأقلموا معها، وأعادوا توجيه جهودهم ونشاطاتهم نحو بلاد الهند الشرقية والغربية، واستبدلوا المكان الرمزي أي القدس بالموقع الإستراتيجي أي روما كما سبق وذكرنا.

من جهتهم رفاق باريس العشرة لم يكونوا على علم بعد أن البعثة إلى الأراضي المقدسة سوف تنتهي في روما عندما أخذوا الطريق متفقين على اللقاء بعد سنة ونصف في مدينة البندقية من أجل الإبحار نحو الشرق. في تلك الفترة، مرّ أغناطيوس في إسبانيا بين شهري نيسان وكانون الأول عام 1536، حيث انصرف إلى التبشير والتعليم واتباع طريق الفضيلة في كويبوذكوا. في الوقت عينه، توجّه رفاقه التسعة بين تشرين الثاني 1536 وكانون الثاني 1537 نحو مناطق شمبانيا واللورين والتيرول وسويسرا في سفرة إصلاحية. وعند وصوله قبل باقي رفاقه إلى البندقية، التقى أصدقاء من إسبانيا وراح يبشّر المرضى ويساعدهم، وأكمل دراسته في اللاهوت عند الدومينيكيين الذين استاؤوا منه إلى درجة أنهم حاولوا تحريض الأسقف

عليه مدعين أن دمية تمثله أحرقت في سلمنكة وباريس. في كانون الثاني عام 1537 لحق به فافر وكزافيير ولينيث وغيرهم إلى البندقية قبل التوجه إلى روما والحصول على بركة البابا، بهدف الإبحار نحو الأراضي المقدسة، ولكن تبين لهم لاحقاً أنّ سيطرة الأتراك على المنطقة الشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى أبواب بحر الأدرياتيك، جعلت هذا الأمر مستحيلاً. إثر ذلك، تحول الرفاق إلى ممرضين في مستشفيات البندقية التي كانت تعج بالمرضى المتعذر شفاؤهم وخصوصاً المصابين بمرض الطاعون، وما إن انتشروا في مدن إيطاليا الشمالية حتى توفي آخر المجندين دييغو هوسيس من الإرهاق والمرض.

بعد رسامة أغناطيوس كاهناً كما معظم رفاقه في حزيران 1537، قرّرت المجموعة السفر إلى روما بعد أن استحال الإبحار نحو الشرق. وفي شهر تشرين الأول من العام 1537 وقد كان برفقة فافر ولينيث عادت «الزيارات الخارقة غير الطبيعية» الشبيهة بما حصل من قبل في منريسا تستولي على أغناطيوس، وعندما وصل مشارف روما في منطقة تدعى لاستورتا حيث توجد كنيسة صغيرة، استرسل أغناطيوس في الصلاة والعبادة حتى شعر بتغيير روحاني، وسمع الله يقول له: «إذهب إلى روما ثم التفت نحو ابنه يسوع المسيح الواقف قريباً منه حاملاً الصليب على كتفه، وقال له: إنني أريد أن تأخذ هذا في خدمتك، فما كان من السيد المسيح أن قال لإغناطيوس: إنني أريد أن تخدمنا». (تجدر الإشارة إلى أن كنيسة لاستورتا الصغيرة دمّرت عام 1944 ولكن أعيد بناؤها).

عندما وصل أغناطيوس ورفاقه متخوفين إلى المدينة الخالدة، تمّ استقبالهم بكل ترحاب خلافاً لتوقعاتهم، بداية من الحبر الأعظم إلى الكاردينال كونتاريني والدون بدرو أورتيز، الذي كان قد اتهم سابقاً أغناطيوس بإغراء الطلاب الإسبان في معهد القديسة بربارة، والذي أصبح لاحقاً سفير شارلكان النافذ عند الكرسي الرسولي. أظهر هذا الأخير كل الاحترام والتقدير إلى هذه الرهبانية الجديدة، وكان أن حصلت «قضية مايناردي» التي وصفها أغناطيوس بالاضطهاد الأقسى في حياته، وأنّ «صليبه كان في انتظاره في المدينة الخالدة».

أما الراهب مايناردي التابع للرهبانية الأغوسطينية فقد كان كما لوثر يستقطب الجماهير

Riyad Nassar Library

في كنيسته منددأً بأخلاقية البابا المنحرفة، مما دفع بفافر ولينيث إلى تحذيره ثم إلى دحض أقواله، ما جعل ماينادري يتهكم ويُطلق الإشاعات المغرضة ضد «دكاترة باريس» ويصفهم بالأنذال والدجّالين والمجرمين الملاحقين من ألكلا إلى باريس والبندقية من كل أجهزة الشرطة المدنية والكهنوتية؛ ثارت ثائرة أغناطيوس إلى أقصى حد وأصرّ على مقابلة بولس الثالث من أجل تبرير نفسه وتأمين الحماية والدعم لمجموعته.

في ذلك الوقت كان الحبر الأعظم في مدينة نيس يحاول مصالحة شارلكان وفرانسوا الأول، ولكنه قَبِل مقابلة أغناطيوس في قصر فراسكاتي مركز إقامته الصيفية، وكان قد نجح في إرساء هدنة بين أكبر زعماء أوروبا. كانت المرة الأولى التي يقابل فيها أغناطيوس أي حبر أعظم، علماً أنّ هذا الأخير كان يستقبل دوماً إلى طاولته فافر ولينيث من أجل إجراء حوارات لاهوتية معمّقة معهما. ويتساءل بعض المؤرخين ربما بسخرية مغلفة: «هل حصل البابا يوماً على رأي مؤيد من علماء الفلك الذين كانوا يصنّفون الزائرين حسب بروج الأفلاك؟»... أثناء اللقاء استعاد أغناطيوس بحسرة ذكرى الإساءات التي لحقت به وبرفاقه من محاكم التفتيش، وهو العَالِم بعدم تقدير الحبر الأعظم الضمني لها، مما أثر في البابا أشد التأثير مانحاً إيّاه صك براءة كاملة من كل التهم الموجهة إليه وإلى الرهبانية.

بعد مرور سنة كاملة على تواجدهم في روما، أقام الآباء المؤسسون علاقات وثيقة مع الحبر الأعظم الذي أمرهم بالبقاء في المدينة الخالدة حتى اعتبروها «قدسهم». وخلال وجودهم في ثاني مكان إقامة لهم في روما والذي كان يطلق عليه لقب «المنزل المسكون»، الذي قد وهبهم إياه فرانجيباني، عقدوا حوالى مئة لقاء من أيار إلى حزيران 1539 أدت إلى إعلان قيام الرهبانية اليسوعية في شكل غير رسمي. إن الكلمة التي ترددت كثيراً أثناء الاجتماعات كانت *(Scindebamur)* أي أننا كنا منقسمين، وما تبعها من تفسيرات، أي «نحن من جنسيات مختلفة، ولكننا مُوحّدون حول مبدأ الشهادة في سبيل الله».

تمحور النقاش الأول حول نقطة الاتحاد، وجاء القرار واضحاً، إذ إن تعدد الاتجاهات والمهام لا يمكن أن يؤدي في أية طريقة كانت إلى تفكك أو إذابة المجموعة المؤسسة، في حين دار النقاش الثاني حول ضرورة وجود سلطة مركزية نابعة من المجموعة، وتمّ الاتفاق على زيادة نذر الطاعة إلى نذري الفقر والعفة. أما واجب الطاعة، ولم يكن المؤسسون قد تطرقوا بعد إلى الطاعة العمياء، فإنه كان مستهجناً في تلك الأيام بسبب الخطايا التي ارتكبها

Riyad Nassar Library

كبار رجال الإكليروس؛ وخوفاً من إبعاد المنضوين الجدد عن الرهبانية في حال أصر القدامى على تسلم زمام الأمور دون سواهم، ورغبة من الجميع في منع انتشار الفوضى، تمّ الاتفاق بعد أربعين يوماً من النقاشات على «فرض واجب الطاعة إلى شخص من أفراد المجموعة».
أثناء التطرق إلى الموضوع الثالث، إستفحلت الخلافات جرّاء طرح قضية التعليم، أي «تعليم الأطفال طوال أربعين يوماً، وساعة في كل يوم، تحت طائلة ارتكاب الخطيئة المميتة» في حالة الإخلال بهذا النذر. ارتفع صوت نيكولا بوباديلا غاضباً، وتمّ التراجع عن اتخاذ القرارات بالإجماع، وعن فكرة لينيث بتأسيس معاهد جامعية على الطريقة الباريسية، أي على أساس المعنى الوارد في مفهوم القرون الوسطى عبر إيجاد مؤسسات تؤمن أساليب العيش وتساعد على استيعاب مناهج التدريس. الملاحظ هنا أنه لم يتم البحث في تأسيس رهبانية، ولكن المجموعة شرعت في تأمين وحدة البنية وصلابتها. ثم انصرف أغناطيوس وفافر وكودور إلى العمل وكتبوا في مدة شهرين أي من تموز إلى آب 1539 وثيقة لا تصبح نافذة إلّا بعد توقيع الحبر الأعظم عليها، مؤذناً ببدء حياة رسمية للمؤسسة، وكان عنوانها *(Prima Societatis Jesu instituti summa)*.

منذ أقل من خمسة قرون والآباء اليسوعيون يطلقون على أنفسهم لقب شركة يسوع (Compagnie de Jésus)، إذ إن كلمة (Compagnie) تعني سرية في الجيش أو الشرطة أو شركة، وأعضاؤها يُلحقون تواقيعهم حتى اليوم بحرفي (S.J) مما يعني «أب يسوعي». الحرف الأول (S) يعيدنا إلى كلمة (Société)، لأنه على الأرجح كان الآباء المؤسسون يفكرون في اللغة الأسبانية وفي كلمة (Companià) التي لا رديف لها في اللغة اللاتينية، لهذا السبب لجأوا إلى كلمة (Societatis) . لنفترض جدلاً أنهم أرادوا إضفاء الطابع العسكري على مؤسستهم الدينية، فكان بالحري بهم استعمال كلمة(legio) أو(légion) التي تعني فرقة عسكرية، ربما هذه هي تحفة الفكر اليسوعي.

في الصفحة السادسة من كتابه يشرح الأب ألبير لونشان اليسوعي[3] هذه النقطة قائلاً: «فمن العسير أن نمحو من أذهان الناس ما يوحيه اسم الرهبانية اليسوعية من أنها جماعة أنشئت على الطراز العسكري... يرأسها البابا الأسود، وتسودها روح الانضباط والطاعة الصارمة، وتتمتع بنفوذ خفي شامل. كل ذلك يحمل الناس على الاعتقاد بأن الراهب اليسوعي هو قائد جيش بعيد النظر، يهاجم الهراطقة ويناور بمهارة، يمتاز بقبضة حديدية في

قفاز مخملي، يعيش حياة التقوى، ولكنه خبيث وموارب». لكنّ الأب لونشان يفسر معنى رفقة يسوع (Compagnie de Jésus) قائلاً: «إنها بعيدة كل البعد عن أي مشروع عسكري. إن كلمة(Compagnie) تعني أصلاً الجماعة والرفقة، ولها أيضاً معنى السّرية، وكثيراً ما غلب هذا المعنى في أذهان الناس، في حين لم يكن هو المقصود، في تفكير القديس أغناطيوس».

أما حرف (J) الذي يعني (Jésus) أو السيد المسيح، فهو عائد إلى رؤيا لاستورتا، وهذا الموضوع أساء كثيراً إلى الرهبانية الجديدة وعمّ الحسد منها والحقد عليها، بسبب احتكار اسم السيد المسيح. إن الرهبانيات الأخرى استعملت اسم مؤسسيها مثل الرهبان البينيدكتيين (Saint Benoît) أو الرهبان الفرنسيسيين (Saint François) أو الرهبان الدومينيكيين (Saint Dominique)، أو اسم الأماكن مثل جبل الكرمل (Mont Carmel)، أو جبال شارتر (Chartre).

أطلق بعضهم على «رفقة يسوع » لقب «قوة الفاتيكان الضاربة»، وأنها أنشئت على الطراز العسكري يرأسها البابا الأسود، وتسودها روح الانضباط والطاعة العمياء. في التوصيف، وخلافاً «للمرافعة» الأب لونشان اليسوعي، لا يمكن لمتابع سيرة أغناطيوس إلا أن يلاحظ أنه وعلى الرغم من وضعه الإكليريكي كان يحمل السلاح دوماً، وأنه كان على رأس حملة عسكرية تأديبية ضد الثوار في منطقة ناخيرا. في الصفحة 11 من كتابه يقول الأب الفاضل حرفياً: «ذلك أن الميل إلى الفتوحات كان يسري في دم آل لويولا»، كما في الصفحة 12 حيث يؤكد على أن «البيت الذي ولد فيه أغناطيوس أشبه بقلعة منه بمزرعة الأمراء». ولا ننسى كيف عارض الشاب أغناطيوس جميع المحاصرين في بمبلونه وقرر القتال ضد الجيش الفرنسي على الرغم من عدم تكافؤ الفرص.

وفي عودة إلى قصة المغربي المسلم الذي لحق به وجادله في مسألة عذرية مريم، كيف سيطرت على عقله النيّات الإجرامية، وكيف تمكنت «حكمة الدابة» من تأمين سلامة المغربي، ووضعت أغناطيوس على طريق القداسة. يقول هيرفي يانو[21] إن «كلمة (Companias) في اللغة الإسبانية كانت تعني في القرن السادس عشر مؤسسة دينية أو سرية عسكرية أو مجموعة أصدقاء، هكذا كان الرفاق الأوائل ينظرون إلى مجموعتهم الناشئة التي ما لبثت أن تحولت إلى ميليشيا سريّة متمددة في خدمة كاثوليكية سياسية وطموحات البابوات الإمبريالية». أما في اللغة اللاتينية فإن عبارة (*Societas Iesu*) تعني أيضاً شركة يسوع (Compagnie de Jésus) وهي تسمية غير مستحسنة نظراً لمعناها التجاري على مثال شركة

الغاز أو شركة الكهرباء أو شركة السكك الحديدية، الخ... مما لا شك فيه أن المؤسسة اليسوعية رهبانية دينية تعمل في «جيش المسيح» وتحت «راية الصليب» لأهداف إيمانية، ولكنها أيضاً مؤسسة عسكرية أو شبه عسكرية يقودها الجنرال الأسود. إنّ مجرد مراجعة تاريخ الحواضر أو القرى النموذجية عند الهنود في الباراغواي إبتداءً من العام 1609 وغيرها من الأمور، من قيادة الرهبان اليسوعيين العسكرية للفيالق الكوارانية ومشاركتهم في القتال، هي خير دليل على صحة هذا الأمر الذي استلزمته ربما الظروف والأزمنة. أول نصيحة سمعتها في بداية حياتي الجامعية التي امتدت طوال 48 سنة، أسداها إلي ماسح أحذية رحمه الله عندما سمعني أتذمّر علناً من الجو العسكري في حرم الجامعة. وإذا كان شعار الجيش اللبناني: «نفذ ثم اعترض»، فإن شعار الجيش اليسوعي هو: «نفذ ولا تعترض».

إن أغناطيوس الرئيس العام الأول ترك مراسلات لا تُعدّ ولا تحصى إضافة إلى مذكراته التي تمّ نشرها لأول مرة عام 1934 والتي برهنت على أنه كان إنساناً متسلطاً وديكتاتوراً كما قال عنه الحبر الأعظم بولس الرابع. ولكن القديس أغناطيوس كان أيضاً جنرالاً وقائداً ماهراً في التخطيط، ورئيساً متطلباً، ومتقشفاً صارماً، ورجلاً حساساً، وهو الذي ذكر أنه بكى في حياته 175 مرة[5]. لقد عرفت شركة يسوع على مدى تاريخها سلسلة من الويلات والمصائب، وبعد أن رفعت رأسها مجدداً في عام 1819، كانت الأغنية المتداولة حينها في الأوساط الشعبية فحواها: «أيها الرجال في الألبسة السوداء، من أين تخرجون؟ إننا نخرج من باطن الأرض. نحن أنصاف ثعالب وأنصاف ذئاب. قاعدتنا هي الغموض. نحن أولاد دي لويولا[21]».

كان الآباء اليسوعيون على مر السنين موضع إعجاب وتقدير، ولكنهم كانوا أيضاً عرضة للذم والشتائم والضغينة والقتل بعد مرور أكثر من أربعمائة وخمسين عاماً على وفاة المؤسس القديس أغناطيوس. إن كلمة يسوعي(Jésuite) دخلت في اللغة الفرنسية الشعبية إلى أن أصبحت مرادفاً لكلمة خبيث أو موارب، وإلى نوع من الحلويات المصنوعة من اللوز المرّ المذاق، كما كلمة الراهبة (Religieuse) التي تعني نوعاً من الحلويات المصنوعة من الشوكولاته.

يقول هيرفي يانو في كتابه: «إن هؤلاء الرجال في الأردية السوداء إعتبروا من أصحاب النفوذ الذين وضعوا إرادتهم في خدمة الخبث والرياء، وتصدوا دوماً للحداثة بواسطة

Riyad Nassar Library

شبكتهم التربوية التي حملت لواء التفوق». إن كبار المفكرين، من أمثال باسكال وستندهال وشامبوليون وميشليه وكينيه هاجموا من دون هوادة هؤلاء الآباء الأفاضل، واعتبروا مهامهم التبشيرية والتعليمية مجرد أداة في خدمة تعطشهم للسلطة. كذلك اعتبر بعضهم أيضاً أن هؤلاء الرهبان يشكلون نوعاً من الميليشيا السرية الأخطبوطية في خدمة الكاثوليكية السياسية21.

إن التواضع لم يكن دوماً فضيلة رهبانية ارتبطت إلى حد بعيد بالنخب، وعاشت في حظوة الملوك والأمراء والنافذين، الذين لم يقفوا دوماً إلى جانبها بل عملوا على نفيها وتشتيتها وإلغائها، كما يقول يانو في كتابه، وإنّ الطابع العسكري لرفقة يسوع يبقى منذ القرن السادس عشر حتى مطلع الألفية الثالثة مطروحاً على بساط البحث، وربما ذلك عائد إلى الصرامة والقساوة السائدتين في أوساطها وضمن قوانينها، دون أن ننسى الفعالية والتميز والنجاح والانضباط التي هي من عناوين التربية اليسوعية، التي حازت على إعجاب الكثيرين ومن بينهم لينين.

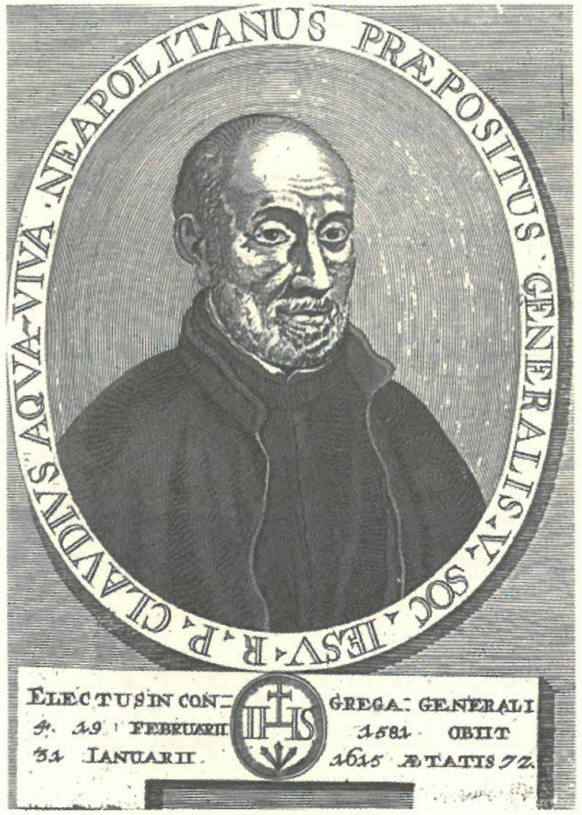

الرئيس العام كلوديو أكوافيفا
(1615–1581)

الفصل السابع

جثة هامدة (Perinde ac cadaver)

لقد ذكرنا أنه وفي ربيع عام 1541 ولدت نواة الرهبانية اليسوعية على يد عشرة رجال اجتمعوا في روما من أجل أن ينتشروا لاحقاً في كل أرجاء العالم. تم الاجتماع في كوخ مجاور لكنيسة سانتا ماريا ديللا سترادا المهدّمة، وأحدث وقعاً كبيراً وتأثيراً فائقاً على الديانة المسيحية؛ فقبل ابتعاد فافروكزافير وردريغز ووفاة جان كودور في تموز 1541، خاف الآباء المؤسسون من أن تصبح هذه الرهبانية الناشئة كناية عن حفنة من المناضلين في طريق الانقراض. لكنّ هذه الكنيسة الصغيرة ذات الشكل الباروكي والخطوط الملتوية والغرف الثلاث التابعة لها، تشهد، حتى اليوم، على قيام عمل جبار يدل على مكان إقامة القديس اغناطيوس دي لويولا. في هذا المقر عاش الأب الرئيس وخطط من أجل انتشار هذه المؤسسة في العالم، انطلاقاً من النذور التي قطعتها الجماعة والتي وردت في الفصل الثاني من القوانين التأسيسية التي حُرّرت عام 1539. في هذه الوثيقة جاء ما يلي: «كل ما يأمرنا به قداسة البابا من أجل خلاص النفوس ونشر الإيمان، نحن ملتزمون تنفيذه فوراً ودون مماطلة ولا أعذار، حتى ولو تم إرسالنا إلى الأتراك، أو إلى العوالم الجديدة أو عند اللوثريين أو عند المؤمنين أو الكافرين، ولو أدى ذلك إلى تشتيتنا وبعثرتنا في جميع أرجاء العالم».

إن غرفة عمليات شركة يسوع إنطلقت من حجرة ضيقة باقية حتى أيامنا هذه، مع تمثال

Riyad Nassar Library

هزيل من الشمع لا يتجاوز طوله المتر وستين سنتمتراً، كما كان أغناطيوس، تغطي رأسه قلنسوة تدل على انتمائه إلى رتبة «أستاذ الفنون من جامعة باريس الكاثوليكية». والسؤال يبقى: هل كان هذا الراهب اليسوعي الشاحب اللون والأعرج يعلم أنه على طريق إنشاء أمبراطورية دينية وتربوية أكثر نفوذاً من أمبراطورية شارلكان، وأنه على طريق بناء دولة في قلب الدولة، وفي جميع القارات؟ الرهبانية اليسوعية لم تكن مهمتها في الأصل تعليمية بل تبشيرية، علماً أنه برز سريعاً في النظام الأساسي بند يتعلق بهداية الأطفال عبر التعليم المسيحي، ولكن الهدف الأول بقي في التوجه نحو فلسطين والتبشير بالدين المسيحي حتى ولو تطلب ذلك الاستشهاد في سبيل الله.

بدأت انطلاقة الحركة اليسوعية المتشردة مع سفر فرانسوا كزافير إلى الهند قبل إعلان التأسيس الرسمي للرهبانية وقبل انتخاب أغناطيوس على رأسها وتسليمه مقدراتها. وعندما توسّل اليه مدير معهد القديسة بربارة، دييغو دي غوافا إرسال مبشّرين إلى المستعمرات البرتغالية الجديدة، ترك أغناطيوس القرار للحبر الأعظم الذي أمر بإرسال ستة متطوعين. سافر كزافير[5] إلى لشبونة حيث كرّمه الملك وأغدق عليه الهدايا التي لم يقبل منها بكل تواضع سوى بعض الكتب كي تكون رفيقه في الرحلة. وعندما أصر الكونت دي كستانيادا على وضع خادم في أمرته بغية غسل ثيابه مساواة بباقي النبلاء وحفاظاً على كرامته، جاء الرد صاعقاً: «إن هذا النوع من الكرامة قد أوصل الكنيسة إلى حالتها الراهنة. إن الكرامة الحقيقية تقضي بأن يغسل الإنسان ثيابه ويُسخّن طعامه».

لاحقاً وجه أغناطيوس إرشاداته إلى موفديه في إيرلندا برويت وسالميرون قائلاً: «عند التعاطي مع الناس أكانوا متساوين معكم أو من طبقة اجتماعية أدنى، تحدثوا قليلاً واستمعوا كثيراً ولتكن السلامات والوداعات مرحة وبشوشة ولبقة ومهذبة. إذا تحادثتم مع رجال نافذين، حاولوا أن تعرفوا طباعهم بهدف كسب ودهم وإيقاعهم في شباككم من أجل خدمة الله، وتأقلموا معهم في كل الأحوال. إبحثوا عن البساطة وابتعدوا عن حب المظاهر، لا تقبلوا أجراً أو حسنة، ولا ترفضوا تعريض حياتكم للخطر من أجل مجد الله ولكن دون تهور».

Riyad Nassar Library

أما شريك غرفته القديم في معهد القديسة بربارة بيار فافر، فكان يتنقل على قدميه أو على بغلة من روما إلى فورمس ومن كوينبرا إلى راتيسبون ومن لوفان إلى كولونيا من أجل تنفيذ تعليمات أغناطيوس وأوامر البابا. إن مجمع ترانت، إضافة إلى نصوص ومبادرات أغناطيوس وأعمال لينيث كما كانيزيوس قد حولت، كلّها، الرهبانية اليسوعية في بداياتها إلى آلة حرب رهيبة ضد اللوثرية والكالفينية؛ هذه الأمور تستوجب التوقف قليلاً عند شخصية فافر، الذي كان إنساناً فائق الذكاء، يحمل الشهادات الجامعية من أعلى الدرجات، يكره المواجهة ويحب الحوار باحثاً عن الحلول الوسط، وكان فافر يصر على إصلاح نفسه قبل إصلاح الآخرين من أجل «ترميم أطلال الكنيسة الكاثوليكية». خلال تجواله في ألمانيا بين عامي 1540-1541 وخصوصاً في مقاطعة رينانيا حيث عاش الأشهر الحاسمة من حياته، التقى الكثيرين من الكاثوليك الذين اعتنقوا المذهب البروتستانتي بسبب الفساد المتحكم في الكنيسة الكاثوليكية.

حاول فافر الولوج إلى قلوب المهرطقين والمنشقين وإعادتهم إلى حظيرة الإيمان والكنيسة، وهو الذي أسدى النصح إلى دييغو لينيث الذي سأله مرة عن كيفية التعاطي مع البروتستانت، فأجابه بأنه يتوجب الاستماع إليهم مطولاً والابتعاد عن المواجهة ومحاولة كسب ثقتهم واحترامهم. عندما توفي فافر منهكاً في روما في الأول من آب 1546، أي ستة أشهر بعد انعقاد مجمع ترانت، وتحت شعار الإصلاحات في ألمانيا، لجأ خلفاؤه من كولونيا إلى ميونخ، إلى وسائل صارمة جعلت من كانيزيوس «مطرقة المهرطقين»، مما أضر بسمعة اليسوعيين، وأصبحت كلمة «يسوعي» غير مستحسنة بين ضفتي الراين والدانوب.

عند افتتاح مجمع ترانت الذي دعا إليه البابا بولس الثالث من أجل تبيان حيوية الكاثوليكية، كانت الرهبانية اليسوعية ممثلة بالأب كلود لوجاي فقط، ولكن الحبر الأعظم أصرّ على أغناطيوس إرسال ثلاثة من رفاقه، وما لبث أن حرص على وجود لينيث وفافر على طاولته بغية مناقشة مجمل الأمور اللاهوتية. بعد وفاة فافر في روما، التقى الإسبانيان لينيث وسالميرون مع لو جاي في ترنت، والتحق بهم بيار كانيزيوس الهولندي الأصل الذي لعب دوراً هاماً في الصراع مع أتباع لوثر.

هكذا بعد أقل من ست سنوات على تأسيس رهبانيتهم، أصبح الأغناطيون يسيطرون على الساحة مع فريق مؤلف من أربعة «أبطال» أي ما يعادل نصف القوى المولجة في الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية. في هذا السياق توجه أغناطيوس إلى موفديه قائلاً: «يجب محادثتهم ببطء وفي طريقة ودودة، والاستماع إليهم بهدوء للتمكن من تقدير وجهة نظر الخطباء في طريقة أفضل، كما يجب عدم التلويح بالخلافات المستفحلة بين الكاثوليك والبروتستانت». لكن تعليمات أغناطيوس لم يتبعها الجميع في تصرفاتهم ونقاشاتهم، خصوصاً بعد أن أمسك المطران دولاكافا بلحية مطران كريت، أو كما حصل في 8 تشرين الأول 1546 عندما انتفض دييغو لينيث بعنف وشراسة ضد الأب سيريبندو الذي تفوه بكلمات لا تخلو من المعاني اللوثرية. لكن البابا الذي كان يتابع بدقة جميع النقاشات والتطورات، والذي كان قد أوصى الكاثوليك باعتماد الاعتدال خلافاً لتصرفات لينيث، كان فرحاً ضمنياً بالهجوم العنيف الذي شنه هذا الأخير.

عام 1547 انتشر مرض الطاعون مما أدى إلى تأجيل مجمع ترنت الذي عاد إلى الانعقاد في عام 1551 وفي المكان ذاته؛ الملفت للنظر أنّ مشادة عنيفة وخطيرة حصلت بين دييغو لينيث اليسوعي وميلكيور كانو الدومينيكي الذي كان يكنّ العداء للرهبانية اليسوعية إلى حد وصفها بالطائفة الملعونة. والجدير بالذكر أنّ الآباء اليسوعيين حاولوا تنظيم اجتماع مسبق مع الآباء الدومينيكيين من أجل الاتفاق على الحد الأدنى من الوفاق وتدارك الصراعات العلنية خلال انعقاد المجمع. هكذا استقبل ميلكيور كانو المبعوث اليسوعي دييغو لينيث ببرودة فائقة، وبعد مرور أكثر من ساعتين على النقاش العقيم، نفذ صبر اليسوعي وانتفض غاضباً وقائلاً: «بأي حق تضعون أنفسكم فوق قرارات ممثل السيد المسيح على الأرض، وتصدرون أحكامكم على الرهبانية اليسوعية التي أقرها الإكليروس ووافق عليها قداسة البابا؟» وأتى جواب الدومينيكي صاعقاً: «هل تريدون أن يتوقف كلاب الحراسة عن النباح عندما ينام الرعاة؟»، وكان جواب لينيث جارحاً عندما قال: «فلينبحوا ولكن ضد الذئاب وليس ضد الكلاب الآخرين».

بعد هذا السيل العارم من الشتائم، تطور الوضع نحو الأسوأ واستمر تدفق الإهانات التي لم يأت على مضمونها المؤرخون. ولكن الأكيد أنّ الأب اليسوعي غادر الغرفة وهو في قمة الانفعال والغضب، ولكنه عاد سريعاً وارتمى على أقدام الأخ الدومينيكي الذي كان يكبره بعشرين سنة، طالباً المغفرة والسماح. رفض الأخ الدومينيكي طلب الأب اليسوعي معتبراً أنّ الإهانة كانت سيئة إلى درجة لا يمكن المسامحة عليها. لينيث الذي كان شديد الانفعال وسريع الغضب كتب إلى رئيسه أغناطيوس نادماً على فعلته، قائلاً: «إنني أطلب منك أبتاه أن تصححني كلما أخطأت، وأن تحرمني من توجيه الآخرين، وأن تعمد إلى إلغاء عظاتي ودروسي، وأن ترسلني كي أعمل في المطبخ أو في الحديقة، أو كي أعلم قواعد اللغة إلى آخر أيام حياتي».

Riyad Nassar Library

هكذا نجد أنفسنا في صلب موضوع الطاعة، وهي القاعدة الأساسية في القوانين التأسيسية التي عمل عليها أغناطيوس طيلة خمس عشرة سنة دون أن يتسنى له إكمالها. كما أنّ القاعدة الأولى عند اليسوعيين هي الطاعة والانضباط، هكذا مبدأ العمل الفكري عند الدومينيكيين، ومبدأ التواضع عند الفرنسيسيين ومبدأ التأمل والإيجاز عند الرهبان الكرتوزيين. الراهب اليسوعي يختصر المهمة الكهنوتية بمبدأ الطاعة العمياء على غرار جثة هامدة مستسلمة دون قيد أو شرط إلى ارادة رئيس الرهبانية وإلى الحبر الأعظم من خلاله. لكن هذه الكلمات الثلاث (*Perinde ac cadaver*) الواردة في اللغة اللاتينية في شكلها ومضمونها خلقت أجواء معادية للرهبان اليسوعيين الذين يرفضون في المطلق نسبها إلى القديس أغناطيوس.

عالِم اللاهوت الألماني الكبير كارل راهنر يصف هذه الصيغة بالغبية، ذاهباً إلى حد اتهام يسوعيي الباراغواي بارتكاب خطأ فادح عندما أطاعوا أوامر الفاتيكان وتخلوا عن رسالتهم في هذه البلاد. والمستغرب أنه في أواخر حياته، طلب راهنر من جان فيليب فيتو أن يكتب التالي: «إنني لا أملك نفسي بل الله الذي خلقني ومن يمثله على الأرض، وعليّ التصرف كجسد ميت لا إرادة له على مثال مصلوب صغير يُترك أينما كان، كي يتسنى نقله من مكان إلى آخر من دون صعوبة. عليّ أن أكون على مثال عصا في يد عجوز يضعني أينما يريد

من أجل خدمته، هكذا يتوجب عليّ أن أكون على كامل الاستعداد من أجل أن تستعملني الرهبانية على هواها».

قبل القديس أغناطيوس تطرق القديس بينيديكتوس إلى موضوع الطاعة العمياء، طالباً من الرهبان الانصياع حتى لو أتى الحكم أو القصاص مجحفاً وغير عادل، كما القديس فرنسيس الأسيزي والقديس بازيل. ففي عصر الأنسنة، وفي وقت كانت فيه الديانة المسيحية تعيد تنظيم صفوفها في ظل حقوق الفرد واستقلاليته، كان للتطبيق العملي لقاعدة أغناطيوس الأساسية وقعٌ هامٌ، حين أدخل إلى الفصل الأول من الجزء السادس من القوانين التأسيسية تحت عنوان الطاعة (*Do lo que toca a la obedancia*) هذه المفاهيم الحديدية: «يجب الانصياع التام إلى إرادة البابا ومن ثم إلى الرئيس العام للرهبانية، كما لو أنّ الأوامر صادرة مباشرة عن فم السيد المسيح. على الجميع الاقتناع بكل أمر يصدر، والرضوخ إلى مشيئة العناية الإلهية، على مثال جثة هامدة (*perinde ac cadaver*) يمكن نقلها أينما كان ومعاملتها كيفما كان، كعصا في يد رجل عجوز، دون إرادة».

يجب أن نتذكر أنّ القديس أغناطيوس الذي نادى بفضيلة الطاعة كان ثائراً، وكان تاريخه مليئاً بالتمرد والنضال ضد محاكم التفتيش وحتى ضد الكرسي الرسولي وأجهزة إدارته وحكمه. لذلك أراد أغناطيوس أن يحرّر المرؤوس ولو جزئياً من السلطة المطلقة، ومنحه الحق في الاعتراض الهادىء، وحتى اللوم الوديع في حال أتت الأوامر غير عادلة وغير محقة، ومتناقضة مع حرية ضميره. ولكن على المرؤوس أيضاً تنفيذ الأوامر والطاعة العمياء، في حال أصرّ الرئيس على التقيد بتوجيهاته وذلك من دون شروط. لقد كانت تصرفات دي لويولا محيّرة في بعض الأوقات، إذ عندما كان يصدر الأوامر إلى رفاقه، كان في الوقت نفسه حريصاً على حرية ضمير الأفراد ولو ظاهرياً، لأنه كان يعلم أهمية نذر الطاعة في نفوس أتباعه. بدءاً من قسم مونمارتر عام 1534 إلى المناقشة الرومانية الكبيرة عام 1539، إلى العملية الانتخابية عام 1541، إلى الفترة التي تبعت وفاته تحت قيادة لينيث. لم تكن الرهبانية اليسوعية الملكية الأكثر استبدادية، بل ملكية دستورية قوية تغلبت في موضوع الطاعة على جميع المؤسسات المنافسة لها في العالم الكاثوليكي، حيث تبقى سلطة رئيس

الرهبانية خاضعة إلى نوع من الرقابة ضد إساءة استعمال السلطة المطلقة وتحول الرهبانية إلى نظام استبدادي فرداني أوتوقراطي.

شاهدنا الآباء اليسوعيين يبشّرون من نهر الدانوب إلى نهر التاج ومن الأتلنتيك الشمالي إلى المحيط الهندي في إطار مبدأ الطاعة العمياء، ولكنهم انصرفوا أيضاً نحو التعليم والتثقيف بعيداً عن المهمة الأولى أي التعليم المسيحي للأطفال والنساء في ألكالا، وتلامذة معهد القديسة بربارة، ومن ثم مرضى مدينة البندقية وتجار ساحة داي فيوري. يُرجع بعض المؤرخين هذا التوجه الجديد إلى دييغو لينيث واصطفاف أغناطيوس الذي اعتبر هذه الطريقة المثلى في تنشئة كوادر الدولة، وهي الفكرة العميقة التي اعتمدتها الرهبانية اليسوعية في جميع أرجاء العالم. وهكذا يقول جان لاكوتور[5] في كتابه الشيق: اليسوعيون الجزء الأول، إنّ «الرهبانية اليسوعية برهنت عن انتهازيتها الفائقة عندما استبدلت الشهادة في القدس بالإقامة في روما، وإن كلمة يسوعي أصبحت مرادفة لكلمة مُربّ أو معلم». ثم بدأت المعاهد تنتشر في كل الأماكن من أجل تعليم الشباب اليسوعيين وتثقيفهم في البدء ومن ثم الشبان عامة من روما إلى مسّينا ثم إلى برشلونة وبادوفا، ولشبونة ونابولي ولوفان.

إن المعهد الروماني الأول لم يفتح أبوابه من أجل استقبال الطلاب إلّا عام 1551، وهو يقع على أقدام الكابيتول، وكان تحت إدارة الكاهن الفرنسي جان بيلوتير الذي كان حريصاً على المحافظة بما يسمى الطريقة الباريسية (*modus parisiensis*). علاوة عن إلقاء العظات ومساعدة المرضى وباقي الأعمال الخيرية، انصرف الآباء اليسوعيون إلى محاولة هداية واندماج اليهود والمغاربة، وندم النساء غير المستقيمات وعودتهن إلى الطريق الصحيح. عام 1547 انضم إلى أغناطيوس الإسباني خوان الفونسو دي بولانكو وهو يتحدر أيضاً من عائلة يهودية غنية كانت قد اعتنقت المسيحية مثل عائلة دييغو لينيث. كان خريج جامعة باريس كما الآباء الأوائل، وانضم لاحقاً إلى المجموعة، بعد فافر وسالميرون، ترجم بولانكو النسخة الأصلية من الرياضات الروحية من اللغة الإسبانية إلى اللغة اللاتينية، عندما اعتبر أغناطيوس نتاجه نهائياً مع كل ما يحمله من طابع ثوري.

أمّا المراسلات التي تلاها أغناطيوس على مسمع بولانكو والتي وصل عددها إلى

Riyad Nassar Library

6800 رسالة، فهي كانت نتيجة مداولات ونقاشات ونصائح جرت بين أغناطيوس والبابوات والملوك والكرادلة والأمراء وعمداء الجامعات في العالم الكاثوليكي؛ وأغناطيوس شدّد هنا على بقاء كل ما هو مكتوب، كما القواعد العائدة إلى «معلمنا أغناطيوس» والتي أعاد كتابتها أب يسوعي مجهول. من هذه القواعد أن يحرص المرء على «عدم التركيز على أخطاء الغير، وأن يكون مستعداً لمعذرتها، وأن يكون سريعاً في اتهام النفس، والوضوح التام من الداخل والخارج ». ويهمنا أن نركز هنا على حرية الفكر وعدم التخلي عنها، التي نادى بها أغناطيوس، الذي أثنى بضرورة «الظهور في مظهر الغبي في نظر الناس، ولكن في مظهر المؤمن والعاقل في نظر السيد يسوع المسيح».

أصرّ أغناطيوس مراراً على أشكال الفقر التي يتوجب على الآباء اليسوعيين اتباعها حتى ولو اضطروا إلى صرف الأموال من أجل التعليم في المعاهد، وقد كان يدير شؤون العوالم من مقره المتواضع في روما، وكان عرضة لنوع من الهيجان الروحي الذي عانى منه في طريقة هستيرية كما يقول الأب اليسوعي الفرنسي أونفروا، والمتجسد في سماع أصوات أو بالأحرى «موسيقى إلهية» (*loquela*) شبيهة بالرؤيا في نطاق البصر، إذ كان أغناطيوس يحذّر من مضار هذه العوارض على الصحة العامة، وهي التي جعلت الأب الرئيس يقترب من فقدان النظر، ضمن اللامبالاة الأسطورية التي طبعت هذه الرهبانية.

فاليسوعيون طردوا منذ القرن الثامن عشر من عدة بلدان أوروبية وحتى من الأراضي البابوية، وألغيت الرهبانية اليسوعية وتمت مصادرة مؤسساتها ومعاهدها كافةً، واعتقد الجميع حينها أن اليسوعيين اختفوا من الحياة الدينية والسياسية الفرنسية خصوصاً؛ وتقلّص نفوذهم إلى أقصى حد تحت حكم نابليون وتحت حكم الملك شارل العاشر، ثم أتت «ملكية تموز» لتمنع الاعتراف بأية ديانة كدين الدولة الرسمي.

حاول اليسوعيون استعادة مجدهم ونفوذهم، وتحت شعار حرية التعليم حاولوا تعطيل صفوف جول ميشليه وإدغار كينيه[26] الدراسية في «الكوليج دو فرانس»، وفي ظلّ مبدأ الحرية الدينية، وضعوا أيديهم على الكنائس في الأرياف، وعلى مؤسسات التعليم، وفي هذه الأجواء المشحونة التي سبقت ثورة 1848 بادر الجمهوريون إلى الهجوم المعاكس. إن

Riyad Nassar Library

دروس ميشليه وكينيه نقلتها يومها الصحف الفرنسية مركزةً على رغبة الأكثرية في منع عودة اليسوعيين إلى التعليم، وإلى كنيسة فرنسا، وإلى الإرساليات ما وراء البحار، وإلى الحياة السياسية والاجتماعية الفرنسية.

يقول جول ميشليه: «الله وحده يعرف خبايا المستقبل، ولكنني أتضرع إليه أن يضربنا بحد السيف إذا قرّر ضربنا... إن الجروح التي يخلفها السيف هي جروح واضحة، إنها جروح تنزف ثم تُشفى، ولكن ما العمل مع الجروح المشينة التي نحاول إخفاءها؟ من هذه الجروح التي لا تشفى، الروح البوليسية التي يحاول بعضهم إقحامها في أمور الله، أي روح المناورة الورعة، روح اليسوعيين. إننا نطلب من الله أن يُلقي علينا عشر مرات الاستبداد السياسي والعسكري وجميع أنواع الطغيان، ولكننا نسأله ألا يسمح لهذا النظام البوليسي القذر أن يوسّخ بلادنا فرنسا، وأن يصل إلى الأفكار... إن الفكر اليسوعي هو فكر بوليسي، يعتمد على الوشاية والخيانة، حيث تتجسس الزوجة على زوجها والولد على والدته في همس محزن ومشين».

فجول ميشليه وإدغار كينيه أستاذان في «الكوليج دو فرانس» هاجما بشدة الرهبانيات الكاثوليكية وخصوصاً رفقة يسوع، وشدّدا بطريقة لا تخلو من الغلو والتعصب والديماغوجية، على الدور الهدّام الذي لعبته الرهبانية اليسوعية في المجتمع الفرنسي. يتساءل ميشليه في أمثولته الثانية بتاريخ 4 أيار 1843 عن الفرق بين منظمة حية وبين جهاز آلي عقيم، لافتاً إلى أن إنتاج فرنسا الفكري يتراجع بعد أن كانت جميع الأمم في الماضي القريب تحاول تقليدها وترجمة إنتاجاتها الثقافية. «إن المثل الفاضح على هذا العقم الآلي، هو وضع الرهبانية اليسوعية التي لم تتمكن خلال مدة الثلاثمائة سنة الماضية من إعطاء رجل عبقري واحد أو كتاب مميز واحد».

يقول ميشليه إنه يعمل على « فضح طغاة الإكليروس أي اليسوعيين، وهم كناية عن آلة حربٍ رهيبة تمّ اختراعها في القرن السادس عشر؛ إنها ديانة غريبة ديانة هؤلاء الرهبان الجنود. لقد «أنتجت هذه الميليشيا الخطيرة حركة لا تقل خطراً، عندما كانت روما مضعضعة ومنحت السلطة المطلقة إلى رجل مندفع وداهية، وأصبح هذا الجنرال اليسوعي يتخذ مع

هيئة أركانه جميع القرارات المصيرية بمعزل عن الكرسي الرسولي تبعاً لمصالحه والمكان والزمان. إن هذه الأمور مجتمعة قد أسهمت في صنع قوة وشرعية الرهبانية اليسوعية منذ ولادتها، متصدية بشراسة للعقيدة البروتستانتية التي كانت تبالغ في قضية السلطة الإلهية المطلقة، وأصبح هؤلاء الرهبان العسكريون يدافعون عن حرية الإنسان».

ولكن السؤال الأهم كما يقول ميشليه، هو «كيف يستعمل الإنسان هذه الحرية؟ إنه يسلمها ببساطة إلى اليسوعيين ويستعملها بهدف الطاعة العمياء، ويصبح هذا الإنسان بين أيدي رؤسائه طيّعاً على شكل عصا في يد رجل عجوز يحركها كيفما يريد من أجل عمل كل ما يريد على مثال جثة لا إرادة لها». (*Perinde ac cadaver*) ويكمل أمثولته في التجني قائلاً: «من أجل تدعيم عقيدة الطاعة العمياء والاستبداد المطلق ، يشجع مؤسس شركة يسوع على الوشاية جاعلاً من الدهاء والالتفاف على الأخلاق الحميدة قوة الرهبانية الأساسية. لقد تبيّن لهؤلاء الرهبان أنّ وسيلة الإكراه على الاهتداء هي بخطف الأطفال وإجبار الأهل تحت الضغوطات الرهيبة على الانصياع، وهي طريقة لم يفكر فيها حتى الأمبراطور الروماني نيرون الذي أحرق روما والأمبراطور الروماني ديوكليسيان الذي اشتهر في عام 303 ميلادي باضطهاد المسيحيين، وإنّ المثل الأهم على ذلك ما حصل عام 1650، عندما فكر اليسوعيون في اختطاف الأولاد، علماً أنّ تشريع تورينو حدد عام 1655 عدم جواز اختطاف الصبيان من عائلاتهم قبل عمر الاثنتي عشرة سنة، والبنات قبل عمر العشر سنوات، ولكن عملية اختطاف الأولاد تمّ إبطالها مع صدور تشريع نانت(*) لأن الملك الفرنسي كان يمقت هذه الوسيلة اللاإنسانية ويزدريها. لذلك يقول ميشليه إنه « من غير المسموح لنا تسليم أولادنا إلى هؤلاء الذين شجعوا على اختطافهم، لأن التربية اليسوعية تثقف وتنوّر العقل ربما، ولكنها في المقابل تسحق الروح وتقضي عليها». ويتوجه ميشليه إلى اليسوعيين قائلاً:

(*) تشريع نانت (Edit de Nantes): بدأ العمل به في 13 نيسان 1598 عندما أعلن عنه الملك هنري الرابع في مدينة نانت، والذي منح نوعاً من الحريات الدينية إلى البروتستانت. بتاريخ 18 تشرين الأول عام 1685 أبطل لويس الرابع عشر في فونتينبلو القسم الديني لهذا التشريع مما أدى إلى هجرة المواطنين البروتستانت إلى سويسرا والمانيا.

«إن الكنيسة حيث تعظون اليوم كانت قائمة منذ قرون من الزمن قبل مجيئكم، وكل ما فعلتم أن حولتم كاتدرائية نوتردام بيت السلام إلى ساحة حرب، ونصبتم مدافعكم على أبراجها».

خلال هذا الصف الدراسي يدعي ميشليه أن مجموعة من اليسوعيين المشاغبين حاولت تعطيل الدروس، ولكن استهجان الطلاب لهذا العمل الفوضوي حال دون تحقيق مآربها، وقامت حملة في ثاني يوم ضد الاعتداء على حرية الرأي في جميع وسائل الإعلام، مندّدة باليسوعيين وتصرفاتهم الشائنة.

يصرّ ميشليه في أمثولته الثالثة في «الكوليج دو فرانس» بتاريخ 11 أيار 1843 على طبيعة التربية التي من شأنها تحويل الإنسان إلى مخلوق حر، وكيف يتعامل الأهل في تنشئة الأطفال، وكل التضحيات المبذولة من الأب والأم بغية تمتين شخصية أولادهم والسماح لهم بالانطلاق بحرية وثقة في مسيرة الحياة الشاقة. من ناحية أخرى ، يسعى اليسوعيون إلى سحق إرادة الأجيال الشابة عبر السيطرة على عقولهم وتطويعهم بطريقتهم التربوية العسكرية واستعمالهم لتحقيق رغباتهم وسياساتهم الحربية العنيفة. إن «اليسوعيين يسيطرون على الناشئة، ويستعملون الثقافة والتربية والوعظ والتبشير، من أجل تملك الإرادة والوصول إلى الطاعة العمياء والانصياع التام».

كذلك فإن الإرادة المقيّدة لا يمكنها أن تصبح إرادة فاعلة وحرة، وسوف تبقى هذه الإرادة المسيّرة، طيّعة ومنصاعة إلى رغبة الرئيس وأوامره ، والإنسان خاضع تمام الخضوع على مثال جثة هامدة أو عصا في يد رجل عجوز أعمى. لذلك، فإنّ تحويل الإنسان إلى مجرد كائن تخلى عن إرادته وعن حريته هي الفظاعة بعينها، وهي أسوأ عملية من هذا النوع في تاريخ البشرية برعت فيها الرهبانية اليسوعية إلى أقصى الحدود.

إن الكذب والتحريف هما طريقتان تلجأ إليهما هذه الرهبانية كما في كتاب «موجز تاريخ فرنسا» لعام 1843 الموجه إلى الأجيال الشابة والذي تمّ طبعه في مدينة ليون، والذي تشير إليه كما سائر كتبهم أحرف (A.M.D.G) أو (*Ad majorem Dei gloriam*) أي «من أجل مجد الله الأعظم»؛ ميشليه يبلغ قمة النميمة والافتراء عندما يتطرق زوراً وبهتاناً إلى الشتائم

Riyad Nassar Library

والتجديف في حق فرنسا من طرف اليسوعيين، مبالغاً في التحريض عليهم، صاباً نار غضبه وحقده على رفقة يسوع.

أما إدغار كينيه، فهو في صفوفه ودروسه في «الكوليج دو فرانس» يحذو حذو جول ميشليه وينتهج الأسلوب التحريضي ذاته متبعاً سياسة الدسائس المعهودة، مدعياً أن «اليسوعيين يطلبون الحرية من أجل قتل الحرية»، متنبئاً بطردهم من جديد بعد عشر سنوات للمرة الأربعين.

يعتقد كينيه أن في «أغناطيوس دي لويولا مزيجاً من القديس فرنسيس الأسيزي وماكيافيل، أي مزيجاً بين الزهد والتقشف من جهة والإستراتيجية الشيطانية من جهة أخرى»، وأنّ نفس أغناطيوس المضطربة وضعته على شفير الانتحار، من رؤية الثالوث الأقدس، إلى رؤية العذراء مريم تدعوه إلى وضع نفسه في تصرف ابنها، إلى رؤية السيد المسيح يدعوه إلى حمل شعوب الشرق على اعتناق الديانة المسيحية.

في مثل هذه الصليبية الجديدة، لم يعد السلاح هو الوسيلة إذ أصبح الفكر يصنع المعجزات، هكذا تحول هذا الجندي المعوّق جسدياً، الحالم في مشاريع خيالية، الزاهد المتقشف، إلى طالب على مقاعد الدراسة في برشلونة وسلمنكا، جنباً إلى جنب مع الأطفال، مع فارق العمر الكبير بينه وبينهم. ولكن هذا الطالب، يقول كينيه في أمثولته الثانية بتاريخ 17 أيار عام 1843، ينصرف إلى دراسة قواعد اللغة، ويتوصل إلى تهجئة بعض حروف اللغة اللاتينية، ويهتم بإطلاق تعاويذ خاصة من أجل تحرير النفوس من الشيطان، وحتى كما يقول بعضهم يُقيم الأموات، ويدرّس علم اللاهوت، علماً أن لا أحد علّمه هذا العلم، مما استدعى تدخل محاكم التفتيش التي هرعت إلى سجنه، ثم أخلت سبيله على شرط أن يتوقف عن الكلام في الأمور اللاهوتية والدينية حتى إتمام دراسته بعد أربع سنوات في معهد معتمد.

عندما التحق أغناطيوس مرغماً بجامعة باريس، كان عمره 35 سنة، ومن أجل التأثير على رفاقه الأوائل، وضع بين أيديهم كتابه الرياضات الروحية أو«الكتاب السري» الذي باشر به في صومعات إسبانيا. تجمع الرفاق في مونمارتر ونذروا الذهاب معاً إلى القدس،

ولكن أغناطيوس وجههم إلى مواقع المعركة الحقيقية، مستعيضاً عن «الكفّار» في الأراضي المقدسة بأعداء على مثال لوثر وكالفن والكنيسة الأنغليكانية والملك هنري الثامن الذين «يحاصرون البابوية». هكذا أرسل الأب المؤسس فرنسوا كزافير إلى مجاهل الشرق الأقصى، واستعمل رفاقه الثمانية من أجل مواجهة ألمانيا وإنكلترا ونصف فرنسا وأوروبا المضعضعة. وفي هذه الطريقة، نشأت سرية يسوع عندما سار بها بطل بمبلونة إلى أرض المعركة على رأس فيالقه، وهذا هو النبوغ في عينه إذ توصل إلى التوفيق بين النشوة والقداسة.

يحدّد أغناطيوس الرياضات الروحية بثلاثين يوماً (*triginta dies*)، وهي المدة الكافية من أجل سحق إرادة الآخرين والسيطرة على عقولهم. من جهته، يدخل كينيه في أدق تفاصيل الرياضات الروحية الأغناطية، مدعياً أنها مخالفة لطبيعة المسيحية الحقيقية، متسائلاً عن وجود مثل هذه الوسائل الملتوية والمستهجنة في الإنجيل المبارك. إن أغناطيوس لا يمنح أتباعه سوى قشرة تفكيره، ويمنع عنهم مبادىء الحياة والحرية، ويفرض عليهم الطاعة الخانعة (*timor servilis*).

في المحاضرة التي ألقاها في حشد جامعي بتاريخ 10 أيار 1843 في «الكوليج دو فرانس» أثار كينيه الحماسة كما الاستياء العارم عندما هاجم بعنف الرهبانية اليسوعية مدعياً أنها تقيم في جميع الدول المريضة في أوروبا، في الدول التي تخلى عنها الله، بعد أن تم طردها ونفيها من جميع بلدان أوروبا حتى من مقر الكرسي الرسولي في روما. كينيه يهاجم بعنف سحق الأرادة، مذكراً بما ورد في الرياضات الروحية: «إذا أعلنت السلطة أنّ ما يبدو لكم أبيض هو أسود، قولوا بأنه أسود». يدعي إدغار كينيه أن «اليسوعية هي آلة حربية تحتاج دوماً إلى عدو تقاتله؛ ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر وقعت يداها على العقيدة البروتستانتية، ولكنها لم تكتف بذلك، فحولت حربها نحو شعوب آسيا وأميركا». إن روسيا هي العدو الذي ساعدها على النهوض وأمن لها الملجأ في أوقات الشدة، عندما وقّعت البابوية على حكم إعدامها وألغتها من الوجود في 21 تموز 1773. وبتاريخ 16 أيار 1774 وجه سفير فرنسا رسالة إلى وزير خارجيته يقول له فيها: إنّ الحبر الأعظم بعد أن اقتنع بضرورة إلغاء الرهبانية

Riyad Nassar Library

اليسوعية بسبب الأضرار التي ألحقتها بالكنيسة الرومانية والممالك الكاثوليكية أقدم على خطوة الإلغاء هذه من أجل تأمين راحة الكنيسة والشعوب الخاضعة لها.

إن السفير يحذر من طريقة إدارة هذه المؤسسة وحكمها ومن مغبة التراخي، وذلك على لسان الحبر الأعظم، وعلى جميع الأصعدة من سياسية وكنسية، وإنّ البابا كليمنس الرابع عشر عندما ألغى هذه الرهبانية كان واضحاً حين قال: «منذ نشأة هذه الرهبانية ظهرت بوادر الانقسامات والحسد، ليس بين أفرادها فقط، لا بل بينها وبين باقي الرهبانيات والأكليروس والجامعات والمعاهد والرجال الأكاديميين وحتى الأمراء والملوك الذين أحسنوا ضيافتها على أراضيهم. لقد بلغت الاتهامات حدها الأقصى في حق تلك الرهبانية وسعيها وراء الثروات الأرضية والسلطة الزمنية».

يقول كينيه استناداً إلى أرشيف موثق بأنّ صدور الأحكام في حق اليسوعيين تمثل أكثر من أربعة آلاف صفحة من الحجم الكبير، كما يذكّر بأنّ القرار البابوي القاضي بإلغاء الرهبانية اليسوعية سَبق اندلاع الثورة الفرنسية عام 1789 ببضع سنوات، والذي حصل لاحقاً أنّ هذه الرهبانية زالت ظاهرياً من الوجود. ثم، لم يبادر الحكم الأمبراطوري إلى انتشال بقايا هذه الرهبانية، ولكن كيف استعادت هذه المؤسسة التي قضت عليها البابوية، حضورها القوي بواسطة هذه البابوية نفسها بتاريخ السادس من آب عام 1814؟ في هذه الفترة حين اضطرت فرنسا إلى التنكر لمبادىء الثورة الفرنسية، وتم حصارها من كل حدب وصوب، وكثرت من حولها الميليشيات، «أعادت البابوية نفسها استعمال ميليشيا دي لويولا من أجل تركيع فرنسا نهائياً». هكذا، «أصبح الوضع متأرجحاً بين أفكار الثورة الفرنسية وعدوها المتخفي أي شركة يسوع، واتضح أنه يجب أن يكون الاختيار بين الاثنين». إن مهمة اليسوعيين في القرن السادس عشر كانت القضاء على الحركة الإصلاحية، أما مهمتها في القرن التاسع عشر فكانت القضاء على إنجازات الثورة الفرنسية.

في أمثولته الثالثة تاريخ 24 أيار 1843 في «الكوليج دو فرانس» يتطرق إدغار كينيه إلى دراسة الرهبانية الأغناطية من الناحية الفلسفية، وكيف تقهقرت بسرعة فائقة بعد أن أعلن القرار البابوي ولادتها رسمياً في العام 1540. ففي العام 1555 تم طردها من جزء من

Riyad Nassar Library

الأراضي الأسبانية، وعام 1578 من هولندا والبرتغال، وعام 1594 من جميع نواحي فرنسا، وعام 1606 من جمهورية البندقية، وعام 1622 من مملكة نابولي، ونحن، يقول كينيه، لا نتكلم سوى عن الدول الكاثوليكية.

إن كل ذلك يبرهن عن تدهور الرهبانية اليسوعية وفسادها المبكر، وبعد أن ألقى الضوء بتجرد على زهد أغناطيوس دي لويولا، يقول كينيه: «سوف أحاول وصف الرجل السياسي الماكر، لأنّ فن المراوغة والتحايل جعله يوفد أعوانه إلى الكرسي الرسولي طلباً للاعتراف بهذه المؤسسة الصغيرة، متجنباً الظهور في حضرة الحبر الأعظم بولس الثالث، الذي اعتقد مخطئاً أنه تملّك أدوات طيّعة بين يديه، بينما سلّط فوق سلطته سيداً مُطلقاً».

لجأ دي لويولا إلى المواربة منذ البداية عندما رفض تكليفه مهمة رئاسة الرهبانية اليسوعية الناشئة، محاولاً إحكام قبضته على مقاليد السلطة المطلقة، وأراد الإيحاء برغبته في الاستقالة، هو سيد البابوات، الذي توسّل إليه الرفاق الأوائل ألا يتخلى عنهم وعن السلطة. إن أتباعه مثل فرنسوا كزافير كانوا يكتبون إليه وهم راكعون، ولينيث الذي عارضه يوماً في أمر بسيط والذي أصبح وريثه بعد مماته، لينيث هذا كان يرتعد خوفاً أمام معلمه؛ فأغناطيوس الذي كان في شبابه ثائراً ضد التقاليد، أصبح المقاتل الأول ضد إدخال التحديث إلى أمور اللاهوت والفلسفة، أغناطيوس هذا أبدع في فن السياسة والمناورات، وعرف كيف يوفّق بين سلطة البابا وسلطة الجنرال. أما دي لويولا فقد أعلن رغبته في أواخر أيام حياته، في الإعلان عن مدى الطاعة قائلاً: إنه على «الإنسان أن يصبح أمام رئيسه على مثال جثة هامدة (*ut cadaver*)، دون إرادة، مثل عصا في يد عجوز (*senis baculus*) يضعها أينما يشاء وكيفما شاء»؛ إن معجزات السيد المسيح يكمل كينيه قائلاً: «كانت تعيد الأموات إلى الحياة، بينما تعليمات دي لويولا ترمي الأحياء في أحضان الموت، وإن أول وآخر كلمة للمسيح هي الحياة، بينما أول وآخر كلمة لأغناطيوس هي الجثة».

في قمة تطرفه، يشدّد كينيه على رفض كتاب «الرياضات الروحية» أساس التربية اليسوعية، التي تعتبر هذا العمل من وحي الله تعالى، وأن العذراء مريم هي التي أملته على أغناطيوس (*Dictante Maria*). نعم، يقول كينيه دعوني أتلو على مسامعكم، رجاء عدم

الضحك، بعض المقاطع والتوصيات الواردة في هذا الكتاب: «إستعملوا في جَلد أنفسكم سياطاً صغيرة تؤدي إلى جروح سطحية كي لا تتأذى صحتكم». نعم، إن «الاستشهاد مفروض على القديسين فقط، ولكن التلاعب بالشهادة والاحتيال على البطولة وتزوير القداسة من الأعمال المشينة، خصوصاً عندما تُدوّن وتُكتب ويُؤمر بها في القوانين».

في أيام الجنرال أكوافيفا أبصر النور مؤلف جديد تحت عنوان (*Directorium*)، يفصّل كيفية تطبيق الرياضات الروحية عملياً، مشدداً على أهمية التصرف بلطف وحذر بغية إيقاع الضحايا الجدد في الفخ. وتتوالى نصائح أكوافيفا خَلف أغناطيوس الرابع، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالنبلاء والطبقات العليا والنافذين، وكيفية العمل في السر، وانتهاز وضع الأشخاص العاطفي أو المالي المتردي، والإفادة من ضعفهم قبل الانقضاض عليهم، وتحويلهم إلى أدوات خاضعة ومطيعة. بعد عزل هذا الإنسان جسدياً، يُعطى إليه كتاب دي لويولا، وعندما يتم سحق إرادته والسيطرة التامة على عقله وتفكيره يُصار إلى وضعه في بوتقة أغناطيوس، دون تعذيبه باستمرار، مما يعطيه انطباعاً خاطئاً بالحرية حتى ولو انخرط هذا الشخص المسكين في أمور الدنيا أو في رهبانية أخرى.

إن عبقرية دي لويولا، يقول إدغار كينيه، هي في إنشاء مؤسسة كنسية في قلب الكنيسة، ومنع أي راهب يسوعي بأن يصبح أسقفاً أو كاردينالاً أو حبراً أعظم، لأن ولاء اليسوعي يعود أولاً وأخيراً إلى رئيسه وإلى مؤسسته أي إلى سجنه الكبير. ويُطلق الأستاذ المحاضر العنان لمخيلته وأحقاده، مدعياً أنّ اسم الله تعالى ويسوع المسيح لا يرد سوى مرات قليلة في تعاليم أغناطيوس، لأن روح شارلكان وفيليب الثاني طغت على روح الإنجيل. إن ميليشيا دي لويولا أصبحت بوليس الديانة الكاثوليكية المولج بالدفاع عن قمع الإرادة والحرية والفكر، وإن وصية المؤسس هي أولاً وآخراً الطاعة العمياء.

كان انحطاط الرهبانية اليسوعية سريعاً للغاية لأنها تحمل في مبادئها وسائل دمارها، ويكفي أن نستشهد بما قاله أحد معاصري وأعوان دي لويولا، الرجل الذي أمضى خمسين سنة في خدمة الرهبانية اليسوعية، ماريانا، الذي قال: «إن هدف مؤسستنا الوحيد هو طمر أعمالنا السيئة تحت التراب من أجل إخفاء حقيقتها عن الناس». إدغار كينيه يستشهد أيضاً

Riyad Nassar Library

بالفيلسوف باسكال ألد أعداء رفقة يسوع الذي غابت عنه ربما اعترافات بعضهم في ما يتعلق بطرق استدرار عطف الأمراء والأرامل والنبلاء والنافذين، وهو يدعو أخيراً إلى رفض الدفن أحياءً في قبور التخلف العائدة إلى القرون الوسطى في وقت لا يمكن للإنسان الحياة دون حرية في عام 1843 في فرنسا. إنه يعود إلى التذكير بأن أياً من الجنرالات اليسوعيين لم يكن فرنسياً، وأننا أمام خيارين، الأول هو قضاء الروح اليسوعية على الروح الفرنسية أو قضاء فرنسا على الروح اليسوعية.

يتكلم الأب اليسوعي لويس بيرنايرت[27] (Louis Bernaert) عن التناغم بين الحرية الفكرية والطاعة اليسوعية، أي عن التمازج بين النار والماء. كان هذا الراهب الفاضل أستاذ الفلسفة واللاهوت، وهو الذي تسلم إدارة تحرير مجلة «الدراسات» الشهيرة ردحاً من الزمن، ولكن تبين له أثناء اشتراكه مع فريق عمل في نقاش حول تايلار دو شاردن، أنه من غير الممكن إدراك مشاكل العصر وتجاهل التحليل النفساني في الوقت ذاته. لهذا السبب التحق بـ«جمعية التحليل النفساني الفرنسية» بموافقة رئيسه اليسوعي، علماً أنّ هذه المادة كانت موضع خشية وحذر في عام 1944 في الأوساط الكنسية، ولكنه بقي حتى مماته في عام 1985 يحاول تحليل كتابات القديس أغناطيوس الروحية وسبر أغوارها.

فالعبارة التي كانت تتردد دوماً على لسان هذا الأب الجليل، هي احترام الآخر، وعند التطرق إلى المفهوم العسكري للرهبانية اليسوعية تحت إدارة جنرال، كان يبادر إلى نفي هذا المفهوم المسيء، موضحاً أن أغناطيوس كان رجلاً عسكرياً خلال ساعات معدودة أثناء حصار بمبلونه، مؤكداً على أنّ الجنرال اليسوعي مجرد رئيس رهبانية عام ينتخبه رفاقه، قائلاً: «هل تعرفون جنرالاً ينتخبه جنوده؟» نعم، إن الصراع من أجل الله والإنسان هو صراع بين السيد المسيح وقوى الظلام المتمثلة بالشيطان عدو البشر، كما كان يقول القديس أغناطيوس، ولكن هذا الصراع هو روحيّ في الدرجة الأولى، لأن حب المال والسلطة في زمن أغناطيوس كان هو الآفة الكبرى التي أفسدت الشعب المسيحي عامة ورجال الإكليروس خاصة، ولولا ذلك لما قامت الإصلاحات البروتستانتية ولما انتشرت اللوثرية والكالفينية. يقول برنايرت: «ليس هنالك من مانوية أو عقيدة ثنائية تميز بين الخير والشر

دون قبول حالة وسط بينهما»، لأن بُعد النظر والتمييز يمكن أن يدخل في الحياة الدينية ويقنع الشخص بأنه ليس مهيئاً أن يصبح راهباً يسوعياً، وتُترك له هكذا حرية القرار في اختيار وسيلة أخرى مناسبة من أجل السير على خطى السيد المسيح، من خارج السلك الكهنوتي.

تجدر الملاحظة أنه وفي القرن السادس عشر، لم يكن التخلي عن الحياة الكهنوتية ممكناً، ولكن بعض الكهنة بعد الاقتناع من بطلان دعوتهم كانوا يثابرون في الخط نفسه، مع ما يحمله هذا القرار الإكراهي من مساوىء على صعيد الحياة الكهنوتية. إن هذا التمييز الأغناطي بعيد كل البعد عن الطاعة العمياء (*perinde ac cadaver*) التي تتنكر لها الرهبانية اليسوعية، ولكن الطاعة في المفهوم الأغناطي وفي القرن السادس عشر، كانت تبيّن للرفاق الأوائل ضرورة اختيار رئيس لهم من ضمن المجموعة لا من خارجها. هكذا تبقى الطاعة اليسوعية في النذر الثالث ضمن إطار الطاعة لأحد الرفاق، الذي يمثل السيد المسيح، ولكن يبقى هذا الرئيس الذي تتوجب له الطاعة من ضمن المجموعة؛ هكذا الراهب الأدنى رتبة يكون ملزماً بالطاعة المطلقة للأعلى رتبة، حتى ولو تناقضت هذه الطاعة مع قناعاته الشخصية.

عندما يطالب أغناطيوس بطاعة المرؤوس لرئيسه، ليس ذلك لأن «الرئيس يتمتع بمزايا خارقة تسهم في صوابية قراره، ولكن بكل بساطة لأنه ممثل الله ويتصرف مكان السيد المسيح الذي لا يمكن أن يخطىء». ويكمل الأب اليسوعي قائلاً: «هذا لا يعني في المطلق أن نصطف دوماً إلى جانب الرئيس الذي من الممكن أن يخطىء، بل علينا الاستمرار في اتخاذ المواقف النابعة عن التفكير والمنطق واتباع طريقة التمييز (Discernement) وبعد النظر هذه، ولكن يتوجب علينا دوماً تنفيذ الأوامر. إن تايلار دو شاردن هو خير معبّر عن هذه الطاعة، لأنه حافظ على أفكاره مع انصياعه إلى تنفيذ الأوامر والالتزام بمبدأ الطاعة.

أثناء حوار أجرته معه صحيفة لوموند الفرنسية وتناولت فيه النذر الرابع أي الانصياع التام للحبر الأعظم، والخلافات الحادة بين الرهبانية اليسوعية والبابا يوحنا بولس الثاني، أجاب الأب بيرنايرت قائلاً: إن «النذر الرابع لا يتعلق بشخص البابا بل بكونه ممثل السيد المسيح». ويضيف قائلاً: إن «تدخل البابا يوحنا بولس الثاني في جميع أمور رهبانيتنا كان

يخالف القوانين التأسيسية، ولكننا في حال لم نبادر إلى الطاعة الكاملة نكون قد خالفنا تعاليم أغناطيوس، إذ أصدرنا حكماً على الرجل الذي يحتل السدة البطرسية». إن بعض الجنرالات اليسوعيين ذهبوا إلى حد منع الآباء اليسوعيين الشباب من قراءة مؤلفات تيريز دافيلا(*) وجان دو لاكروا(**)، خوفاً من أن تحولهم هذه المؤلفات الروحانية التصوفية الكلاسيكية عن العمل الناشط على الأرض؛ إن الروحانية الأغناطية ترتكز أولاً وآخراً على هذا الشعار: «إيجاد الله في كل شيء، وكل شيء في الله».

أما الأب بول فالاديه اليسوعي المعتدل، الذي انحاز أثناء ولاية البابا يوحنا بولس الثاني إلى التيار الفكري الإشتراكي، بعد انحياز الكنيسة الكاثوليكية إلى التيار اليميني، فهو مثال آخر على التعارض في هرمية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فالأب فالاديه خريج جامعة السوربون، يحمل شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، واختصاصي في فلسفة نيتشيه، قام بالتعليم في كلية الفلسفة التابعة للرهبانية اليسوعية، في مركز سيفر في باريس، حيث أصبح عميداً في عام 1975 ، وانتقل لاحقاً إلى «المعهد الكاثوليكي في باريس» قبل أن يصبح في عام 1982 مديراً لمجلة «الدراسات»، وهو أستاذ محاضر في «معهد الدراسات السياسية» (IEP) العالي المرموق.

دُعي الأب فالاديه إلى روما في عام 1985 من أجل إلقاء محاضرة حول العلمنة خلال ندوة الأساقفة الأوروبيين، وهو معروف بكونه رجلاً هادئاً في غاية اللطف والتهذيب ويرفض الديماغوجية في جميع نواحيها. وكم كانت الدهشة شديدة عندما انطلقت «قضية فالاديه» حين أعلن رئيس إقليم فرنسا اليسوعي الأب جاك غيلارد بتاريخ 28 آذار عن عزل فالاديه من منصبه في إدارة مجلة «الدراسات»، وتعيين مكانه الأب جان إيف كالفيه، أقرب معاوني الرئيس العام بدرو أروبي؛ فالرئيس الإقليمي اليسوعي أعلن أنّ إقالة فالاديه أتت بناءً على طلبه ورغبته في التنحي عن إدارة المجلة منذ ما يقارب العشر سنوات، وأنّ هذا القرار

(*) تيريز دافيلا: راهبة وقديسة إسبانية كرملية (1515–1582) عملت على إصلاح رهبانيتها بمساعدة جان دو لاكروا.

(**) جان دو لاكروا: راهب وقديس إسباني (1542–1591) قام بحركة إصلاحية في الرهبانية الكرملية.

Riyad Nassar Library

لا يحمل أي طابع آخر، نافياً وجود أية ضغوطات من روما أو من الكنيسة في فرنسا أدت إلى هذا الإقصاء. ولكن مسارعة المدير المساعد للمجلة المذكورة الأب دومينيك سالان إلى الاستقالة من منصبه تضامناً مع الأب فالاديه، وردّات الفعل المتعاطفة مع هذا الأخير برهنت عن وجود أزمة حقيقية في الهرمية اليسوعية. أما رئيس أساقفة بورج الأب بلاتو الذي أساءه تصرف الرهبانية اليسوعية، فقد صرّح قائلاً: «عندما يطرح أحد الفلاسفة المرموقين بعض الأسئلة والتساؤلات، يستعمل دوره الطبيعي وصلاحياته، والأب فالاديه يطرح أسئلة جيدة».

إن عملية إقصاء الأب فالاديه «التأديبية» خلقت جواً مشحوناً في الأوساط الثقافية والفكرية الكاثوليكية اعتراضاً على المس بالحريات العامة والحرية الفكرية خاصة. ففي كتاب اعتراضي موجه إلى الرئيس الإقليمي وموقّع من أعضاء الهيئة التعليمية في مركز سيفر، تمّ التطرق إلى مسألة الحريات وتدخل الكنيسة الكاثوليكية في الأمور الجنسية، وطريقة معالجة الكنيسة في فرنسا لبعض الأمور، على مثال الحملة التي شنتها على فيلم مارتن سكورسيزي «الإغواء الأخير للسيد المسيح»، وحبة منع الحمل (RU 486)، والانتقادات الموجهة إلى الكاردينال لوستيجيي عن كتابه «خيار الله»؛ الأب فالاديه صرّح الى صحيفة لوموند الباريسية قائلاً: «لقد سبق وحذّرت الأب الرئيس العام من عواقب فصلي التأديبي، خصوصاً وأنّ هذا التصرف لا يتماشى مع مبادىء الرهبانية اليسوعية التي تنادي بالانفتاح وحرية الرأي والضمير، لأنه من الخطأ مهاجمة علماء اللاهوت دون محاولة فهم آرائهم واعتراضاتهم؛ خصوصاً وأنّ سلطة الفاتيكان لا تسمع الأسئلة المطروحة عليها وتجد نفسها عاجزة عن الإجابة عنها».

الأب فالاديه الذي نفى رغبته في الاستقالة أحرج رفقة يسوع والرئيس الإقليمي، لأنه أصرّ على محاربة سياسة كم الأفواه القمعية، وهذه الناحية ترتدي طابع الأهمية القصوى من أجل إدراك معنى الطاعة اليسوعية في زمننا الحاضر. يتابع الأب اليسوعي الجليل حديثه إلى محاوره هنري تينك قائلاً: «يجب العمل على منع انبعاث كنيسة كاثوليكية متعصبة ومتطرفة وغير متسامحة، كنيسة لاإنسانية ، كنيسة متعجرفة، كنيسة تدافع عن حقوق الإنسان خارجها ولا تحترم هذه الحقوق في الداخل».

Riyad Nassar Library

وفي تشرين الأول من العام 1989، وفي ندوة «الدعوة إلى الحوار»، قرر الأب فالاديه عدم السكوت عن هذه الموبئات، وهاجم بعنف أمام ألفي شخص من رجال الفكر الكاثوليك المؤمنين، الكنيسة «النابوليونية»، الكنيسة الجامدة المتصخّرة المتصحّرة التي تسيطر عليها إدارة مركزية متقلبة غريبة الأطوار، وهي نوع من المافيا مؤلفة من علماء لاهوت ذوي أفكار ظلامية. يقول وودرو[27] في كتابه: «إن قضيتي لويس بيرنايرت والأب بول فالاديه هما خير دليل على أنّ الآباء اليسوعيين باستطاعتهم البقاء رجالاً أحراراً على الرغم من كونهم رجال سلطة»؛ من جهته الأب الرئيس العام بيترهانس كولفنباخ في هدوئه الأسطوري حاول التقليل من شأن هاتين القضيتين مع ما أثارتهما من خلافات واعتراضات ونقاشات.

تحدّث الأب فاضل سيداروس[28] اليسوعي في كتابه: «خواطر في الطاعة الرهبانية» عن عدم تطرق الإنجيل المبارك وسائر أسفار العهد الجديد إلى الطاعة الرهبانية بوضوح، على خلاف التبتل والفقر، كما تكلم عن الطاعة لمشيئة الله، لأنّ حياة السيد المسيح كانت تتمحور حول أبيه وطاعته وتحقيق مشيئته بالمعاناة والجهاد، حيث يمثل الراهب في طاعته الرهبانية نموذجاً للاقتداء بيسوع، الذي كان «يكتشف مشيئة الآب بوساطة الصلاة». إن «يسوع مستعد تماماً لأن يطيع بمحض حريته مشيئة أبيه»، هكذا في «الطاعة الرهبانية، تتعهد الراهب بأنّ مشيئة الله تنكشف له من خلال الأشخاص أي الرئيس أو الجماعة الرهبانية؛ فهؤلاء الأشخاص يمثلون له الله ولا سيما مشيئته»...

يعتبر الراهب إن «مشيئة الله تمرعن طريق الشخص المسؤول عنه، ويختار الوساطة البشرية، وذلك بمحض حريته وكامل إيمانه... ولا إرغام في ذلك، بل هناك اختيار إيماني حر يلزم الراهب باعتباره الرئيس أو المرشد أو الجماعة صوت الله المضمون». ويكمل الأب سيداروس في الكلام عن الطاعة الرهبانية قائلاً: «على الرغم من ذلك، فلا يجوز اعتبار الرئيس أو المرشد وسيطاً بين الله والراهب، لأن المسيح وحده هو الوسيط، ولا قائماً مقام الله، ولا نائب المسيح، لأن اللاهوت الكنسي خصص هذه التسمية للبابا خليفة بطرس. فجلّ ما يمكننا قوله هو إن الرئيس أو المرشد يعبّر عن مشيئة الله فحسب». ويشرح

الأب سيداروس معنى الطاعة قائلاً إنها اختيارية لأن الإنسان مخلوق خُلق حراً، ولأنه خُلق على صورة الله، كمثاله، وهذه الطاعة هي طاعة الابن لا خضوع العبد.

يستفيض الأب الفاضل في شرح أنماط الانحرافات التي قد تعوق ممارسة نذر الطاعة ممارسة صائبة، من الطاعة غير الحرة الناجمة عن الخوف من السلطة، والطاعة السلبية التي تقتضي تنفيذ الأوامر حرفياً، إلى الطاعة الانهزامية التي تبقي العلاقات مع الرئيس سطحية وتعبّر عن روح استسلام وتنصّل من تحمل المسؤولية، وغيرها من أنواع الطاعة اللامسؤولة. ألم يقل الفرد هيتشكوك تلميذ الآباء الطيبين وعبقري أفلام التشويق والإثارة: «ثلاثة أشياء كانت ترعبني في صغري، البوليس واليسوعيون والقصاص الجسدي». ويفسّر الأب سيداروس التقليد الرهباني والتجرد بعبارات «ينبغي فهمها فهماً روحياً تصوفياً لا حرفياً، مثل الطاعة العمياء (أغناطيوس دي لويولا)، و«الطاعة كالجثة» (فرنسيس الأسيزي) و«الطاعة كقبر للإرادة» (يوحنا السلّمي) بمعنى الموت عن الذات، و«الطاعة كالعصا في يد صاحبها» (آباء البريّة)... «فإن جميع هذه العبارات وغيرها تشير إلى أن الطاعة الرهبانية قد تتطلب أحياناً ليل العقل وموت الذات، تَمَثّلاً بما اختبره يسوع المسيح من نزاع في بستان الزيتون وعلى الصليب».

يقول الأب سيداروس عن التوجيهات المتعلقة بالطاعة في الصفحة 92 من كتابه: «إن من عاش تحت سلطة الطاعة، وجب عليه أن يسّلم أمره للعناية الإلهية لتتولى أموره بوساطة الرؤساء، وأن يكون بين أيديهم كما تكون الجثة بين يدي من ينقلها أينما شاء، بحسب حاجة الذي تكون العصا بيده». إن الأب الجليل يستفيض في شرح الطاعة اليسوعية، مؤكداً على أن «كل راهب يسوعي يرى في رئيسه الرهباني ممثلاً للمسيح ربنا الذي يريد أن يطيعه، بل تجب عليه طاعته». إن الطاعة بحسب روح أغناطيوس لا تقوم على الخضوع لسلطة مطلقة، بل على الالتزام الكامل في سبيل الخدمة الرسولية التي تشكل هدف الرهبانية. أما الوظيفة الجوهرية الثانية في الرهبانية، فهي تحقيق رغبة الرفاق في أن يبقوا ملتحمين بعضهم ببعض في خدمة الكنيسة؛ هذه الرؤيا أوحت بنذر الطاعة الخاص للبابا الذي ينذره رهبان النذور الاحتفالية في الرهبانية اليسوعية.

«إن الغرض من النذر الرابع، هو عدم الاستقرار في بلد معين، وترك الحبر الأعظم يوزّع الرهبان اليسوعيين في سبيل نصر إلهي أعظم». في الصفحة 96 من كتابه يذكر الأب اليسوعي حادثة حرفيتها: «كان كارافا حقوداً... »، الملفت للنظر في هذا الإطار كلمة حقود تُطلق في حق حبر أعظم تتوجب نحوه الطاعة المطلقة حتى لا نقول العمياء حسب القوانين الأغناطية والنذرالرابع. إنّ انتخاب كاردينال نابولي وأسقف رهبانية التيّاتان (Théatins) كان مؤشراً لأول خلاف جدي بين البابا الأسود القديس أغناطيوس والبابا الأبيض بولس الرابع، وهو حلقة من سلسلة الخلافات التي بدأت منذ نشأة رفقة يسوع واستمرت حتى عهد يوحنا بولس الثاني في الأمس القريب. ويسترسل في الصفحة 97 شارحاً كيف أنّ البابا بولس الرابع كان «يشكل خطراً أشد عندما حاول أن يفرض على أغناطيوس الصلاة في الخورس». نلاحظ من تتابع الأحداث أنّ النذر الرابع تعرض لتقلبات ظرفية على مر التاريخ، وضعت علامات استفهام حول إمكانية الوفاء به بطريقة عمياء ضمن مبدأ الطاعة المطلقة في الرهبانية اليسوعية.

Riyad Nassar Library

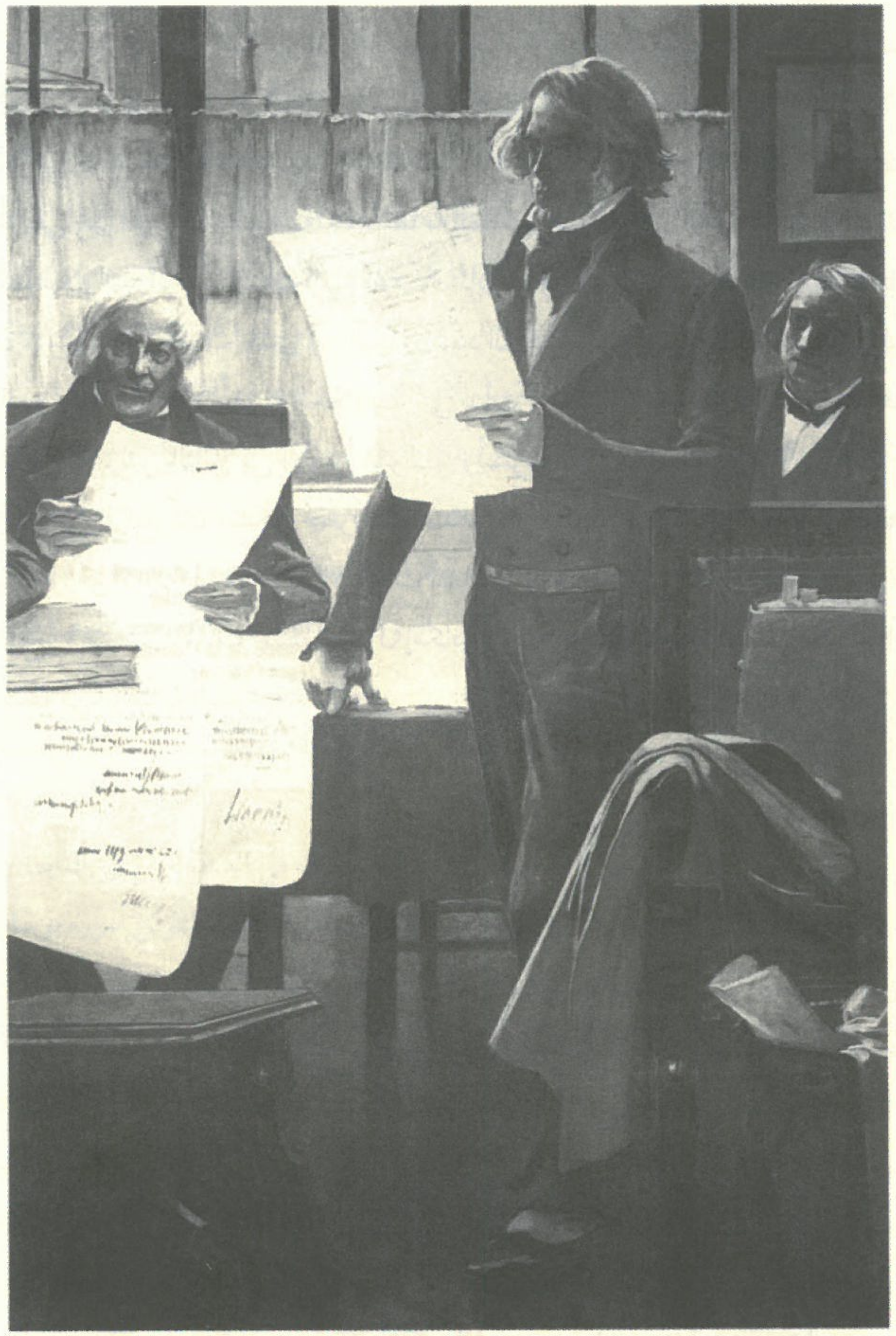

هيئة أركان القيادة المناهضة لليسوعيين المؤلفة من ميشليه (الجالس) وكينيه (الواقف) ثم وراءهما رينان

Riyad Nassar Library

الفصل الثامن

جثة متحركة

في القرن السادس عشر كانت باريس تشعّ وتضيء سماء أوروبا، بينما أغناطيوس الجامعي الباريسي كان يفكر أوروبياً، عندما وزّع أفضل رفاقه في جميع أنحاء القارة القديمة، من روما إلى فيينا ومن مدريد إلى نيميغ. إن إلغاء شركة أو رفقة يسوع حدثٌ تاريخيٌ يحيطه جو من الغموض، علماً أن الكتب المدرسية تتطرق إليه بحذر من دون الغوص في تفاصيله، خوفاً، ربما، من إثارة بعض المشاكل التي من الأفضل عدم الإشارة إليها وإيقاظ شياطين الماضي. ولكن من الضروري طرح بعض الأسئلة من أجل إدراك عمق الأزمات الدينية في القرن الثامن عشر، ومدى اتساع النزاعات بين الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية، والتي أتت كتمهيد للثورة الفرنسية ومدخل لها.

كانت حقبة «الرعب» (La Terreur) في شكل من الأشكال من نتاج أفكار جان جاك روسو، وإلغاء الرهبانية اليسوعية نتيجة الحركة الإصلاحية البروتستانتية، ولقد كان هذا الصراع عنيفاً ومعقداً وانفعالياً إلى درجة أن البروتستانتي سيسموندي رجل الاقتصاد السويسري الذي ترك بصماته على المفكرين الاشتراكيين، أعرب عن هلعه وخوفه من هذه الحرب التي استمرت مائتي عام مع كل ما حملته من مصائب ومآس .أما السبب الرئيسي في

محاولة القضاء على الرهبانية الأغناطية فإنه يعود إلى رغبة جميع الطوائف والملل في عزل الكاثوليكية وحرمانها من خطوط الدفاع الأولى من أجل تدميرها كلياً ونهائياً.

يقول كريتينو جولي[29]: إن «فرنسا قد تخلّصت من العبودية لأن اليسوعيين انتهوا وغابوا عن الوجود، وإنّ مشروع القضاء عليهم قام بتحضيره لوثر وكالفن منذ نشأة الرهبانية اليسوعية، وهو الأمر الذي حبّذه الجنسينيون(*) والفلاسفة الجدد، وحققه القضاة». ولقد عبّر، أي جولي في أواسط القرن التاسع عشر عن العقلية السائدة يومها في أوساط المنادين بسقوط الأمبراطورية اليسوعية، إذ كان الآباء الطيبون موضع حقد أعمى لدفاعهم عن روما والكرسي الرسولي، وها هو كالفن في قوله المأثور الخامس عشر، يعطي الأمر بالهجوم على الرهبانية اليسوعية، قائلاً إن «الرهبان اليسوعيين هم من أكبر المعارضين للحركة الإصلاحية، لذلك يجب أن يزولوا من الوجود، وإذا تبين أنه من الصعب القضاء عليهم، فيجب طردهم أو على الأقل اتهامهم بالغش والخداع والتدجيل، والافتراء عليهم»... كانت أوامر كالفن واضحة، وتمّ تنفيذها بدقة، خصوصاً أنّ النيل من مصداقية رفقة يسوع وتخريبها، كان يعني بالتأكيد دمار روما والكنيسة الكاثوليكية.

أما في فرنسا في تلك الحقبة، فقد كان هنالك هنري دو فالوا الضعيف الشخصية والمحتَقَر من الباريسيين، وكان أيضاً هنري دو غيز القوي الشكيمة الذي نصّبه الكاثوليك رئيساً عليهم، وأخيراً هنري دو بوربون ملك نافارا الذي اعتبره البروتستانت قائدهم وزعيمهم، وهو المتمرس في السياسة والمناورات. قام هنري دو فالوا باغتيال هنري دو غيز، وقام جاك كليمن باغتيال هنري دو فالوا، ولم يبقَ في الساحة سوى هنري دو بوربون الذي أصبح ملك فرنسا هنري الرابع. ولكن المشكلة أن فرنسا كانت كاثوليكية، وهنري الرابع كان بروتستنتياً، مما أدى إلى استيلائه على العرش بالقوة، وإلى حصار الشعب وتجويعه. ولأنه كان يعلم في

(*) الجنسينية: حركة دينية عائدة إلى جنسينيوس وأتباعه، وقد تطورت في القرنين السابع عشر والثامن عشر خصوصاً في فرنسا، وكان مقرها بور رويال (Port-Royal). انتشرت هذه الحركة في أوساط الطبقة البورجوازية الغاليكانية المتقشّفة، وكان اعتراضها خصوصاً على حالة النعمة وعلى الحكم الملكي الاستبدادي وعلى الآداب العامة عند الرهبان اليسوعيين.

قرارة نفسه أنه في أشد الحاجة إلى الفوز بمحبة الشعب من أجل كسب ولائه، قرّر الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية، واتخذ واعظاً وأباً روحياً ومعرّفاً اسمه كوتون (Coton) اليسوعي الذي كان من خيرة المؤمنين.

بعدما وَقع الملك في شباك هذا الراهب اليسوعي ، ثارت ثائرة الحاسدين، ومن المعروف أنّ كلمة كوتون تعني في اللغة الفرنسية القطن، مما دفع ببعضهم إلى التهكم قائلين: «إن الملك يضع القطن في أذنيه»، أي أنه ما عاد يسمع شكاوى الشعب. لكنّ أعداء الرهبانية اليسوعية الكثر تآمروا على الأب كوتون وحرّضوا على قتله، وبعد جرحه وفشل محاولة الاغتيال، لجأ المتآمرون إلى الافتراءات والشائعات والدعاوى القضائية من أجل تدميره. وبعد مرور بعض الوقت، حاول بيار بارير اغتيال ملك فرنسا هنري الرابع، وشاع في باريس خبرٌ مفاده أن الأب اليسوعي فاراد حرّض بارير، وهو الذي استمع إلى سر اعترافه وأعطاه المناولة وباركه، قبل أن يذهب القاتل لابتياع خنجر، بقصد اغتيال الملك بواسطته.

بعد فشل عملية الاغتيال، تمّ إلقاء القبض على بارير الذي توفي تحت التعذيب، وتمّ إحراق رسم يمثل الأب فاراد في الساحة العامة. لكن بعد مرور سنة على هذه الحادثة، تسلل أحد طلاب الآباء اليسوعيين ويدعى جان شاتيل إلى غرفة نوم الملك، وطعنه في بطنه، وتمّ اتهام الآباء اليسوعيين مرة جديدة؛ وبعد تفتيش المعهد التابع لهم، تمّ العثور في غرفة الأب اليسوعي غينيار على رسالة هجائية تحريضية ومكتوبة بخط يده عائدة إلى ست سنوات.

في صباح السابع من كانون الثاني عام 1595 تمّ إعدام الأب اليسوعي شنقاً، ونفي الأب غيريت ولي أمر التلميذ شاتيل من أراضي المملكة الفرنسية، واتهمت الرهبانية اليسوعية بكونها العقل المدبر والدماغ المفكر والمحرّض الدائم على جميع الجرائم والاعتداءات، وروح الرابطة أو العصبة المقدسة (La Ligue)، وهو تيار ديني متطرف مركزه باريس أسسه الدوق دو غيز. وأخيراً في العام 1610 تمكن رافايلاك من اغتيال هنري الرابع «بالتواطؤ مع اليسوعيين». وفي عام 1622 ومن مدينة كولونيا كتب مؤلف كتاب «لغز اليسوعيين في قتل الملوك»، قائلاً: «عندما يُدخل اليسوعيون إلى غرفة التأملات ضحية جنونهم، يسحبون صندوقاً عاجياً مغطى بحمل الرب (*Agnus Dei*)، على جوانبه حروف وسكين يرشّون عليه

Riyad Nassar Library

المياه المقدسة، ثم يأمرون القاتل بالذهاب باسم الله بخطى ثابتة من أجل قتل الضحية التي أشاروا إليها؛ هكذا في المملكة الفرنسية النبيلة يقتل اليسوعيون أمراءهم».

أما بالنسبة إلى جامعة باريس ورجال الدين الذين تحالفوا ضد الرهبانية اليسوعية بعد استيلاء هنري الرابع على عرش فرنسا، فذلك عائد إلى رفض الرهبانية اليسوعية التحالف معهم من أجل منع هنري الرابع من الوصول إلى البلاط الفرنسي. لذلك، فور وصولها إلى باريس، وجدت رفقة يسوع نفسها في مواجهة خصم عنيد أي الجامعة، التي أعلنت أن شركة يسوع هي عدو الكنيسة وعدو الدولة، وحظّرت على الطلاب الالتحاق بها وبمؤسساتها.

إزاء هذا الوضع، وجّهت جامعة باريس كتاباً إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر تحّضه على وضع حد لهؤلاء الرهبان، وإبعاد ضررهم عن الأجيال الشابة، ولكن الحبر الأعظم الذي كان من قدامى خريجي المعاهد اليسوعية أحال كتاب الجامعة إلى أسقف باريس الذي برّأهم من كل التهم المجحفة في حقهم، وهكذا ازداد عدد المعاهد اليسوعية وعدد الطلاب فيها، إذ تركت طبقة النبلاء مقاعد الدراسة في جامعة باريس والتحقت بالمعاهد اليسوعية. لقد انهزمت الجامعة ولكنها لم تستسلم، إذ أعادت طرح القضية أمام البرلمان، على لسان باسكيير الذي صرّح قائلاً: «إن هذه الرهبانية هي مصيبة طالت رجال الإكليروس كما رجال السياسة، إذ لا أمير ولا مسؤول بمنأى عن خطرها واعتداءاتها». وبعد اتهام شركة يسوع بمساعدة الإسبان، وأغناطيوس وبعض رفاقه كانوا من التابعية الإسبانية، طلبت جامعة باريس بتاريخ 18 نيسان 1594 طرد اليسوعيين من المملكة الفرنسية.

وفي هذا الخصوص، رافع الأستاذ أرنو ببلاغة قائلاً: «إن اليسوعيين شرّيرون وخبثاء ويجب محاكمتهم. صاحب الجلالة! لقد طال الصبر على هؤلاء الخونة، وطال تحمل هؤلاء القتلة في مملكتكم، وإذا تمّ التغاضي عنهم والتقاعس عن حماية جوانبكم، فسوف يوفدون إلينا المجرمين والقتلة بعد أن يكونوا قد استمعوا إلى اعترافاتهم وناولوهم القربان المقدس. نحن يا صاحب الجلالة لن يكون في إمكاننا السهر إلى ما لا نهاية، خذوا إنذاراتنا على محمل الجد واطردوهم من جميع أنحاء المملكة». ويبقى السؤال الأهم: ما كان دور البروتستانت في هذه الحملة التي أدت إلى طرد الرهبانية اليسوعية لأول مرة من فرنسا؟ إن

عدة وثائق من بينها رسالة أحد كبار البروتستانت جاك بوندارس تلقي الضوء ربما على بعض الجوانب، إذ قال: «نحن مشغولون إلى أقصى حد بطرد اليسوعيين، إن الجامعة كما الكهنة قد تآمروا جميعهم ضد هذا الطاعون» . ولكن بعد أن تم طرد رفقة يسوع، عادت هذه إلى فرنسا في العام 1603، وعادت جامعة باريس إلى محاربتها بشراسة وإقامة الدعاوى القضائية في حقها.

عام 1697 أصدر الكاتب الفرنسي البروتستانتي بيار بايل «القاموس التاريخي والنقدي» حيث اشتهر في تحليل التطيّر الشعبي الذي عكس ولادة الفكر الفلسفي في القرن الثامن عشر، وذلك دون مهاجمة المسيحية الكاثوليكية بطريقة مباشرة، ولكنه نجح في تدمير العقيدة كما السلطة الكنسية وأفقدها اعتبارها وحطّ من قدرها، مدعياً في هجومه على الرهبانية اليسوعية، أنّ جميع الأطراف من كاثوليك وبروتستانت باتوا يصّدقون كل الإشاعات لأنهم يدركون أنّ سمعة الأغناطيين قد تلطخت إلى درجة أنهم قادرون على كل شيء، نظراً للانطباع الذي تركوه في فكر الشعوب، وعلى ارتكاب جميع أنواع النذالة.

لقد حصل مع اليسوعيين ما حصل مع كاتيلينا وهو رجل سياسي عاش في العصور القديمة قبل المسيح، وتمّت إدانة مؤامراته ضد مجلس الشيوخ الروماني بواسطة خطابات شيشرون، لأن جميع التهم الموجهة إليه، كان الشعب يصدقها حتى لو افتقدت إلى البراهين نظراً لسمعته السيئة وحب التآمر والمكائد الذي كان مولعاً به. في هذا الصدد كتب البروتستانتي شال في «تاريخ الدول الأوروبية»: إن «اضطهاد رهبانية وجودها مرتبط بالتطرف الديني والعرش، يعطي الحق لمنتقديها في أن يصبحوا من نوعية الفلاسفة». وفي نهاية القرن السابع عشر حيث كان الجميع يطمح إلى أن يكون فيلسوفاً، انطلقت كلمة السر والهجوم الصاعق الحاقد على اليسوعيين من «صالونات» باريس المزدحمة بالأفكار التحررية، بدءاً من فولتير تلميذ الرهبانية اليسوعية وعدوها اللدود، وصولاً إلى ديدرو ودالمبير وكوندورسي ولاهارب وغيرهم.

كان لتأثير فولتير على أعداء الرهبانية الكثر، وقعٌ هائلٌ في المجتمع الفرنسي وسائر المجتمعات الأوروبية، خصوصاً بعد نشر رواية كنديد، وهو الذي لم يتوانَ عن القول:

Riyad Nassar Library

«نرهق اليسوعيين وهذا أمر جيد، ولكننا نترك الجنسينيين يرتاحون فهذا أمر مؤلم... لقد كتبوا إليّ يقولون إنه تمّ إحراق ثلاثة رهبان يسوعيين أحياء في لشبونة، وهذه أخبار مفرحة وتطيّب الخاطر». أما باسكال صديق وتلميذ الأمس، فكان أيضاً لاذعاً ومسيئاً في حقهم، خصوصاً في رسائل البروفنسيال (Les Provinciales) وهو الذي قال: «في الحقيقة إنّ الجنسيني قد يدوس الصليب بقدميه شرط أن يتسنى له ذبح راهب يسوعي من دون أن يتعرض للملاحقة». ضمن هذه الميليشيا الفكرية تمكن فولتير من السيطرة الكاملة على عقل وإرادة وتصرفات صديقه دالنمبير، الذي سارع إلى تنفيذ أوامر مرشده ومعلمه فولتير، قائلاً: «لا أدري ماذا سوف تصبح عليه ديانة يسوع، ولكن شركته في أسوأ حالاتها، وسوف يكتب التاريخ أنه في عام 1762 خسرت فرنسا مستعمراتها، ولكنها نجحت في طرد اليسوعيين... وأخيراً تخلصنا من النذالة اليسوعية». الجدير بالذكر أنّ المعاجم الفرنسية الحالية تصف دالنمبير بعالِم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي المدافع الأكبر عن التسامح الديني.

من جهة أخرى، لقد أراد ملك البرتغال جوزف الأول مع وزيره الأول المركيز دو بومبال إدخال إصلاحات جذرية على المملكة عبر عصرنتها وتحديثها، ورأى في الرهبان اليسوعيين ألد أعداء هذا المسعى عندما وضعوا أيديهم على ثروات البرتغال وخيراتها، ولجأ إلى جميع الأساليب القمعية من أجل التخلص منهم. في عام 1750 أتت المعاهدة الكولونيالية بين إسبانيا والبرتغال لتضع القرى النموذجية أي الحواضر في الباراغواي (Réductions) تحت سيطرة لشبونة، بعد أن كانت قد أنشأت فيها الرهبانية اليسوعية جمهوريات صغيرة؛ علماً أن تحوّل هذه القرى إلى السيطرة البرتغالية جعلت من الهنود الكواراني (Guaranis) عرضة لأطماع تجّار العبيد، ووضعت اليسوعيين تحت الهيمنة السياسية والاقتصادية للتاج البرتغالي.

إن ثورة الكواراني بين عامي 1754-1756 والحرب بينهم وبين جيوش الاستعمار الإسبانية والبرتغالية، اعتُبرت ردّاً من اليسوعيين ومحاولة من أجل الحفاظ على سيطرتهم على هذه الأراضي الغنية وإقصاء البرتغال كما إسبانيا عن الساحة في الباراغواي. من هنا انطلقت نظرية المؤامرة اليسوعية ضد الأنظمة الملكية في أوروبا، واشتدّت الضغوطات على

الحبر الأعظم من أجل إصلاح الرهبانية اليسوعية انطلاقاً من إرسال بعثة إلى الباراغواي بغية الكشف على الأوضاع السائدة وإجراء تحقيق في الأمور الحاصلة وتصرفات شركة يسوع.

لجأ بومبال إلى السلاح السياسي كما الديني من أجل محاكمة وإدانة غبريال مالاغريدا أحد المسؤولين الكبار عن الإرسالية اليسوعية إلى البرازيل، مما سمح لفولتير عام 1761 بالاستمتاع بمشاهدة آخر ضحايا محاكم التفتيش على المحرقة في ليشبونة. إن قرار طرد اليسوعيين من البرتغال قد أدى إلى نفيهم أيضاً من الممالك الكاثوليكية في أوروبا كافة، وكان لتحريض بومبال عليهم شديد الأثر في اضطهادهم والنقمة عليهم.

يقول المحرر في مجلة «الدراسات الدينية» أمبرواز ماتينيون: «يبدو أن الرهبانية اليسوعية لم تتلقَ مهمة المحافظة على القانون الإلهي فقط، بل مهمة الدفاع أيضاً عن الحرية الإنسانية». هكذا وبناءً على النذر الرابع، وضعت الرهبانية نفسها طوعاً تحت سلطة الحبر الأعظم الذي وقّع بيده وثيقة إعدامها. إن قرار حلّ رفقة يسوع وإلغائها أصبح نافذاً رسمياً بعد الإعلان عنه في روما بتاريخ 18 آب 1773، ولاحقاً في النمسا، بينما تأخر القرار البابوي في الوصول إلى الصين حتى عام 1775. في ذلك الوقت، كانت البرلمانات تنادي بالولاء للملكية وتبذل جهدها في المحافظة على مصالح الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، ولكنها كانت أيضاً أدوات قمعية طيّعة في سبيل تحقيق الاضطهادات الدينية.

توصل القضاة إلى نتيجة مفادها أن «الرهبانية اليسوعية هي كناية عن مجموعة خبثاء يتحدون في ما بينهم في سبيل إعاقة الدين والعلم والفضيلة، كما وإنّ هذه الرهبانية تضم عشرين ألف نذل متخفين في ثياب رجال الدين، وقد تخلّوا عن خلاصهم من أجل وعظ الآخرين». وفي برلمان مدينة رَين (Rennes) أطلق لويس رينيه الهجوم ضد شركة يسوع، وهو كان من أصدقاء دالنمبير، وفي الأول من كانون الأول عام 1761، قدم تقريره حول القوانين التأسيسية للرهبانية اليسوعية. هاجم لويس رينيه جميع الرهبانيات الكاثوليكية من دون أن يوّفر أحداً، من «البابوات إلى الآباء اليسوعيين المتخفين والناشطين في الظلام منذ مائتي سنة، علماً أن كل راهب يسوعي إنسان شريف، ولكن الرهبانية اليسوعية فاسدة». أما برلمان مدينة روّان الذي فبرك «مرسوم هنري الرابع»، تاريخ 7 كانون الثاني عام 1595، فإنه اعتمد

Riyad Nassar Library

هذا القرار الملكي من أجل «طرد اليسوعيين من جميع الولايات وأراضي المملكة الفرنسية، لأنهم يُفسدون الشباب ويقلقون الراحة العامة، وهم أعداء الدولة والتاج الفرنسي».

قررت محكمة روّان مع جميع غرفها مجتمعة «منع نظام ومؤسسة هؤلاء الرجال الذين يشكل اسمهم وحده عاراً، ووجودهم جريمة ضد الدولة»، في حين أنّ برلمان مدينة ديجون الذي اتخذ قراراً بطرد اليسوعيين، لسوء استعمال القوانين والبراءات البابوية والدساتير والامتيازات، فإنه لحظ أن «نظام الطاعة مخيف، والمؤسسة يلفها الغموض، وأنظمتها متطرفة، وطريقة التقيد بالواجب بغيضة وكافرة. أما عن الجنرال اليسوعي، فهو كناية عن طاغية يفرض ارادته في جميع أنحاء المملكة، ولا يطيع سلطة الملك، وينال من سلطة الحبر الأعظم».

من جهتها، المحكمة العليا في بربينيان كانت أشد قساوة من غيرها حين أعلنت أنّ «الجنرال اليسوعي يعتبر نفسه الله، وهو موجود في كل مكان، يرى بعينيه كل شيء مهما كانت العوائق بعيدة، ويستعمل قوى خفية وغير مرئية في محاربة أعدائه، من عرشه الموجود في حجرة صغيرة وضيقة، حيث يطيب له سن القوانين وإصدار الأوامر إلى أتباعه الذين يهبّون إلى تلبية أوامره». إن رئيس الرهبانية الأغناطية «له الحق وحده في قبول المرشحين في صفوفه، وله وحده الحق في طردهم، وهو يمسك بين يديه جميع الواردات، وتحت سلطته تصبح جميع الكائنات جثثاً هامدة».

إن قرار مدعي عام الملك الفرنسي دو لاشالوتي قد عزز في أوروبا نظرية علاقة اليسوعيين بالظلامية والتعصب وسعيهم إلى محاربة الانفتاح في عصرالتنوير، ولكن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى طرد رفقة يسوع، إضافة لجميع الأسباب التي ذكرنا، تتمثل بلجوء ملك فرنسا إلى التضحية بالرهبانية اليسوعية من أجل تأمين الحصول على دعم البرلمانات بغية تمويل جيوشه وحملته العسكرية في حرب السنوات السبع(*). هكذا، وسط

(*) حرب السنوات السبع: حرب دامت بين (1756–1763) ووضعت في المواجهة فرنسا والنمسا من جهة، وبريطانيا وبروسيا من جهة أخرى، وانتهت بهزيمة فرنسا في كل من ألمانيا وكندا والهند.

هذه الموجة المتطرفة الحاقدة، تبارت البرلمانات الفرنسية في مضاهاة باريس، مستفيدة من الإشاعات المغرضة ومن الحملة الشعواء التي شنّتها الأطراف كافة.

إن الأسباب المباشرة التي أدّت إلى طرد اليسوعيين من فرنسا كثيرة ومتشعبة، منها :

أولاً: قضية امبرواز غي[30] (Ambroise Guis): إن مواطنَين من مرسيليا وصلا إلى مدينة برست عام 1716 من أجل المطالبة بثروة طائلة تركها لهما نسيبهما أمبرواز غي بعد وفاته في المدينة عام 1711 . بعد البحث في الملفات والأرشيف، بقي الفقيد الغني من دون أثر، ولكنه تبين بعد مرور سنتين أنّ يسوعيي «معهد البحرية» توصلوا إلى استمالة أمبرواز وأوقعوه في حبالهم وقاموا بدفنه بعدما استولوا على ثروته. بعد دعاوى قضائية أقيمت في حق الرهبانية، وبعد تحريات جديدة وأدلة حديثة واردة من إسبانيا، تبين أن أمبرواز المذكور من التابعية الفرنسية توفي وتمّ دفنه نهار الجمعة الواقع فيه 6 تشرين الثاني عام 1655 في مدفن مدينة أليكنتِ (Alicante) في حضور جمع من رجال إكليروس المدينة. توفي أمبرواز ولكن الإشاعة بقيت على قيد الحياة، إذ أصدرت محكمة باريس في الثالث من آذار 1759 حكماً يُلزم الآباء اليسوعيين دفع تعويض إلى ورثة أمبرواز، علماً أن الملك أبطل مفعول الحكم المجحف.

ثانياً: قضية كاديير (Catherine Cadière): إحدى صبايا مدينة تولون أوقعت الأب اليسوعي جيرار في حبائلها، ولكنه أعلمها بقراره عدم الاستماع إلى سر اعترافها وإرشادها بناء على أوامر صادرة عن الرئيس الإقليمي للرهبانية اليسوعية. ثارت ثائرة المرأة الشابة التي قصدت الأب نيكولا الكبوشي الذي قرّر أن الراهب اليسوعي قام بسحر كاترين التي أصبحت مسكونة بالشيطان. تسلّم الجنسينيون القضية وقاموا بحملة تشهيرية واسعة ومنظمة أدّت إلى إقامة دعوى قضائية، وسرت الشائعات عن إحراق الأب اليسوعي في مدينة إكس بعد إدانته بالسحر والشعوذة، ولكن البرلمان كان حكيماً وعاقلاً عندما أعلن براءة الأب جيرار من كل التهم الموجهة إليه.

ثالثاً: قضية شاميلار (Chamillard): بعد أن هدأت عاصفة كاديير المصطنعة، سرت إشاعة عمّت أجواء باريس، مفادها أن الأب اليسوعي شاميلار التقي الورع الصالح، قد توفي

Riyad Nassar Library

بعد انضمامه إلى الجنسينيين، ولكن عندما طفح كيل الأب الفاضل سارع إلى إرسال كتاب اعتراض معلناً هكذا عن «قيامته من بين الأموات».

رابعاً: قضية بومبادور(Pompadour): في الخامس من كانون الثاني 1757 طعن أحد القتلة المأجورين الملك الفرنسي لويس الخامس عشر في بطنه، ثم أظهرت التحقيقات لاحقاً أن المجرم كان مُستخدماً عند الآباء اليسوعيين، ولكن صاحب الجلالة رفض إلصاق التهمة باليسوعيين لا بل عمل على التقرب منهم أكثر فأكثر. إثر ذلك، قررت مدام دو بومبادور محظية لويس الخامس عشر إظهار «فضائلها» الدينية واعتماد معرّف يسوعي على مثال الملك، واقتناء كنيسة صغيرة خاصة بها كما الملك الفرنسي، فلجأت إلى خدمات الأب دوساسي اليسوعي الذي كان مرشدها الروحي، ولكنه رفض الاستجابة لطلباتها كما الأب اليسوعي بيروسو، وتمنعا عن حلّها من خطاياها، كما فعلا مع صاحب الجلالة. في قمة الغضب، حاولت مدام دو بومبادور الاستعانة بالسفراء المعتمدين في البلاط الملكي، ثم بالكردينال سبينالي، وقامت بمراسلة الكرسي الرسولي، كل ذلك دون جدوى. أخيراً، تقربت من شوازول(*) (Choiseul)، وتابعت معه الصراع الذي انتهى في البرتغال مع انتصار بومبال (Pombal)، وعلى مثاله قامت مع شوازول بتحريض البرلمان للنظر في قضية لافاليت الناشئة حديثاً.

خامساً: قضية لافاليت (Lavalette): هذه المرة تسلّم البرلمان القضية الفضائحية الأهم في تاريخه، عندما تحولت مجرد قضية تجارية إلى مشكلة سياسية. كان الأب لافاليت يومها رئيس البعثة اليسوعية إلى جزر المارتينيك، وكان يبيع منتوجات الرهبانية إلى العموم، وتمّ اتهامه بالمتاجرة غير الشرعية. عندما وصلت الأنباء إلى مسامع رؤسائه، تمّ استدعاؤه على عجل إلى فرنسا من أجل شرح القضية وتبرير نفسه، وهذا ما فعله، وتمّت إعادته إلى إرساليته مع مباركة المسؤولين الأغناطيين الكبار. وعند عودته سارع الأب لافاليت إلى توسيع نطاق تجارته، وقام بشراء الأراضي من السكان المحليين واستثمارها، ثم أقام مراكز له في مدينتي

(*) شوازول: رجل دولة فرنسي حاول إصلاح ما أفسدته حرب السنوات السبع، وهو الذي عمل على إلغاء الرهبانية اليسوعية في فرنسا عام 1764.

نانت ومرسيليا، كما في هولندا، واستأجر عدة بواخر تجارية، بناءً على نصائح رؤسائه.

بدأ المال يتدفق بكثرة على خزائن الرهبانية عندما قرّرت البحرية الإنكليزية ودون إعلان حالة الحرب، مصادرة جميع البواخر التجارية التي تحمل العلم الفرنسي، ومن ضمنها سفن الأب لافاليت، ونتج عن هذا الحادث انهيار تام لأعمال الأب اليسوعي. حاولت روما طمس الفضيحة من دون نتيجة، مما أدى إلى خلاف كبير مع الأقليم اليسوعي في فرنسا، وإلى إقامة دعاوى إفلاسية. في 30 كانون الثاني عام 1760 صدر حكم يُلزم الرهبانية اليسوعية بدفع مبلغ كبير بمثابة تعويض إلى مُديني مدينة نانت، ولكن الرهبانية استأنفت الحكم الصادر متمنعة عن الدفع. جاء حكم الاستئناف قاتلاً، إذ ألزمت الرهبانية بدفع تعويض خيالي إضافة إلى نفقات الدعوى، تحت طائلة إلقاء الحجز على ممتلكات الرهبانية، علماً أنه لم يتم دفع أي مبلغ إلى أي من المدينين، ولكن الأعداء كانوا في المرصاد، خصوصاً مدام دو بومبادور وشوازول، وبالأخص فولتير، الذي أخذ يشحن نفوس الشعب ورجال البرلمان في جميع أنحاء المملكة، مما وضع لويس الخامس عشر أمام خيارين: إحراق اليسوعيين والقضاء عليهم أو التضحية بالبرلمان.

في 17 نيسان عام 1761 طلب برلمان باريس من رفقة يسوع تزويده نسخة عن القوانين التأسيسية، وفي الثامن من أيار أصدرت محكمة باريس حكماً اتهمت فيه الرهبانية اليسوعية بالثورة الدائمة والمستمرة ضد العرش الفرنسي.

إزاء هذا الوضع، قام الملك لويس الخامس عشر بتعيين لجنة من أجل بحث هذا الموضوع الخطير من كل جوانبه، وفي الثامن من حزيران أعلن شوفولان في تقرير مفصل عن المؤسسة الأغناطية، مسؤولياتها المباشرة في مجمل التهم المنسوبة إليها، مهاجماً مناهج التعليم في مدارسها، والأخلاق السيئة، والمس بالعقيدة المسيحية. وفي الثاني من شهر آب، طلب الملك من البرلمان التريث قبل اتخاذ أي قرار في هذا الشأن، ولكن هذا الأخير وتحت تأثير السياسي شوازول الذي تبوأ أعلى المراكز في المملكة وبدعم من مدام دو بومبادور، حاول التملص بخبث ظاهر من الطلب الملكي.

يقول المؤرخ الكالفيني، سيسموندي إنّ «هذا السيل العارم من الاتهامات

Riyad Nassar Library

والافتراءات في حق الآباء اليسوعيين كان مخيفاً إلى أقصى الدرجات». في 30 تشرين الثاني من العام 1761 أجمع 51 كاردينالاً وأسقفاً على إلغاء الرهبانية اليسوعية بينما ستة فقط عارضوا قرار الإلغاء. وفي 19 كانون الأول وجّه الآباء اليسوعيون بياناً إلى أساقفة فرنسا يعلنون فيه عن ولائهم المطلق للسلطات الكنسية الفرنسية حتى ولو أتت أوامر الرئيس العام في روما مخالفة لتوجيهات باريس... في بداية السنة الجديدة لم تكن الأخبار مشجعة بالنسبة إلى فرنسا، إذ كانت إنكلترا تحاول انتزاع السيطرة منها على المستعمرات الفرنسية. في هذا الوقت قام البرلمان في باريس بإغلاق 24 معهداً يسوعياً في الأول من نيسان 1762، وفي الرابع من أيار كتب دالمبير إلى فولتير قائلاً: إنّ «القضاء على هؤلاء الأشباح الذين كنا نعتقدهم من الأقوياء والعمالقة، تتم تصفيتهم رويداً رويداً ومن دون إحداث أية جلبة... يبدو أنّ يسوع المسيح ضابط عسكري بسيط فقد سرّيته».

البرلمان في باريس تجاوز صلاحياته عندما أصدر حكمه المبرم في السادس من آب 1762 على الشكل التالي: «هنالك تجاوزات متعددة في مؤسسة تدعي أنها تنتمي إلى يسوع المسيح، لذلك نرفض استمرارها في طبيعتها البوليسية المخالفة للقانون الطبيعي، لأنها مسيئة ومضرة لكل سلطة روحية أو زمنية. منذ مائتي سنة ومن دون انقطاع، لا تزال هذه المجموعة تدعو إلى السكر والنذالة والبخل والربى والكذب والخبث والوقاحة والزنى والانشقاق وعبادة الأوثان وانتهاك الحرمات؛ إنهم يناقضون بموافقة رؤسائهم تعاليم الكتاب المقدس، ورموز الإيمان، وعلماء اللاهوت، والكنيسة والعقل والمنطق. إنهم يزعزعون ركائز الإيمان، ويدمرون الديانة المسيحية وينكرون الخطيئة الأصلية ويعممون الفساد... إنهم يعلمون الناس كيف يعيشون مثل الحيوانات، ويلجأون إلى القتل والثأر، ويعلمون عقيدة الانتحار، ويدافعون عن الاغتيالات، ويهدّدون القضاة. إنهم يهدّدون الأمن ويتطاولون باستمرار على حياة الملوك وشرف الأمراء، لذلك كان من الضروري أن تأتي أحكام البرلمان وقراراته من أجل إنقاذ الوطن والمجتمع البشري من هذا الوباء».

هكذا جاء القرار واضحاً وصارماً في طردهم من منازلهم ومعاهدهم ومؤسساتهم ومصادرة ممتلكاتهم، ولكن على الرغم من هذه الحملة التشهيرية الافترائية البغيضة،

رفضت عدة مدن ومناطق فرنسية خصوصاً الألزاس طرد الآباء الأفاضل، ولكن البرلمان مارس أنواع الضغوطات كافة على لويس الخامس عشر الذي أصدر في الثالث من تشرين الثاني قرار إلغاء الرهبانية اليسوعية في فرنسا وحلّها نهائياً.

كان إلغاء الرهبانية اليسوعية الحدث الأهم أثناء ولاية البابا كليمنس الرابع عشر بعد أن خاض سلفه صراعاً عنيفاً وشاقاً مع البلاطات الملكية الأوروبية. لقد كانت مملكة البرتغال أول من بدأ معركة الإلغاء ضد الرهبانية اليسوعية بعد أن بسط بومبال سيطرته على البلاط البرتغالي، وهو الوزير الأول الذي قام بطرد اليسوعيين ابتداءً من العام 1759، عندما قرّر الملك الاستغناء عن خدمات القاصد الرسولي واستدعاء سفيره مندوزا في الفاتيكان، معلناً عن قطع العلاقات الرسمية مع الكرسي الرسولي، بسبب سيطرة اليسوعيين على النبلاء وتدخلهم في جميع أمور المملكة. فالبابا كليمنس الثالث عشر الذي أزعجه قرار طرد الرهبانية اليسوعية من البرتغال وفرنسا، حاول رد الاعتبار إلى الأغناطيين من خلال البراءة البابوية (*Apostolicum Pascendi*) التي تحمل تاريخ 12 كانون الثاني 1765، مما أدى إلى استياء السلطات الزمنية وغضبها في كلّ من البرتغال وإيطاليا وفرنسا. أما في إسبانيا حيث اشتدت النقمة على اليسوعيين بعد استفحال الخلاف الحاصل بين ملك إسبانيا شارل الثالث والكرسي الرسولي، فقد خاف الملك من سيطرة اليسوعيين وقرّر إلغاء الرهبانية وطرد الرهبان من جميع أرجاء المملكة الإسبانية الكاثوليكية، وذلك من دون محاكمة مسبقة.

لم تمنع ردة فعل الحبر الأعظم العاطفية من تنفيذ القرار الملكي عندما قام خلف شارل الثالث بعد وفاته بالتأكيد على قرار الطرد والنفي، مما دفع بروما إلى استقبال اليسوعيين المنفيين في الأراضي البابوية. إزاء هذا الوضع المتأزم، كتب المركيز غريمالدي إلى المونسنيور لوتشياني قائلاً: إنّ «البلاط الملكي في نابولي أيضاً قرّر منذ مدة طويلة طرد اليسوعيين أسوة بالبلاطات الملكية الأخرى، وفي حال أصرّ الحبر الأعظم على تحدي الملوك، سوف نضطر إلى الذهاب أبعد من ذلك».

بناءً على هذه التطورات السلبية، تمّ البحث في علمنة الرهبانية اليسوعية، في المحادثات التي جرت في روما بين الكرادلة، ولكن من دون جدوى، مع رفض تام لجميع

Riyad Nassar Library

المقترحات في هذا الشأن. في هذه الأثناء تصاعدت حدة الصراع بين الكرسي الرسولي من جهة، وإسبانيا ونابولي من جهة أخرى، بسبب تفاعل قضية دوقية بارما، والخلاف الذي نشأ بين البابا كليمنس الثالث عشر وكلّ من فرساي ونابولي ومدريد، إذ قامت القوات العسكرية التابعة لنابولي في ليل 13 حزيران 1768 باحتلال أراضٍ تابعة للفاتيكان. إن اللوم المؤثر والعاطفي الذي أبداه كليمنس الثالث عشر نحو الملوك الكاثوليكيين الثلاثة لم يكن له كبير الأثر، إذ اشترط ملك إسبانيا، إلغاء الرهبانية اليسوعية ونفي الجنرال اليسوعي خارج أسوار روما، كشرط أساسي من أجل عودة العلاقات إلى مجراها الطبيعي. لويس الخامس عشر الفرنسي إتبع خطى ملك إسبانيا عندما أصر من ناحيته أيضاً على طرد اليسوعيين من فرنسا على وجه السرعة، وإلغاء الرهبانية في جميع أنحاء العالم.

توفي البابا كليمنس الثالث عشر حزيناً ووحيداً في ليل الأول والثاني من شهر شباط عام 1769 من دون الرضوخ للشروط القاسية، ولكن الملوك مارسوا الضغوط على الكرادلة المجتمعين في روما من أجل انتخاب خليفة كليمنس الثالث عشر، إذ اشترطوا عدم وصول أي حبرأعظم لا يلتزم بقرار إلغاء الرهبانية اليسوعية. هكذا حاول السفراء الثلاثة الحصول على تعهدات خطية من الكرادلة المرشحين لتبوّء السدة البطرسية قبل تصاعد الدخان الأبيض من الفاتيكان، ولكن من دون جدوى. بعد انتخاب الكاردينال غانغانيللي في 18 أيار 1769 الذي اتخذ اسم كليمنس الرابع عشر، سارع السفير الفرنسي إلى مطالبة الحبر الأعظم الجديد بإصدار قرار طرد اليسوعيين.

في هذه الأجواء المشحونة حاول كليمنس الرابع عشر كسب الوقت، ولكن نتيجة إلحاح السفراء أجبر البابا على إصدار أول قرار بتاريخ 22 آب يقضي بتجريد الرهبانية اليسوعية من ملكية «المعهد اليوناني» ومسؤوليته، مما دفع بالرهبانية الأغناطية إلى نشر وثيقة في روما تندد بتصرفات البلاطات الملكية البوربونية، لكن الموقف اليسوعي أكثر من البلبلة ودفع الوضع نحو مزيد من التشنج والتأزم، مع الإشارة إلى أنّ الكتاب الذي أرسله قداسة البابا إلى الملك الفرنسي في 25 أيلول مستمهلاً إياه بعض الوقت، بخط يده وباللغة

الفرنسية، تلقى الجواب عنه في 29 تشرين الأول، والذي جاء على الشكل التالي: «يمكن لقداستكم أن تكون أكيدة بأن رجال الإكليروس في مملكتي ينظرون بعين الرضى إلى قراركم بطرد الرهبانية اليسوعية من جميع البلدان الواقعة تحت سيطرتي». لقد كان الحبر الأعظم يماطل في إصدار قرار الإلغاء، خوفاً من اتهامه بالموافقة المسبقة على هذا الموضوع من أجل انتخابه على رأس الكرسي الرسولي، خصوصاً وأنّ نشر الرسالة البابوية إلى العاهل الفرنسي في جميع الصحف الفرنسية والإيطالية، أثار استياء الحبر الأعظم إلى أقصى درجة.

من جديد، وفي 13 تشرين الثاني، جدّد السفراء الثلاثة مطالبتهم بالإلغاء، ولكن الحبر الأعظم الذي أصرّ على الاستمهال، تعهد أمام الملك الإسباني بالإلغاء والطرد، كما فعل أمام الملك الفرنسي. ولكن بعد وفاة الرئيس العام اليسوعي ريتشي الذي كان مريضاً تعهد البابا منع انتخاب خلف له، معلناً هكذا عن دق المسمار الأول في نعش الرهبانية اليسوعية.

ومع بداية عام 1770 ازداد إلحاح الملوك الثلاثة وخصوصاً ملك إسبانيا الذي ضاق ذرعاً بالوعود البابوية والمماطلة المستمرة، لاجئاً إلى التهديد والوعيد. وفي تاريخ 12 شباط انتزع البابا إدارة معهد «فراسكاتي» الإكليركي من الآباء اليسوعيين في محاولة استرضاء الملوك من دون الوصول إلى غايته. وبدءاً من 20 كانون الأول عام 1770 فقد شوازول حظوته في البلاط الفرنسي مما جعل اليسوعيون يأملون خيراً بعد الإطاحة بعدوهم اللدود، ولكن كليمنس الرابع عشر عمد إلى إصدار وثيقة (*motu proprio*) معلناً هكذا بداية إلغاء الرهبانية اليسوعية بسبب «تمرد اليسوعيين على ملك إسبانيا، وأخلاقهم السيئة، واضطهادهم للأساقفة الإسبان».

مع وفاة المونسنيور أزبورو، وصل السفير الإسباني الجديد دون خوزيه كونت فلوريدا بلانكا إلى الفاتيكان في الرابع من حزيران عام 1772، وقد عمل جاهداً من أجل إصدار القرار البابوي النهائي في إلغاء الرهبانية اليسوعية، مهدداً بانسحاب الممالك الكاثوليكية الثلاث من أحضان الكنيسة الرومانية، رافضاً جميع الإصلاحات المقترحة في الرهبانية

Riyad Nassar Library

اليسوعية، مطالباً بإلغائها نهائياً، لا أكثر ولا أقل. وفي 23 آب 1772 حصل لقاء مطول مع السفير الإسباني، حيث تمّ عرض خطة الإلغاء على الحبر الأعظم، الذي رفضها، وفي 6 تشرين الأول باشر هذا الأخير وضع يده على «المعهد الروماني» العائد إلى اليسوعيين، محاولاً من جديد استيعاب النقمة. ولكن الكرسي الرسولي وافق أخيراً في 15 تشرين الثاني عام 1772 على إلغاء الرهبانية الأغناطية وحجز جميع ممتلكاتها، وفي 29 تشرين الثاني من العام نفسه، وعد البابا سرّاً الكونت فلوريدا بلانكا بإلغاء الرهبانية اليسوعية، وفي الثاني من كانون الأول 1772 تمّ إنهاء عملية الإلغاء وسط فرحة الجميع من فرساي إلى مدريد. ولقد تمّ ختم الأرشيف التابع للرهبانية في روما بالشمع الأحمر بتاريخ 25 حزيران 1773، ووضع اليد على كنيسة يسوع (Gesù) كما جميع الممتلكات والمعاهد اليسوعية. وأخيراً وقع الحبر الأعظم بتاريخ 21 تموز 1773 القرار البابوي النهائي وأعلم السفراء بمضمونه بتاريخ 11 آب، وفي التاسعة من مساء 17 آب 1773 قام المونسينيور ماسيدونيو بقراءة القرار البابوي (*Dominus ac Redemptor*) معلناً عن تحول الرهبانية اليسوعية النشيطة إلى وضع الجثة.

بعد الإعلان البابوي، تمّ التصدي لقرار الإلغاء من إيطاليا أولاً، إلى بولندا التي كانت تضم وقتها 2400 يسوعي على الرغم من تقاسم البلاد عام 1772 بين كاترين إمبراطورة روسيا الأرثوذكسية وفريديريك الثاني الكبير ملك بروسيا البروتستانتي صديق فولتير عدو اليسوعيين اللدود. هكذا، أصرّ الملك البروسي على الحفاظ على خدمات اليسوعيين، بموافقة ضمنية من الكرسي الرسولي الذي لم يكن له أية سلطة عليه.

تمتع اليسوعيون بحرية التحرك في روسيا ونشروا إرسالياتهم في بلاد القوقاز والفولغا وسيبيريا، واستفادوا من الأوضاع إلى حد إقامة جمعيات سرية في أوروبا الغربية، من فرنسا إلى بلجيكا ودوقية بارما. وفي عام 1782 عقدت الرهبانية اليسوعية في روسيا هيئتها العامة، وبعد مرور عشر سنوات طلب فرديناند دو بارما من يسوعيي روسيا إيفاد ثلاثة مبعوثين مع موافقة البابا بيوس السادس السرية. لكن ابتداءً من العام 1800 وبعد تبدل الأوضاع السياسية في أوروبا، ظهرت عند الحبر الأعظم بوادر إعادة هيكلية الرهبانية اليسوعية، التي تم رد

اعتبارها عام 1804 في مملكة الصقليتين. فالحبر الأعظم بيوس السابع البنيديكتي الأصل، كان يعلم أنّ اليسوعيين أخذوا بالتجمع ضمن جمعيات خفية مستوحاة من القوانين التأسيسية الأغناطية في أوروبا تهيئة لعودة قوية وسريعة.

طوال عشر سنوات بقي الوضع مجمداً، خصوصاً وأنّ نابليون الثالث قام بوضع البابا بيوس السابع في السجن، أولاً في سافونا وثانياً في فونتينبلو. بعد الإفراج عن الحبر الأعظم الرهينة إثر خلع الأمبراطور عام 1814، عاد البابا إلى روما، وأول قرار هام اتخذه، كان إعادة الرهبانية اليسوعية إلى نشاطاتها السابقة في العالم أجمع. وفي السابع من شهر آب عام 1814 احتفل بيوس السابع بالقداس الإلهي في كنيسة يسوع المسيح (Gesù) في حضور حشد من الكرادلة ورجال الإكليروس، ثم انتقل إلى كنيسة صغيرة، حيث كان في انتظاره مئة راهب يسوعي «سابِق» أحنت ظهورهم الاضطهادات والمظالم كما السنين، وقام أمين سر الكرسي الرسولي بتلاوة القرار البابوي (*Sollicitudo Omnium Ecclesiarum*) الذي عبّر فيه عن رغبة الكنيسة في رد الاعتبار إلى الرهبانية التي أسسها القديس اغناطيوس دي لويولا، وإعادة جميع حقوقها.

بعد مرور ستة أشهر على استعادة شركة يسوع حقوقها الشرعية تخلى ملك سردينيا شارل عمانوئيل الرابع عن العرش والتحق بصفوف شركة يسوع في روما، بعد إصابته بمرض الصرع ووفاة زوجته، وعاش حتى عام 1819 في عزلة تامة وتمّ دفنه كراهب يسوعي.

أمّا الرئيس العام فيليب روثان الهولندي الأصل الذي كان قد التحق بالرهبانية اليسوعية عام 1804 في المنفى في روسيا ثم تمّ طرده مع 357 يسوعياً عام 1820 من موسكو بعد اتهام اليسوعيين بمؤامرة سياسية ضد العرش، فإنه عمل جاهداً من أجل عودة رفقة يسوع إلى سابق عزها، وبعد مرور 41 سنة على إلغاء وطرد وتهميش هذه الرهبانية العظيمة، عادت إلى استعادة دورها الرائد على جميع الأصعدة وبرهنت على أن الجثة كانت دوماً دائمة الحراك.

كانت النهضة سريعة للغاية، وفي ظرف شهرين، التحق في صفوف الرهبانية اليسوعية سبعون مبتدئاً جديداً، ولكن الهدنة كانت قصيرة بينما الآمال كانت كبيرة، إذ تجمع

Riyad Nassar Library

ضدها تحالف من أتباع فولتير، ومن ورثة الثورة الفرنسية، ومن البرلمانيين البروتستانت والجنسينيين. وفي عام 1826 أصدرالكونت مونلوزير(Montlosier) أي فرانسوا دومينيك، مؤلفاً تحت عنوان: «مذكرات يجب العودة اليها، والمتعلقة بنظام ديني يهدف إلى تدمير الدين والمجتمع والعرش». في تلك الحقبة، لم يكن الملك شارل العاشر يحكم فرنسا بل الرهبانية اليسوعية، كما كانوا يدعون، ولكن مونلوزير أعاد إلى الأذهان في عام 1827 أن الرهبانية اليسوعية لا تزال محظورة في فرنسا، مما جعل الملك شارل العاشر يخضع إلى الأمر الواقع، وفي حزيران 1828 تمّت إعادة طرد اليسوعيين من المعاهد كافةً ومن جميع نطاقات التعليم على جميع الأراضي الفرنسية.

ولكن بعد مضي عامين اندلعت ثورة تموز التي أطاحت بالملكية، وتمّ اتهام الرهبانية اليسوعية بالتواطؤ مع النظام الملكي السابق، وإن مقرّ إقامتهم في مونروج متصل بواسطة نفق مع قصر اللوفر. ولكنّ هذه الشائعة سرعان ما انتشرت، مما أدى إلى اجتياح المقر ونهبه وحرقه وطرد اليسوعيين من جديد، حيث لجأوا إلى سويسرا المجاورة، التي شهدت لاحقاً حرب(*) (Sonderbund) بين الكاثوليك والبروتستانت.

لم يدم هذا النزاع طويلاً، ولكن الجميع كان يفتش عن كبش فداء، فتبين أن الرهبانية اليسوعية هي الضحية المثالية، هكذا تمّ إلغاؤها ومصادرة جميع ممتلكاتها وإغلاق مؤسساتها حتى عام 1973. آنذاك تعالت الأصوات منددة بعودة اليسوعيين إلى الأراضي السويسرية، ولكن التخوف من إعادة سيطرة الرهبانية على مقدرات الاتحاد السويسري كان سيد الموقف، معيدة إلى الأذهان ما سبق وحذر منه الكاثوليكي الراديكالي وألد أعداء اليسوعيين أغسطينوس كيلر، عندما قال في 19 آب عام 1844: «في حال لم يتم طرد اليسوعيين من سويسرا، سوف يتم القضاء على بلادنا أخلاقياً ودينياً وسياسياً». لكن على الرغم من جميع حملات التشهير والافتراء، جاءت نتائج الاستفتاء (Referendum) إيجابية عام 1973 مؤكدة

(*) زونديربوند Sonderbund: اتحاد الكانتونات الكاثوليكية السّبعة في سويسرا عام 1845 ضد الحكومة الفيديرالية، والذي تمّ إلغاؤه عام 1847 بعد تدخل الجيش بقيادة الجنرال دوفور (Dufour).

على ديموقراطية النظام السياسي السويسري، وعلى براءة الرهبانية اليسوعية من جميع التهم المجحفة في حقها.

بعد عاصفة 1830، بدأ اليسوعيون الفرنسيون بالعودة إلى ديارهم تدريجاً، واستعادوا مهامهم التبشيرية ما وراء البحار، من أميركا إلى سوريا ومدغشقر وصولاً إلى الهند. في هذا الوقت تغيرت ملامح الكاثوليكية الفرنسية إلى أقصى حد، عندما تحولت إلى «كاثوليكية ليبيرالية»، حيث أطلق لامونيه شعاره الشهير: «كنيسة حرة في دولة حرة»، وهو ما دافع عنه شارل دو مونتالمبير (1810–1870) الذي ساند بشدة حرية التعليم. وعلى الرغم من قرار الطرد الصوري والنظري في عام 1845، تمتع الآباء اليسوعيون في الفترة الزمنية الواقعة بين ثورة 1849، وسقوط نابوليون الثالث عام 1870 بفترة سلام وهدوء نسبية، وأسهمت القوانين الصادرة في عام 1850 في السماح لهم بافتتاح مدارس ابتدائية وثانوية في معظم المدن الرئيسية الفرنسية.

فالطبقة البورجوازية التي بقيت متخوفة من عواقب 1849، رأت من مصلحتها التحالف مع الكنيسة الكاثوليكية ضد الإشتراكية الناشئة، ووجدت في الرهبانية اليسوعية حليفاً قوياً. ولكن في الحقيقة، كانت الرهبانية مترددة بين الكاثوليكية المتشددة والنزعة الليبيرالية مع ما تحمله من أفكار جديدة. في العام 1863 حرّر الأب أمبرواز ماتينيون المسؤول عن مجلة «الدراسات الدينية» التي تأسست عام 1856 والتي تحولت إلى مجلة «الدراسات» لاحقاً، إحدى عشرة مقالة ما بين عامي 1864–1867، تحت عنوان «عقائد الرهبانية اليسوعية في موضوع الحرية». لقد أراد هذا الأب الجليل الرد على الافتراءات كافة القائلة بأن «الرهبانية اليسوعية هي حليفة كل أنواع الاستبداد السياسي والروحي والديني»، مؤكداً أنّ «همّ الرهبانية اليسوعية الأول هو الدفاع عن الحرية الإنسانية والحفاظ على القانون الإلهي». ولكن الأطراف الكاثوليكية لم تكن جميعها متفقة على معنى الحريات العصرية، مما استوجب توضيحاً من البابا بيوس التاسع عام 1868 حذّر فيه اليسوعيين من المزج بين الحقيقة والخطأ.

Riyad Nassar Library

أثناء افتتاح مجمع الفاتيكان الأول في عام 1869 لم تنجح الأقلية الليبيرالية في فرض الأفكار الجديدة المتحررة، على الأكثرية المتشددة المتمسكة بالعصمة البابوية المطلقة في جميع الميادين. وفي 19 تموز من العام 1870، أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا، وتوقفت مجلة «الدراسات» عن الصدور حتى عام 1871 بعد أن تمّ نقل إدارتها إلى مدينة ليون الفرنسية، مع استبدال الكاثوليكيين الليبيراليين من أمثال الأب ماتينيون بآخرين متشددين على مثال الأب رامير، الذي كتب كلاماً قاسياً في حق الليبيراليين عام 1875 قائلاً:«إننا نختصر التفليسة الليبيرالية الكاثوليكية بأربع كلمات: الغش والنذالة والعصيان والخيانة».

في فرنسا، وفي العام 1878، أصبحت الرهبانية اليسوعية تعد 9795 عضواً، وكان اليسوعيون الفرنسيون يشكلون نسبة ثلث اليسوعيين في العالم، وراحت الرهبانية تبحث عن ملاذ آمن خارج الحدود تلجأ إليه في أوقات الشدة. وفي 16 أيار عام 1877، قام الماريشال ماكماهون بحل البرلمان، وألقى الحجز على جميع ممتلكات الرهبانية اليسوعية، وبدأت المفاوضات السرية بين السلطات السياسية والرهبانية اليسوعية من أجل تسهيل انسحاب رهبانها إلى إنكلترا. بعد استقالة ماكماهون أصبح جول فيري في موقع السلطة، وأعلن في الرابع من شباط عن مشروع قانون يتناول حرية التعليم العالي، حيث جاء في البند السابع أنه «لا يحق لأي كان ممارسة التعليم العام أو إدارة معهد للتعليم من أي نوع كان، إذا كان ينتمي إلى مؤسسة دينية غير معترف بها»؛ فيري الذي اعتبر نفسه مدافعاً عن حرية التعليم، أصدر هذا البند خصيصاً ضد الرهبانية اليسوعية التي كانت تتولى إدارة 29 معهداً وتعمل على تنشئة 11 ألف تلميذ، ومن المعروف أن جول فيري كان على رأس تنظيم التعليم في المدرسة عندما فرض قانون إلزامية التعليم الابتدائي كما علمانيته ومجانيته. ردة الفعل السلبية أتت هذه المرة من الضفة الأخرى لبحر المانش عندما كتبت صحيفة «الغارديان» اللندنية أنّ «التطرف الفرنسي كان دوماً غبياً وعنيفاً واستبدادياً».

أما في فرنسا حيث انتفض رجال الإكليروس ضد قرار الحكومة، أصرّ بيري على موقفه معترفاً أن الرهبانية اليسوعية تبقى هدفه الأول والأخير. إن اللجنة البرلمانية دعمت بيري متهمة الرهبانية اليسوعية بمحاولة إلغاء إنجازات الثورة الفرنسية المادية والمعنوية،

والسيطرة على السلطة الزمنية بعد سيطرتها على السلطة الروحية. خلال مناقشة اللجنة البرلمانية في 16 حزيران 1879 ردّ بيري على سيل الأسئلة، صارخاً: إنّ «الخطر يكمن في اليسوعيين، في تمددهم ، في تقدمهم، في قوتهم وفي سيطرتهم. إن كره اليسوعيين هو شعور وطني فرنسي». إثر ذلك، حاز مشروع فيري على موافقة الجمعية الوطنية في 7 تموز 1879، ورفض مجلس الشيوخ الموافقة على البند السابع في 15 آذار 1880، ولكن الحكومة المهزومة على أيدي مجلس الشيوخ لجأت إلى المراسيم من أجل تطبيق القوانين المجحفة، وفي 29 آذار 1880 اتخذت الحكومة الفرنسية مرسوماً يقضي بطرد الرهبانيات التي لم تحصل على إذن رسمي، علماً أنها لحظت مهلة ثلاثة أشهر من أجل أن تعمد الرهبانية اليسوعية إلى إلغاء نفسها. إن مرسوم 29 آذار 1880 تسبب مرة أخرى في الدياسبورا اليسوعية، والبابا لاون الثالث عشر قرر التضحية بالرهبانية اليسوعية في فرنسا، من أجل الإبقاء على غيرها من الرهبانيات الكاثوليكية من مريمية ودومينيكية وغيرهما. وفي 30 حزيران 1880، وبعد استنفاذ مهلة السماح المحددة بثلاثة أشهر التي كان قد لحظها البند الأول من المرسوم، بدأت عملية الطرد، وإقفال المؤسسات والمعاهد اليسوعية، ومصادرة الممتلكات بمعاونة الشرطة والجيش في بعض الأوقات.

على الرغم من الرحلة اليسوعية نحو المنفى بعد صدور مرسوم 29 آذار 1880، حاول اليسوعيون تجميع صفوفهم دون كلل أو ملل في باريس وليون وتولوز وشامبانيا، على الرغم من انتشار ربع قواتهم ما وراء البحار، إذ أنشأوا جامعة في بيروت، هي جامعة القديس يوسف التي تبقى حتى اليوم من أرقى الجامعات في لبنان والشرق الأوسط. ثم صدر قانون عامي 1901 و 1905، تأكيداً على فصل أمور الكنيسة عن أمور الدولة، والتأكيد على رفض السلطة المدنية للسيطرة اليسوعية الدينية.

إن الرجوع إلى تاريخ الرهبانية اليسوعية يُظهر لنا أن هذه المؤسسة الدينية التي عاشت المحن والاضطهادات في سبيل «مجد الله» حتى الاستشهاد، كثر الكلام عنها، منه المسيء ومنه الجيد، ولكن حب السلطة وحب الأمور الدنيوية عند بعضهم جعلها تتنكر أحياناً إلى

Riyad Nassar Library

مبادئها ومبادىء الرفاق الأوائل، خصوصاً القديس أغناطيوس دي لويولا. الجدير بالذكر أنّ مأساة اليسوعيين المتكررة في فرنسا، كانت شبيهة بما لحقهم في إسبانيا، حيث تمّت ملاحقتهم ونفيهم سبع مرات بين عامي 1820 و 1936، كما في البرتغال حيث لم يصبح وضعهم شرعياً إلا منذ عام 1939. أما في إيطاليا، فقد عانت الرهبانية اليسوعية من أحداث عام 1830 وتمّ إقفال بيوتها ومراكزها ومعاهدها في روما عام 1848، كما تمّ إلغاؤها في البييمونت ونابولي والبندقية وصقلية.

وفي نهاية القرن التاسع عشر استعادت شركة يسوع سيطرتها في جميع مناطق نفوذها السابقة، ودخلت وراء الجيوش الاستعمارية وعلى خطاها إلى القارة الإفريقية، من الجزائر إلى الكونغو والتشاد والكاميرون وساحل العاج والسنغال. وفي العام 1864 أدان البابا بيوس التاسع أخطاء الماضي في المنشور البابوي (*Quanta Cura*) الذي دعم البرنامج السياسي اليسوعي الرافض لجميع أشكال التقدم والليبيرالية والحداثة، وأصبح اليسوعيون العدو رقم واحد وكلمة يسوعي إهانة كبرى.

إن القرن التاسع عشر كان في طريقة ما مرآة للقرون التي سبقته، إذ خلال الثورة الإسبانية بين عامي 1820–1823 أصبحت شركة يسوع مستهدفة من الثوار وتمّ اغتيال خُمس الرهبان. بين عام 1820–1936 تمّ طرد رفقة يسوع سبع مرات من الأراضي الإسبانية الغارقة في الحروب والانقلابات العسكرية. أما في أميركا الجنوبية، فقد عملت الأفكار المناهضة للديانة المسيحية على إبعاد الآباء اليسوعيين عن الأرجنتين وكولومبيا والإكوادور وغواتيمالا ونيكارغوا وكوستاريكا بين عامي 1843–1844. لكن في فرنسا، وبعد اتهام رئيس مدرسة سانت جنفييف في فرساي، الأب اليسوعي دولاك (du Lac) بالتواطؤ مع رئيس هيئة أركان الجيوش الفرنسية الجنرال (Boisdeffre) في إدانة الكابتن درايفوس، قامت حملة واسعة تندد باليسوعيين وتطالب بترحيلهم، وهذا ما حصل في العام 1901.

مع بروز الرايخ الثاني في ألمانيا تمّ اتهامهم بالولاء لرئيس أجنبي أي البابا في روما، مما دفع بالمستشار بيسمارك إلى طرد ما سماهم أعداء الداخل مع صدور قانون 4 تموز

1872، ولم يُرد إليهم الاعتبار كلياً إلا عام 1917، علماً أن الرهبانية اليسوعية قد دخلت القرن العشرين مع جيش قوامه خمسة عشر ألف راهب. لقد تمّ طرد اليسوعيين من ألمانيا في المرة الأولى عام 1848، ثم نفيهم من «المعسكر الثقافي» (Kultur Kampf) بين عامي 1872 و 1917، وابتداءً من العام 1938 أغلقت الحركة النازية مراكزهم، وفي الثاني من شهر شباط 1945 تمّ إعدام الأب اليسوعي الفريد ديلب بتهمة التآمر ضد هتلر. لقد استشهدت الرهبانية اليسوعية عدة مرّات خلال مسيرتها الطويلة، وأريق دمها على مذبح البغض والحسد والتطرف، وتحولت إلى جثة لم تدركها العفونة، ولم يقدر عليها الموت، لأنها بقيت متحركة وعادت ناشطة متعافية.

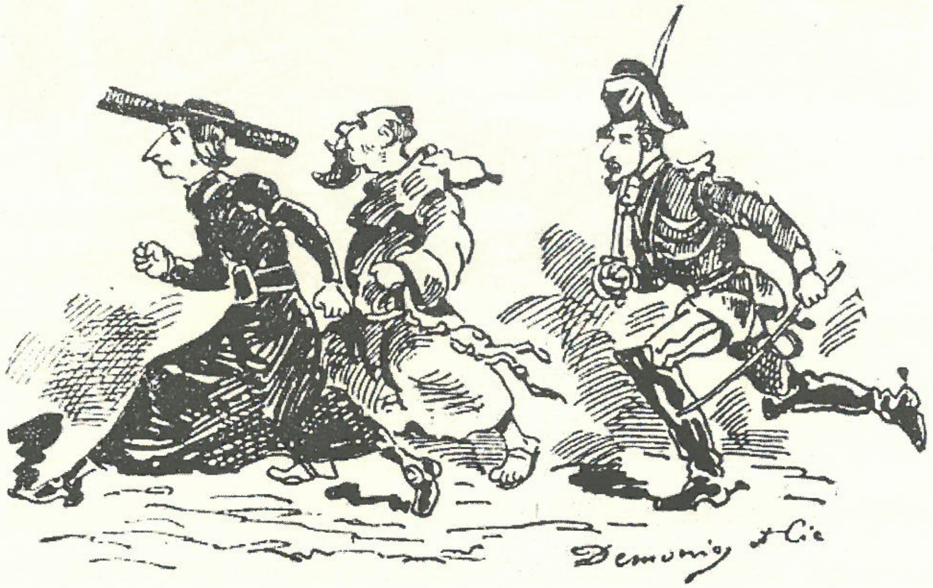

اليسوعيون يُطردون عام 1881 ويلحق بهم الكبوشيون يلاحقهم رجال الشرطة

Riyad Nassar Library

اليسوعيون يعودون

Riyad Nassar Library

الفصل التاسع

البابا الأسود في مواجهة البابا الأبيض

كَثُر الكلام عن البابا الأسود أي الجنرال اليسوعي في ثيابه الإكليريكية السوداء، وعن مدى تأثيره في روما مقر الحبر الأعظم، ومدى نفوذه على مقدرات الكرسي الرسولي والسياسة الرومانية، إلى حد زعم فيه بعضهم أنه في مواجهة مستمرة مع البابا الأبيض سيد روما. وهذا الصراع بين السلطتين الكاثوليكيتين بدأ مع رئيس الرهبانية اليسوعية الأول أغناطيوس دي لويولا والحبر الأعظم بولس الرابع، على الرغم من أهمية النذر الاحتفالي المتعلق بالطاعة المطلقة لممثل السيد المسيح. فمؤسّس رهبانية التيّاتان يوحنا بطرس كارافا الذي انتخب حبراً أعظم في 23 أيار عام 1555 تحت اسم بولس الرابع، كان على أشد خلاف مع أغناطيوس عندما تم تسليمه سدة الكرسي البطرسي. ومع الاستمرار في الطاعة، استمرت الخلافات بين البابا الأبيض والبابا الأسود حتى أيامنا هذه، مع فترات هدوء لم تتوصل إلى وضع حد نهائي للتنازع على السلطة. ولقد كتب الرئيس الإقليمي السابق للرهبانية اليسوعية في فرنسا، الأب هنري مادولين عام 1981: «إن الرئيس العام للرهبانية بدرو أروبي رجل يحترم المؤسسات ويعرف أنه بالقرارات التي يتخذها يحدد مصير غيره من الرجال، ولكنه يتوصل دوماً إلى فتح طريق الحرية أمام الجميع». إن احترام مبدأ الحرية الذي جاهر به بدرو أروبي كان عرضة لانتقادات البابوات الثلاثة الآخرين، وصولاً إلى الحبر الأعظم يوحنا

بولس الثاني، وإنّ معاوني البابا الأبيض رأوا في «تراخي» بدرو أروبي علامات ضعف، وهو الذي وصل إلى رأس هذه المؤسسة النافذة عن طريق المصادفة عام 1962 كما يَدّعون.

ولكن مع وصول هذا الرئيس العام المميّز إلى مركز القرار الأول في الرهبانية اليسوعية، تغيّرت الأوضاع ولو بطريقة بطيئة، إذ أصبح الاعتراض ممكناً ضمن هذا النظام الصارم، وبرهنت قوة الضعفاء على أنها أكثر فعالية من القوة القمعية والعنيفة العقيمة. فالرئيس العام الأسبق بدرو أروبي هو خلف القديس أغناطيوس الثامن والعشرين، وهو يتحدر من عائلة مسيحية مؤمنة، درس الطب في جامعة مدريد، والتحق بجمعية «سان فانسان دو بول» الخيرية، حيث تسنى له الاطلاع عن كثب على معاناة الفقراء في ضواحي العاصمة الإسبانية.

في هذه الفترة الزمنية تكاثرت الأقاويل والشائعات حول العمليات الاحتيالية والمتاجرة بالمقدّسات المسيحية واستغلال الدين لمآرب تجارية في سيدة لورد في فرنسا، ولكن الأجواء المقدسة في هذا المكان دفعته للالتحاق بالرهبانية اليسوعية. في كانون الثاني عام 1932، عمدت الحكومة الإسبانية إلى حل الرهبانية اليسوعية وإلغائها، مما عجّل في اتخاذه طريق المنفى في اتجاه بلجيكا ثم هولندا وبعدها الولايات المتحدة الأميركية، بغية متابعة دروسه في الفلسفة وعلم اللاهوت، كما البعض من رفاقه؛ الجدير بالذكر أنه غادر إلى أميركا حيث سيم كاهناً بتاريخ 30 تموز 1936، والهدف الأول كان التخصص في علم النفس. فور وصوله، استقبله الرئيس الإقليمي لنيويورك[31] ببرودة فائقة، قائلاً له: «علم النفس؟ كلا، كلا، إن جميع اليسوعيين الذين يريدون درس علم النفس هم بحاجة إلى طبيب نفساني».

في إطار الطاعة المطلقة لرئيسه، تخلى أروبي مكرهاً عن مشروعه، وانصرف إلى إنجاز السنة الدراسية الثالثة الضرورية قبل إعلان النذور الاحتفالية، ومنها النذر الرابع أي الطاعة المطلقة للحبر الأعظم. وأثناء وجوده في كليفلاند وصلته رسالة الرئيس العام في حينها ليدوتشوفسكي مع الموافقة على بعثته التبشيرية إلى اليابان، وهي التي كانت المهمة الأعز على قلبه التي جعلته ينسى دراسة الطب وعلم النفس. أمضى أروبي الأشهر الثلاثة الأخيرة من إقامته الأميركية في زيارة السجناء الناطقين باللغة الإسبانية ومساعدتهم، منغمساً في مساعدة النفوس والتعليم المسيحي. وفور وصوله إلى اليابان، أعلنت الأمبراطورية الآسيوية

عن دخولها الحرب ضد الحلفاء وتمّ اتهام أروبي بالجاسوسية، وأودع إحدى الزنزانات في سجن ياماغوشي.

يقول أروبي: لقد «تعلمت في زنزانتي السكوت والوحدة والفقر وفن الحوار الداخلي مع الله»؛ ومع أنه اعتاد الألم والصبر والمعاناة والتضحية، لكنه كان شاهداً حياً على انفجار القنبلة الذرية الأولى فوق هيروشيما في السادس من شهر آب عام 1945. لقد كان الأب الجليل يسكن مع رفاقه اليسوعيين الخمسة والثلاثين في ناغاتوسكا على بعد ستة كيلومترات من هيروشيما المنكوبة، التي اختفت عن الخريطة، علماً أنّ جميع الرهبان نجوا بأعجوبة. إن كارثة هيروشيما وما خلفته من مآس ودمار، لم تمنع أروبي من متابعة النضال في اليابان حيث انتخب رئيساً إقليمياً للرهبانية اليسوعية عام 1954؛ الأب بدرو أروبي الذي انتخب لاحقاً رئيساً عاماً بتاريخ 22 أيار عام 1965، وليس عن طريق المصادفة كما قال بعضهم، لم يكن يحب الإكثار من الكلام، ولا التمادي في الطاعة العمياء بشكل اصطناعي، بل كان يطالب باعتماد أساليب الإنجيل المبارك، مردّداً أنّ اليسوعيين يكرهون مذهب القوة والنفوذ. هكذا بدأ أروبي مبدأ الإصلاحات من الداخل فاتحاً قنوات الحوار، مع الإصرار على الحفاظ على مركزية السلطة، وأصبح عدم الاستفراد بالقرارات من القواعد الأساسية في الهرمية اليسوعية، كذلك حاول تحويل الرهبانية اليسوعية إلى مؤسسة ديموقراطية، أنشئت في القرن السادس عشر على الطراز العسكري وحسب العقلية السائدة والطبيعية في تلك الأوقات، إلى مؤسسة تنادي بالحرية من دون التخلي عن مبدأ الطاعة، أهم ركائز هذه المؤسسة الدينية.

كانت الرسائل تتدفق يومياً على الرئيس العام من جميع الأقاليم في العالم، وتمّ اعتماد المراسلات والاقتراحات المباشرة من دون أي وسيط كان، بغية تحديد رؤية كونية عن حاجات الكنيسة والعالم، مما دفعه إلى التنقل والسفر من أجل الاطلاع على أوضاع الرهبانية عن كثب. وفي رسالته الموجهة إلى ثمانية آلاف يسوعي في الولايات المتحدة الأميركية يقول أروبي: إن «الكثيرين من اليسوعيين يعيشون بعيدين عن طريقة عيش الفقراء، خصوصاً عن أكثرية العرق الأسود، والرهبانية اليسوعية تبقى في خدمة البشرية جمعاء، وبالأخص

Riyad Nassar Library

في خدمة فقراء المسيح». فأروبي الذي كان يدرك أكثر من غيره أهمية الجهاز التعليمي اليسوعي الهائلة في المجتمع الأميركي، طالب بتنظيم محاضرات ولقاءات تحث على حق السكن ورفع مستوى الحياة وضمان الحريات كافة من دون تفرقة أو تمييز عنصري. ولهذا، فقد وجّه في 14 نيسان 1968 رسالة إلى جميع أعضاء الرهبانية اليسوعية يدعوهم فيها إلى تسهيل التحاق السود المؤهلين في الجسم الإداري والتعليمي داخل المؤسسات اليسوعية، متحدثاً عن سُلم القيم، داعياً إلى توزيع عادل للفرص والخيرات، قائلاً إن الأمور لا يمكن أن تبقى كما كانت في أيام أغناطيوس، مشجعاً على الاستثمار في الأبحاث العلمية، وتطوير نشرها، وتأسيس مراكز تنشئة وتعليم صالحة من دون الوقوع في فخ الاستفادة الشخصية والكسب المالي، مذكراً الأخوة أنه لا يحق لهم التملك ولا الإفادة الشخصية استناداً إلى القوانين التأسيسية[27] .

شدّد المجمع العام الثاني والثلاثون للرهبانية اليسوعية الذي انعقد في روما من كانون الأول عام 1974 حتى 7 آذار 1975 يوماً على صلة التبشير بتعاليم الإنجيل المبارك ونشر العدالة، في خدمة الكنيسة والإنسان، من أجل عالم أفضل، لذلك فإنّ القرار رقم أربعة الصادر عن المجمع العام قد حدّد المعايير الجديدة لعمل الرهبانية، ضمن التضامن مع جميع ضحايا الظلم في جميع أشكاله، والمشاكل الناشئة عن العنف والطغيان السياسي والاجتماعي. هذا القرار هو في صميم التزام الرهبانية اليسوعية خط مناهضة الديكتاتورية والأنظمة التوتاليتارية في أميركا اللاتينية، والصراع مع نظام ماركوس في الفيليبين، وفرصة لإعادة النظر في مواقف اليسوعيين من الطبقات الميسورة والمحظية.

يقول القائد العام عن جدارة إنّ «الالتزام بنشر العدالة والدفاع عن الذين لا صوت لهم ولا سلطة بين أيديهم، ينبع من إيماننا في السيد المسيح، ويقودنا في خط البحث الجدي عن مشاكل هؤلاء من أجل المساعدة وتحمل مسؤولياتنا في المجتمع». لقد دعا الرئيس العام الإنساني، للتوفيق بين المسيحية وباقي الأديان والثقافات، طالباً التخلي عن الروح الكولونيالية وعقدة التفوق الموروثة عن الثقافة الأوروبية. وفي الثالث من كانون الأول عام 1974 أعطى الحبرالأعظم بولس السادس شهادة تقدير إلى الرهبانية اليسوعية على الرغم

من خلافاته معها، مما جعل أروبي يصعد مع رفقة يسوع إلى خطوط المواجهة الأمامية عام 1980 في وجه انتشار المخدرات ومساعدة اللاجئين (Boat People) مشدّداً على أن الجهود المبذولة غير كافية وعليها أن تتضاعف.

فالرئيس العام الذي لم يكتفِ بإنشاء «المركز اليسوعي للاجئين» عام 1980، كان قد التقى عام 1979 في روما كبار اليسوعيين ورئيس البنك الدولي روبرت ماكنامارا وأطلعهم على حقيقة مؤلمة، وهي أنّ 10 آلاف شخص يموتون يومياً من الجوع في العالم، ولقد أسفر الاجتماع عن وجود حلول ممكنة يعترضها حب الذات عند البلدان الصناعية وتتعلق بالفقر والمجاعة في العالم، كما تكاثر أعداد اللاجئين الذين وصلوا إلى 16 مليوناً.

وفي عودة إلى القوانين التأسيسية للرهبانية الأغناطية يتبين أنّ من بين أهدافها الأساسية نشر التعليم المسيحي إضافة إلى مصالحة الأعداء والدفاع عن المستضعفين، مما حمل الأب الرئيس العام إلى جمع التبرعات والمتطوعين عبر التعاون بين «المركز اليسوعي للاجئين» و«الهيئة العليا للاجئين» التابعة للأمم المتحدة، في أثيوبيا والزائير والتشاد وزمبيا وزيمبابوي وأندونيسيا. وفي آخر يوم من رئاسته تاريخ 6 آب 1981، أمضاه أروبي في بانكوك، صرّح قائلاً: إن «هؤلاء اليسوعيين ماكرون إلى أقصى حد ويتمتعون بنفوذ واسع، ولكننا لسنا سيئين إلى درجة كبيرة، وفي الوقت نفسه لسنا طيبين كما يعتقد بعضهم. نحن أناس عاديون ولسنا من النوابغ، رغماً عن وجود قلة من النوابغ بيننا»، طالباً من الجميع الصلاة.

بعد انتهاء أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني اتسعت الهوة مجدداً بين الحبر الأعظم الروماني والجنرال اليسوعي، على الرغم من مساهمة رفقة يسوع في إمداد الكرسي الرسولي بأفضل علماء اللاهوت والمستشارين، على مثال الآباء راهنر ولوباك ودانيللو[32]. في صباح التاسع والعشرين من شهر أيلول عام 1978، دخل مستشار البابا يوحنا بولس الأول إلى غرفة نوم الحبر الأعظم فوجده وقد أسلم الروح، بعد ولايته القصيرة التي لم تدم أكثر من ثلاثة وثلاثين يوماً. في البيان الرسمي الصادر عن حاضرة الفاتيكان، توفي يوحنا بولس الأول أي البيانو لوتشياني على أثر نوبة قلبية حادة، ولكن مؤامرات الاغتيال بالسموم والخناجر التي غذّت طويلاً أفكار البلاط البابوي برزت إلى الواجهة من جديد، وبدأ الهمس بنظرية قتل

Riyad Nassar Library

الحبر الأعظم في أروقة الفاتيكان. الكرسي الرسولي رفض بشدة تشريح الجثة كما نظرية قتل البابا بواسطة السم، علماً أنه وُجد على مكتبه ملفٌ يتعلق بالرهبانية اليسوعية، وهو كناية عن اتهام الآباء اليسوعيين بمخالفة أوامر الكرسي الرسولي وإرادته بطريقة لم يسبق لها مثيل. فور انتخابه بتاريخ السادس عشر من تشرين الأول عام 1978، وجد يوحنا بولس الثاني هذا التقرير والذي كان قد كتبه سَلَفَه على مكتبه. وبتاريخ الثاني من كانون الأول من العام نفسه، أعطى البابا الجديد أوامره بالإعلان عن هذه الوثيقة دون إدخال أي تعديل عليها، مما أثار في أوساط الرهبانية التململ والانزعاج.

وجد اليسوعيون مخرجاً يسوعياً للأزمة الناشئة عندما شيّعوا خبراً مفاده أن الرئيس العام بدرو أروبي هو الذي وزّع الرسالة على اليسوعيين، ولكن يوحنا بولس الثاني تبنّى تعليمات يوحنا بولس الأول بحذافيرها، مذكراً اليسوعيين بالنذر الرابع أي الطاعة المطلقة للحبر الأعظم، منبهاً إياهم من التحول عن مهمتهم التبشيرية الأساسية في تعاليمهم ومنشوراتهم، مشدّداً على كون الجنرال اليسوعي في طليعة المنصاعين للإرادة البابوية.

ظهر من خلال هذا الإنذار أنّ الرهبانية أصبحت تتخبط بين تيّارين، الأول تقليدي عائد إلى القديس أغناطيوس ورفاقه الأوائل، والثاني تحديثي ليبيرالي يتقيد بروح المجمع العام الأخير في عام 1974، مما أخاف بولس السادس بنزعته التقدمية الإشتراكية، وأقلق راحة يوحنا بولس الأول والثاني. وعند التطرق إلى تعديل القوانين التأسيسية الأغناطية، هلع الكرسي الرسولي من انخراط الرهبانية في الصراعات الدامية في العالم الثالث وخصوصاً في أميركا اللاتينية، ومن تحول الرهبانية إلى التيّار والعقيدة الماركسية، طالباً من الإغناطيين العودة إلى بيت الطاعة، ومن الرئيس العام أروبي الإمساك بجيشه وبمقاليد السلطة.

هكذا في نيكاراغوا، دخل الأب اليسوعي أرنستو كاردنال في الحكومة الساندينية وتبوأ منصب وزير التربية الوطنية، وكم كانت الدهشة قوية عندما طافت حول العالم صورة معالي هذا الأب اليسوعي، راكعاً خاشعاً أمام يوحنا بولس الثاني الذي يرفع إصبعه في وجهه محذراً ومندّداً. أما الأب دريتان ممثل ولاية ماساشوستس في الكونغرس الأميركي، فقد أغضب روما بسكوته المطبق خلال بحث قضية الإجهاض.

عندما اعتلى يوحنا بولس الثاني السدة البطرسية، كانت الرهبانية اليسوعية تمر بأزمة حقيقية منذ أكثر من عشر سنوات، ولم يتوانَ الحبر الأعظم عن إعلام الرؤساء الإقليميين الخمسة والثمانين المجتمعين في روما في 21 أيلول 1979، عن قلقه الشديد حيال شركة يسوع وسياستها الليبيرالية، ما دفع بالأب أروبي إلى استشارة هؤلاء الرؤساء الإقليميين، ثم إلى تقديم استقالته إلى الحبر الأعظم الذي رفضها، لأنّ القوانين التأسيسية تنص على انتخاب الرئيس العام مدى الحياة كما تمنع عليه الاستقالة ولا تلحظ أي دور للبابا في قبول أو رفض أو فرض الاستقالة التي تبقى من صلاحيات المجمع العام للرهبانية اليسوعية. ولكن في السابع من شهر آب عام 1981 وقع بدرو أروبي على أرض مطار روما إثر جلطة دماغية أصابته بالشلل وأفقدته حاسة النطق. تجدر الملاحظة إلى أن البابا البولندي الأصل قرر في شباط 1982 فتح قنوات الحوار مع باقي الطوائف المسيحية كما مع الديانات الأخرى وأخيراً مع الإلحاد والملحدين، محذراً اليسوعيين من الوقوع في فخ الإشتراكية والتقدمية والأصولية.

إن يوحنا بولس الثاني مع إصراره على احترام النذر الرابع عمم مبدأ الطاعة المطلقة ليس للحبر الأعظم وحده بل لجميع الأساقفة والكرادلة، محاولاً استيعاب نقمة الهيكلية الكنسية على رفقة يسوع. وفي العودة إلى إصابة بدرو أروبي، وبعد انتهاء الاجتماع في بانكوك عاد الرئيس العام إلى روما، وفور وصوله إلى مطار فيوميتشينو أصيب بجلطة دماغية. في العاشر من آب واستناداً إلى القوانين التأسيسية تمّ تعيين الأب فنسنت أوكيف رئيساً عاماً مؤقتاً في انتظار انتخاب رئيس عام دائم. وفي السادس من تشرين الأول حضر المونسينيور كازارولي حاملاً رسالة من البابا يوحنا بولس الثاني إلى الأب أروبي، وفور وصوله طلب الانفراد بالرئيس العام المشلول.

دامت هذه الزيارة بضع دقائق، وجد بعدها أوكيف الرسالة البابوية موضوعة على إحدى الطاولات والجنرال بدرو أروبي مجهشاً بالبكاء. إن هذه الرسالة جاءت كي تُعلم الرئيس العام عن رغبة وأوامر الحبر الأعظم في تعيين اليسوعي الإيطالي باولو ديزا أقرب المقربين من يوحنا بولس الثاني، البالغ من العمر ثمانين عاماً، مندوباً خاصاً ونوعاً ما وصيّاً

Riyad Nassar Library

يعاونه يسوعي إيطالي آخر يدعى جويزبي بيتو وعمره 53 سنة. ولقد تزامن هذا التعيين المزدوج مع عزل الأب أوكيف الذي اختاره رفاقه اليسوعيون مع دعم وبركة أروبي، وهو يدل على عدم موافقة يوحنا بولس الثاني ورضاه عن سياسة أروبي، ورغبته في إعادة السيطرة على رفقة يسوع والإشراف على انتخاب خليفة أروبي. إن تصرفات الحبر الأعظم جاءت مخالفة للقوانين التأسيسية الأغناطية خصوصاً وأنّ استقالة أروبي في الماضي رفضت، ولكن البابا مضى في تدخلاته متكلاً على وفاء الجنرال والتزامه بالبند الرابع، الذي كان أساس المشاكل بين البابا الأسود اليسوعي والبابا الأبيض الروماني، ما عرض العلاقات مراراً إلى أكبر المخاطر.

بعد إعلان النذور الثلاثة المتمثلة بالفقر والتبتل والطاعة، يبرز إلى الواجهة النذر الرابع الاحتفالي الذي يعلنه الراهب الناذر (Profès) قائلاً: «إنني أنذر الطاعة الخاصة إلى الحبر الأعظم في ما يختص بالإرساليات»، علماً أنّ بعض البابوات تخطوا صلاحياتهم في هذا المضمار عندما اعتبروا الرهبانية اليسوعية مجرد أداة من أجل تنفيذ سياساتهم أو بأنها جيش بابوي خاص تحت أمرة سيد الفاتيكان، مما دفع بالرئيس العام بدرو أروبي إلى التصريح يوماً: «لسنا بابويين».

إن بعض البابوات قد تدخلوا في أدق أمور الرهبانية اليسوعية على مر التاريخ، عندما عمد الحبر الأعظم بولس الرابع وأثناء حياة أغناطيوس، إلى محاولة إلحاق رفقة يسوع بالرهبانية التايتانية التي أنشأها عندما كان الأسقف يوحنا بطرس كارافا. ولقد رفض اليسوعيون دوماً ترتيل القداس الإلهي والتنازل في موضوع انتخاب الرئيس العام مدى الحياة وتحديد فترة ولايته كما سائر الرهبانيات الكاثوليكية، إذ منذ ولادة رفقة يسوع وحتى مطلع القرن الواحد والعشرين عرفت الكنيسة الرومانية 45 حبراً أعظم مقابل 29 جنرالاً يسوعياً فقط، علماً ان خلفاء البابا بولس الثالث لم يرتاحوا أبداً إلى الآباء اليسوعيين وقوانينهم التأسيسية.

فالبابا بولس الرابع هو أول حبر أعظم حاول تحديد مدة ولاية البابا الأسود بثلاث سنوات، ثم بيوس الخامس (1556–1572) ثم البابا غريغوريوس الثالث عشر (1572–1585)

Riyad Nassar Library

الذي وضع فيتو على انتخاب إسباني على رأس الهرمية اليسوعية وفرض مرشحه إيفيرارد مركوريان في عام 1573 كما الحبر الأعظم سكستوس الخامس (1585–1590) الذي كان من الآباء الفرنسيسيين وأشد المناهضين لمبدأ الطاعة العمياء والتنظيم العسكري للرهبانية اليسوعية واحتكارها اسم يسوع المسيح. أما الراهب اليسوعي السابق جوليو كليمنتي فقد دعم البابا اينوكنت العاشر (1644–1655) في مسعاه لتعديل القوانين التأسيسية وتحديد ولاية الرئيس العام، والذي نجح في فرض الدعوة إلى مجمع عام لرفقة يسوع كل تسع سنوات وذلك في عام 1646.

حاولت البابوية استيعاب جميع الرهبانيات الكاثوليكية، وبهذه الطريقة نجح اليسوعيون في امتلاك جيش[21] من القديسين، من أغناطيوس وفرنسوا كزافير عام 1622 مروراً بفرنسيس بورجيا عام 1640. وتعد الرهبانية اليسوعية في الوقت الحاضر 41 قديساً، 139 طوباوياً إضافة إلى 58 شهيداً. تجدر الإشارة إلى أن البابا بيوس الحادي عشر (1922–1939) جعل من بطرس كانيزيوس(*) قديساً عام 1925 كما روبرت بيلارمان(**) عام 1930.

قرار إلغاء الرهبانية اليسوعية الشهير والصادر عن الحبر الأعظم كليمنس الرابع عشر جاء بعد عدة محاولات تهرب وتمييع على هذا الشكل: «لقد صدرت ألف شكوى على هذه المجموعة الدينية، وصل صداها إلى مسامع أسلافنا، من فضائح وتجاوزات وارتكابات أدت إلى الأحقاد والعداوات بين المؤمنين»؛ فملوك فرنسا وإسبانيا والبرتغال والصقليتين أجبروا على نفي اليسوعيين وطردهم من ممالكهم، وإن هؤلاء الملوك رغبة منهم في تهدئة

(*) بطرس كانيزيوس أو Pierre De Hondt: الذي يعني في اللغة الهولندية[21] «الكلب»، هو من الرفاق الأوائل الذي اشتهر بمحاربة البروتستانت. كانيزيوس حرّر المعجم الكبير *Summa doctrina* الذي أصبح لاحقاً موجز كتاب التعليم المسيحي الذي ترجم إلى 12 لغة وعرف حتى أواسط القرن التاسع عشر رواجاً منقطع النظير.

(**) روبرت بيلارمان: أول كاردينال يسوعي، وهو الذي دافع عن سلطة البابوات في وجه تسلط الملوك في أوروبا، وكان من كبار علماء اللاهوت والفلسفة. بيلارمان لعب دوراً هاماً في محاكمة غاليليوس (Galilée) ونادى بحق البابا الحصري بالتدخل في جميع الممالك المسيحية كونه الممثل الوحيد للسيد المسيح على الأرض.

الخواطر، طلبوا إلغاء الرهبانية اليسوعية، أسوة بالأساقفة والشخصيات الدينية والمدنية. لذلك، نعلن بسلطتنا الرسولية إلغاء شركة يسوع مع مؤسساتها وإدارتها ومنازلها ومدارسها ومعاهدها ومستشفياتها وقوانينها كافة، حتى الموافق عليها». من ناحيته، المؤرخ الكاثوليكي الإنكليزي كريستوفر هوليس[33] يوجه أصابع الاتهام إلى البابا كليمنس الرابع عشر لأنه لم يكتفِ باتهام الرهبانية اليسوعية وإلغائها، بل فنّد هذه الاتهامات كما لو أنها جميعها حقيقية متحججاً بقيام رفقة يسوع بزرع بذور الشقاق أينما وجدوا، ناسياً أو متناسياً أنهم اضطهدوا بسبب ولائهم المطلق للبابوية منذ مئتي سنة من الزمن.

يعتبر هذا المؤرخ أنه كان يتوجب على هذا البابا التحلي بالصدق والنزاهة والصراحة كي يذكر الأسباب الحقيقية التي كانت وراء هذا الإلغاء. أما في القرن العشرين فقد أعلن البابا بيوس الحادي عشر عن أسفه الشديد إزاء هذه الصفحة القاتمة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، علماً أنّ المؤرخين اليسوعيين تحاشوا دوماً التطرق إلى ولاية البابا كليمنس الرابع عشر، حرصاً منهم ربما على قدسية النذر الرابع، بمعزل عن شخص الحبر الأعظم. وبعد مرور 41 سنة على قرار الإلغاء، قام الحبر الأعظم بيوس السابع برد الاعتبار إلى الرهبانية اليسوعية التي واصلت الولاء للبابوية، انسجاماً مع قوانينها التأسيسية، التي نجح البابا كليمنس الرابع عشر في إلغاء مفاعيلها، دون النجاح في إلغاء روحيتها؛ ويجب انتظار القرن العشرين ومجمع الفاتيكان الثاني والمجمع العام الثاني والثلاثين للرهبانية اليسوعية، كي نشهد الخلافات في الرأي بين التيّار الإصلاحي الممثل بالبابا الأسود، والكرسي الرسولي الممثل بالبابا الأبيض.

حادثة بسيطة أضرمت النار وألهبت المشاعر أثناء بحث التنظيم الداخلي للرهبانية اليسوعية، خلال انعقاد المجمع العام الثاني والثلاثين تحت قيادة بدرو أروبي. صدرت الصحف في اليوم التالي تحت عناوين تحريضية مثيرة: «ثورة كوماندوس البابا» أو «البابا يعمد إلى إسكات اليسوعيين» أو «الحبر الأعظم ينتزع من اليسوعيين حق الكلام»، مما أساء إلى العلاقات المتأزمة بين الكرسي الرسولي وشركة يسوع. الجدير بالذكر، أنّ الرهبانية اليسوعية تضم في عدادها ثلاث درجات تتمثّل بالمساعد الزمني الذي تمّ تكوينه (Les

Riyad Nassar Library

coadjuteurs temporels formés)، أي الإكليريكيين غير الكهنة، والمساعد الروحي الذي تمّ تكوينه (Les coadjuteurs spirituels formés) أي الكاهن الذي يعلن مثل المساعد الزمني عن النذور الثلاثة من فقر وتبتل وطاعة، وأخيراً الناذر (Profès) أي الكهنة الذين ينذرون إضافة إلى الفقر والتبتل والطاعة، النذر الرابع أي الطاعة إلى الحبر الأعظم. إن هذا التصنيف بقي معمولاً به منذ أيام اغناطيوس، حين فُرض على المؤسس تحديد فئة الناذرين (Profès) بعدد 60 منتسباً، في وقت تكاثر عدد طلبات الالتحاق بالرهبانية الجديدة.

مع الوقت تمّ التخلي عن هذا العدد أي 60 ولكن من الناحية العملية، واقتصر عدد المسؤولين «الحكوميين» في رفقة يسوع على ستين شخصاً. ولكن هذا التمييز في الدرجات مسّ بمشاعر الكثيرين، الذين اعتبروا أنّ الالتحاق بالرهبانية اليسوعية لا يمكن أن يعني احتلال المراكز الصغيرة والأدنى رتبة في شكل دائم دون إمكانية تبوّء المراكز الرفيعة. من ناحية أخرى، اعترض الكثيرون على اعتماد النجاح الفكري كمعيار وحيد للترقية إلى المناصب الرفيعة، مثل الامتحان في علم اللاهوت، والسيرة الذاتية العلمية، دون الأخذ في عين الاعتبار المعايير الروحية.

قبل انعقاد المجمع العام الثاني والثلاثين، نادت غالبية الأقاليم بإلغاء التفريق بين الدرجات الثلاث، مما اضطر الرئيس العام إلى إعلام البابا بولس السادس بدءاً من تشرين الثاني 1974. وفي الكلمة التي ألقاها الحبر الأعظم في افتتاح المجمع العام اليسوعي بتاريخ الثالث من كانون الأول عام 1974، أعرب البابا عن استيائه، محذراً من التشكيك والاعتراض، مذكراً بنذر الطاعة إلى الحبر الأعظم، مهدّداً بعدم منح موافقته وبركته لأي تعديل. ولكن اجتماع المجمع العام الثاني والثلاثين الذي قرّر بالأغلبية الساحقة، أي 228 صوتاً إجراء التعديلات، مقابل ثمانية أصوات ضد إجراء التعديلات، قرّر المضي في المشروع.

من جهته، اعتبر بولس السادس أنّ المجمع العام اليسوعي تصرف ضد إرادة البابا، وحصلت المواجهة، ولكن الرئيس العام انصاع إلى المشيئة البابوية على الرغم من عدم اقتناعه بصوابيتها، صارخاً بأعلى صوته، «لسنا بابويين، ولكننا ملزمون بالولاء والطاعة إلى الحبر الأعظم». إن الأب بدرو أروبي حافظ على مبادىء الرهبانية اليسوعية في الرضوخ

إلى مشيئة الحبر الأعظم، معتبراً أن بولس السادس لم يتخط حدود سلطته، بل تمنى على الرهبانية اليسوعية على طريقة الأب صالح، عدم الانجراف وراء الأفكار الجديدة التي يمكن أن تهدّد رفقة يسوع . في آخر لقاء بين بولس السادس والأب أروبي بتاريخ 18 أيار 1978 من أجل التحضير للقاء «الهيئة الأسقفية في أميركا اللاتينية» في المكسيك في شهر تشرين الأول من السنة نفسها، كانت أجواء الاجتماع ودية للغاية وأزالت من النفوس رواسب العلاقات المتردية بين الفاتيكان وشركة يسوع منذ العام 1966.

ولكن في السادس من آب 1978 توفي بولس السادس وخلفه يوحنا بولس الأول في 26 آب، وفي صباح 29 آب 1978 كانت المفاجأة الكبرى عندما أعلن الفاتيكان رسمياً خبر وفاة البابا يوحنا بولس الأول، الذي لم تدم ولايته سوى أيام قليلة. في 16 تشرين الأول عام 1978 تصاعد الدخان الأبيض من جديد من مدخنة الفاتيكان معلناً انتخاب الحبر الأعظم الجديد، يوحنا بولس الثاني. تجدر بنا الإشارة إلى أن بولس السادس ويوحنا بولس الأول أعربا عن عدم رضاهما عن المنشورات اليسوعية، التي تمّ استهجانها أيضاً من قِبَل الكثيرين من الأساقفة والقصّاد الرسوليين والهرمية الكنسية.

أعرب البابا بولس السادس وخلفه عن استيائهما من مضمون هذه المنشورات التي تمسّ بالبابا والكنيسة، ودعيا أروبي إلى الإمساك بفيالقه، مما ألزم الرئيس العام دعوة رؤساء تحرير المنشورات اليسوعية الأساسية إلى الاجتماع من أجل بحث هذا الموضوع وتداعياته. ولكن البابا الجديد بدأ الهجوم المعاكس بسرعة على الرهبانية اليسوعية، مما دفع بالأب الرئيس بدرو أروبي إلى تقديم استقالته تاركاً لخلفه مهمة إجراء التعديلات على نظام الرهبانية. وخلافاً للتوقعات طلب يوحنا بولس الثاني من أروبي سحب استقالته من التداول، علماً أن القوانين التأسيسية تنص على انتخاب الرئيس العام مدى الحياة، ومن المعلوم أنّ استقالة أغناطيوس رفضت في الماضي، واستمر مكرهاً في تحمل مسؤولياته. ولكن الانفجار الدماغي عند الأب أروبي منعه من متابعة حكم الرهبانية كما سبق وذكرنا في التفاصيل المتعلقة بهذه الإصابة. نلاحظ هنا، أنّ البابا يوحنا بولس الثاني تصرف وللمرة

الأولى في تاريخ الرهبانية وفق هذه الطريقة، ضارباً عرض الحائط القوانين التأسيسية، علماً أن الحبر الأعظم كليمنس الثالث عشر رفض طلب الحكومة الفرنسية عام 1761، تعيين ممثل خاص للرهبانية اليسوعية في فرنسا مستقل تماماً عن الرئيس العام.

إن اقدام البابا يوحنا بولس الثاني على تنحية الأب فنسنت أوكيف الأميركي خلافاً لرغبة ورأي أروبي و«حكومته»، واستبداله بالإيطالي الأب ديزا لاقى أشد الاستياء في الأوساط اليسوعية، وإنّ الحملة الشعواء التي شنّها اليسوعيون من كل حدب وصوب على الحبر الأعظم برهنت على هشاشة النذر الرابع، وعلى عمق الصراع على السلطة بين البابا الأبيض والبابا الأسود. كذلك فإنّ رؤساء أقاليم كندا عقدوا مؤتمراً صحفياً أعلنوا فيه وبلهجة تهكمية، أنّ «البابا يوحنا بولس الثاني الآتي من بلد شيوعي أوروبي، أي بولندا، ليس عالماً بالطرق الديموقراطية المتبعة في الرهبانية اليسوعية». أما في المجلة الكاثوليكية البريطانية «ذي تابلت»، فقال راهب يسوعي إنّ «القرار البابوي إهانة كبيرة في حق الرئيس العام، الأكثر قداسة والأكثر محبة وتقديراً منذ القديس أغناطيوس». وفي ألمانيا الاتحادية وجّهت مجموعة قوامها ثمانية عشر يسوعياً، على رأسها عالِم اللاهوت كارل راهنر رسالة اعتراضية شديدة اللهجة إلى البابا يوحنا بولس الثاني، رأت فيها أنّ هذا «الإجراء الإداري لا يتبين فيه إصبع الله، وأنّ إيماننا كما التاريخ علمنا أنّ السلطة الأعلى في الكنيسة ليست معصومة عن الخطأ»، في إشارة «يسوعية» إلى البابا كليمنس الرابع عشر عندما ألغى هذه الرهبانية.

من ناحيته، كان رد الرئيس الإقليمي الفرنسي الأب مادولين أقل حدة من غيره، مع أنه اعتبر أن ما يحصل حالياً مع رفقة يسوع هو نوع من اختبار لإيمانها، ولكنه ليس في أساس الحق الطبيعي. الجدير بالملاحظة أنّ الصراع بدأ خفياً منذ عهد البابا بولس السادس، مروراً بالفترة الزمنية القصيرة مع البابا يوحنا بولس الأول، واستياء أركان الكنيسة الكاثوليكية من تدخلات الآباء اليسوعيين في الأمور السياسية في بلدان العالم الثالث، خصوصاً في أميركا اللاتينية والفيليبين. فالبابا يوحنا بولس الثاني لم يستقبل الرئيس العام أروبي بعد انتخابه سوى مرتين ولفترة وجيزة، ولكن محاولة اغتيال البابا الفاشلة في 13 أيار 1981، ثم مرض

Riyad Nassar Library

أروبي، وضعا حداً لهذه اللقاءات الباردة، وأعادا التواصل بين الكرسي الرسولي ورفقة يسوع.

كان الحبر الأعظم يوحنا بولس الثاني مقتنعاً في قرارة نفسه، أنّ الرهبانية اليسوعية لا تأخذ في عين الاعتبار تحذيرات الكرسي الرسولي، والأب الرئيس العام كان ينتفض بشدة ضد الانتقادات الموجهة إلى رهبانيته خصوصاً عندما تكون محقة، ولكنه كان يتخذ الإجراءات المناسبة وحتى العقوبات بروح الأب الساهرمن دون الإعلان عنها. وهكذا، فإنّ الفاتيكان كان يعتقد أنّ أروبي لا يمسك بمقاليد السلطة مما يسهل انتشار الفوضى ويمنع الانضباط في صفوف الجيش اليسوعي. لكنّ رئيس الإقليم اليسوعي الفرنسي الأب مادولين ينصح اليسوعيين عدم الظهور وإعطاء الانطباع بأن الرهبانية اليسوعية كنيسة تنافس الكنيسة الحقيقية، والطاعة والولاء المطلق للحبر الأعظم، وهو الأمر الذي اتبعه اليسوعيون في أنحاء العالم. يقول الأب مادولين إنّ تدخل البابا يوحنا بولس الثاني في أمور الرهبانية اليسوعية هو أمر استثنائي لم تعهده رفقة يسوع منذ 450 سنة من تاريخها، ورغماً عن كل الذي حصل لم يتخل أي راهب يسوعي عن دعوته، على الرغم من رفض الجميع للسياسة البابوية وتدخلات البابا في أمور الرهبانية الداخلية، من دون التسليم غير المشروط بالقرارات البابوية.

تأثر البابا بالطاعة اليسوعية المطلقة وأعرب عن ذلك أثناء زيارة أروبي في المستشفى في أواخر عام 1981، الذي جدّد له ولاء الطاعة بكل تأثر، فطلب منه الحبر الأعظم «دعمه في صلواته وآلامه». وفي تاريخ 23 شباط 1982 تمّ اجتماع بين الأب ديزا ممثل الحبر الأعظم ورؤساء الأقاليم في فيلا كافاليتي على مقربة من فرسكاتي، بغية تقييم أوضاع الرهبانية الأغناطية، وتبليغهم مآخذ الحبر الأعظم. وفي اجتماع ضم البابا وجميع الرؤساء الإقليميين في الفاتيكان بتاريخ 27 شباط من العام ذاته، أعاد رئيس الكنيسة الكاثوليكية التذكير بمبادىء أغناطيوس، من الرياضات الروحية، إلى نشر العقيدة المسيحية الحقيقية، إلى تعليم الأجيال الجديدة وتنشئة رجال الإكليروس والأبحاث اللاهوتية، والإرساليات التبشيرية.

كان الحبر الأعظم صريحاً وواضحاً عندما طلب من الرهبانية المساهمة الفعّالة

في تطبيق مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، وإقناع الذين وقعوا في التجربة الإشتراكية بالرجوع إلى حظيرة الإيمان الصحيح، وفتح قنوات الحوار مع الديانات الأخرى، وقضية الإلحاد، ونشر العدالة. في الوقت ذاته، تطرق البابا إلى النذر الرابع موضحاً أنه لا يجب أن يكون محصوراً بالحبر الأعظم بل بالكرادلة والأساقفة والهيكلية الكنسية عامة كما ذكرنا، على أن يبادروا إلى التعاون مع هذه الهرمية لا منافستها أو معارضتها.

لقد أراد يوحنا بولس الثاني تمرير الجزرة بعد العصا، طالباً التحضير لانتخاب خلف لأروبي تنفيذاً لرغبة هذا الأخير، وإعطاء الرهبانية دفعاً جديداً، داعياً إلى احترام قرارات المجمع، وهي التي كانت موضع نقاشات وتعديلات، وخلافات بين الأكثرية اليسوعية المنادية بالانفتاح، والأقلية المحافظة الحريصة كل الحرص على التقيد حرفياً بالقوانين التأسيسية ورفض الأفكار الجديدة.

في رسالة وجهها الأب ديزا إلى جميع أعضاء رفقة يسوع بتاريخ التاسع من كانون الثاني 1982، أعاد التشديد على الولاء نحو البابا والأساقفة وتحاشي الانتقادات النابعة من شعور التفوق الفكري والأخلاقي واللاهوتي، خصوصاً أنّ روحية الرهبانية اليسوعية والفكر الأغناطي لا يمكن أن يسمحا بالاعتراض على السلطة والهرمية الكنسية كما لو أنّ شركة يسوع فوق هذه السلطة، نظراً لأنّ الاعتماد على مبدأ الطاعة الأغناطية لا يكفي لإرغام رجال أذكياء ومثقفين وإقناعهم بالتخلي عن قناعاتهم لمصلحة سلطة مركزية خارجية. فقد كتب الأب اليسوعي الفرنسي ميشيل دو سيرتو قائلاً: «إن المسيحية في القرون الأولى كانت تتألف من عدة كنائس متفاوتة ومستقلة إلى أقصى الحدود، ولكن فكرة المركزية تسارعت في القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين، على الرغم من التيارات المحلية والوطنية والعالمية التي تحرّرت نوعاً ما من السلطة المركزية[34]».

وفي هذا الإطار، يروي عالِم اللاهوت اليسوعي الألماني الشهير كارل راهنر كيف استقبله البابا يوحنا بولس الثاني، وكيف لم يكن حينها في غرفة الاجتماعات مصور خاص من أجل التقاط الصور التذكارية، كما جرت العادة، «ربما لأنني كنت أضع ربطة عنق»؛ راهنر كما دو سيرتو كان يعتقد أنّ الكنيسة سوف تتفتت، وأعداد الدعوات مرشحة إلى التقلص،

Riyad Nassar Library

ربما بمشيئة العناية الإلهية، لذلك نراه يسأل كيف يمكن التوفيق بين مفهوم الجنس مثلاً عند قبيلة الماساي في أفريقيا الشرقية، والمفهوم المسيحي الغربي؟ ولماذا لا يحق لرئيس قبيلة أفريقي أن يعيش مثل النبي إبراهيم؟ في الوقت ذاته، يقوم بتوجيه اللوم إلى الكنيسة في روما لأنها تكثر من اللقاءات واللجان دون التوصل إلى اقتراحات عملية من أجل إتمام المصالحة بين المسيحيين.

وهكذا نرى أنّ الكرسي الرسولي يمكنه القبول بتكوينات أكليريكية مختلفة عن تكويناته، وأن يكون أكثر تسامحاً مع الزواج المختلط بين الكاثوليكيين وباقي المعتقدات، ولا يكون متشدّداً بالنسبة إلى العصمة البابوية، نقطة الخلاف الأساسية مع البروتستانت، لذا نرى راهنر ينتفض ضد الجمود العقيم في المؤسسة من دون الوقوع في شرك الحداثة الغبية معرباً عن التردد والارتباك عند اليسوعيين في القرن العشرين.

بعد مجمع ترانت، كانت الأهداف محدّدة بدقة، وهي استعادة الثقة التي تحولت إلى البروتستانت وخططهم الإصلاحية، ومحاربة الفساد الذي كان يقوض أركان الكنيسة الكاثوليكية وركائزها؛ فالبابا يوحنا بولس الثاني كان يدعو ويحلم بحركة إنجيلية جديدة تعيد المسيحيين مجدّداً إلى حظيرة الإيمان الحقيقي، ويقال إن الحبر الأعظم أصبح محبطاً عندما لم تسارع رفقة يسوع إلى سماع نداء استغاثته والاستجابة إلى رغباته. يقول بعضهم، إن البابا يوحنا بولس الثاني حوّل اهتمامه إلى منظمة(*) (*Opus Dei*) التي هي نوع من تقمّص الرهبانية اليسوعية في ثوبها القديم، أقله في عيوبها، أي النخبوية والسرية والطبيعة المحافظة التي تحارب الأفكار الجديدة.

وفي المجمع العام الثالث والثلاثين للرهبانية اليسوعية الذي انعقد بتاريخ 25 تشرين الأول 1983، صدرت عن المجمع وثيقة تتألف من عشرين صفحة تحدّد وضع رسالة

(*) منظمة *Opus Dei* الكاثوليكية: أنشأها عام 1928 في إسبانيا J.M. Escrivá de Balaguer وهي مؤلفة من علمانيين وإكليريكيين يعملون في حياتهم العائلية والاجتماعية والمهنية والسياسية حسب تعاليم الإنجيل المبارك. لقد أقلق هذا التنظيم راحة أعضاء الرهبانية اليسوعية الأسبان خصوصاً الأب أنجيل (Angel Carillo de Albornoz) الذي ترك الرهبانية عام 1951 وتزوج.

الرهبانية في عالم اليوم، وتشيد بالرئيس العام السابق بدرو أروبي وإنجازاته العظيمة، وبانتخاب خلفه الأب بيترهانس كولفنباخ. اعترفت الرهبانية اليسوعية في هذه الوثيقة أنّ ولاءها للحبر الأعظم لم يكن مثالياً ومطلقاً في بعض الأحيان وبعض الظروف مما خلق سبباً للقلق بين رعاة الكنيسة. وهذه الوثيقة كانت بمثابة تراجع من الرهبانية اليسوعية عن كثير من المواقف الاعتراضية السابقة وعن التساؤلات الكبيرة وعن السياسة اليسارية قائلة في البيان الختامي: «إننا نعتقد بحاجاتنا اليوم إلى أن نضع قيد التطبيق ما أرسل لنا عوض إصدار تصريحات طويلة أو مراسيم جديدة».

في العام 1983 تمّ اجتماع المجمع العام الثالث والثلاثين الذي قبل استقالة بدرو أروبي، ورضي رسمياً بمساعي التهدئة والمصالحة والاعتدال. وقد صرّح الأب الرئيس العام المنتخب بيتر هانس كولفنباخ قائلاً: «إن عدم الولاء والطاعة إلى البابا، هو بمثابة التوقيع على إعدام الرهبانية اليسوعية». هكذا عاد السلام والهدوء إلى صفوف الرهبانية، كما عادت الخلافات والتململ مع انعقاد المجمع العام الرابع والثلاثين في عام 1994، واليوم تبقى الجروح مفتوحة على الرغم من تحسن العلاقات بين البابوية والرهبانية اليسوعية، كما أنّ الحبر الأعظم الحالي بينيدكتوس السادس عشر وفور انتخابه التقى في 22 نيسان عام 2006 في بازيليك القديس بطرس أربعة آلاف حاج، وهو حدث نظمته الرهبانية اليسوعية، حيث كلفهم بمهمة جديدة وهي الحوار مع الثقافة الحديثة من أجل محاربة فقدان القيم الدينية والأخلاقية في المجتمع المعاصر.

إن البابا الحالي، الألماني الأصل يحترم اليسوعيين ويقدرهم حق قدرهم، وله في صفوفهم أصدقاء كثر، خصوصاً الأب اليسوعي جوزف فيسيو الذي ينتمي إلى حلقة قدامى تلامذة البابا (*Ratzinger – Schülerkreis*) وهو الذي أنشأ في عام 1996 مجموعة (*Adoremus*)، وأسس مجموعة (*Ignatius Press*)، وهي من أكبر دور النشر الكاثوليكية في الولايات المتحدة الأميركية.

Riyad Nassar Library

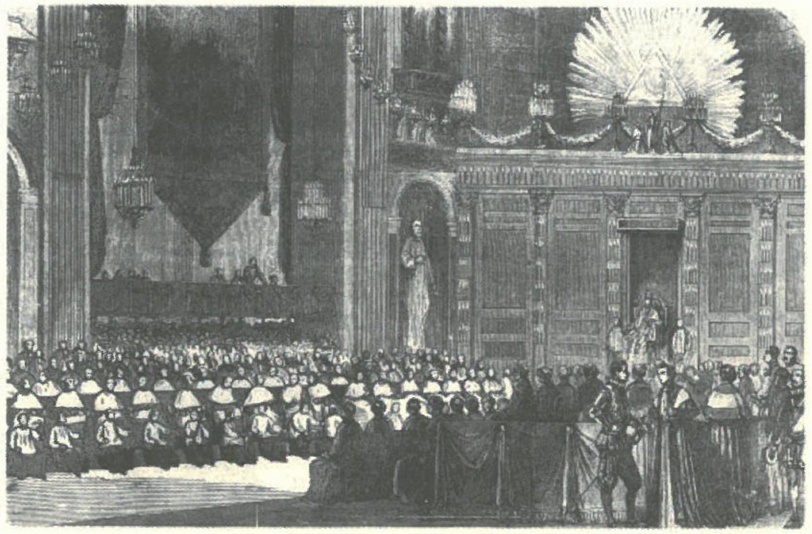

المجمع الفاتيكاني الأول

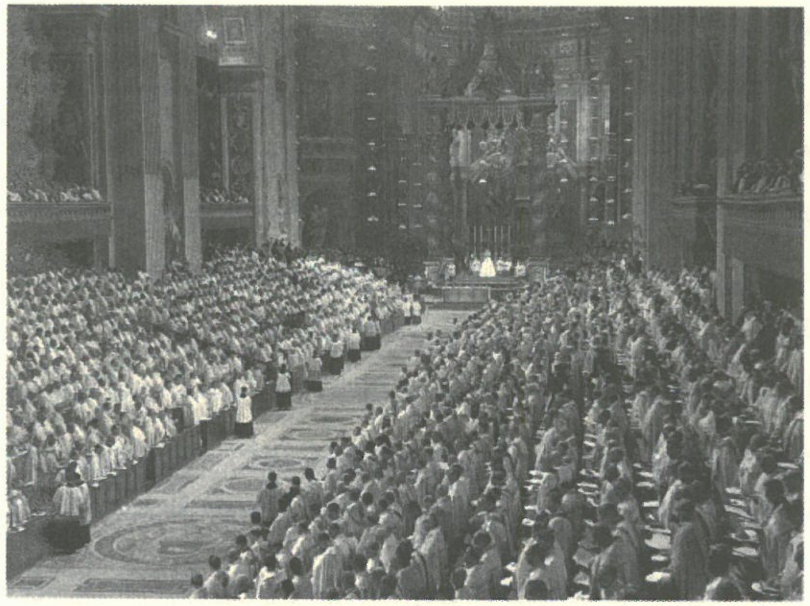

المجمع الفاتيكاني الثاني

الفصل العاشر

الآباء اليسوعيون وحقوق الإنسان

لقد كثُر الكلام حول دور الرهبانية اليسوعية في المجتمعات، منه المُسيء والمغرض ومنه الواقعي والمتجرد، ويبقى الشعار الذي يُلخص مهام رفقة يسوع هو «إيجاد الله في كل شيء». ولكن أنبل الأمور الروحانية يمكن لتدخّل السياسة فيها أن يحّط من قدرها ويفسدها، خصوصاً وأنّ شركة يسوع لم تكن في منأى عن الفساد.

يقول جورج برنانوس: إن «حلم اليسوعيين منذ أكثر من مئة وخمسين سنة كان في تنظيم المسيحية حسب طريقة الديكتاتورية الشمولية»، كما أنّ الاتهامات المسيئة وصلت إلى أقصى حدودها على لسان كبار المفكرين والسياسيين ورجال الإكليروس، وبلغت حد الاضطهادات التي عانى منها أغناطيوس دي لويولا وتوقّع حدوثها لا بل تمناها في خدمة الله تعالى؛ هكذا الرهبانية اليسوعية وما عانته على مر السنين من طرد ونفي وملاحقة وحقد وافتراء واستشهاد، ولم يتمكن الآباء الأكارم من حماية أنفسهم من شهية امتلاك السلطة وحب النفوذ، لذلك لجأوا إلى حظوة النخب، مما أدى إلى جعل مهمتهم التبشيرية ونقاوة نيّاتهم عرضة للتشكيك، ما يشكل نقطة ضعفهم الكبرى؛ وفي سعيهم إلى مجد الإنسان الفاني تنازلوا، ولو جزئياً، عن السعي إلى تحقيق مجد الله تعالى.

يقول نابوليون بونابرت: «في كل مكان تمّ قبول اليسوعيين، أرادوا الاستيلاء على

Riyad Nassar Library

السلطة، لأن مؤسستهم تحب السيطرة في طبيعتها وهي في النتيجة عدوة كل أنواع السلطة».

أما باسكال عدو الرهبانية اليسوعية اللدود الذي أساء أشد الإساءات إلى معلميه القدامى فلم يتوانَ عن القول: «لقد أراد اليسوعيون إلحاق الله بالعالم ولكنهم لم يربحوا سوى احتقار الله والعالم». وفي السياق ذاته يقول الأب الدومينيكي بروكبرغر متمترساً وراء أحقاده الدفينة إن «اليسوعيين هم حفّار قبورالمسيحية، وإنهم مسؤولون بشدة عن اجتياح الكنيسة من السياسة والعادات البوليسية التي لوثت طويلاً المستشارات الإكليركية». وقريباً من مدخل مدينة كروسغار في الألستر توجد لوحة كُتب عليها في ربيع 1989: «السرعة محددة بثلاثين ميلاً في الساعة. ممنوع دخول اليسوعيين». أما الأب إميل ريدو المتفاني في خدمة رفقة يسوع فإنه يقول: إنّ «الرهبانية اليسوعية المتهمة بالطموح والكبرياء والغطرسة، مدانة بالأحرى بالجمود والكسل، والتي يشيد الكثيرون بمزاياها وفطنتها ويسخر بعضهم من حنكتها، افتقدت الوعي وصفاء الذهن أمام التاريخ؛ هي التي أعجب العالم بحس المبادرة والإبداع عندها، عانت في أوروبا من الجمود والرتابة، وكادت السلطة التي اكتسبتها في الكنيسة والمجتمع أن تسحقها وتقضي عليها[27]».

إن قصة شركة يسوع الحديثة وخياراتها الحالية تبرهن عن «ضخامة المجهود الذي بُذل من أجل استعادة النفوذ الضائع لا بل من أجل استعادة السلطة التي تخلت عنها مكرهة تحت وطأة ضغوطات أعدائها الخارجيين الكثر وصراعاتها الداخلية[35]». ولكن ماذا وراء هذا الكليشه الذي يصور اليسوعي كإنسان متآمر، مكيافللي، مستعد لكل أنواع التحايل من أجل الاندساس في المجتمعات المغلقة وممارسة سلطته المطلقة؟ من الواضح أنّ اليسوعيين حاولوا خصوصاً في فرنسا الحصول على تعاطف ودعم العظماء والنبلاء منذ عهد الملك هنري الرابع، والملك لويس الثالث عشر وصولاً إلى الملك لويس الرابع عشر. من ناحية أخرى، إن شبكة المعاهد اليسوعية في فرنسا وأوروبا ثم في المستعمرات، أسهمت إلى حد كبير في تنشئة النخب الحاكمة والفكرية، من أمثال كورنيل وديكارت وديغول، ولكن أيضاً فولتير وديدرو وباسكال وفيديل وراوول كاسترو وياروزلسكي. ولكن اليسوعيين إتهموا بعدد من الاغتيالات ومحاولات الاغتيال في أكثر من مكان في العالم، من هنري الرابع، إلى

Riyad Nassar Library

اليزابيت ملكة إنكلترا، إلى جوزف الأول ملك البرتغال، إلى غليوم دورانج، إلى غوستاف أدولف وأبراهام لنكولن.

هذا الصيت السيء هو الذي تسبب بطرد اليسوعيين أربعاً وسبعين مرة من البلدان التي حلّوا فيها، ما دفع بالبلاطات الأوروبية إلى ممارسة أقسى الضغوطات على الحبر الأعظم كليمنس الرابع عشر، الذي أمر بحلّ الرهبانية اليسوعية رسمياً عام 1773. ولقد شكل القرن التاسع عشر كارثة حقيقية بالنسبة إلى الآباء اليسوعيين، عندما عمدت الحكومة الفرنسية إلى طردهم أكثر من مرة، متهمة إياهم بكل أنواع الجرائم، خصوصاً عندما ارتكبوا خطأ سياسياً إستراتيجياً فادحاً، إذ ناصروا دون تحفظ النظام الملكي ومن بعده النظام الأمبراطوري.

وعندما تنحى نابوليون الثالث بعد هزيمة سيدان، استولى النظام الشعبي الثوري(*) (La Commune) على السلطة مؤقتاً في باريس، وهاجم الكنيسة الكاثوليكية عامة والرهبانية اليسوعية خاصة. في هذا الوقت، حاول البابا لاون الثالث عشر إلحاق الكاثوليك بالنظام الجمهوري، ولكن الملكيين والعسكريين الكاثوليك الذين اضطهدوا الكابتن درايفوس(**)، أثاروا نقمة رجال الجمهورية الثالثة، الذين اتهموا رجال الإكليروس وعلى رأسهم الرهبان اليسوعيون بالتنشئة الفكرية العقيمة للبورجوازية الكاثوليكية. ولقد تبع هذه الحقبة المضطربة هدوء لم يدم طويلاً، إذ عادت الرهبانية اليسوعية إلى فرنسا في العام 1890، ولكن بعد مضي عشر سنوات تواصلت الخلافات من جديد بسبب التعليم، ثم فصل أمور الكنيسة عن أمور الدولة، مما أدى إلى طرد اليسوعيين من فرنسا مجدداً في التاسع من شهر أيلول عام 1905. ولقد بقيت الرهبانية اليسوعية مغضوباً عليها فرنسياً طيلة اثنتين وعشرين سنة، ولكن عودة 855 راهباً يسوعياً من جميع أنحاء العالم بغية المشاركة في الحرب العالمية الأولى دفاعاً عن الجمهورية الفرنسية، أثار جواً من الارتياح والامتنان في صفوف الحكومة الفرنسية.

(*) النظام الثوري الشعبي La Commune: حركة انقلابية فرنسية دامت من 18 آذار حتى 27 أيار عام 1871.

(**) الكابتن درايفوس (Dreyfus): فضيحة قضائية وسياسية مدوية أحدثت شرخاً كبيراً في الرأي العام الفرنسي بين (1894–1906) بعد إدانة الضابط اليهودي بالتجسس لمصلحة المانيا عام 1894 ، وتمت تبرئته عام 1899 ورُدّ إليه الاعتبار عام 1906.

في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وفي مواجهة الخطر العقائدي الجديد المتمثل في الحركة الشيوعية الروسية، اعتبر البابا بيوس الحادي عشر ثم الحبر الأعظم بيوس الثاني عشر، النظام الشيوعي الخطر الأكبر وقمة الشر دون منازع. ولكن الكرسي الرسولي الذي أعماه الحقد على الشيوعية، لم يعمد في المقابل إلى إدانة الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية، بل رأى فيهما سداً منيعاً ضد شيطان الشيوعية والإلحاد. ولكن الأخطر من كل ذلك، إن بعض الرهبان اليسوعيين الذين لعبوا دوراً هاماً في إدارة سياسة الفاتيكان تفاوضوا مع الطاغية موسوليني أثناء ولاية بيوس الحادي عشر، ومن ثم مع فريق عمل هتلر أثناء ولاية البابا بيوس الثاني عشر، لا بل وضعوا أنفسهم تحت حماية النازيين[27].

أما في فرنسا فلقد ركز الآباء اليسوعيون اهتماماتهم على الحقل الفكري والفلسفي واللاهوتي، خصوصاً مع الراهب الشاب تايلار دو شاردان(*) الذي بحث مطولاً في النقطة أوميغا، وإعادة النظر في الخطيئة الأصلية، مما استدعى تحرك السلطات الكنسية في روما وتحذيره بصرامة.

في الوقت نفسه، وجه اليسوعيون اهتماماتهم نحو الحركة الماركسية، ليس من الناحية الجدلية فقط، بل من الناحية البحثية والسياسية أيضاً. وعلى هذا الصعيد أصدر الأب جان أيف كالفيه[36] كتاباً هاماً تحت عنوان: «فكر كارل ماركس»، ونادى الأب فيلان بالتعاون بين المسيحية والشيوعية، كما الأب بيغو[37] مؤلف «الماركسية والنزعة الإنسانية». ومنذ عودتهم إلى فرنسا في العام 1923 انصرف اليسوعيون إلى العمل التبشيري في الأوساط الشبابية خصوصاً، حيث كانوا المرشدين الروحيين في «اتحاد الشبيبة الفرنسية الكاثوليكية» (ACJF) التي لعبت دوراً هاماً في انضمام المواطنين الكاثوليك إلى الجمهورية الفرنسية. كذلك انكب الآباء اليسوعيون على تطوير العمل الاجتماعي وإلى إطلاق «الحركة الديموقراطية المسيحية»، وفي العام 1929 تم تأسيس «حركة الشبيبة الزراعية الكاثوليكية» (JAC) و«الشبيبة

(*) تايلار دو شاردان (Pierre Teilhard de Chardin): راهب يسوعي فرنسي وعالم متحجرات ولاهوتي شهير (1881–1955) حاول التوفيق بين الكاثوليكية والعالم العلمي الحديث. أطلق نظرية مفادها أن الإنسان مفروض عليه أن يتوصل مع الوقت إلى روحانية كاملة أسماها النقطة أوميغا (Point Omega).

الطلابية المسيحية» (JEC). هذه الإنجازات في الحقل النضالي الاجتماعي أثارت حسد باقي رجال الإكليروس الذين رأوا في هذه الحركة الشبابية الاجتماعية الطلابية بوادر إعادة سيطرة الرهبانية اليسوعية ونوعاً مغلّفاً من المنافسة غير المشروعة. هكذا بدأت رفقة يسوع بالتحول من الإيمان والتبشير إلى حقول المعرفة، والالتزام الاجتماعي والسياسي، عبر التأثير على عقول الأجيال الشابة وتفكيرها.

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية والمآسي التي خلفتها والتغيرات التي أحدثتها، انخرط الآباء الصالحون في صفوف المقاومة الفرنسية، وتصدوا للمحتلين النازيين الذين أمعنوا في القتل والعنف ضد الشعب الفرنسي. ومع مرور الزمن، امتدت نشاطات الرهبانية إلى حقول الصناعة والمشاكل الاجتماعية، بعد أن كانت محصورة في ميادين التعليم والأبحاث والتبشير بالمسيحية، والعناية بالرعية والإرشاد الديني، ولقد نتج عن هذا التطوع في العمل الاجتماعي، انخراط أكبر في العمل السياسي وفي الحركات اليسارية، مما أحدث تغييراً جذرياً في أولويات الرهبانية اليسوعية التي كانت في الماضي تكتفي بتأمين الدراسة والمعرفة إلى طلابها المتحدرين من العائلات البورجوازية الميسورة، داخل جدران المعاهد والمؤسسات اليسوعية التربوية. ولكن مع الوقت، تغيّرت اهتمامات شركة يسوع في تنشئة النخب، وعلى أكثر من خمس عشرة مؤسسة تربوية تابعة للرهبانية اليسوعية؛ هنالك على سبيل المثال مؤسستان متخصصتان في التعليم العالي، وهما كلية الزراعة قرب مدينة تولوز وكلية الهندسة في مدينة لِيل، بينما المدرسة التقنية تقع في سان إتيان.

عن رأيه في أوجه التشابه بين الرهبانية اليسوعية والمؤسسة الكاثوليكية اليمينية السرية النافذة المعروفة تحت اسم (*Opus Dei*)، يقول الأب اليسوعي هنري مادولين: «إنني لا أعرف شيئاً عن هذا التنظيم الذي ليس من السهل فك رموزه. ولكن شركة يسوع تعلمت الكثير خلال أربعة قرون من المعاناة، وأنشأت سياسة المنح المدرسية التي سمحت للأغنياء بمساعدة الطلاب الفقراء على متابعة الدراسة وتحصيل الشهادات». لقد أدركت رفقة يسوع أن طبقة العمال الكادحة أصبحت خارج سيطرة المسيحية الكاثوليكية، لذلك أنشأت «البعثة العمالية» (Mission Ouvrière)، التي أضافة إلى مهامها في فرنسا، قامت بإرسال المبشرين

إلى دول العالم الثالث مثل التشاد، متصدية للنخبوية التي طالما عملت في سبيلها؛ ولأنها رأت أن العمل على تنشئة النخب يمكن أن يصرف أنظارها عن خدمة جميع طبقات المجتمع، وعن التقارب بين البشر والعدالة الاجتماعية، هرعت إلى تدارك الأمور عبر تغيير إستراتيجيتها.

لذلك نرى الراهب اليسوعي ممرضاً في مستشفيات باريس ومارسيليا، أو سائق سيارة أجرة في المدن الفرنسية، أو كاهن رعية في القرى النائية، أو مرشداً روحياً في السجون، أو عضواً في تنظيم يعمل على مساعدة العمال المهاجرين. ونتيجة لهذا النضال الاجتماعي إلى جانب الفقراء والمستضعفين، انضوى بعض الرهبان اليسوعيين داخل النقابات العمالية في تنظيمات هدفها الدفاع عن حقوق الجماعات والأفراد المنسيّة والمهمشة في بعض المجتمعات؛ هكذا وجد الآباء الأفاضل أنفسهم داخل مختلف التيارات السياسية، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

الأب هنري مادولين[38] يشرح عملية انخراط المسيحيين الكاثوليك في العمل السياسي، وتأثير الانتماء الديني على سير العمليات الانتخابية العلمانية في فرنسا، ولقد تحدث لاحقاً عن توجه المؤمنين الكاثوليك لمنح أصواتهم إلى المرشحين والأحزاب اليمينية في الانتخابات التشريعية لعام 1978 بنسبة 30 %، بينما لم تصل نسبة المقترعين الكاثوليك للأحزاب اليسارية إلى 10 %، كما نبّه إلى أن «التحول نحو العائلة الإشتراكية اليسارية هو نوع من التخلي عن العائلة الكاثوليكية والكنيسة الرومانية»، ولكننا نلاحظ من جديد، ارتداداً نحو الروحانية والقيم المسيحية في فرنسا، وهو الثمن الذي دفعه اليسار الفرنسي.

من جهة أخرى، يشهد الكهنوت الفرنسي تحولاً من جديد نحو التيار اليميني، مما يعني عدم وجود «إكليروس أحمر»، خصوصاً أنّ رجال الدين يشيخون كما غيرهم بسرعة، وفرنسا عاجزة عن تجديد أجيالها الكهنوتية في ظل تضاؤل عدد الدعوات وفي زمن تحكمت فيه المادية وحب المال والإباحية. من جهته، الأب الدومينيكي بروكبرغر المناوىء للرهبانية اليسوعية، يقول: إنّ «الرهبانية اليسوعية تركت بصماتها على العالم الحديث لأنها ولدت

معه وتقاسمت مكاسبه وانتصاراته، وكانت رغبتها في الاستيلاء على السلطة، متخفية دوماً تحت ستار التواضع».

ويذهب بعض المتطرفين الحاسدين الكارهين لرفقة يسوع إلى حد الكلام عن مؤامرة يسوعية بالتواطؤ مع الشيوعية والإشتراكية من أجل السيطرة على مقدّرات العالم في التسعينيات من القرن المنصرم. وفي اليومية اليمينية «الحاضر» (Présent)، يشرح جان راديران في ثلاث مقالات صدرت تحت عنوان: «الآباء اليسوعيون في دائرة الاتهام في العالم أجمع» كيف تمّ وتطور التعاون الكاثوليكي الشيوعي منذ الحرب العالمية الثانية في إطار مقاومة النازية، وكيف التحق رجال الدين الكاثوليك ومنهم اليسوعيون بصفوف المقاومة الفرنسية والحزب الشيوعي. من جهة أخرى، يدعي أنّ الأساقفة الفرنسيين وقعوا تحت تأثير أفكار الأب فيلان والأب بيغو اليسوعيين اليساريين، وأنّ الجنرال اليسوعي بدرو أروبي كان أول من شجع على التحالف مع الشيوعية. بينما يقول آلان وودرو على صفحات جريدة لوموند الباريسية: « منذ أربعين سنة واليسوعيون يعملون من داخل الكنيسة الكاثوليكية على أن يصبح التعاون مع الشيوعية مقبولاً ثم مسموحاً به وأخيراً مرغوباً فيه». من جهته، الرئيس العام للرهبانية اليسوعية الأب بدرو أروبي يتطرق بتاريخ 18 كانون الثاني عام 1979 أمام حشد يسوعي إلى التشوّهات الحاصلة عند اليسوعيين مُصدراً حكماً قاسياً على رهبانيته، محذراً من إغراءات العلمنة وأخطارها وتأثيرها على صورة الراهب اليسوعي في المجتمعات.

نبّه أروبي إلى خطر الراهب المعارض المشاكس ومن التصرف المعادي والمظهر الخارجي غير اللائق، من لحية مرخية إلى اللباس المهمل إلى الفظاظة في المنطق، إلى المظاهر المسيئة كافة، إلى صورة الأب اليسوعي. كذلك حذّر الأب الرئيس العام أيضاً من صورة اليسوعي العالِم المحترف الذي أصبح مأخوذاً باهتماماته واختصاصه، مبتعداً هكذا عن مجموعته ورعيته ورئيسه ومهمته الأساسية في المساعدة على نشر الإيمان المسيحي وخلاص النفوس، وتطرق ثالثاً إلى الراهب الذي فقد حس المسؤولية وقيمة المال في عهدته، وأخذ يبذّر من دون حساب الأموال التي لا تخصه ودون اعتدال، في أمور اللهو

والتسلية وحب الظهور. أما الصورة الرابعة التي تناولها الأب الرئيس العام، فهي صورة الراهب اليسوعي الذي تحول إلى ناشط سياسي متخلياً عن مهمته الكهنوتية والمبادىء الأغناطية.

إن الآباء اليسوعيين الذين انخرطوا في العمل لا بل في الصراع النقابي في فرنسا مثلاً، هم كُثُر، خصوصاً عام 1980، إذ بلغت نسبة الذين التحقوا بمنظمة (CGT) 65 %، بينما نسبة المنضوين من الكهنة العمال اليسوعيين إلى منظمة (CFDT) بلغت 35 %. لقد أصبح من حق رجال الإكليروس الالتحاق بالأحزاب السياسية الفرنسية كما سائر المواطنين، وأصبح حب السلطة كما الاحتفاظ بها من الأهداف الأساسية لبعضهم. ففي سنة 1976 أرغم بدرو أروبي راهباً يسوعياً كندياً من مقاطعة الكيبيك على ترك الرهبانية بعد تعيينه وزيراً في حكومة رينيه ليفيك حيث أمضى عدة سنوات في السلطة، والذي طالب رئيسه بإعادته إلى الرهبانية اليسوعية بعد انتهاء مدة وزارته، وهو ما حصل عليه، كما أنّ الرئيس العام لم يتوانَ عن مهاجمة اليسوعيين الخبثاء الذين لا يملكون حسابات مصرفية خاصة كما تنص عليه القوانين التأسيسية للرهبانية اليسوعية، ولكنهم يقبلون طوعاً أن تكون بعض العائلات الغنية في خدمتهم وتحت تصرفهم. هكذا، أصبحت جميع الأقاليم اليسوعية في العالم تبعث سنوياً إلى الرئيس العام والكرسي الرسولي في روما مجموعة تقارير تفصيلية عن أوضاع الرهبانيات الأقليمية، حيث تجاوزت هذه الرسائل عدد 3600 في عام 1979 وحده.

قال مندوب أميركا الشمالية في تقريره ومن دون مواربة: إنّ «الحياة الكهنوتية في الشكل الذي نعرفه تعتبر غير لائقة وغير مناسبة في المجتمع الأميركي الحديث، لأنها تبدو جامدة في زمن التغيّرات، إنها تؤكد على الطاعة العمياء في عالم ينادي بقدسية الحرية، إنها تدعو إلى التبتل والعفة والعزوبية في عالم يدعو إلى اختبار الأحاسيس. إنها تتكلم عن الفقر وهي ليست فقيرة، إنها تدعو بعض الأشياء بالمقدسة في عالم نزع عنه صفة القداسة؛ فالحياة الدينية أصبحت تواجه أزمة تهميشها».

من ناحية أخرى، يسوعي شاب من منطقة الكيبيك يعتقد أن الذي ينفذ الأوامر عليه أيضاً المشاركة في اتخاذ القرارات، لا أن يكون بعيداً وغريباً عن هرمية السلطة مكتفياً

بالانصياع والطاعة العمياء، لهذا فإنّ اليسوعي توماس روبرتس تفرّد بأفكار تخالف قرارات مجمع روما، وهو الذي قال إلى وودرو قبل وفاته، إن القديس أغناطيوس فرض الطاعة بذكاء لا الطاعة العمياء، لأن الإنسان كائن حر وليس عبداً، مدافعاً عن حق تناول حبوب منع الحمل عند المرأة، وعن الطاعة المسيحية المنطقية المبنية على العقل.

السجال الذي حصل في موضوع حق استعمال الوسائل الاصطناعية في منع الحمل، أثار صراعات حادة داخل الرهبانية اليسوعية عام 1968، وانقساماً كبيراً حول البراءة البابوية (*Humanae Vitae*) التي هاجمت بشدة استعمال طرق منع الحمل الاصطناعية، والجدل القائم حول الطاعة العمياء للحبر الأعظم. لقد أحدث هذا النقاش انقساماً بين الرأي المحافظ الذي يستند إلى قدسية النذر الرابع وعدم إجازة مناقشته علناً، وبين الرأي الديموقراطي الذي ينادي بحرية كل إنسان كاثوليكي وتصرفاته المبنية على الحقيقة وحرية الضمير. المجلة اليسوعية (America) كانت مخالفة تماماً لرأي مجلة يسوعية أخرى تصدر في سويسرا تحت اسم (Orientierung) وتدافع عن رأي الكاثوليك واليسوعيين المنادين بحرية القرار والضمير، وهناك مجموعة كبيرة من الآباء اليسوعيين يفسّرون النذر الرابع بطريقة مختلفة إذ يعتقدون أنّ خدمة الكنيسة وقضاياها تفرض عليهم أحياناً توجيه الانتقادات إلى الحبر الأعظم، ما دفع بالأب الرئيس العام في بداية سنة 1972 لتوجيه نداء عاجل إلى جميع أعضاء رفقة يسوع يدعوهم فيه إلى إظهار المزيد من الولاء والطاعة إلى البابا، ولكن الآباء اليسوعيين لا يتوانون في الوقت ذاته عن توجيه الانتقادات إلى تصرفاتهم، وإلى بعضهم بعضاً، والبحث في المشاكل والحلول عبر إرسال تقارير دورية إلى روما تتناول وضع الإرساليات في مجتمعات متعددة ومختلفة، على مثال الوثائق التي بثها جهاز (*Promotio Justitiae*) التابع لـ«المعهد الاجتماعي» اليسوعي.

أما الراهب اليسوعي الأسترالي الأصل أليكس ماكدونالد فإنه انصرف من ناحيته لمعالجة أوضاع المدمنين على المخدرات كما العاهرات وهو جالس في أحد البارات يستمع إلى مشاكل هؤلاء البؤساء، كما أنه يشرح كيفية اختلافه مع أحد هؤلاء الفقراء التعساء في يوم من الأيام، وكيف طرده من الملجأ المشرف عليه في فورة غضب، مستغلاً سلطته من

أجل سحق الضعفاء. من جهته، المونسنيور فرنشيسكو كلافر تحدث أمام 400 راهب يسوعي أميركي عن تصدي قسم من اليسوعيين الفيليبينيين إلى نظام الديكتاتور ماركوس دفاعاً عن الفقراء والمظلومين، على الرغم من المضايقات والضغوطات والتهديدات والتهويل.

تجدر الملاحظة إلى أن الرهبانية اليسوعية تمتلك في جزر الفيليبين الكثير من المدارس والأديرة ووسائل الأعلام، وتساعد الأقليات والمحرومين في جميع المجالات، مما يدل على أن الكنيسة كما الرهبانية تمتلك سلطة فائقة وهي مخشية من الجميع. ويحذرنا المونسنيور كلافر قائلاً: إنّ «البابا الأسود وفرقة التدخل والصدم التابعة للحبر الأعظم، ونوعية تنشئة اليسوعيين الفكرية كما مختلف المؤسسات اليسوعية وسلطتها الفائقة تعطي فكرة واضحة عن مدى نفوذ هذه الرهبانية الصغيرة في المجتمعات كافة»، لذلك، يعتقد الأب بدرو أروبي أنّ امتلاك السلطة لم يعد مسألة إستراتيجية كاثوليكية فحسب، بل أداة من أجل المساهمة في حلّ الصراعات والمحافظة على حقوق الانسان وخصوصاً حقوق الأقليات والمضطهدين في العالم، وأنّ تدخّل الرهبانية اليسوعية في الأمور الدنيوية أصبح مرتبطاً إلى حد بعيد بالصراعات الطبقية والاجتماعية أكثر منه بالنقاشات الإكليركية، في الشرق الأقصى وأميركا اللاتينية والولايات المتحدة الأميركية.

في عام 1962 تجاوز عدد أعضاء رفقة يسوع الأربعة أضعاف في أقل من مئة سنة، ولكن هذا الانتشار كان يخفي في طياته سنوات صعبة وعجافاً، إذ عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عام 1914، كانت الصراعات داخل الكنيسة الكاثوليكية في أوجها، وشكلت عقبة أساسية في طريق محاولات الانفتاح على جميع الأصعدة؛ فالرسالة البابوية (*Vehementer nos*) التي وجهها البابا بيوس العاشر عام 1906 هاجمت بشدة القانون الفرنسي الذي قضى بفصل أمور الدولة عن أمور الكنيسة، وصعدت الرهبانية اليسوعية إلى خطوط المواجهة الأمامية. وفي بدايات القرن العشرين عرف الأدب الكاثوليكي شهرة واسعة وأحكمت البورجوازيات الغربية قبضتها الكولونيالية على مقدرات العالم، والرهبانية اليسوعية على خطاها، وفي النصف الأول من القرن الماضي كانت الكاثوليكية في مواجهة مع بداية الحداثة. ولكن في دوامة صدام الحضارات والأنظمة التوتاليتارية الشمولية، وجدت الكاثوليكية

«المقاتلة» نفسها في مواجهة مع المشاكل الاجتماعية، وخصوصاً الرهبانية اليسوعية، التي انصرفت إلى النضال الاجتماعي بحرية افتقدتها في فرنسا، ويممت شطر الولايات المتحدة الأميركية، حيث تضاعف بسرعة عدد المعاهد الثانوية والكليات الجامعية اليسوعية.

وبينما كان الكون يستعد لتلقي الصدمة عام 1939، جددت الرهبانية اليسوعية خطة انخراطها في العالم خصوصاً من الناحية الاجتماعية. وهكذا دخل الرهبان معترك العمل النقابي ملتفين حول العمال ضد أرباب العمل، مما جعل أصحاب المؤسسات الصناعية والتجارية الرأسماليين يعلنون أنّ المبادىء المسيحية الحقيقية تمنع العامل عن المطالبة بأجور مرتفعة وتفرض عليه البقاء في مركزه الطبيعي أي في وضع المرؤوس، تفادياً لانتشار الفوضى الاجتماعية. هكذا تغلغلت المبادىء الاشتراكية في العقيدة اليسوعية، حيث تبوأ الأب هنري جوزف لوروا طليعة منظمة «العمل الشعبي» (L'action populaire) التي أبصرت النور عام 1903.

غيّرت الحرب العالمية الثانية مشاريع رفقة يسوع الرسولية من جديد، عندما وجدت هذه الرهبانية كما باقي المسيحيين نفسها في دائرة الصراع، والمثال على ذلك الأب هنري بيرين[39] الذي تم تجنيده وأصبح في العام 1943 من أوائل المرشدين الدينيين المتطوعين السريين، الذين رافقوا عمال السخرة الشباب الفرنسيين إلى ألمانيا. وبعد افتضاح أمره، ألقي القبض عليه وأودع السجن حتى ترحيله إلى فرنسا، وهو الذي تكلم في أواخر عام 1946 عن بدء الحياة العمالية النضالية التي أخرجت رجال الدين المسيحيين عامة والآباء اليسوعيين خاصة من عزلتهم، وعدم رغبتهم في العودة من جديد إلى هذا الغيتو؛ الأب اليسوعي هنري بيرين كان في طليعة الموقعين على عريضة أرسلها عشرة آباء يسوعيين إلى الرؤساء الإقليميين في فرنسا عام 1944، يدعون فيها رفقة يسوع للسير في طليعة النهضة العمالية، كما كانت سابقاً على رأس النهضة الإنسانية، عندما ابتكرت فكرة المعاهد بغية نشر الإيمان والدين المسيحي.

هذا الراهب اليسوعي انخرط في أول تجربة له في أحد معامل المواد البلاستيكية، وانتسب إلى إحدى النقابات العمالية من دون أن يعلن عن كونه كاهناً. إن أول لقاء وطني

للكهنة العمال الفرنسيين انعقد في السابع من أيار عام 1949، وفي الأول من تموز صدر قرار عن الكرسي الرسولي يمنع منعاً باتاً المؤمنين الكاثوليك، خصوصاً أعضاء الرهبانيات من الانخراط والتعاون مع الأحزاب الشيوعية. إن مجرد الإعلان عن هذا القرار البابوي أثار حملة استياء واسعة في وسائل الأعلام وأسهم في التفاف المناضلين العلمانيين وسائر الطبقات الشعبية حول هؤلاء الكهنة العمال.

في بداية عام 1948 التحق الأب بيرين براهبين يسوعيين في شارع جان دارك، في الدائرة الثالثة عشرة من باريس، وهما موريس هوسون وجان لاكان، حيث شارك معهما في النضال ضد الرأسمالية إلى جانب العمال الفرنسيين. وفي كانون الأول عام 1950 صرّح الأب بيرين قائلاً: إن «المسؤول الوحيد عن إضراب العمال هم أرباب العمل، لأن العمال يناضلون في سبيل تصحيح الأجور وتأمين حياة أفضل، أقل ظلماً وأكثر عدالة». لقد ترددت الرهبانية اليسوعية إلى حد كبير في السير على خطى بيرين في الصراع الطبقي القائم، وارتأت عدم الانحياز إلى الطبقات العمالية الكادحة، مما أرغم هذا الأب الفاضل على ترك الرهبانية اليسوعية ومغادرة باريس.

في حزيران 1951 منع الكرسي الرسولي ازدياد عدد الكهنة العمال وفرض مراقبة كل تحركاتهم وإصدار تقرير سنوي عن مختلف نشاطاتهم وأوضاع كل منهم. ولكن هذه الإجراءات لم تتوصل إلى وضع حد للصراعات الطبقية والحركات العمالية ومشاركة الكهنة العمال في قيادتها، مما دعا الفاتيكان في الخامس عشر من شهر تشرين الثاني عام 1953 إلى إصدار أوامر الحبر الأعظم بتخلي رجال الدين عن العمل النقابي، لأن هذه القضية تسببت بالكثير من المشاكل وأدت إلى فشل ذريع على المستويات كافة. وفي 28 كانون الأول عام 1953 استدعت الرهبانية اليسوعية جميع كهنتها العمال وطلبت منهم العودة إلى بيت الطاعة، ولكن الأب اليسوعي السابق بيرين وجّه بتاريخ 25 شباط عام 1954 كتاباً شديد اللهجة إلى الجنرال اليسوعي يذكّره فيه كيف تبنّت شركة يسوع في عام 1949 النضال العمالي المحق، وكيف أصبحت اليوم منحازة إلى الطبقات البورجوازية والنضال الغبي ضد الشيوعية. من ناحيته، هنري بيرين الإنساني المناضل المتمرد كان على موعد مع الموت بتاريخ 27 تشرين

الأول عام 1954 عندما سقط عن دراجته النارية في إحدى الضواحي الباريسية. وعلى الرغم من كل ذلك، بلغ عدد الكهنة العمال الفرنسيين اليسوعيين في العام 1990 الخمسين، وتجاوز هذا العدد في أوروبا الغربية المئة وخمسين.

في هذا السياق، دعا راهب يسوعي إيطالي إلى مؤازرة العمال ومشاركتهم حياتهم النقابية وحتى السياسية من أجل وضع الكنيسة الكاثوليكية في أجواء الأوضاع العمالية المأساوية. يقول هذا الراهب إن الكنيسة في جنوبي إيطاليا تتحالف مع كبار الأغنياء والملّاكين على حساب الفقراء والمستضعفين، علماً أن كاهن القرية يبقى من كبار الأغنياء.

عند افتتاح المجمع الفاتيكاني الثاني في شهر تشرين الأول من العام 1962 في روما، بلغ عدد الرهبان اليسوعيين المشاركين في المجمع اثنين وخمسين، علماً أنّ 6700 راهب يسوعي يعيشون ويمارسون نشاطاتهم التبشيرية في الإرساليات الأجنبية. وبعد وفاة الجنرال اليسوعي جان باتيست ينسنز في الخامس من تشرين الأول عام 1964، قال الأب اليسوعي الفرنسي موريس جولياني أمام 224 مندوباً خلال انعقاد المجمع العام الواحد والثلاثين: «نحن بحاجة إلى جنرال يحافظ على قنوات الاتصال مع عالم نجلب إليه الخلاص». وفي هذا السّياق، أعلن الأب الرئيس العام الجديد بدرو أروبي أنّ طرق الرهبانية اليسوعية التبشيرية لم تعد تتماشى مع متطلبات العالم العصرية، وأنّ الأولويات تتمثل في مشاكل الإلحاد والماركسية، والعدالة الاجتماعية، والتطور الثقافي في الغرب والشرق وأفريقيا. كذلك شدّد فور انتخابه أيضاً على دور الدراسات اللاهوتية والفلسفية والعلمية في إيجاد الحلول في الإطار الأيديولوجي الحديث، مع إجراء تعديلات تربوية هامة، واستعمال وسائل الأعلام من إذاعة وتلفزيون بغية إيصال الرسالة المسيحية إلى أكبر عدد ممكن من البشر والشعوب.

على أثر هذا النداء الداعي إلى التغيير في الهيكلية المؤسساتية اليسوعية، وفي الرجال والعقليات السائدة، لبّى الجيش اليسوعي أوامر جنراله[40]، وهطلت الاقتراحات والطلبات من اليسوعيين في العالم، الذين رأوا في هذه الإستراتيجية الجديدة منطلقاً من أجل تحقيق أهداف القديس أغناطيوس بأفضل الطرق، لذلك، فإنّ المداولات والنقاشات التي جرت في

السادس من شهر أيلول عام 1966 قد أدت إلى إصدار 42 مرسوماً عن المجمع العام للرهبانية اليسوعية ركزت جميعها على تطور الحياة الروحية ومبدأ الطاعة في ظل الزمن الحاضر، وعلى المشاكل الاجتماعية ومجالات العلم والأبحاث، وعلى نطاق العمل والمؤسسات المهنية، وعلى حقوق الإنسان ووضع الوثنيين الجدد أي المسيحيين غير الممارسين في البلدان المسيحية تقليدياً، والتي أصبحت بعيدة كل البعد عن الدين وموجباته.

لكنّ البابا بولس السادس الذي كان قد عهد إلى الرهبانية اليسوعية قبل انتخاب أروبي مهمة التصدي للإلحاد، فإنه أعرب عن دهشته واستيائه لسياسة الرهبانية اليسوعية الجديدة، وقرارات المجمع العام الأخير، وانفتاح الجنرال أروبي الثوري، وإعادة النظر في الطاعة العمياء للحبر الأعظم؛ وقد علّقت الصحف الصادرة صباح اليوم التالي على تردي العلاقات بين الجنرال والبابا، وركزت على امتعاض بولس السادس الشديد، بالرغم من محاولة الجنرال اليسوعي تدارك الأمور وإصلاح الخلل. إن الأب الرئيس العام[41] كان مقتنعاً أن رفقة يسوع صرفت اهتمامها طويلاً على الأغنياء والطبقات الحاكمة، وأهملت شرائح المجتمع الأخرى، معرّضاً نفسه هكذا لمعارضة شديدة من التيار المحافظ في الكنيسة الكاثوليكية وحتى داخل الرهبانية اليسوعية.

كان انتخاب الحبر الأعظم يوحنا الثالث والعشرين، بطريرك مدينة البندقية العجوز، بعد وفاة البابا بيوس الثاني عشر نوعاً من المفاجأة، إذ وقت اعتلائه السدة البطرسية كان يبلغ من العمر سبعة وسبعين عاماً، وكان من المفروض أن تكون ولايته مرحلة انتقالية، ولكن طوال خمس سنوات عَمِل على تحول الكنيسة الكاثوليكية من وضع إلى وضع آخر مغاير؛ وبتاريخ الحادي عشر من تشرين الأول عام 1962 انعقد المجمع الفاتيكاني الثاني في بازيليك القديس بطرس، وكان أهم حدث في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية. تجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من المجامع العامة لا يُعقد عادةً إلا في أوقات الأزمات العميقة عند تعرّض الكنيسة الرومانية إلى أقصى أنواع الهجمات الخارجية.

لقد طالب الحبرالأعظم الكنيسة بالتكيف مع العالم الحديث، من المؤمنين العاديين وصولاً إلى البابا، ومروراً بالأساقفة ورجال الإكليروس كافةً، وإنّ المرسوم (*Perfectae*

caritatis) الصادر عن المجمع الفاتيكاني الثاني الذي أنهى أعماله في الثامن من كانون الأول عام 1965 نصّ على إصلاح الحياة الدينية، من تنشئة الكهنة، إلى مهمتهم، إلى طريقة عيشهم، إلى رسالة العلمانيين، كما أمر جميع الرهبانيات بالتقيد بقرارات المجمع العام. هكذا تخلت الراهبات كما الكهنة عن اللباس الديني، مما أوجد عند اليسوعيين أزمة هوية لا سابق لها، إذ كيف كان بالإمكان ملائمة التقاليد مع التحديث من دون التنكر للماضي والتراث؟ إن أول من حاول الإجابة عن هذه المعضلة، كان الأب الرئيس العام، الجنرال بدرو أروبي.

طوال فترة حكمه التي دامت ثماني عشرة سنة، عرفت الرهبانية اليسوعية أزمة حادة، داخلية وخارجية، مما أدى إلى تدخل البابوية في أمور الرهبانية، وهذا يعبّر عن أزمة داخل الكنيسة الكاثوليكية التي كان عليها التأقلم مع العالم الحديث بعدما ابتعدت عنه وتجاهلته طوال مئتي سنة. فالأب الرئيس العام بدرو أروبي، كان من بلاد الباسك الإسبانية كما أغناطيوس، وفي العام 1965 اكتشفت وسائل الإعلام فيه، رجلاً مرحاً ضاحكاً أمام الكاميرات، أي يسوعياً مختلفاً، خصوصاً عن سَلَفه الأب الرئيس العام جان باتيست ينسنز المحافظ المتشدد.

إنّ انتخاب البابا بولس السادس خلق البلبلة في صفوف الآباء اليسوعيين، المترددين بين تعليمات الحبر الأعظم في التصدي، وعدم الانزلاق نحو الحداثة، وسياسة الرئيس العام الانفتاحية على روح العصر، ولقد حاول بدرو أروبي التوفيق بين هذين التيارين، والرجوع إلى بعض القواعد وخصوصاً روح المجمع الفاتيكاني الثاني؛ هكذا تحول الأب اليسوعي من معرّف الملوك، وضيف صالونات الطبقات البورجوازية، ومعلم النخب، إلى ناشط ومناضل في سبيل الإنسان وحقوقه. هذه القرارات الثورية خلقت الفوضى العارمة في صفوف الرهبانية التي اضطرت إلى مواجهة نزيف التخليات عن الدعوات، التي بلغت بين عام 1964 وحتى عام 1977 2063 راهباً يسوعياً تحولوا إلى علمانيين، كما أنّ التخلي عن الحياة الكهنوتية لم يكن حصرياً من نصيب الرهبانية اليسوعية، بل شمل في الوقت ذاته الكنيسة الكاثوليكية ومؤسساتها برمتها، ومن أهم مسبباته واستناداً الى بدرو أروبي، النقص

في النضوج والعزلة على الصعيد العاطفي، والإحباط، خصوصاً أنّ اليسوعيين الذين تركوا الرهبانية كانوا من الناضجين أي في الأربعينيات من العمر. هذا الوضع المتأزم أسهم في إضفاء صفة الضعف والتراخي على سياسة أروبي، مما دفع بالكاردينال فيللو الى التنديد والتحذير من مغبات هذه السياسة التقدمية، وذلك في عام 1973، معلناً عن بدء أزمة حقيقية بين الفاتيكان وشركة يسوع.

لكنّ الخط الذي اختاره الآباء اليسوعيون في أميركا اللاتينية عام 1968 قد تمّ اعتماده رسمياً من جميع أعضاء الرهبانية، أي مقاربة الثقافات المحلية والدفاع عن جميع حالات الظلم والصراعات في العالم من أجل «مساعدة النفوس»؛ وأثناء انعقاد المجمع العام اليسوعي الثاني والثلاثين في عام 1975، أقرت الرهبانية اليسوعية، بإيعاز من رئيسها بدرو أروبي، المرسوم رقم أربعة الذي نصّ على الدفاع عن حقوق الفقراء، ومنح الأفضلية للذين لا منزل لديهم ولا هوية ولا أوراق ثبوتية ولا وطناً. هكذا دخلت الرهبانية اليسوعية في حقبة جديدة من تاريخها، وابتعدت عن ماضيها في تنشئة النخب، واستجابت لنداء المجمع الفاتيكاني الثاني بالانفتاح والدفاع عن حقوق الإنسان.

وعند التطرق إلى السؤال المحوري حول معنى أن يكون الإنسان يسوعياً اليوم، ردّ المجمع العام بمنشور حول العدالة الاجتماعية تحت عنوان: « في خدمة الإيمان وترفيع العدالة». إن المجمع العام اليسوعي أصرّ على أنّ التضامن مع جميع ضحايا الظلم والاستبداد هو من مكونات الهوية اليسوعية، وفي «عالم ظالم وملحد، أرسلت رفقة يسوع من أجل تمكين البشر من ملاقاة ومعرفة الإله الحقيقي». هكذا وجد اليسوعيون أنفسهم في خضم العمل من أجل إتمام المصالحة بين الناس، هذه المصالحة التي لا يمكن أن تتم دون نشر العدالة والدفاع عن حقوق الفقراء والمحرومين، من أجل محاربة الإلحاد. إن هذا النص كان نتيجة تعديلات أقرّت بشبه إجماع، وأصبح رمزالرهبانية اليسوعية الثالثة، اذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأولى هي التي أنشأها القديس أغناطيوس وألغاها الحبر الأعظم عام 1773، بينما الثانية هي التي ولدت بعد إعادة النظام الملكي (*) (La Restauration) في عام 1814.

(*) نظام La Restauration: النظام السياسي الفرنسي من نيسان 1814 إلى تموز 1830 .

Riyad Nassar Library

إن تطبيق هذا المرسوم التقدمي لم يكن سهلاً، إذ لم يجد طريقه الى قناعة جميع اليسوعيين وأخاف الكرسي الرسولي بأفكاره الليبيرالية واليسارية، ووجد نفسه في مواجهة معارضة شرسة ضمن الكنيسة الكاثوليكية، كما أنّ الكاردينال جان فيللو ممثل الفاتيكان قد أعرب عن دهشته وحيرته إزاء هذا النص الخالي من أي بُعد روحاني، ولقد حصر نيافته دورالكهنة في توجيه العلمانيين الذين يتوجب عليهم وحدهم نشر العدالة الاجتماعية ومحاربة الفقرعبر المؤسسات والمجتمع المُدني. ولكن الجسم الكهنوتي اليسوعي توزّع بين القطبين الشيوعي والرأسمالي ولم تمنع تنبيهات الكرسي الرسولي من انخراط اليسوعيين في السياسة والعمل الاجتماعي النقابي العمالي وضمن الحكومات والوزارات.

هكذا، أصبح الأب جاك كوتور وزيراً للعمل والمهاجرين في مقاطعة الكيبيك في كندا، ونجح في زيادة الحد الأدنى للأجور وتصحيح أوضاع المهاجرين، والأب روبرت دريان أصبح أول كاهن كاثوليكي في الكونغرس الأميركي، وهو أول من طلب اتخاذ إجراء(*) (Impeachment) ضد الرئيس نيكسون عندما قصفت الطائرات العسكرية أهدافاً في الكامبودج. في الوقت ذاته كان راهب يسوعي آخر يدعى جون ماكلولين في فريق العمل الإعلامي لهذا الرئيس الأميركي نفسه، ولكنه تخلّى عن الرهبانية اليسوعية وأصبح يعمل في حقل الإعلام وصحافياً يهتم بالأمور السياسية.

لم تكن الكنيسة الكاثوليكية لتحبّذ تدخل الكهنة في أمور السياسة والحكم، ولم تكن تنظر بعين الرضا إلى تخلي هؤلاء الرهبان اليسوعيين عن مهمتهم التبشيرية والتغلغل في العمل الاجتماعي، علماً إن يسوعيين كُثراً أصبحوا من الاختصاصيين في الإصلاحات الزراعية والاقتصادية، ومن محللي الأوضاع المالية وعلماء الاجتماع. بعد نهاية العاصفة التي أحدثتها ولاية بدرو أروبي وسياسته الثورية، عمل المجمع العام اليسوعي في عام 1983 تحت رئاسة الأب كولفنباخ على تجديد إرشادات عام 1975 من دون التطرق إلى تفاصيل المرسوم رقم أربعة والمشاكل الكبرى التي أحدثها. ومع حلول عام 1995 تبين

(*) اجراء Impeachement: إجراء خاص في الولايات المتحدة الأميركية يتضمن اتهام الرئيس أو نائب الرئيس أو أحد كبار موظفي الإدارة الأميركية أمام الكونغرس.

للرهبانية اليسوعية مدى المشاكل التي أوجدتها سياسة بدرو أروبي مع بعض الأساقفة وبعض الحكومات حول العالم، وأنّ تسعة وثلاثين راهباً يسوعياً استشهدوا بين عامي 1973 و 1996 دفاعاً عن العدالة. في الوقت ذاته، طرأت تغيّرات هامة على الصعيد الإيديولوجي بعد سقوط حائط برلين والاتحاد السوفياتي، وأعاد الآباء الأفاضل خلط الأوراق من جديد، وعمل اليسوعيون في أميركا اللاتينية وفي القارة الآسيوية وفي كتلة الاتحاد السوفياتي السابقة على إعادة تحديد إطار عمل الرهبانية من جديد، والسعي إلى نشر العدالة والدفاع عن الفقراء انطلاقاً من الإيمان المسيحي.

فالرهبانية التي حاولت تدارك الأمور بطريقة حكيمة، أعلنت أنّ جذور الظلم ليست عائدة إلى الأمور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فقط، بل إلى أسباب اجتماعية ثقافية وأخرى ثقافية دينية، وأنّ سقوط الأنظمة الشيوعية أعلن انتصار الرأسمالية المتوحشة وبروز العولمة، وقناعة بعض اليسوعيين بضرورة فصل النواحي السياسية والاقتصادية عن الأمور الدينية؛ فاليسوعيون في أميركا اللاتينية كانوا أول من انتقد النيوليبيرالية ووقعها على الفقراء والمحرومين، وذلك في حضور الأب الرئيس العام كولفنباخ ومشاركته في الاجتماع الذي تمّ عقده في عام 1997، الذي أكد بحضوره موافقته على هذا الموقف. مرة أخرى أغضب موقف البابا الأسود الحبر الأعظم كما الكرسي الرسولي الذي سارع إلى إعلان رفضه وعدم موافقته على مضامين هذا اللقاء اليسوعي، بعد أن مانعت أقاليم أميركا اللاتينية التخلي عن الصراع ضد الظلم والفقر والطغيان، والابتعاد عن الطبقات المحرومة بعد أكثر من أربعين سنة من النضال المشترك المُحقّ إلى جانبها.

ومن أجل محاربة الرأسمالية المتوحشة، تم إنشاء منظمة أو لوبي يسوعي (Jesuit Network of Development International) عام 1997 في نابولي على أثر لقاء الدول الصناعية السبع من أجل الاعتراض على العولمة وتأثيراتها السلبية على الصعيد الاجتماعي. لقد عملت الرهبانية على تعبئة العالم الفكري والثقافي والسياسي والإعلامي والديني من أجل تأمين التضامن والسعي إلى تخفيض مديونية العالم الثالث، ولكن مع بداية الألفية الثالثة عرف نضَال اليسوعيين ضد الفقر والتهميش تراجعاً ملحوظاً. وفي عام 2004 أنشأ اليسوعيون في

إيطاليا إطاراً اجتماعياً (لوبي) (Jesuit Social Networks) من أجل دعم النضال الاجتماعي والعدالة الاجتماعية بالتعاون مع المنظمات العلمانية.

وفي تشرين الثاني عام 2006 ذهب الجنرال كولفنباخ إلى غوا (Goa) في الهند من أجل المشاركة في الذكرى المئوية الخامسة لولادة القديس فرانسوا كزافير، حيث دعا الرهبانية إلى تحديد انعكاسات العولمة السلبية والوقوف إلى جانب الضعفاء والمظلومين. وفي نيسان 2007 دعم الحبر الأعظم بينيديكتوس السادس عشر من روما اقتراحات اليسوعيين داعياً إلى بناء مجتمع عادل حتى في الولايات المتحدة الأميركية نفسها كما في المجتمع الدولي كافة. لقد لفت البابا النظر إلى اتساع الهوة بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة والتوزيع غير العادل وغير المتوازن للخيرات والموارد الطبيعية والثروات وعلى حرية الإنسان وكرامته والحفاظ على البيئة. وهكذا وجدت الرهبانية اليسوعية نفسها مرة جديدة في قلب الحدث، ولم تعد تلك المؤسسة الثورية المتمردة أحياناً على روما والمنصاعة إلى رغباتها إلى أقصى الحدود في غالبية الأحيان.

يوم تم انتخاب الأب كولفنباخ (Petrus Jacobus Johannes Maternus Kolvenbäch) رئيساً عاماً للرهبانية اليسوعية بتاريخ الثالث عشر من أيلول عام 1983، لم يكن شخصاً معروفاً، ولم تتوقع وسائل الإعلام وصوله إلى هذا المركز، وفي الدورة الأولى، إذ إن هذا الراهب المتقشف مثل النسّاك، الهولندي الأصل، المولود عام 1928، قد التحق بالرهبانية اليسوعية في عمر العشرين سنة. بعد إنهاء دروسه في فرع الفلسفة تم إرساله إلى لبنان حيث نال شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت من جامعة القديس يوسف في بيروت، ولقد تمت رسامته كاهناً في لبنان في عمر ثلاثة وثلاثين عاماً، وكان أول جنرال يسوعي يقيم القداس الإلهي حسب الطقس الكنسي الأرمني. وبعد أن درس اللغات الشرقية وخصوصاً اللغة الأرمنية وآدابها تم تعيينه رئيس إقليم الشرق الأوسط في العام 1974، وكان مسؤولاً مباشراً عن 150 راهباً يسوعياً في أشد المناطق سخونة في العالم.

خلال حرب لبنان المشؤومة، قضى عدد لا يستهان به من الرهبان اليسوعيين نحبهم شهداء الواجب، ولكن الأب كولفنباخ لم يغادر العاصمة اللبنانية في أحلك الظروف وبقي

يدرّس في الجامعة اليسوعية في بيروت؛ وعندما انتخب هذا الأب الهولندي على رأس الرهبانية اليسوعية، كان هدفه الأول إصلاح رفقة يسوع وعصرنتها، تلبية لأوامر البابا يوحنا بولس الثاني، مما تطلب عشر سنوات من العمل الدؤوب.

صبّ الجنرال اهتماماته على الصين وسيبيريا حيث بقي عدة يسوعيين يعملون في الخفاء فوق أراضي الاتحاد السوفياتي أو في سجونه. وبتاريخ 30 أيلول عام 1992 أعادت السلطات الروسية اعترافها بشركة يسوع، ثم عادت وزارة العدل الروسية عام 1999 إلى منع هذه الرهبانية من جديد، على أثر تدخلات الكنيسة الروسية الأرثوذكسية النافذة. وبتاريخ الثاني من أيلول عام 2000 عادت الأمور في روسيا إلى مجراها الطبيعي حيث بلغ عدد الرهبان اليسوعيين الستين، خصوصاً في موسكو، وفي العام 2002 افتتحت الرهبانية في موسكو كلية فلسفة تصدر شهادات دولة في هذا الاختصاص.

سقطت أيديولوجية السبعينيات من القرن الماضي، وكان الحوار مع الإسلام من الأولويات، وهوالذي أصبح الديانة الأولى في العالم، بعد أن تعدى عدد المسلمين عدد المسيحيين لأول مرة في التاريخ[21]. وبعد انقضاء خمس وعشرين سنة على رأس الرهبانية اليسوعية، قرر كولفنباخ التقاعد في كانون الثاني 2008، وهو أمر استثنائي، ثم قبل البابا الحالي الاستقالة ورجع كولفنباخ إلى لبنان بعد أن عمل على تثبيت ركائز المؤسسة التي قد تكون خرجت عن تقاليدها في فترة حكم الجنرال بدرو أروبي.

إن الآباء اليسوعيين في بداية القرن الواحد والعشرين يعيدون تأكيد اهتمامهم بالطابع التبشيري للمؤسسة الأغناطية، ولكن بعيداً عن حلم اغناطيوس والرفاق الأوائل في انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي «الكفار» وهداية السكان الوثنيين في الشرق الأقصى إلى الديانة المسيحية، وهم ينشدون اليوم مساعدة بلدان العالم ثقافياً ودينياً واجتماعياً، إذ ينصرف الرهبان الشباب إلى الاهتمام بالطبقات الشعبية، ومن أجل هذه الغاية أنشأوا بعثات عمالية في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وبلجيكا وهولندا والمانيا، كما أنهم يركزون على المجتمعات المعزولة والمحرومة، وعلى سبل تعليم الفقراء في «غيتوهات» السود والأميركيين من أصل إسباني في الولايات المتحدة الأميركية مثلاً.

يفيد ستانيسلاس مايار[42] في ملف يتعلق بالواقع الديني الحالي في العالم، أنّ الأقاليم اليسوعية العشرة في الولايات المتحدة الأميركية تشرف على إدارة ثلاث كليات لاهوتية

Riyad Nassar Library

كبيرة في ماساشوستس وإلينوي وكاليفورنيا، مهمتها تنشئة الكهنة، ولكنها تفتح أبوابها أيضاً أمام الطلاب الوافدين من كنائس ورهبانيات أخرى، خصوصاً من لوثرية وانغليكانية ومجموعة الكنائس الكالفينية الناطقة باللغة الأنكليزية، والداعية إلى إسناد إدارة الكنيسة إلى جسم مؤلف من العلمانيين والقساوسة على حد سواء (Eglise presbytérienne).

في الوقت ذاته، هنالك انفتاح يسوعي على المجتمع الأميركي برمته عبر التعاون مع الجامعات الرسمية الكبرى على مثال جامعة بيركلي وهارفرد وشيكاغو، مما يشكل اهتماماً بحقوق الإنسان عامة، وحقوق العمل والمرأة خاصة، ومناهضة العنف والتسلط في مجتمعنا العصري... إن الآباء اليسوعيين في جامعة جورجتاون في واشنطن أسهموا إلى حد بعيد في التأثير على رأي الأساقفة ورجال الدين كافة في مسألة السلاح النووي، وإن «مركز كينيدي لعلم الأخلاق» التابع للرهبانية اليسوعية في واشنطن أصبح مركزاً هاماً للأبحاث المتعلقة بالآداب الطبية، وهم يعتبرون أنه قد حان الوقت من أجل مراجعة سُلم الأولويات بعد أن أصبحت الطبقات الوسطى مثقفة، وأعداد الرهبان في تراجع مستمر نظراً إلى انخفاض نسبة الدعوات، وارتفاع أعمار الآباء اليسوعيين. إن الكنيسة الكاثوليكية الأميركية عامة والرهبانية اليسوعية خاصة مرشحة لأن تصبح أكثريتها من العرق الأسود أو من العرق الإسباني، وطليعة اهتماماتها الهجرة، التي تبقى التحدي الأكبر.

من ناحية أخرى، عملت الرهبانية اليسوعية أخيراً على إدخال الرسالة المسيحية في ثقافات غريبة عنها، وعلى ترويج ثقافة العدالة، واحترام الخصوصيات الإتنية كما في الهند والصين والباراغواي، بعيداً عن النظرة الكولونيالية السائدة قديماً. وفي هذا الخصوص، وجّه الأب بدرو أروبي نداء في شهر كانون الأول عام 1971 من أجل اجتماع قدامى خريجي الجامعة اليسوعية في أميركا اللاتينية، في مدينة مكسيكو، شدّد فيه على أن «التربية هي مفتاح حلّ البؤس والشقاء»، داعياً إلى تحويل المعاهد إلى أدوات ناجعة في تنشئة رجال يعون ضرورة إحداث تغييرات جذرية في المجتمعات. وفي عام 1972 قام الرئيس الإقليمي ليسوعيي المكسيك بإقفال معهد باتريا (Patria)، وهو من أهم المعاهد وأكبرها في المكسيك، تعبيراً عن رفض الرهبانية اليسوعية الاستمرار في تنشئة النخب الميسورة في بلاد فقيرة، ومساعدة الأقوياء والنافذين على حساب الضعفاء المعوزين، مما قد يتسبب مستقبلاً بمزيد من الاضطرابات والمشاكل في المجتمع المكسيكي.

إن الأب بدرو أروبي الذي أمضى سبعاً وعشرين سنة في اليابان في أصعب الأوقات من تاريخها، والذي أحبها وتأثر بثقافتها وعاداتها، كان يدرك أنّ الرسالة المسيحية في شكلها الحالي لا يمكنها اختراق جدار العقول والعقليات غير اللاتينية، والنفاذ إلى قلوب الذين يسعى لهدايتهم إلى الدين المسيحي، ولهذا السبب حاول تنفيذ رغبات المجمع العام الثاني والثلاثين الذي عهد إليه مهمة نشر هذه الأفكار الحديثة والجريئة وتعميمها. ولكن هذه الأفكار التقدمية التحررية أقلقت راحة البابوات بولس السادس ويوحنا بولس الأول وخصوصاً يوحنا بولس الثاني، والجميع يعلم كيف أدت العلاقات المتردية بين الكرسي الرسولي والرهبانية اليسوعية إلى قبول استقالة أروبي وكولفنباخ لاحقاً؛ فالبابا يوحنا بولس الثاني استعان من جهة ثانية بالأب اليسوعي جويزبي بيتو من أجل مساعدة الأب باولو ديزا عام 1981، مدير شؤون الرهبانية اليسوعية في الفاتيكان، في الانفتاح على الأديان الأخرى من إسلامية وبوذية وهندوسية. وهكذا، أصبحت الكاثوليكية تحاور الديانات الكبرى في العالم وتخلت عن مواقع مواجهتها والقضاء عليها، وفتحت معها قنوات الاتصال.

فالأب وليم سِيدهم اليسوعي[43] يتحدث مطولاً عن مسيرة فكرة حقوق الإنسان الطويلة عبر التاريخ، قائلاً إن الدراسات تشير إلى عودة هذه النظرية إلى الثورة الفرنسية، على الرغم من أنّ بعض المؤرخين ينسبون هذه الحقوق إلى العصور القديمة من مصرية وبابلية، كما أشارت إليه الكتابات المسمارية أو الهيروغليفية، علماً أن الأديان الهندوسية والبوذية والكونفوشسية منحت الناس حقوقاً «مقدسة» في شتى الميادين.

أدت الثورة الفرنسية عام 1789 إلى تخوف الكنيسة من «العالم الحديث» والحريات التي نادى بها، ولكن لاحقاً وفي عالم الثورات أي في عام 1848، اتخذت الكنيسة الكاثوليكية مواقف إيجابية في الدفاع عن الحريات. أما البابا بيوس التاسع الذي بدا منفتحاً على مسألة الحريات، فقد أصدر في بداية ولايته عفواً عن الثوار الذين شاركوا في الثورتين ضد الدول التابعة لسلطة روما، ولكن الحبر الأعظم دخل في أزمة سياسية ابتداءً من العام 1848 مع الثوار أنفسهم الذين كانوا ينادون بالدولة الإيطالية الموحدة. وأثناء ولاية البابا لاون الثالث عشر (1878-1903)، قام الكرسي الرسولي بهجوم صاعق على الليبيرالية المشحونة بالفلسفة العقلانية، التي كانت ترى في الإنسان وحده أساس سلطة العقل المطلقة، بعيداً عن الله.

وفي رسالته البابوية (*Immortale Dei*) الصادرة في الأول من تشرين الثاني عام 1885 نادى الحبر الأعظم بضرورة احترام الحرية وحقوق الشعوب والمساواة، وهي تطورات إيجابية في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية. ولكن هذا البابا المنفتح على أفكار العصر، والذي شجع على الأبحاث العلمية وعلى كل ما يؤدي إلى خير الكائن البشري وسعادته، رفض الليبيرالية التي تؤسس كل شيء على الإنسان في معزل عن الله.

واتخذ هذا الحبر الأعظم قراراً حكيماً عندما ناشد الفرنسيين الكاثوليك الالتحاق بالجمهورية الفرنسية والانصياع إلى نتائج الانتخابات التي جرت عام 1876، خصوصاً أنهم كانوا يحبذون النظام الملكي. وفي عام 1891 ظهر على الساحة السياسية الفرنسية تيار «الديموقراطية المسيحية» ثم مجموعة «الآباء الديوقراطيين» الذين انبروا للدفاع عن الحرية والديموقراطية والمساواة بين البشر وحقوق الإنسان كافة. ولكن البابا لاون الثالث عشر المنفتح في فرنسا، كان متصلباً في إيطاليا، حيث انضمت إلى الدولة الإيطالية الناشئة حديثاً الدول البابوية القديمة، مما تسبب بأزمة عنيفة مع الكرسي الرسولي في روما؛ فالحبر الأعظم ناشد، لا بل حرّض المواطنين الكاثوليك على عدم التعاون مع الدولة الإيطالية وعدم المشاركة في الحياة السياسية، ولكنه دعاهم في الوقت ذاته إلى طاعة الرؤساء المدنيين الشرعيين عندما يأمرون بأعمال عادلة في نظر الكنيسة. إن البابا بيوس الثاني عشر (1939-1958) الذي تولى السدة البطرسية في أحلك الظروف من تاريخ البشرية، اتخذ موقفاً واضحاً ضد السلطة الديكتاتورية مطالباً بضرورة المحافظة على حقوق الإنسان وكرامته، على الرغم من الحملة الشعواء التي قام ويقوم بها بعض اليهود حتى اليوم ضد هذا الحبر الأعظم.

لقد ترك الفيلسوف الفرنسي الكاثوليكي جاك ماريتان[44] أكبر الأثر في تفكير البابا بيوس الثاني عشر كما الحبر الأعظم بولس السادس عندما اعتبر الديانة المسيحية منبع الديموقراطية بحيث أسهمت في إضفاء معنى واضح على كرامة الإنسان والعدالة والتحرر من قيود البؤس والعبودية واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان؛ والكنيسة الكاثوليكية، وصولاً إلى المجمع الفاتيكاني الثاني، لا تزال تؤكد على احترام حقوق الإنسان، وعلى مشاركة المسيحيين في إدارة الدولة ضمن حدود الحرية والديموقراطية. إن الكنيسة الكاثوليكية كما الرهبانية اليسوعية ترفض جميع أنواع الحكم الشمولية والديكتاتورية، ولا يمكنها أن

تقبل بأية سلطة متسلطة صغيرة كانت أم كبيرة، انسجاماً مع مبادئها وشمولية هذه المبادىء. وللتذكير فقط، أنه وأثناء ولاية البابا لاون الثالث عشر، عرفت أوروبا موجة من الاغتيالات السياسية، ولكن الحبر الأعظم رأى في بعض الأوقات رفض الطاعة للسلطة أمراً مشروعاً في «حالة وجود تناقض بشكل ظاهر مع الحق الطبيعي أو الحق الإلهي»، وإنّ «الكنيسة لا تحرّم تحرير البلاد من الأجانب أو من الطغاة شريطة أن يتم ذلك دون انتهاك لمبدأ العدالة».

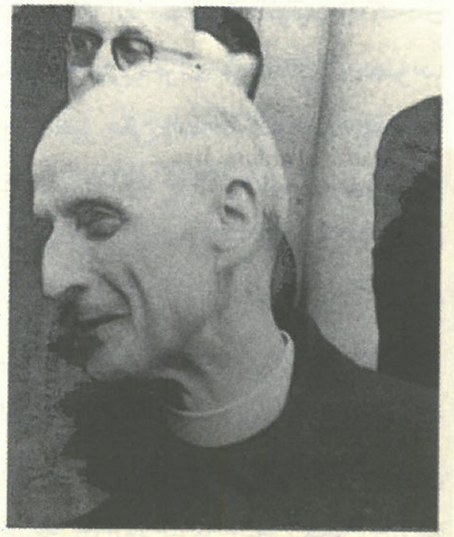

الجنرال اليسوعي الثامن والعشرون بدرو أروبي

الجنرال اليسوعي التاسع والعشرون بيتر-هانس كولفنباخ مع مجلس قيادته

Riyad Nassar Library

الفصل الحادي عشر

الرهبانية اليسوعية والطائفة المارونية

بدءاً من منتصف العام 1914 نشر الأب لويس شيخو[45] عدة مقالات ظهرت تباعاً في مجلته «المشرق»، ثم طبعها على حدة في كتاب أبصر النور عام 1923 حيث ورد فيه: «تقدمة الإكرام والولاء من الرهبانية اليسوعية إلى فخر تلامذتها القدماء غبطة مار الياس بطرس الحويك بطريرك انطاكية وسائر المشرق». وفي مطلع شهر حزيران 2003 ، وبمناسبة انعقاد المجمع البطريركي الماروني، قامت دار المشرق بإعادة طباعة هذا الكتاب حيث جاء «عربون بقاء الرهبانية اليسوعية على وفائها لكنيسة مارون»، ويسعدها أن ترفع بدورها هذه الطبعة «تقدمة إكرام وولاء من الرهبانية اليسوعية إلى فخر تلامذتها القدماء غبطة مار نصرالله بطرس صفير بطريرك انطاكية وسائر المشرق ».

ورد في مطلع توطئة الكتاب: « طالما تاقت النفوس إلى معرفة أحوال الطوائف الشرقية في الأجيال الغابرة لما وراء ذلك من الفوائد كشفاً للنقب عن الحقائق التاريخية ودحضاً للتهم التي يختلقها قوم ليس لهم من العلم إلّا قشرته...». أما عن الطائفة المارونية قبل القرن السادس عشر، فإنّ هذا الكتاب يتطرق إلى تواصل هذه الطائفة الكريمة مع روما مركز الوحدة الكاثوليكية والمراسلات والكتابات الرسمية بين الكرسي الرسولي والطائفة المارونية، التي لا تزال محفوظة جزئياً في سجلات دار البطريركية أو في خزائن الفاتيكان

منذ إينوكنت الثالث الذي استدعى عام 1213 بطريرك الموارنة أرميا العمشيتي إلى حضور المجمع اللاتراني الرابع(*)، ووجه إلى البطريرك المذكور براءة بابوية يمنحه فيها مع شعبه عدة إنعامات، وهي مجموع البولّات المارونية الذي نشره باللغة اللاتينية القس طوبيا العنيسي(*Ballarium Maronitarum*)، ولقد حافظت المراسلات على استمراريتها منذ هذا التاريخ وحتى عام 1256 ثم انقطعت نحو مئتي سنة، من جهة بسبب المحن والحروب التي تعرض لها المشرق العربي، ومن جهة أخرى بسبب البلايا التي أصابت الكرسي الرسولي، وهجرة البابوات إلى فرنسا وانقسام الممالك المسيحية، وتصارعها في الطاعة لحبرين أعظمين والجدل القائم حول شرعية كلّ منهما. ولن نستفيض في شرح فترة الانقطاع هذه، وكيفية عودة الاتصالات، وصولاً إلى القرن السادس عشر، حيث أحصى جامع البولّات المارونية عشرين براءة من لاون العاشر إلى غريغوريوس الثالث عشر.

إن أغناطيوس دي لويولا «وقف نفسه لخدمة الكنيسة لا سيما أبناء الكنائس الشرقية...» ثم دعا رفاقه «ليسعوا معه في خلاص النفوس»، كما «دعاهم للسفر معه إلى بلاد الشام والأراضي المقدسة»، ولكن حرب البنادقة ضد الأتراك منعتهم من السفر وأجبرتهم على البقاء في إيطاليا، حيث توجهوا إلى روما ووضعوا أنفسهم في تصرف الحبر الأعظم الذي ما لبث أن انتدبهم لمساعدة الشرقيين ورد الضّالين إلى الحظيرة البطرسية فأرسل أولاً فرنسوا كزافير إلى الهند واليابان والصين، فكان أول رسول إلى الشرق الأقصى (1541–1552)، ثم عهد البابا عينه رسالة الحبشة إلى جمعية يسوع سنة 1547... حيث مات منهم كثيرون، واستشهد غيرهم ومن جملتهم أحد اللبنانيين وهو المكرّم الماروني الأب إبراهيم جرجس اليسوعي. وبعد وفاة البابا بولس الثالث حرّر خليفته يوليوس الثالث براءة في الثالث من تموز عام 1553 (*Cum praesertim*) أصدر فيها أمره للرهبانية اليسوعية بإنشاء ثلاث مدارس في القدس والقسطنطينية وقبرص. ولكن تخصيص الكرسي الرسولي رهبان القديس فرنسيس بالإقامة حصرياً دون غيرهم في الأراضي المقدسة بناءً على إنعامات سابقة حال دون إكمال هذا المشروع.

(*) المجمع اللاتراني الرابع: اسم أطلق على خمسة مجامع مسكونية عقدت في القصر المجاور لبازيليك لاتران في روما حيث بقي مقر البابوات طوال ألف سنة.

Riyad Nassar Library

فالأب يوحنا إليانو المعروف عند الشرقيين بالأب جوان باطشتا المولود في الإسكندرية عام 1530 من أبوين يهوديين، كان أول مرسل يسوعي إلى الموارنة. يقول الأب لويس شيخو في الصفحة 14 إنّ الأب إليانو دعي باسم جده الياس، الذي عني بتربيته كما شقيقه كي يصبح يوماً «شرفاً لعائلته وفخراً لملته الإسرائيلية»، وكان قبل هدايته يرى في يسوع مسيحاً دجّالاً، ولكن الأب أندراوس فروزيوس اليسوعي ورئيس دير البندقية أسهما في تنصيره، وأبدل الياس اسمه يوم معموديته باسم يوحنا المعمدان أو جوان باطشتا. وعندما اقتنع البابا غريغوريوس الثالث عشر بتمتين العلاقات بين روما والموارنة، أوفد يوحنا إليانو في مهمة القاصد الرسولي من أجل إطلاع الحبر الأعظم على أحوال الطائفة المارونية في لبنان ومشاكلها، بعد أن كانت سفارته الأولى إلى أقباط مصر قد أغنته وعلمته الكثير عن أوضاع المسيحيين المشرقيين، ثم زادته مهمته في لبنان خبرة ومعرفة.

بقي الأب إليانو بعد سفارته إلى لبنان يدرّس العربية والعبرانية في المدرسة الرومانية اليسوعية التي أنشأها القديس أغناطيوس عام 1551. يقول الأب شيخو في الصفحة 19 من كتابه، إن «اليسوعيين أنشأوا مطبعة صغيرة من أجل نشر بعض النصوص في اللغة العربية تحت إشراف إليانو، عملت على إصدار كتاب أول تحت عنوان «اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية»، وكتاب ثان «لهداية المسلمين» طُبع بلا تاريخ في المطبعة الرومانية»، كان قد وجده إليانو في رحلته إلى مصر فجاء به إلى رومية ونشره.

إن سفارة الأب إليانو الأولى إلى لبنان قامت بين عامي 1578 و 1579 بغية أن تكون روما على اطلاع تام على معتقدات الموارنة وعاداتهم وكتبهم الدينية وعدم وجود الأضاليل أو الجهل فيها، وهي كانت تضم إضافة إلى الأب إليانو، الأب توما راجيو، والأخ المساعد ماريو أماتو. يقول العلّامة الدويهي في «تاريخ الطائفة المارونية»: إنّ البابا أمر القاصدين الرسوليين بـ«فحص ديانة الموارنة والبحث عن صدق طاعتهم وكتبهم ومشاهدة رتبهم وعوائدهم وكهنوتهم وعبادتهم. وكان الاعتماد على القس جوان باطيشتا أي الأب إليانو، لأنه كان رجلاً ذا مكارم وفضل وحكمة، خبيراً في العلوم الإلهية والطبيعية ماهراً في اللغة اللاتينية واليونانية عارفاً بالعربية والكرشونية».

بعد أن نزل المبعوثان من الكرسي الرسولي في جزيرة قبرص، التي كانت مثّخنة بجراح الفتح العثماني على يد السلطان سليم الثاني، الذي عهد إلى مصطفى باشا بحصارها وإسقاطها، أمعن هذا الأخير فيها القتل حيث سفكت دماء 18 ألف ماروني من أصل 50 ألفاً في ألماغوصة (Fanagousta) بعد أن نكث بالعهد الذي قطعه إلى جمهورية البندقية بالحفاظ على أرواح المدنيين. وعندما وصلت البعثة البابوية إلى لبنان، كان البطريرك الماروني ميخائيل الرزّي في قنوبين، وخرج مع صحبه لملاقاة الوفد البابوي، الذي سلمه البراءة (*Ballarium Maronitarum*) التي ترجمها إليانو من اللاتينية إلى العربية، والسبب عدم معرفة غبطة البطريرك باللغة اللاتينية.

في هذه الرسالة البابوية يطلب الحبر الأعظم من غبطة البطريرك الماروني بعد التأكيد على جعل طائفته في حمى الكنيسة الكاثوليكية، على اتباع حرفيّة أوامر الأحبار الرومانيين إينوكنت الثالث وأوجانيوس الرابع ولاون العاشر إلى أسلافه ولا سيما بخصوص صلاة التقديس المثلث والإصرار على حذف ذكر الصلب من آخر الصلاة كي لا يرسخ في الأذهان أنّ الصلب وقع على الجوهر الإلهي المثلث الأقانيم. أما بخصوص الميرون فإنّ الحبر الأعظم يأمر بصنعه من زيت الزيتون والبلسم فقط وعدم مزجه بمواد أخرى كما جرت العادة، وفي ما يتعلق بسر التثبيت يصر البابا على منحه من الأساقفة وحدهم وأن يفرز عن ميرون سر العماد. وأخيراً بخصوص الزواج بين الأقارب، يعود للحبر الأعظم مهمة تحديد درجات القرابة التي تمنع حصول الزواج.

أبحر الوفد الرسولي البابوي من مرفأ طرابلس في اتجاه يافا، ووصل إلى القدس في صباح العاشر من شهر آب 1578 حيث أمضى مدة شهر كامل وعاد بعده مجدداً إلى لبنان؛ الأب إليانو عن طريق البحر ورفيقه عن طريق البر، من الجليل مروراً بدمشق وصولاً إلى طرابلس حيث بحثا في إمكانية إنشاء مدرسة هدفها «تهذيب الشبيبة المارونية»، وعند إدراكهما صعوبة التنفيذ طالبا بإرسال الأحداث من الموارنة إلى روما.

كان الأب إليانو اليسوعي، القاصد الرسولي، يتابع من قنوبين الاطلاع على الكتب الدينية المارونية ويحاول إصلاح الخلل فيها بعد عرضها على غبطة البطريرك، وإحراق

Riyad Nassar Library

بعض المخطوطات المشبوهة بعد الحصول على موافقة الجميع، خصوصاً وأنّ المخالفات كانت تنم عن جهل النسّاخ ودسائس بعض المبتدعين. وبعد الانتهاء من هذه الأعمال، طلب الأب إليانو من البطريرك الماروني إذناً خاصاً بتفقد الكنائس والأديرة من أجل إحاطة الحبر الأعظم بجميع التفاصيل.

بعد عودته إلى قنوبين من تجواله الذي دام عدة أشهر، شكر الأب اليسوعي غبطة البطريرك على حسن استقباله وتجاوبه التام وطاعته المطلقة للحبر الأعظم، وعرض عليه وعلى رؤساء الطائفة المارونية قبول أوامر البابا الواردة في البراءة، والتوقيع عليها، وهو ما فعلوه بملء إرادتهم. ولكن مع انتشار وباء الطاعون في بلاد ساحل الشام، أرسل رئيس الرهبانية العام الأب مركوريان كتاباً يأمر فيه الأب جوان باطيشتا أو يوحنا إليانو والأخ المساعد اليسوعي ماريو أماتو بالعودة إلى روما.

حين تبلغهما كتاب الرئيس العام في أواخر تشرين الثاني 1578، قام الأب يوحنا إليانو بمراسلة الحبر الأعظم واضعاً إياه في أدق تفاصيل رحلته. ولكن تقرير الأب إليانو تأخر في الوصول إلى عاصمة الكثلكة حتى أواخر شهر شباط، حيث طلب البابا من رئيس الرهبانية اليسوعية إرسال كتاب إلى الأب إليانو يطلب فيه البقاء في لبنان ومتابعة مهمته. ولكن انتظار إليانو جواب الحبر الأعظم طال، فقرر الوفد في أواسط شهر آذار 1579 الإبحار إلى البندقية خوفاً من الطاعون، ومن الأتراك ومن إلصاق به تهمة التآمر على الدولة والسلطة مع الأجانب، والتبعات التي قد تتأتى عن هذه التهم على الطائفة المارونية برمتها. غادر الأب إليانو قنوبين في 25 شباط 1579 ولحق برفيقيه في طرابلس، ثم أبحرت السفينة في 22 آذار 1579 إلى البندقية مروراً بجزيرة قبرص، ورست في مرفأ البندقية في الأول من شهر أيار، ثم بلغوا مدينة روما في الثامن من حزيران. ولدى مثول القاصد الرسولي الأب يوحنا إليانو أمام البابا، أثنى على عبادة الموارنة وطاعتهم لكرسي روما، وتسلل بعض الأغلاط بسبب اختلاطهم مع أهل البدع، مثل إقامة القداس بكاسات وحلل غير لائقة، من صنع خشبي، طالباً من الحبر الأعظم إنشاء مدرسة لهم في روما وطباعة كتب دينية في اللغة العربية وتزويدهم بحلل وكؤوس لائقة تناسب إقامة القداديس. فرح الحبر الأعظم بما سمعه من

الأب إليانو، وطلب منه تدوين مشاهداته في تقرير مفصّل، فأسرع الأب اليسوعي إلى تنفيذ أوامر رئيس الكنيسة الكاثوليكية وإرشاداته.

في الوقت ذاته بدأ الأب جوان باطشتا إليانو الاستعداد لسفارته الثانية إلى لبنان تنفيذاً لمشيئة غريغوريوس الثالث عشر، بعد أن عيّن له الرئيس العام الأب يوحنا برونو رفيقاً مساعداً وضليعاً في علم اللاهوت، فقام هذا الأخير بمساعدة القاصد الرسولي بنشر كتاب موجز التعليم المسيحي العائد إلى بطرس كانيزيوس اليسوعي بعد تعريبه، وكتاب المكرّم لويس الغرناطي في سرّي التوبة والقربان، وكتب أخرى معربة في تفنيد أضاليل اليعاقبة والنساطرة وغيرهما، وهي كتب لم نجد منها أية نسخة في دير سيدة قنوبين، كما يقول الأب اليسوعي الجليل لويس شيخو. أما درع الرئاسة فلم يرسله الحبر الأعظم إلى بطريرك الموارنة ميخائيل الرزّي بسبب اتهامات الموارنة القبارصة للبطريرك اللبناني في صحة إيمانه، والنصوص الخاطئة الواردة في الإنجيل المخطوط بيده. ولكن الأب اليسوعي إليانو أقنع البابا والكرادلة بتقيد بطريرك الموارنة بتعاليم الكنيسة وطاعة الحبر الأعظم الذي سارع إلى تسليم الدرع المقدس إلى الأب إليانو الذي سوف يبلغه إلى البطريرك بعد تجديده تأدية الطاعة للحبر الروماني.

في 7 أيار 1580 حرّر الكاردينال كرافا وسان سفرينو وصية تنص على السعي لرد كل الطوائف الشرقية من أرمن ويعاقبة وكلدان وأقباط إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية ونبذ التعاليم الباطلة التي زرعها في قلوبهم الشيطان. طالت سفارة يوحنا إليانو الثانية إلى الموارنة من عام 1580 إلى عام 1582، إذ أبحر مع رفيقه الأب برونو من مرفأ البندقية في أواسط أيار 1580 إلى قبرص حيث مكثا مدة بالإكراه بسبب تفشي مرض الطاعون، ثم بلغا طرابلس في 29 حزيران 1580، وقنوبين في التاسع من شهر تموز. ولقد تم يوم الخميس الواقع فيه 21 تموز الاجتماع مع رجال الأكليروس وأعيان الطائفة المارونية، وقدم السفير البابوي الأب اليسوعي إليانو الدرع المقدس إلى غبطة البطريرك والهدايا العديدة والكتب المطبوعة والمعرّبة.

انعقد المجمع الماروني في 16 آب 1580 في دير سيدة قنوبين في حضور 2200 مؤمن،

Riyad Nassar Library

ألقى خلاله الأب إليانو خطاباً باللغة العربية وسط ارتفاع الصلوات والتمجيد والأهازيج، ثم اختلى البطريرك والأساقفة مع مرسلي الحبر الأعظم وسجلوا أعمال المجمع من عقائد الإيمان المسيحي والصلاة إلى نفي كتب الهراطقة من أجل أن تحفظ في الكرسي البطريركي. يقول الأب شيخو: ولقد «تمّ اتهام الأب اليسوعي إليانو القاصد الرسولي بأمور كثيرة تختص بعرقلة الأمور والعلاقات بين الكرسي البطرسي والبطريركية المارونية، ولكن هذه التهم برهنت عن عدم صحتها، وعمل الأب إليانو من أجل التقارب بين لبنان وروما؛ يُذكر أنّ الأصل العربي لهذه المحفوظات لم يتم العثور عليه قطّ، أما النسخة اللاتينية بقيت محفوظة في سجلّات الرهبانية اليسوعية ودوّنها الأب إليانو بالعربية ثم وقّع عليها آباء المجمع، فلم يعثر عليها أيضاً، وإنّ مؤرخ الطائفة المارونية البطريرك إسطفان الدويهي لا يشير إليه مطلقاً وكأنه أمر يجهله».

فالقاصد الرسولي الأب اليسوعي إليانو وأثناء تجواله على الرعية المارونية أخذ يعمم وصايا غبطة البطريرك ومجمع قنوبين على جميع المؤمنين طوال سنة كاملة ساعياً إلى إزالة الأضاليل السارية في أذهان الشعب، من جرّاء الكتب الدينية التي شوهها جهل النساخ أو خبث المبتدعين. ولقد وقعت يد الأب اليسوعي على جملة من كتب الموارنة الدينية التي اندست فيها تعاليم مخالفة لمعتقدات الكنيسة الكاثوليكية، فكتب في اللغة الإيطالية أنّ «هذا الكتاب يحتوي عدة أضاليل وأنه يقتضى إحراقه». ورد في كتاب الأب شيخو: وقد «كرّر الأب إليانو في رسائله ذكر الكتب الدينية الشائعة بين الموارنة والضرورة الماسة إلى إصلاحها وإلى طبعها منقحة في رومية، ولولا ذلك تبقى جراثيم البدع منبثة بين العموم ويظل الإيمان معرضاً لآفات الضلال على الرغم من استقامة الموارنة وحسن نيتهم، كما عاد الكلدان إلى النسطورية بعد تقدمتهم الطاعة للحبر الأعظم الروماني لشيوع الكتب الهرطوقية في ما بينهم». بعدها قام الأب إليانو بإنشاء المدارس للأحداث، فإنه «تحقق ما كان عليه الشعب من الجهل المطبق حتى إنه أكد في بعض رسائله أنّ الذين يعرفون في لبنان القراءة والكتابة لا يتجاوزون عدد الأصابع». وأثناء رحلتهم في أرجاء وطن الأرز، يقول

الأب شيخو إنهم « وقعوا في أيدي اللصوص وعصابات المسلمين فنهبوهم وضربوهم وأثنوا على بعض تجار الفرنج في طرابلس الذين تكفلوا لهم بالمال وفكّوا به أغلالهم».

جاء في كتاب الأب شيخو أن البطريرك ميخائيل الرزي توفي في 21 أيلول 1581 بعد أن منحه الأب إليانو سرّ المشحة الأخيرة، علماً أنه ورد في كتاب «تاريخ الموارنة» للعلامة الدويهي أنه توفي سنة 1580. وفي هذا السياق، يورد الأب شيخو سلسلة مراسلات تنوّه بالأب جوان باطيشتا أي الأب إليانو اليسوعي، وفي الصفحة 68 يقول حرفياً: «وكم هي باطلة السعايات التي نشرت بعد وفاته وفي حقه ونقلها جزافاً بعض مؤرخي الموارنة لعدم وقوفهم على الآثار التي نشرناها». وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك ميخائيل الرزّي تم انتخاب أخيه سركيس الرزّي خلفاً له، في حضور القاصد الرسولي جوان باطيشتا ورفيقه جوان برونا، ثم أبحر المرسَلان من طرابلس إلى يافا كما ورد في الرسالة التي وجهها الأب إليانو في 23 تشرين الثاني 1581إلى الرئيس العام الجديد للرهبانية اليسوعية الأب كلوديوس أكوافيفا خلف الأب مركوريان الذي توفي في 19 شباط 1581، وفور نزولهما في القدس، حل الضيفان عند رهبان القديس فرنسيس وجدا لدى رئيسهم كل كرامة ووداد.

ومن الضروري، هنا، التذكير بسفرة أغناطيوس وكيف تمّ استقباله ثم إبعاده عن القدس والأماكن المقدسة كون رهبانية القديس فرنسيس هي المسؤولة من طرف الكرسي الرسولي عن جميع الأماكن المقدسة؛ كانت عودة الأب إليانو ورفيقه من القدس إلى لبنان في أواسط شهر كانون الأول عام 1581 عن طريق البر مروراً بمدينة دمشق التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية منذ 66 سنة. ولقد حاول القاصد الرسولي رد بطريرك الروم إلى الكنيسة الكاثوليكية، لكنه وجد، في الوقت نفسه، أنّ الموارنة في وضع يُرثى له، أي في مقدمة المظلومين، ولكن الأب إليانو لم ينجح في تحقيق اتحاد الكنائس الشرقية بالكنيسة الغربية على الرغم من الاجتماعات والنقاشات مع بطريرك الروم الأرثوذكس يواكيم الخامس الذي إدعى أنه لا يستطيع اتخاذ أي قرار في هذا الشأن دون الاتفاق مع بطريرك القسطنطينية.

عاد الأب إليانو مع الأب برونو إلى لبنان قبل عيد الميلاد عام 1581 حيث أمضيا حوالى الستة أشهر من العام 1582 في انتظار موعد الإبحار نحو البندقية. في الوقت ذاته تسلّم الأب

إليانو رسالتين من الرئيس العام للرهبانية اليسوعية الأب أكوافيفا ومن الكاردينال سان سفرينو يوعزان فيهما إلى الأب برونو والأخ ماريو أن يعودا إلى روما وإطلاع الحبر الأعظم على نتائج وأجواء السفارة إلى لبنان، في حين يتوجه الأب إليانو برفقة الأخ برنردينو إلى أقباط مصر.

كان الإبحار إلى مصر يهدف إلى تحقيق نية بطريرك الأقباط ورغبته في الاتحاد مع روما في الإيمان المستقيم، ولكن الأب إليانو كان قد قاسى الأمرين مع الأب كريستوف رودريغز عام 1561 في سفارته الأولى إلى مصر وخاب أمله منها. يتحدث الأب لويس شيخو في كتابه، في الصفحة السابعة عن هذه السفارة الأولى، متوجهاً إلى الأب أكوافيفا والكاردينال سان سفرينو قائلاً: «بعد العناء الشديد فإنّ القبط يسلكون بالرياء وعدم الاستقامة، لا يطلبون من رومية سوى المنافع المادية والمساعدات المالية ومن ثم لا فائدة من تكرار هذا السفر مع كثرة أخطاره». وهكذا بقي الإصلاح مجمداً حتى العام 1606 بسبب الأحوال السياسية والأمنية في المنطقة، ولم تتبع الكنائس الشرقية الحساب الغربي إلّا في القرن التاسع عشر. ولقد جاء الجواب من رومية إلى الأب إليانو وصحبه بالتخلي عن السفر إلى مصر والعودة إلى روما، ولكنه ذهب في اتجاه حلب في 15 تموز 1582 حيث استقبله فيها الموارنة بكل حفاوة حسب ما ورد في رسالته إلى الرئيس العام الأب أكوافيفا والكاردينال كرافا، وأنهم يخضعون إلى ما آل إليه مجمع قنوبين وقرارات الكرسي الرسولي في روما.

عاد الأب إليانو إلى طرابلس في أواخر آب 1582، حيث أبحر إلى مصر التي وصلها في أوائل شهر تشرين الأول، بعد أن تلقى خبراً من روما يأمره بالتوجه إلى الأقباط وخلافاً لإرادته. في هذا الوقت وصل الأب جوان برونو والأخ ماريو إلى روما ووضعا الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر والكاردينال كرافا في جو السفارة إلى الموارنة، فأعربا عن رضاهما من نتائجها الحسنة. أما الأب إليانو فقد بقي سفيراً بابوياً لدى الأقباط حتى عام 1585، وعاد إلى إيطاليا بعد موت غريغوريوس الثالث عشر، حين استدعاه إلى روما خليفته سكستوس الخامس الذي عينه رئيس المعرّفين، وهي المهمة التي قام بواجباتها إلى حين وفاته في 3 آذار 1589.

بدأت البطريركية المارونية بإرسال التلامذة الشباب الى روما بعد أن أوصى الأب اليسوعي جوان باطيشتا إليانو بذلك في سفارتيه الأولى عام 1578 والثانية عام 1580، ولقد أقام الشباب الموارنة في البداية في دار الأحداث (dei Neofiti) في انتظار أن يتم بناء مدرسة خصوصية للموارنة، وكانوا ينكبون على الدراسة في المدارس اليسوعية التابعة للمعهد الروماني الذي أنشأه أغناطيوس دي لويولا. أما الدفعة الثالثة من الشبان الموارنة فإنها وصلت روما في أواخر عام 1583، وكان قوامها عشرة رهبان استناداً إلى العلامة الدويهي، وثمانية حسب اللائحة الفاتيكانية.

في ربيع 1584 بلغ عدد الأحداث المرسلين إلى روما للدراسة في الآداب الكهنوتية العشرين تلميذاً بعد أن خصص لهم الحبر الأعظم في 12 آذار 1584 مدرسة خاصة أي المدرسة المارونية. وفي 5 تموز 1584 أصدر البابا غريغوريوس الثالث عشر براءة خاصة (*Humana sic ferunt*)، وأمن تمويل المدرسة المارونية. أما خليفته البابا سكستوس الخامس فقد أولى الطائفة المارونية اهتماماً خاصاً، وأصدر براءة أولى وثانية تشدد على الهبات البابوية، وتبرهن عن المعاملة الطيبة التي شملت الموارنة في المدينة الخالدة؛ وُضعت المدرسة المارونية في روما في عهدة الآباء اليسوعيين، وأول من تولى إدارتها الأب يوحنا برونو رفيق الأب إليانو في قصادته الثانية إلى الموارنة، والذي بقي في هذا المركز حتى عام 1590. وهكذا تتلمذ الشبان الموارنة على أيدي اليسوعيين، محافظين على طقسهم السرياني، محتفلين بأبهة بعيد شفيعهم القديس مارون في التاسع من شباط كل سنة، بحضور ومشاركة غفيرة من الرومانيين. ولم يتوانَ الكهنة والرهبان عن نشر الكتب الطقسية المارونية باللغة السريانية مثل كتاب الجنازات الذي تمّت طباعته عام 1585 على نفقة البابا غريغوريوس الثالث عشر.

عام 1590 خلف الأب إيرونيموس فوروفنتي الروماني الأب يوحنا برونو حتى عام 1606، وفي أول سنة من رئاسته سدة البطريركية المارونية، كتب غبطة سركيس بطرس الرزّي إلى رئيس عام الرهبانية اليسوعية كلوديوس أكوافيفا من أجل استدعاء سبعة من التلامذة الموارنة بغية سيامتهم كهنة. وخلال العام 1594، وبعد وفاة الأب اليسوعي إليانو تمّت طباعة

كتاب القداس الماروني بالحرف السرياني في روما، علماً إنه لم يكن في روما مختصّون باللغة السريانية، مما تسبب بتسلل بعض الهرطقات إلى هذا الكتاب. ولكن المجمع المقدس الذي شعر بهذا الخلل أرجأ الطباعة بغية إضفاء التعديلات عليه، إلى حين طباعته بشكله النهائي عام 1606 بإذن من إقليمس أو كليمنس الثامن. وعلى أثر هذه الحادثة والغلطة المطبعية، تعالت أصوات بعضهم متهمة الأب جوان باطيشتا إليانو اليسوعي بالتحريض على الطائفة المارونية وكتبها الطقسية، في روما.

يقول الأب لويس شيخو في الصفحة 104 من كتابه ما حرفيته: «وعليه يسوؤنا ما رواه الدويهي في تاريخه عن البطريرك سركيس إذ قال: إن أخاه البطريرك ميخائيل والطائفة كلها أبرياء من التهم التي اتهمهم بها باطلاً جوان باطيشتا». ويسترسل الأب لويس شيخو اليسوعي في الدفاع عن الأب إليانو اليسوعي متعجباً من تصرفات البطريرك الماروني سركيس الرزّي، الذي أثنى أكثر من مرة على عمل الأب إليانو مطالباً بإرساله مجدداً إلى لبنان.

ومع تولي البابا إقليمس أو كليمنس الثامن رئاسة السدة البطرسية عام 1592، أرسل بطريرك الموارنة سركيس الرزّي وفداً إلى روما برئاسة أخيه الأسقف يوسف من أجل تقديم ولاء الطاعة إلى البابا الجديد والتهنئة على انتخابه. فكان استقبال الحبر الأعظم للوفد الماروني حافلاً، وأرسل في صحبته القس إيرونيموس دنديني والقس فابيوس برونا من الرهبانية اليسوعية، ولقد وُضعت رئاسة السفارة في لبنان بين أيدي الأب إيرونيموس دنديني المتحدر من أسرة إيطالية عريقة، وهو أول يسوعي درّس الفلسفة في باريس، وقد عمل على شرح رحلته إلى لبنان قائلاً: «كانت بلغت مسامع الحبر الأعظم والكرادلة منذ مدة طويلة بعض الوشايات بحق الموارنة. وكان قوم نسبوا إليهم عدة أضاليل وبدع». ويشرح القاصد الرسولي أسباب المهمة الموكلة إليه وإلى رفيقه الأب فابيوس برونو الذي عينه الرئيس العام أكوافيفا، حتى وصولهما إلى لبنان، متطرقاً إلى «وصف أخلاق أهل طرابلس وعاداتهم المختلفة ديناً ولا سيما الأتراك والمسلمين...».

انتقل القاصد الرسولي إلى قنوبين مروراً بقرية إهدن حيث قدم الذبيحة الإلهية في معبد القديس يعقوب الذي كان «أشبه بقبر منه بكنيسة». وعندما التقى الأب دنديني البطريرك أخذ

هذا الأخير «يتشكى ويتجنى ويتذمر تارة على الحبر الأعظم وتارة على الذين شوهوا بحسب زعمه صيت الموارنة في رومية وخصوصاً على الأب إليانو مدعياً أنه اتهم الموارنة بتهم باطلة، وأنه زوّر باسمهم بعض الكتابات، وأنّ المجمع الذي عقد بحضرته وحضرة الأساقفة المذيّل بتوقيعهم كانت أعماله مغشوشة».

نجح القاصد الرسولي في تطييب خاطر البطريرك وإخماد نار الفتنة، ولم يستطع الدعوة إلى انعقاد مجمع جديد بسبب الحرب الدائرة وقتها في الشام بين الأمير فخر الدين الكبير وأمراء الأتراك، وقد جال القاصد الرسولي ورفيقه في القرى اللبنانية واستطلعوا أحوال الموارنة وعاداتهم وطرق معيشتهم وأوضاع رهبانهم وراهباتهم ومناسكهم ذاكراً ما استحسنه وما استهجنه، مشدّداً على «تعمق الموارنة في الدين وقلة معارفهم».

بعد مرور ثلاثة أسابيع، وعلى أثر التدقيق في المناشير البابوية المرسلة إلى الموارنة، من إينوكنت الثالث عام 1215، وإسكندر الرابع عام 1256، ولاون العاشر عام 1515 وغريغوريوس الثالث عشر عام 1577، طلب القاصد الرسولي عقد مجمع في قنوبين بعد أن هدأت الأحوال السياسية، فتمّ ذلك في 28 أيلول حسب الحساب الغربي الموافق للثاني من أيلول حسب الحساب الشرقي، علماً أن الكنائس الشرقية بمن فيهم الموارنة كانت تتقيد جميعها في ذلك الوقت بالحساب الشرقي.

في مستهل الجلسة احتج غبطة البطريرك على المجمع الملي السابق لعام 1580، مشدداً على الوحدة مع الكنيسة الرومانية والطاعة المطلقة للحبر الأعظم، ناسباً إلى الأب إليانو أموراً كثيرة من الاتهامات والأضاليل التي ينكر حصولها كل من الأب لويس شيخو اليسوعي والأب بطرس مرتينوس اليسوعي، والتي أكدها وأثبتها الدويهي في تاريخه. وهكذا أنهى المجمع الثاني في قنوبين أعماله وصدّق فيه المجتمعون 13 بنداً و21 قانوناً تختص بالفرائض الدينية والعيشة المسيحية، في انتظار تثبيتها من السلطة البابوية.

توفي البطريرك الماروني على أثر نوبة قلبية بينما كان القاصد الرسولي يقيم الذبيحة الإلهية في دير مار سركيس المجاور لأهدن في تاريخ 5 تشرين الأول، وقد خلف البطريرك الراحل يوسف ابن أخيه موسى الرزّي الذي سارع في استدعاء القاصد الرسولي، الذي

اجتمع مع البطريرك الجديد يوسف، بعد رجوعه من زيارة أمير البلاد ابن سيفا جرياً على العادة السارية في تلك الأيام. تطرق الأب دنديني في بادىء الأمر إلى وضع التلامذة الموارنة في روما، والمراتب التي يتوجب عليهم أن يشغلوها بعد إنهاء دراساتهم اللاهوتية، ولمس استعداد البطريرك الجديد التام بغية إصلاح الأمور، وتثبيت قرارات المجمع الثاني، وإضافة ستة قوانين جديدة إليها.

انتهت سفارة الأب دنديني والأب برونو بعد زيارة للأراضي المقدسة وعودتهما إلى طرابلس، حيث تمّ الإبحار إلى إيطاليا في بداية شهر كانون الثاني سنة 1597، ووصلا إلى روما في 17 تموز، فاستقبل الحبرالأعظم القاصد الرسولي في تشرين الأول عام 1597 بعد شفائه معرباً عن فرحه بنجاح مهمة الأب دنديني مشدداً على حسن العلاقات مع الكرسي البطريركي في لبنان. وفي عام 1598 نشر الأب دنديني تفاصيل رحلته باللغة الإيطالية، ثم نقلها إلى اللغة الفرنسية المستشرق ريشارد سيمون عام 1675.

هكذا كانت العلاقات الرسمية بين الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية مع تفاعل العلاقات الودية بواسطة المدرسة المارونية في روما، مما أدى بعد مرور عشرين سنة على تأسيسها، إلى تسقيف ثلاثة كهنة. ومن الذين شرّفوا الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية، يقول الأب لويس شيخو، إبراهيم بن جرجس البشرّاني أحد التلامذة الموارنة الأوائل في روما الذي دخل في صفوف الرهبانية اليسوعية. ولقد تمّ إرساله إلى الحبشة من أجل مساعدة المرسلين، «إلّا أن حاكم مصوّع المسلم أوقفه عند نزوله من السفينة إلى البر وعرف أنه من المرسلين الكاثوليك فعرض عليه الإسلام فأبى متكرهاً فأمر بسجنه وتعذيبه ثم بقطع رأسه...».

انخرط في عداد الرهبانية اليسوعية، رهبان كثر من الموارنة، خصوصاً من تلامذة المدرسة المارونية في روما، بعدما عمل البابا أوربانوس الثامن على إنشاء المدارس في لبنان، منتدباً تلامذة روما في هذا الشأن. البطريرك جرجس عميرة في أيام أسقفيته على إهدن كتب إلى الأب الرئيس العام كلوديوس أكوافيفا يطلب منه إرسال رهبان يسوعيين إلى الموارنة من أجل المساعدة والقيام بمهمة خلاص النفوس مشيداً بالقاصدين الرسوليين

الأب إليانو والأب دنديني. ولقد أدى تلامذة المدرسة المارونية في روما خدمات جلّى للبنان والطائفة المارونية والكنيسة الرومانية ونشروا العديد من المؤلفات الدينية والعلمية، من خدمة القداس باللغتين السريانية والكرشونية إلى المزامير بالسريانية والأسفار المقدسة بالعربية واللاتينية التي تأخرت طباعتها إلى عام 1671. في الوقت ذاته، أدخل تلامذة روما الحساب الغريغوري الغربي عام 1606 عندما احتفل الموارنة ولأول مرة بعيد القديسين بطرس وبولس قبل عشرة أيام من جميع الطوائف الشرقية في سواحل الشام ولبنان. وفي الثامن من نيسان 1614 وجه الحبر الأعظم بولس الخامس رسالة إلى بطريرك الموارنة يوحنا مخلوف أوصاه فيها الاهتمام بموفديه البطريرك المطوشي والأب حنا أنطون ماريتي اليسوعيين، علماً أنّ هذه السفارة فشلت بسبب تقلب بطريرك الكلدان بين النسطورية(*) والكثلكة، مما دعاه إلى تكليف حضور مجمع الكلدان الملّي إلى الآباء الفرنسيسيين بدلاً من الآباء اليسوعيين، الذين خدعوا بمراءاة النساطرة.

عام 1685، أي بعد مرور مئة سنة من انتقال تلامذة روما الموارنة من مسكن ناوفيتوس إلى مدرسة الطائفة، وفي عيد مار يوحنا الإنجيلي شفيع المدرسة، أصر الكاردينال فرنسيس نرلي كفيل الملّة المارونية ومدرستها، أن «يتجمل محفل هذا العيد وأن تكون قاعة المدرسة موشّحة بثياب كمخ الحرير المذهّب وأن تتزخرف على حيطانها صور التلامذة الذين تهذبوا بها في العلوم ثم جملوها بفعل الفضائل وبرئاسة الكنيسة ليتم بهذا إرشاد غيرهم».

وصل مجموع تلامذة المدرسة المارونية في روما إلى أربعة وعشرين تبوأ منهم لاحقاً ثلاثة بطاركة كرسي إنطاكية وهم: إسطفانوس الدويهي وجرجس بن عميرة وإندراوس السرياني، إضافة إلى إثني عشر مطراناً. إن ملك فرنسا لويس الثالث عشر الذي أقام علاقات مميزة مع السلطان العثماني طلب من الحبر الأعظم أوربانوس الثامن إرسال مبشرين إلى المشرق العربي، فأصدر هذا الأخير أوامر إلى ثلاث رهبانيات أي الكرمليين والكبوشيين واليسوعيين الذين كانوا أول من لبّى أوامر الحبر الأعظم، وأرسلوا الأبوين غسبار مانيليه

(*) النسطورية: عقيدة دينية عائدة إلى بطريرك القسطنطينية نسطور (428-431) تناقش طبيعَتَيْ السيد المسيح الإلهية والبشرية مما أدى إلى نفيه وحرمه كنسياً.

Riyad Nassar Library

وجان ستيلا اللذين وصلا إلى الإسكندرية في أواسط تموز 1625، وتوجها من بعدها إلى مدينة حلب من أجل مساعدة النفوس، والتي لم يكن فيها من المبشّرين سوى الآباء الفرنسيسيين الإيطاليين.

يحدثنا الأب لويس شيخو مطولاً عن اضطهاد الراهبين اليسوعيين من طرف قناصل الدول الأجنبية ورعاياها، وكيف أقنعوا الوالي العثماني قره قاش محمد باشا بنفيهما من حلب، وكيف رجعا إليها في بداية عام 1627، «وانتصرا على أعدائهما واطمأنا بالاً وتفرّغا لأعمالهما الرسولية». وفي العام 1628 أرسل الأب مانيليه رفيقه الأب جان ستيلا إلى فرنسا طلباً للمساعدة المادية الضرورية، ولكنه وصل فرنسا ومرض الطاعون متفشياً فيها وانتقل في أفينيون إلى جوار ربه في 18 كانون الأول 1629. وهكذا وجد الأب مانيليه نفسه وحيداً في حلب، إلى أن وصلت أخباره إلى مسامع الأب جيروم كويرو الضليع في مجمل لغات الشرق، فأتى إلى حلب التي تفشى فيها الطاعون عام 1630، ولقد عمل الاثنان معاً على مساعدة المرضى روحياً وجسدياً وفتحا مدرسة للصغار، وقام الأب كويرو بتأليف كتب روحية وعلمية متعددة وبقي يمارس مهامه في حلب لسنة 1643، متغلباً على المحن من اضطهاد وعذاب على أيدي العمال الأتراك، بينما الأب جان أميو وصل حلب عام 1635، ثم انتقل لاحقاً إلى سواحل الشام عام 1650 حيث أنشأ دير طرابلس. بعد ذلك، أرسل إلى حلب يسوعيان آخران، هما الأب غليوم غوده (1642) والأب فرنسوا ريغوردي (1643)، ثم الأب فرنسوا ريغو يرافقه الأب أدريان بارفيليه، الذي صبر «على الضرب والإهانات التي نالته من قبل المسلمين في حلب».

وفي العام 1653 وصل حلب الأب نيكولا بوارسون الذي تولى رئاسة ديرها وخدم الطوائف الشرقية طوال 24 سنة، ثم الأب يوسف بسّون مؤلف كتاب «سورية والأراضي المقدسة» الذي تمّت طباعته في باريس عام 1862. يقول الأب لويس شيخو معدداً فضائل الموارنة: «ومع أن اليسوعيين شملوا بعنايتهم جميع الطوائف في حلب إلّا أنهم كانوا يخصّون بمهمتهم طائفة الموارنة إذ وجدوهم كلهم كاثوليكاً بسطاء القلب... وكان كهنتهم غالباً من لبنان قليلي العلم...». وفي أواسط القرن السابع عشر بدأ البطاركة الموارنة إرسال

أساقفة إلى حلب، من بينهم المطران جبرائيل البلوزاني الذي بقي في مركزه حتى عام 1704 عندما خلف البطريرك الدويهي على رأس البطريركية الإنطاكية. ولقد كان رؤساء الطائفة المارونية يباركون مساعي المرسَلين، خصوصاً وأنّ البطريركين جرجس عميرة (1633–1644) ويوسف بن حليب العاقوري (1644–1648) كانا قد تخرجا من المدرسة المارونية في روما تحت إدارة الآباء اليسوعيين.

إن دمشق هي ثاني رسالات الآباء اليسوعيين بعد حلب إذ فُتحت عام 1643، وعندما تبوأ مطرانها سدة بطريركية الروم الملكيين، طلب مساعدة الأب جيروم كويرو اليسوعي المرسل إلى حلب، والذي أخذ يعلم اللغة اليونانية في دار البطريركية في دمشق، شارحاً للإكليروس أعمال الآباء اليونان، يوحنا فم الذهب ويوحنا الدمشقي. وعندما اتسعت شهرته أثار حسد بعضهم مما اضطره لمغادرة المدينة، ثم عاد إليها يمارس أعماله الرسولية، وسط إعجاب نصارى الشام وتقديرهم. أما رسالة صيدا التي انشئت عام 1644 بعد تفشي مرض الطاعون في دمشق، فقد بدأت مع الأب فرنسيس ريغردي اليسوعي الذي عالج المصابين بالطاعون في صيدا، حيث إنّ السكان طلبوا منه الإقامة في المدينة بعد بطلان الطاعون، وخدمتهم في الأمور الروحية. وما لبث الآباء اليسوعيون أن أطلقوا عدة مشاريع روحية في صيدا كانت محط إعجاب وتقدير، وكانوا يترددون على القرى المجاورة لمدينة صيدا وعلى عكا وبيروت في مهمات تبشيرية.

أما رسالة طرابلس فإنها بدأت مع الأب جاك أميو، الذي تم القبض عليه فور وصوله مع اندلاع الحرب بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية، وإصدار أوامر الباب العالي بأسر جميع الأجانب. وبعد الإفراج عنه، أنشأ مركزاً للرسالة اليسوعية في طرابلس، وعمد إلى فتح مدرسة للأحداث تهافت إليها الطلاب من كل حدب وصوب، وعمل على تهذيب رجال الإكليروس وإرشاد الكهنة، ومساعدة المرضى على الشفاء، مع باقة من الآباء اليسوعيين الذي سقط بعضهم شهيد الواجب من جراء الأوبئة والأمراض. بعدها انتشر الآباء الصالحون في شمالي لبنان من البترون وإهدن وبشري وزغرتا وحصرون إلى اللاذقية وطرطوس، يعملون في إزالة البغض وتصفية القلوب، ولقد اشتهر في هذا المضمار الأب

أميو، ثم الآباء فرنسوا لمبار وبولس غوده ونيكولا بَزير، حتى وصلوا إلى مشارف عكار. أما المركز الخامس الذي شغله اليسوعيون فكان في كسروان التي استوطنها الموارنة منذ عهد الأمراء بني عساف، حيث بسط مشايخ الخازن وحبيش سيطرتهم وعززوا نفوذهم.

فالأب اليسوعي فرانسوا لمبار كان على متن إحدى السفن المتوجهة إلى صيدا، والتي دفعت بها الأمواج إلى ساحل جونيه حيث غرقت مع بعض الركاب، ولكن الأب لمبار نجا من الموت بأعجوبة. وعندما علم الشيخ أبو نوفل الخازن بالحادث، سارع إلى الاهتمام بالراهب اليسوعي طالباً منه الإقامة في ربوع كسروان ومساعدة أهلها، ومنح الرهبانية اليسوعية أرضاً في جوار عينطورة من أجل بناء دير لرهبانيتهم، وكان ذلك عام 1653، فثابر على خدمتها حتى وافته المنية في طرابلس بتاريخ 12 تشرين الأول عام 1659. لقد اشتهر في رسالة عينطورة عدة آباء يسوعيين أسهموا في إلقاء الرياضات المخصصة لكل طبقة من طبقات الشعب، حتى وصلوا إلى أعالي لبنان من بسكنتا إلى جبل الشيخ، وأدوا خدمات جلّى لجميع الطوائف اللبنانية عامة والطائفة المارونية خاصة.

وفي الرسالة التي بعث بها الأب فروماج[30] إلى الأب لوكامو الذي كان يتولى مهمة وكيل البعثات إلى الشرق الأدنى في 15 تشرين الأول 1736، يشرح هذا الراهب اليسوعي أوضاع الكنيسة المارونية، فيقول إنه منذ اجتماعهم في كرسي القديس بطرس، شاركوا أحياناً في المجامع العامة للكنيسة، وعام 1516 تواجد بطريرك الموارنة في مجمع لاتران الخامس، علماً أنهم لم يعتمدوا أبداً سينودساً وطنياً. « كل شيء حدث مع كل البهاء واللياقة التي كنا نتمناها وسط أرض كافرة»؛ إن الموارنة حافظوا على طهارة إيمانهم ولم تتمكن الهرطقة ولا الانشقاق المحيطان بهم أن يمسّا بكاثوليكيتهم، ولكن على الرغم من ذلك كله تراخى الانضباط، مع أنّ الكنيسة هي دوماً محافظة على قدسيتها، ولكن الفساد يشوه أحياناً قدسية الأشخاص الذين يشكلون هذه الكنيسة.

إنّ هذه الأمور هي من طبيعة البشر، ويبقى الإنسان إنساناً ولو كان مسيحياً ، لذلك شاهدنا بعض التجاوزات عند الموارنة. وعندما وصلت هذه الأمور إلى مسامع الحبر الأعظم المسؤول الأوحد عن الكنيسة الكاثوليكية العالمية، أصرّ على البحث عن الدواء

في تلك البلاد نفسها، وفي حكمته قام بتعيين المونسنيور السمعاني الماروني، العالِم الكبير ورجل الإكليروس الطاهر، وكلفه تسليم البطريرك الماروني رسالة باليد. هذه الرسالة لخصت عدة تجاوزات وارتكابات من أهمها:

أولاً: وجود راهبات على مقربة من مقر إقامة الأساقفة، لا يفصل في ما بينهم سوى باب، وهكذا الحال بالنسبة إلى الكهنة في أديرتهم. ويسأل الحبر الأعظم عن مدى الفضيحة المتأتية عن هذا التقارب في بلاد لا تشجّع فيها العادات والتقاليد على مثل هذه الأمور، من تواجد الرجال مع النساء.

ثانياً: تطرق الحبر الأعظم إلى مسألة بيع «الزيت المقدس» حصرياً من البطريرك الذي يوزعه على الكهنة لقاء مبلغ من المال، وهم الذين كانوا فقراء كما سائر المؤمنين، والذي اعتبره الأب اليسوعي تجارة بالأشياء المقدسة.

ثالثاً: الإعفاءات في قضايا الزواج التي كانت تباع غالياً، كما رفع الحرمان، من الأمور التي تسهم في إغناء البطريرك ورجال الإكليروس مادياً.

رابعاً: القربان المقدس الذي كان مفقوداً في معظم الكنائس في القرى النائية، ولم يكن متوافراً إلّا في كنائس كبار رجال الأكليروس، وكم كان الفقراء، خصوصاً من هم موجودون على شفير الموت في حاجة إلى هذه النعمة المسيحية، أي المسحة أو المشحة الأخيرة .

خامساً: قضية زواج الكهنة تحديداً بعد السيامة، حيث هنالك كاهن ماروني تزوج ثلاث مرات بعد سيامته كاهناً، وهي من الفضائح التي تقبل بها الكنيسة المارونية أو تحاول طمسها.

سادساً: الكنائس تبقى من دون تزيين أو اعتناء، ومن دون وجود الكؤوس والأواني الضرورية من أجل تقديم الذبيحة الإلهية وسائر المراسم الدينية.

سابعاً: إن الموارنة في مدينة حلب لم يعودوا يقيمون الذبيحة الإلهية في اللغة السريانية حسب الأصول بل في اللغة العربية منذ عشر إلى اثنتي عشرة سنة؛ تبعات هذا الأمر خطيرة، والإكليروس الكاثوليكي تصرف بكل حزم ضد هذه التجاوزات وفي أصقاع الأرض كافةً.

في 21 حزيران 1773 إتخذ قرار يقضي بإلغاء شركة يسوع تحت عنوان (*Dominus ac*

Redemptor)، وفي 24 آذار 1774 تمّ استدعاء الآباء اليسوعيين إلى القنصلية الفرنسية في مدينة حلب من أجل تبليغهم القرار المذكور. في ذلك الوقت، كانت الرهبانية اليسوعية تملك في الشرق الأدنى رسالة اليونان التي كانت تضم القسطنطينية وإزمير والجزر، مع منزل في القاهرة ومقرّين في سوريا، في حلب ودمشق، إضافة إلى أربعة منازل في لبنان، طرابلس وملحقاتها، اهدن- زغرتا، عينطورة. هؤلاء المرسلون التابعون لمقاطعة فرنسا التي كانت تمدهم بالرجال والمال، وجدوا أنفسهم في حالة فقر مدقع بعد أن توقفت المساعدات والإمدادات بسبب طرد الرهبان اليسوعيين من فرنسا.

ترك هذا الوضع كبير الأثر على الرهبانيات المحلية من مارونية وملكية وأرمنية كما على الرهبانيات الأجنبية من فرنسيسية إلى كبوشية وكرملية، علماً أن الكرمليين على الرغم من أعدادهم الضئيلة حرصوا على استمرارية العلاقات المميزة بين الكرسي الرسولي في روما والكنائس الشرقية الموزعة في أرجاء السلطنة العثمانية، التي كانت تُمعن في المضايقات والملاحقات والاضطهادات في حق المؤسسات الدينية المسيحية.

لكن بعد إعادة الحقوق الشرعية إلى الرهبانية اليسوعية على يد البابا بيوس السابع في السابع من شهر آب عام 1814، أعربت السلطات المدنية والدينية اللبنانية عن رغبتها في عودة اليسوعيين، خصوصاً غبطة بطريرك الموارنة يوسف حبيش، والمونسينيور مكسيموس مظلوم من الطائفة الملكية الكاثوليكية الذي كان مقره الدائم في روما والذي عمل بكل طاقاته من أجل تحقيق هذه العودة. من جهته فإن الحبر الأعظم، صديق المونسينيور مظلوم كان أيضاً يرغب بشدة في هذه العودة، وفي 27 آب 1831 وقّع اتفاق بين المونسينيور مظلوم وجنرال الرهبانية اليسوعية جان روثان عيّنت بموجبه أول إرسالية يسوعية إلى جبل لبنان، حيث تمّ إبلاغ الأمر إلى الرهبانية في العاشر من أيلول 1831، فتمّ الإبحار من مرفأ ليفورنا في فجر التاسع من تشرين الأول، ولكن الطقس العاصف أجبر الباخرة «إرادة الله» على العودة إلى مرفأ الإبحار، ولكنها أعادت المحاولة ووصلت إلى بيروت في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني 1831.

وفي تقرير حول أوضاع الطوائف المسيحية في جبل لبنان، تمت ملاحظة مدى

الخلافات الحاصلة والفوضى المنتشرة بسبب الجهل والصراع بين رجال الإكليروس، والفضائح المستشرية، علماً أنّ الإيمان المسيحي بقي ثابتاً في قلوب جميع المؤمنين. وقد جاء في التقرير: إن «الطائفة المارونية التي يبلغ عددها 140 ألف نسمة في لبنان تبقى الأكثر جهالة وتعاسة وبساطة، ولكنها تبقى أيضاً الأفضل في خضوعها للحبرالأعظم والكنيسة الرومانية وولائها للعرش الفرنسي»، ولكن هذه «الطائفة الكريمة فقدت اليوم أخلاقها الحميدة وعاداتها الفضيلة، ووصل السم الذي أصاب المجتمع الأوروبي إلى جوارها، فأصبحت ضحية رجال الإكليروس المناهضين للكاثوليكية والحبر الأعظم». نجح هؤلاء في التسلل إلى جبل لبنان عبر توزيع المساعدات والهدايا والمال والذهب، وإغراء الناس، وهم ذئاب ترتدي ثياب الحملان وتعمل على توزيع نسخ محرّفة من الكتاب المقدس ومنشورات أخرى تهاجم الكرسي الرسولي. ولحسن الحظ وقعت إحدى النسخ بين أيدي بطريرك الموارنة الذي أصدر الأوامر إلى مطارنته وكهنته تقضي بتحريم قراءة هذه الكتب وإحراقها وطرد جميع المخالفين.

نُفذت الأوامر البطريركية بحذافيرها، وقامت جموع المؤمنين الموارنة بتهديد هؤلاء الهراطقة بإحراقهم في منازلهم في حال أصروا على البقاء، ولم تنفع الوساطات مع السلطان العثماني والباشا والمسؤولين كافة في تأمين سلامتهم واستمرارية عملهم الهدام، فرحلوا. ولكن على الرغم من ذلك يبقى الشعب الماروني الجاهل والفقير عرضة للإغراء بواسطة المال، خصوصاً وأنّ سفينة حربية إنكليزية تحمل الأموال، توصلت إلى إفراغ صناديق محملة بنسخ محرّفة من الكتاب المقدس، مرّت عبر الجمارك وبسهولة في مرفأ بيروت وتمّ توزيعها تحت حماية القنصل البريطاني. ولقد كان لهذا العمل ارتدادات وأسباب سياسية أكثر منها دينية، وهي محاولة إلغاء نظام الحماية الموقّع بين فرنسا والباب العالي، وتسهيل اعتناق بعضهم البروتستانتية من أجل التدخل العسكري الإنكليزي مستقبلاً تحت حجة حمايتهم.

فالموارنة هم اليوم في أمس الحاجة إلى مرسلين جدد من أجل تعليمهم طريق الحقيقة، خصوصاً وأنّ كهنتهم في غالبيتهم متزوجون وأصحاب عيال، وهم مضطرون إلى العمل المضني في الأرض من أجل سد حاجاتهم الضرورية. من ناحية أخرى، الشعب الماروني

مستاء من نوعية المرسلين إليه، وهو يشعر بمرارة، بالازدراء واللامبالاة، خصوصاً وأنّ شركة يسوع أوفدت إليهم في الماضي خيرة رجالها، وأنّ البطريرك الماروني تملكته الغبطة عندما اطلع على استعادة الرهبانية اليسوعية موقعها الفريد من نوعه في مجمل بلدان أوروبا، وهو يتمنى عودة الآباء اليسوعيين إلى جبل لبنان، خصوصاً وأنه تمّت المحافظة على جميع ممتلكاتهم على الرغم من محاولة الآباء اللعازاريين وضع يدهم عليها، مما يبرهن على استعداد الموارنة لردّ هذه الممتلكات إلى معلميهم القدامى أصحابها الشرعيين.

زار الأب ساروفيم سكّوني غبطة البطريرك بولس مسعد الذي أعرب عن تعلقه العميق بالرهبانية اليسوعية واحترامه الفائق لمرسليها، وهو أكد أنه أقنع البطريرك حبيش عندما كان نائباً له بطلب إعادة إرسال الآباء اليسوعيين إلى لبنان، وأنّ الطائفة المارونية مُدينة بأمور كثيرة إلى شركة يسوع. هذا ما تبين في التقرير المبعوث من الأب سكّوني إلى رئيس البعثة بعد زيارة غبطة البطريرك بولس مسعد. وبعد تسلم البطريرك يوحنا الحاج مطران بعلبك سابقاً سدة البطريركية المارونية، قام رئيس البعثة الأب فيليبير برناردة بزيارة تهنئة في نيسان 1889 أثر انتخابه على رأس الصرح البطريركي، والذي تطرق إلى الخدمات التي قدمتها الرهبانية اليسوعية إلى الطائفة المارونية في السابق، وأكد على العرفان بالجميل، خصوصاً وأنّ البطريرك الماروني كان أول من طالب روما بعودة شركة يسوع لاستئناف أعمالها الخيّرة في لبنان، وهو الذي عمل على جعل الأمير حيدر أبي اللمع يهبهم الأرض في بكفيا.

وفي عودة إلى التعليمات التي أعطاها الجنرال اليسوعي إلى جيش السيد المسيح في 10 أيلول عام 1831، نحاول التطرق هنا إلى بعض الإرشادات دون التمكن من الغوص في التفاصيل مع أهميتها؛ فالرئيس العام يوصي أتباعه بإجراء زيارات بغية المساعدة على خلاص النفوس، والمحافظة على مظاهر الفقر والعفة، والوحدة والمحبة، وإظهار الاحترام والطاعة نحو المطارنة ورجال الإكليروس من مختلف الطوائف والرهبانيات، كما أوصى جنوده بالتخلي عن كل مظاهر الكبرياء والغطرسة والتحلي بالتواضع والفوز بمحبة الجميع، وعدم التدخل في أية خلافات بين المطارنة ورجال الإكليروس كافة، كما مساعدة الشعب على التعليم المسيحي، والاستماع إلى سر الاعتراف بدقة متناهية، وعدم جعل المؤمنين

يشعرون بجهلهم، وجرح مشاعرهم، مما يجعلهم يبتعدون عن الإيمان الحقيقي. ومن جهته، الأب الرئيس العام يوصي بعدم استدرار حقد الكفّار والهراطقة باستعمال اللطف والمودة مع الجميع، وهي جميعها محفوظة في ملف الرئيس العام الأب روثان في أرشيف الرهبانية اليسوعية في بيروت.

إن الكتاب الذي وجهه رئيس البعثة اليسوعية الأب بولس ريكادونا إلى أنطونيو فيليشي من عين تريز في لبنان بتاريخ 25 كانون الأول 1831 يدل على احتقاره الشعب البسيط في بلادنا، حتى لو تسبب له ذلك بالتأنيب من الرئيس العام، بعد أن سلّم فيليشي الرسالة المذكورة إلى الآباء في روما؛ إنه لمن الضروري وضع القراء في جو هذا الكتاب مع محاولة نقل مضمونه بكل أمانة. يقول رئيس البعثة أو الرسالة إلى لبنان الأب اليسوعي بولس ريكادونا: «نحن في الحقيقة بين البرابرة. هنا لا يتم استعمال الشبابيك ولا الأثاث ولا الكراسي ولا الأسرّة، ولا الصحون ولا الطاولات، ولا النبيذ ولا اللحم ولا الأطباق المطبوخة ولا أي شيء آخر من نِعم الله، إنه عالم مختلف». وفي كتاب موجّه إلى الجنرال اليسوعي من رئيس البعثة الإرسالية إلى لبنان بتاريخ 28 شباط 1872، يشرح هذا الأخير من مقره في عين تريز، الاستقبال الحافل الذي خصه به غبطة البطريرك الماروني في صرح بكركي، لا في قنوبين حيث المقر الدائم؛ وأنّ غبطة البطريرك أصر خلال اللقاء على تجديد العلاقات المميزة بين الموارنة والرهبانية اليسوعية، وشرح كيف أن الآباء اللعازاريين حاولوا الاستيلاء على ممتلكات اليسوعيين، من دون جدوى، وأن رئيس البعثة تطرق في كتابه إلى موضوع المأكل، وكيف أنّ طبيعة الأطباق العربية لا تناسب طباعهم، مصرّاً على الجنرال تزويده بالتعليمات والملاحظات كافة.

فحوى هذه الرسائل مأخوذة من أرشيف الآباء اليسوعيين، استناداً إلى كتاب الأب سامي خوري اليسوعي[46]، وهي تدل أيضاً على الأوضاع الدينية والزمنية في تلك الحقبة من تاريخ لبنان. فالأب اليسوعي بينيديكتوس بلانشي يتطرق في كتابه تاريخ نيسان 1832 إلى حوض بيروت، وجمالها الفائق، كحديقة رائعة وسط أشجار الحمضيات والنخيل، وصولاً إلى المدينة وحالة الشوارع القذرة والضيقة. يتكلم الأب عن وجود البعثة محاطة بوجوه

«تركية»، وعمائم، ولحى طويلة، وعن خلع الأحذية وجلوس القرفصاء على سجادة على الطريقة العربية. بعد زيارة بيروت القصيرة انتقل الآباء إلى دير القمر، مقر إقامة الأمير الكبير، وهو ينتمي إلى الطائفة المارونية، ومن المؤمنين الأتقياء. ويتحدث الأب بلانشي عن مقرهم في عين تريز الموجودة وسط إقليم الدروز، وهي «طائفة من الكفّار، دينهم غامض ويكنّون الكراهية للكاثوليك مما يدفعهم أحياناً إلى حد ارتكاب الجرائم»، كما ورد في الصفحة 57 من الكتاب المذكور. وعندما مرض أحد أعيانهم، كتبوا إلى عين تريز طلباً لمساعدة الطبيب، حيث قصد الآباء اليسوعيون المنطقة بصحبة المونسينيور مظلوم الذي كانت تربطه علاقات ودية مع العائلة، وتمت الزيارة إلى القرية الدرزية على أحسن ما يرام وسط اهتمام الجميع وحفاوتهم البالغة التي أدهشت الآباء وطمأنتهم.

أما بالنسبة إلى الطوائف الكاثوليكية، وبعد زيارة بطاركة الموارنة والروم الكاثوليك والأرمن في كسروان، وجد الآباء اليسوعيون الآثار الطيبة التي تركتها البعثات اليسوعية السابقة في نفوس الجميع، في مقاطعة من أغنى المقاطعات والأكثر تحضّراً ومدنية، حيث كان للرهبانية مقرٌ ومعهدٌ في السابق. إننا نجد في هذا المقطع ثناءً على بطريرك الروم الكاثوليك المريض والمقعد المتحمل بكل صبر وإيمان الوجع، وعلى تواضع الرهبان الأرمن وشغفهم بالعلم والثقافة والدراسة. ولكن الاستقبال الأهم كان عند بطريرك الموارنة الذي شكر الله على نعمة إعادة التلاقي بين اليسوعيين والموارنة، وكرّر العرفان بالجميل نحو الرهبانية اليسوعية التي كان لها الفضل الكبير في خدمة الطائفة المارونية. أما عن اللغة العربية، فإنّ رئيس البعثة اليسوعية يستفيض في شرح الصعوبات اللغوية التي تمنعهم من التبشير، وكيف عمد الرهبان إلى توزيع الصلبان وصور السيدة العذراء والمسابح، وحض المؤمنين على الصلاة، وسط جهل الكهنة والشعب. ثم يواصل الأب اليسوعي الكلام عن حملة إبراهيم ابن باشا مصر، وكيف دخل على رأس جيش قوي وفي صورة مفاجئة إلى سوريا، واستولى على الأراضي الواقعة بين القدس وطرابلس، مع عدم رضى العثمانيين عن هذا التغيير الحكومي، خصوصاً وأنّ إبراهيم باشا يدافع عن المسيحيين ويدعو إلى المساواة

بينهم وبين المسلمين، مع إلغاء جميع الضرائب المفروضة على الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة في فلسطين.

وفي رسالة لاحقة من رئيس البعثة إلى الأب الرئيس العام تاريخ 10 نيسان 1832، يصر الأب بولس ريكادونا على النقص في الكتب وانعدام التربية، التي تبقى «سبب جهل وفظاظة وبربرية هؤلاء العرب»، والذين يتمتعون في المقابل بموهبة تعلم اللغات الأجنبية وحبهم للعلوم. من جهة أخرى، يصر رئيس البعثة على ضرورة الطب في المهمات التبشيرية، إذ تمّ استدعاء الأخ الطبيب هنزي (Henze) المرافق في عداد البعثة إلى المنطقة الدرزية بطلب من الأمير شبل، بعد أن تفشّى مرض الطاعون. «هذه ربما إرادة العناية الإلهية في هذه البقعة من الأرض، ضحية الحرب والثورة، وتخوف المسيحيين من الكفّار وخصوصاً الدروز، إذ منذ مدة وجيزة قُتلت مجموعة من الكاثوليك».

كان البطريرك الماروني على حق عندما قال إنه يتوجب علينا أن نكون جميعاً أطباء أو على الأقل ممرضين، من أجل درء المخاطر عنا وعنهم؛ البارحة، سُمعت طلقات نار في محيط عين تريز، عندما هاجمت مجموعات درزية قوامها أكثر من 500 مقاتل بيوت المسيحيين حيث سقط 50 قتيلاً وعدد كبير من الجرحى، مع أن الغلبة كانت من حصة المسيحيين. في هذا الوقت تمّ تحذير سكان عين تريز بالبقاء على أهبة الاستعداد من أجل مواجهة الدروز والمتاولة، علماً أن المقاطعة مكتظة بالكفار. ومن ناحية ثانية، ربما كان هذا هو السبب الأساسي لافتتاح مدرسة الطب الفرنسية في بيروت عام 1883، من أجل التغلغل إلى قلب المجتمعات المسيحية وغيرها، كما يتبين من المراسلة بين الأب بينيديكتوس بلانشه والرئيس العام بتاريخ 11 نيسان 1832، تلك المراسلات والتقارير التي استمرت من قِبَل رئيس البعثة إلى لبنان ومقر الرئيس العام للرهبانية في روما، بتاريخ 11 أيار 1832 والتي يستفيض فيها الشرح حول «تآمر الدروز والمتاولة والمسلمين واليهود على الكاثوليك»، والمجازر المرتكبة بحق هؤلاء.

من جهته، يتطرق الأب بولس ريكادونا إلى أوضاع الأب بلانشه وطريقة عيشه الفظة والوسخة بعد أن «تطبع بالعادات العربية وأصبح يتصرف مثل الحيوانات»، كما أنه يشرح في

Riyad Nassar Library

594 صفحة قضية المدارس والتعليم، ولكنه يتبين لنا من الأرشيف المحفوظ عند اليسوعيين أن التحضيرات التي أدت إلى اندلاع الحرب الأهلية عام 1845 كانت على قدم وساق.

إنها قصة الآباء اليسوعيين في لبنان ما بين عامي 1846 و 1862 وأفضل ما بذلوه في سبيل وطن الأرز في هذه الفترة الزمنية الصعبة من تاريخ لبنان[47]. ومع تكاثر أعداد الفريق اليسوعي في الشرق الأدنى، تمّ افتتاح مراكز صيدا ثم دير القمر، مما لم يمنع التوسع نحو حوران موطن الإسماعيليين، والقرى المجاورة لمدينة زحلة – المعلقة، ثم بكفيا وبيروت وصور والجليل الأعلى والقدس، إذ انصرف الكهنة الشباب إلى الوعظ والعمل الرسولي، لكنّ الأحداث السياسية يومها كانت بمثابة مؤشّر حصول كارثة عام 1860 وما سببته من حروب ومآس.

بعد اضطرابات عام 1845 أعاد اليسوعيون تشغيل مراكز بكفيا وغزير وزحلة – المعلقة، حيث كان الأب اليسوعي ريكادونا يعمل على إدارة أهم المدارس في السلطنة العثمانية، ومع إعادة افتتاح معهد غزير، تمّ اعتماد اللغة الفرنسية إلى جانب اللغات العربية والإيطالية واللاتينية في البرامج التعلمية. وهكذا نرى أنّ الأب بلانشه اليسوعي نجح إلى حد بعيد في تصحيح العلاقات مع القنصلية الفرنسية كما مع الآباء اللعازاريين، مما دفع بالأب روثان إلى إرسال الأب لويس مايار في مهمة إلى لبنان وتعيين الأب ريمون إستيف رئيساً للبعثة.

بتاريخ 31 آذار عام 1846، وبعد افتتاح مدرسة زحلة، بدأت المتاعب، مع إشاعة تسهيل هجرة نخبة الشباب المسيحي إلى أوروبا، وتحويلهم نحو الطقس اللاتيني. وهذا ما دفع أحد الرهبان الموارنة لأن يحمل بشدة على اليسوعيين ذاهباً إلى منع أبناء طائفته من دخول الكنائس والمدارس اليسوعية لأن الطائفة اللاتينية حسب زعمه لا تعترف بالصيام وتخالف التعاليم المسيحية الحقيقية... راهب آخر من طائفة الروم الكاثوليك اتهم اليسوعيين بالعمل على ارتداد المؤمنين إلى طقس كنسي غريب، محذراً إياهم من ارتياد كنائسهم والاستماع إلى مواعظهم... رهبان آخرون حذروا المؤمنين من خطر انتشار الأمراض الزهرية وخصوصاً «المرض الفرنساوي» في المعاهد اليسوعية، ولكن هذه الحملات والإشاعات لم تَحُل دون إرسال أهالي زحلة أولادهم إلى المؤسسات التربوية اليسوعية، حيث بلغ عدد

التلامذة الخمسماية من الجنسين، وهو عدد كبير جداً بالنسبة إلى هذا الوقت. وبتاريخ 30 نيسان 1846 قام الأب ريكادونا برحلة تبشيرية إلى قرى تعلبايا والمرج وتربل والفرزل، ثم عمد لاحقاً إلى التبشير في زحلة لأول مرة، ثم انتقل إلى كساره وسرعين ووادي العرايش ورياق وحوش حالا وجديتا وقب الياس، وفي 17 أيلول 1847 بدأ تشييد الكنيسة في بكفيا.

يتناول الأب سامي خوري اليسوعي المراسلات والتقارير المتواصلة بين رئيس البعثة اليسوعية في لبنان، والأب الرئيس العام جان روثان في روما، مشدداً على موضوع الطاعة في الرهبانية اليسوعية، وفن المناورة والسياسة وتدوير الزوايا، كما أن الأب بنوا بلانشه كان مصرّاً على ضرورة تعليم اللغة الفرنسية في معهد غزير إلى جانب اللغتين الايطالية واللاتينية، خصوصاً وأنّ البعثة إلى لبنان تعتبر بعثة فرنسية. ولا ينسى الأب خوري التطرق إلى التنافس الحاصل وقتها بين الآباء اليسوعيين والآباء اللعازاريين وباقي الرهبانيات، وصولاً إلى الرسالة التي وجهها سكان مدينة زحلة إلى الأب الرئيس العام في روما، حيث يشيدون بالبعثة اليسوعية الى لبنان وإنجازاتها الكبيرة في هذه الأوقات العصيبة من تاريخ هذه البلاد.

بعد أحداث عامي 1840 و 1845 مرّت فترة هدوء دامت بضع سنوات، مما سمح لمراكز بيروت وبكفيا وغزير وزحلة – المعلقة بالانتشار، ولكن الأحداث الدامية التي توالت منذ سنة 1850، أحدثت انقساماً بين أهالي زحلة. لقد أدى هذا النزاع إلى حمل أهالي حارة الراسية حيث أبصرت النور، كما غيرها من الأحياء الزحلية إلى حمل السيوف والخناجر والبنادق تحسباً للاعتداءات. لكن رؤساء الأفرقاء المتنازعين أرغموا على توقيع معاهدة سلام بعد انتشار خبر قدوم قوات الجيش التركي إلى المنطقة، من أجل حلّ النزاع بالقوة ومعاقبة الجميع، وأنّ التقارير المتواصلة كانت تشير إلى مدى تأثير المدارس البروتستانتية على اللبنانيين خصوصاً في جبل لبنان، وعلى العمل الهدام في نشر الهرطقة ومحاولة إغراء العامة بالتعليم المجاني، كما أنها تتحدث عن التقارير «المخابراتية» ومخطط اغتيال مندوب الكرسي الرسولي إلى الأراضي المقدسة على أيدي الرهبان الفرنسيسيين بدس السم القاتل، غير ناسية «تآمر بعض كبار رجال الإكليروس الموارنة».

Riyad Nassar Library

في خريف عام 1853 بدأت حرب(*) Crimée بين الجيوش التركية والفرنسية والإنكليزية والجيش الروسي، والتي انتهت بفوز الحلفاء في 20 أيلول 1854 والاستيلاء على سيباستوبول في 17 تشرين الأول 1855. في آذار 1854 أدخل بعض اللاجئين الإيطاليين المسرح إلى بيروت، وهو الأمر الذي رأى فيه بعضهم تشجيعاً على الانحراف الأخلاقي وتهديداً للإيمان المسيحي. وفي منتصف شهر تشرين الأول من العام 1855، انتشر وباء الكوليرا، مما دفع بسكان بيروت إلى ترك المدينة، وتحولوا إلى حالة من البؤس الشديد، وبالتحديد في منطقة رأس بيروت. ومع ارتفاع أسعار السلع والمواد الغذائية الجنوني، بدأت الاضطرابات في حزيران 1858، وأكملت مسيرتها في شهر تموز من السنة نفسها، مع ثورة الفلاحين التي دفعت بالمشايخ إلى الهرب من بيروت، مع رضا السلطات العثمانية عن الوضع المتردي.

على أثر هذه الأحداث الأليمة بدأت حملة واسعة في الصحافة الأوروبية من أجل الدفاع عن حقوق وأمن وسلامة المسيحيين في بلاد الشام، وبعد ذلك، انتقل الباشا التركي إلى لبنان بغية مصالحة الدروز مع المسيحيين. وفي كانون الثاني 1860 وصلت إلى دير القمر فرقة من الخيالة قوامها اثنان وعشرون جندياً، تحمل وعداً وتعهداً من القنصلية الفرنسية بمساندة أهالي المنطقة، ولكن في الثامن عشر من حزيران سقطت مدينة زحلة، وفي الواحد والعشرين من الشهر ذاته تمّ إخلاء غزير.

مع انتخاب الأب بطرس يوحنا بكس (Pierre Jean Beckx) على رأس الرهبانية اليسوعية بعد وفاة الأب الرئيس العام فيليب روثان، تتابعت التقارير، وتكاثر عدد طلبات الانضمام إلى رفقة يسوع من المبتدئين اللبنانيين من أمثال الياس يونس ويوسف رشوان وعاموس شيخو الذي أصبح لاحقاً الأب ستانيسلاس؛ هذه المراسلات تدل بوضوح على الصعوبات المالية التي كانت تعاني منها البعثة اليسوعية إلى لبنان، على الرغم من المهام الجسام الملقاة على عاتقها. وعندما طلب من عامة الشعب تقديم موعد الصيام وعيد الفصح سبعة أيام تماشياً مع الطقس اللاتيني والروزنامة الغريغورية، ثارت ثائرة طائفة الروم الكاثوليك التي رفضت كل الأمور المتأتية عن الكنيسة اللاتينية في روما، ولعب مطران بيروت أغابيوس الرياشي

(*) حرب (Crimée): نزاع حصل بين 1854–1855 بين فرنسا وبريطانيا والسلطنة العثمانية من جهة وروسيا من جهة أخرى، وانتهى بهزيمة روسيا وتوقيع اتفاقية باريس عام 1856.

دوراً هاماً في الممانعة، مما «أدى إلى حرب شوارع وسقوط الضحايا على أبواب الكنائس».

إن «بطريرك طائفة الروم الكاثوليك كليمنس بحوط صب الزيت على النار عندما حاول فرض هذا الأمر على رعيته دون استشارة أحد، مما أدى إلى ثورة عارمة في الأوساط الشعبية». من جهته، الأب اليسوعي بيلوتيه في رسالته المؤرخة 24 حزيران 1858 إلى الرئيس العام يروي كيف حاول البروتستانت التمركز في مدينة زحلة، وكيفية تصدي مطران وكهنة طائفة الروم الكاثوليك لهم ومنعهم بالقوة من استغلال الأوضاع، وطردهم إلى بيروت. في هذه الأجواء المشحونة، ومع استمرار الحذر وقلة الثقة المتبادلة بين الحكومة الفرنسية واليسوعيين، كتب الأب بيلوتيه إلى الرئيس العام في 10 تشرين الثاني 1858 محذراً من أن زحلة عاصمة الكثلكة في الشرق الأدنى أصبحت مهددة من المتاولة والدروز والمسلمين الذين أنشأوا تحالفاً من أجل مهاجمة هذا الموقع الكاثوليكي وتدميره. كما أنّ الأب بيلوتيه يشرح بالتفصيل كيف أن البروتستانت يدعمهم القنصل الإنكليزي والقنصل البروسي، كما الولايات المتحدة الأميركية وهولندا، يحاولون كسب ود مسيحيي الجبل، عبر تأمين حمايتهم، وتزويدهم بالمدارس والكتب، وإغرائهم بالمساعدات، ودفعهم إلى أحضان البروتستانتية.

بدأت الحوادث بين النصارى والدروز عام 1840، ولم ينجح الصلح الذي حاول عقده والي صيدا بين أعيان الفريقين لأنه كان مبنياً على الفساد، ثم انقسم النصارى على بعضهم، وثار الفلاحون في كسروان على أمرائهم ومشايخهم مع ثورة طانيوس شاهين، مما لم يمنع من استفحال النزاعات والضغائن بين الدروز والنصارى التي بدأت متقطعة منذ عام 1840 وأدت إلى انفجار عام 1860 الهائل.

إن «والي بيروت التركي خورشيد باشا كما والي الشام أحمد باشا شجعا على الفتك بالنصارى، وكان تفرّقهم أو إنقسامهم مساعداً على هزيمتهم، وكلما جمعوا صفوفهم يأتي عمال الدولة التركية العثمانية من أجل تطمينهم، متظاهرين بمساعدتهم وإنصافهم من المعتدين عليهم». بعد ذلك، وابتداءً من العام 1860 بدأت المذابح في حاصبيا وراشيا، حيث تم قتل 2500 كاثوليكي، وسقطت زحلة في 18 حزيران، وبدأت المذابح في دير القمر في 21 حزيران والتي ذهب ضحيتها 2200 مسيحي، وفي التاسع من تموز امتدت الفاجعة إلى مدينة

Riyad Nassar Library

دمشق، وسقط في الأحياء المسيحية أكثر من ستة آلاف بريء، علماً أن الدروز والنصارى كانوا على وئام تام منذ العام 1800 استناداً إلى المؤرخين.

بعد انتهاء مجازر عام 1860 وما سبقها وما تبعها من هزّات اجتماعية، أبصرت النور متصرفية جبل لبنان. أما في تاريخ الرهبانية اليسوعية المعاصر، فقد تمّ تعيين الأب فرانسوا كزافير غوتروليه رئيس البعثة اليسوعية إلى لبنان، ثم الأب أمبرواز مونو من دون أي تحضير مسبق، ولقد ارتأى هؤلاء الرهبان جعل بيروت مركز الإشعاع الثقافي والفكري في لبنان والشرق الأدنى، ولكن هذا الأمر لم يمنعهما من إقامة مراكز إشعاعية أخرى في كلّ من دمشق وحلب وحمص والقاهرة والإسكندرية. يُذكر أنه مع انتهاء عقد 1860 وبداية عقد 1870، بدأت حقبة جديدة للآباء اليسوعيين في لبنان[48]، كما غيرهم، مع افتتاح كبرى المدارس والمعاهد والمطابع، وفي هذا الوقت خرجت الكنيسة اللبنانية من الغيتو في الجبل، وساهم المونسينيور يوسف الدبس مع مجموعة من رجال الدين والعلمانيين في إشعاع لبنان الحضاري والثقافي، وفي هذه الفترة حازت الرهبانية اليسوعية على الأراضي التي شيّدت عليها جامعة القديس يوسف.

ولكن الآباء اليسوعيين لم ينسوا الخطر البروتستانتي الأنكلو ساكسوني في مراسلاتهم مع مقر الرئيس العام، والمتمثل في المعهد السوري في لبنان، الذي تحول لاحقاً إلى الجامعة الأميركية[49] في بيروت، استناداً إلى الكتاب الموجّه من الأب إتيان مونيير إلى الرئيس العام بتاريخ الأول من تشرين الثاني 1863. إضافة إلى ذلك تتطرق التقارير إلى قضية الشرق، من أجل «التحضير لنصر إلهي حول مدينة القدس» مع تزايد اهتمام الكاثوليك الأوروبيين بالأراضي المقدسة، والسعي إلى مساعدة المرسلين بهدف هداية شعوب المنطقة إلى المسيحية. ولا تنسى هذه التقارير «مطران صور وصيدا الماروني بطرس البستاني الذي يدافع عن المدرسة البروتستانتية في بيروت والتي تديرها جماعة من عائلة البستاني، التي تسيء أشد الإساءة إلى المدارس اليسوعية والمسيحية الكاثوليكية».

وفي العام 1870 استعاد الأب امبرواز مونو الذي خلف الأب غوتروليه مركز زحلة

وألغى مركز المعلقة وأنشأ مزرعة تعنايل واشترى أرضاً في بيروت من أجل نقل المعهد والمدرسة الإكليريكية في غزير ومكان إقامة الآباء في بيروت وتطوير المطبعة وإصدار صحيفة ناطقة باللغة العربية تحت عنوان «البشير». في الوقت ذاته عمل على استحداث مراكز في دمشق وحلب والإسكندرية، وعلى تطوير شبكة مدارس مؤلفة من خمسين وحدة، وعلى إرساء علاقات طيبة مع المؤسسات التعليمية الكاثوليكية من المعهد البطريركي الملكي التابع لطائفة الروم الكاثوليك، إلى مدرسة سيدات الناصرة إلى مدرسة الحكمة التي أسسها المونسينيور دبس.

أما الحدث الأهم في هذا النطاق فهو شراء قطعة أرض مساحتها 18 ألف متر مربع في بيروت بواسطة درويش تيان أحد أكبر أصدقاء الآباء اليسوعيين وبطريقة سرية، لم يتم الإعلان عنها سوى بتاريخ 25 تموز عام 1870. الأب سامي خوري يذكر في كتابه أدق التفاصيل المؤرخة المتعلقة بشراء العقارات وإقامة المعاهد والمطبعة الكاثوليكية وسائر التفاصيل بما يختص بالتصدي للبروباغندا البروتستانتية، والحد من أضرارها وأخطارها على المؤمنين وصولاً إلى العام 1873.

الرئيس العام يان فيليب روثان

الفصل الثاني عشر

الإنتشار اليسوعي في لبنان والعالم

من اخترع فكرة المدرسة؟ هل هم اليونان أم الرومان أم شارلمان (Charlemagne) الذي أراد أن لا يبقى أحدٌ من أتباعه أمياً... في عام 1980 تصدر شاشات السينما فيلم (Anthracite) مُعيداً إلى الأذهان اللقب الذي أطلقه تلامذة الصفوف الثانوية على معلميهم اليسوعيين؛ وهو يتطرّق إلى الجو الوحشي السائد في أحد معاهد الأرياف الفرنسية في الخمسينيات من القرن المنصرم، مخلّفاً في الذاكرة ذكريات سيئة ومخيفة. وفي هذا المجال، يستعيد جاك سيغيلا (Jacques Séguéla) بعض ذكريات طفولته، ويتحدث كيف أن «أساتذته اليسوعيين بغطرستهم وقساوتهم أبعدوه عن الدين والكنيسة»، وذلك في مقابلة مع مجلة باري ماتش بتاريخ الأول من كانون الأول عام 2006.

إن لائحة كبار الرجال في العالم الذين مروا في المدارس والمعاهد والجامعات اليسوعية تطول، وعلى سبيل المثال لا الحصر موليير وسانت إكزوبيري وكورنيل وديدرو وفولتير وفوش وديغول وميتران وياروزلسكي وبيل كلينتون وفيديل وراوول كاسترو كما ذكرنا سابقاً، علماً أن الكثيرين كانوا يكرهونهم وآخرين كانوا يحبونهم؛ فاليوم هناك أربعة ملايين خريج في العالم يتباهون بكونهم من قدامى الآباء اليسوعيين، وهي علامة فارقة ومؤثرة أشد التأثير في السيرة الذاتية العائدة إلى هؤلاء القدامى، سواء أحبوهم أم كرهوهم.

لقد أعاد الآباء اليسوعيون تحديد رسالتهم الفكرية الجديدة بعد أن تضاءل عددهم وأصبحوا أقلية تعليمية في مؤسساتهم الإبتدائية والثانوية كما في معاهدهم وجامعاتهم المرموقة.

يقول الرئيس الإقليمي للآباء اليسوعيين في الشرق الأدنى يان بروسفيلو إنّ «التربية اليسوعية تهدف إلى تنشئة الإنسان بكامله من النواحي الأكاديمية والاجتماعية والدينية». ويقول الأب جان دَالمِه[50] اليسوعي عن التربية اليسوعية بأنها ليست تربية واضحة المعالم، وأغناطيوس هو أول من وضع الخطوط الأولى عام 1541 لقوانين شركة يسوع قائلاً: «لن يكون في رهبانيتنا كليات ولا دروس». لقد رأى الأب المؤسس في عمل تربية الأولاد «الطريقة المؤدية إلى تنصير بلد من البلدان»، ولو قيل له في القرن السادس عشر إنّ رفقة يسوع سوف تعتبر يوماً من أكبر الرهبانيات المتخصصة في التعليم، لاستُغرب هذا القول إلى أقصى حد؛ فالتربية في نظر أغناطيوس هي مشروع رسولي بامتياز، لأن «ملكوت الله لا يتم في خدمة الأسرار فقط بل يتم أيضاً وبلا أي تردد في اللجوء إلى جميع الوسائل البشرية اللازمة لتكوين العقول والطباع».

إن «الميزات الثلاث التي تتسم بها طريقة اليسوعيين التربوية هي في إيقاظ العقل وتكوين الإرادة والفتح على عالم المحبة»، وهي تعود أولاً وأخيراً إلى الرياضات الروحية، إذ إنّ أغناطيوس يولي الدور الأول للتلميذ وإيقاظ عقله؛ فنظام الدروس الصادر عام 1586 يضع القاعدة الأولى القائلة: «لا تُملّ الدروس أبداً». يسترسل الأب دَالمِه قائلاً: «من الحوافز الخارجية التي من شأنها أن تحث الطلاب على الدرس، يجب وضع التمسك بالشرف في مكان الصدارة، لأنه حافز أقوى من خوف العقاب». وفي نظر القديس أغناطيوس، لا بد أن تكون السلطة مطبوعة بطابع المحبة، حتى إن المحبة تملأ، إذا صحّ القول، مهمة الإدارة كلها.

في عام 1881 حصل الأب مونو اليسوعي على موافقة الحبر الأعظم لاون الثالث عشر في تحويل الجامعة اليسوعية في بيروت إلى جامعة بابوية، مع إنشاء كلية الفلسفة واللاهوت التي تبعتها كليات أخرى في طريقة تدريجية. وفي عام 1870 انتقلت الرهبانية اليسوعية إلى بيروت وتحولت مدرسة الطب التي تأسست في العام 1883 إلى كلية في العام 1888 بسعي

من الحكومة الفرنسية. وفي 30 تشرين الثاني عام 1883 بدأت الدروس في مدرسة الطب واستمرت حتى الخامس عشر من تشرين الأول عام 1912 عند انتقالها إلى طريق الشام في موقعها الحالي. أما مدرسة الهندسة ومدرسة الحقوق فقد تمّ افتتاحهما لاحقاً في الخامس من شهر تشرين الثاني عام 1913.

وبعد مداولات طويلة عمدت الحكومة الفرنسية في السادس من تشرين الأول عام 1888، والحكومة العثمانية في السابع من تشرين الأول عام 1898 إلى الاعتراف بجميع الامتيازات العائدة إلى كلية الطب، التي شملت منذ البداية، مدرسة الصيدلة التابعة لها وذلك بتاريخ الرابع من كانون الأول عام 1898، ثم ألحقت بها مدرسة طب الأسنان، التي بدأت التدريس في الثامن من تشرين الثاني عام 1920، أما مستشفى أوتيل ديو دو فرانس، فتمّ افتتاحه رسمياً في 17 أيار 1923.

تضم الجامعة اليسوعية حالياً 13 كلية إضافة إلى 22 معهداً متخصصاً ومدرسة واحدة، كلها موزّعة على بيروت وصيدا وطرابلس وزحلة. وفي الفصل الأول من كتابه يحدّد الرئيس الأسبق لجامعة القديس يوسف في لبنان الأب جان دوكرويه[51] أهداف هذه المؤسسة، من خدمة الأجيال الشابة والمهن الصحية، إلى خدمة الكاثوليكية والفرنكوفونية؛ إننا نلاحظ من خلال هذا التصنيف وجود عدة أهداف من طبية واجتماعية ودينية وسياسية وثقافية.

في الثالث عشر من آذار عام 1900 بعث جول روفيه أحد مؤسسي كلية الطب تقريراً إلى مؤتمر التعليم العالي في فرنسا، يحدّد فيه أهداف إنشاء كلية الطب في بيروت، مشدداً على ضرورة تنشئة أطباء يمارسون رسالتهم في مدن وأرياف سوريا أو الولايات المجاورة، التي تقع جميعها تحت سيطرة الدجّالين، كما أنه يشدد على أن قلة عدد الأطباء قد خلقت وضعاً طبياً واجتماعياً مخيفاً، يُضاف إليه النقص في عدد كليات الطب، علماً أن واحدة فقط موجودة في القسطنطينية، بينما كلية الطب في القاهرة قد أقفلت أبوابها، مما دفع بالطلاب للالتحاق بكلية الطب التابعة للبعثة البروتستانتية الأميركية في بيروت.

في الصفحة الثالثة عشرة من كتابه يشرح الأب دوكرويه[51] بعض الأسباب الحقيقية التي كانت وراء إنشاء الجامعة اليسوعية الفرنسية في لبنان، وهي الحد من انتشار البروتستانتية

الأنكلو ساكسونية. وهكذا نرى أنّ رسالة البروفسور جول روفيه إلى رئيس الرهبانية اليسوعية العام في روما هي خير معبّر عن التخوف من البروباغندا البروتستانتية المتخفية تحت عباءة العلوم الطبية التي «يتوشّح بها قدامى طلاب الجامعة الأميركية من أجل نشر الهرطقة في سوريا وفلسطين»، كما نلاحظ أنّ النزاع بين الرهبان اليسوعيين والقساوسة البروتستانت يعود إلى الفترة الزمنية الواقعة بين عامي 1625–1774، وإلى العام 1831 تاريخ عودة الرهبانية اليسوعية إلى لبنان، علماً أن البروتستانت باشروا نشاطاتهم في لبنان بدءاً من العام 1823 مع افتتاح المدارس والمعاهد. أما المنافسة الفعلية بين البروتستانتية والكاثوليكية في لبنان فلقد بدأت مع تأسيس «الكولدج السوري البروتستانتي» (Syrian Protestant College) عام 1866 الذي أصبح لاحقاً الجامعة الأميركية في بيروت. يُذكر أنّ عام 1875 شهد انتقال المعهد اليسوعي الذي أنشىء عام 1849 في غزير، كسروان، إلى بيروت، من أجل التصدي لتأثير المرسَلين البروتستانت على طبقة الأعيان والقياديين اللبنانيين. وفي هذا السياق نرى كيف أنّ الأب جان دوكرويه يشدّد على الدور الهام الذي لعبه البابا لاون الثالث عشر المولع بالأمور الثقافية والفكرية والعلمية وتأثيراتها على مستقبل المجتمعات البشرية، في تأسيس جامعة القديس يوسف في بيروت.

من المُستغرب أن الحكومة الفرنسية العلمانية التي كانت في صراع مستمر مع رجال الإكليروس وخصوصاً مع رفقة يسوع إلى حد طردها ونفيها من الأراضي الفرنسية، ناهيك عن إقفال معاهدها ومؤسساتها ومصادرة أملاكها، قد أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن الكاثوليكية في وجه الهجمة البروتستانتية. ولكن لهذا الموقف خلفيات سياسية عبّر عنها خير تعبير قنصل فرنسا في حينها إذ قال: «منذ عهد الملك لويس الرابع عشر اهتمت فرنسا بمصالح المسيحيين في سوريا، ولكن أحداث عام 1840 وضعت الدروز تحت السيطرة الإنكليزية، وبدأ المرسَلون البروتستانت في الظهور بسرعة. اليوم، إن مسألة التعليم في سوريا أصبحت قضية سياسية، لذلك يتوجب علينا المساعدة على انتشار مؤسساتنا التربوية، والحدّ من توسع التطرف الديني والبروباغندا البروتستانتية، التي تبقى في النتيجة بروباغندا إنكليزية».

الملفت للنظر أن الآباء اليسوعيين الذين عملوا على تعزيز الفرنكوفونية في لبنان لم يكونوا فرنسيين، من الأب ريكادونا الإيطالي الجنسية، إلى الأب كاتين السويسري الجنسية الذي توصل إلى انتزاع اعتراف السلطنة العثمانية بشهادات كلية الطب في بيروت، وهو الذي أشرف على بناء الجامعة في طريق الشام. ومن الضروري هنا أن نأتي على ذكر بعض رجال الدولة الفرنسيين العلمانيين الذين حاربوا بقساوة الرهبانية اليسوعية من أمثال جول فيري وليون غامبيتا وجورج كليمنصو وغيرهم، الذين أصدروا القوانين والمراسيم على غرار قانون 18 آذار 1880 الذي يمنع المؤسسات التعليمية غير التابعة للدولة من اتخاذ اسم جامعات وإصدار شهادات، والاكتفاء بالإفادات. وفي هذا المجال، صدر مرسوم في 29 آذار عام 1880 أعطى الرهبانية اليسوعية مهلة ثلاثة أشهر من أجل حلّ نفسها وتسليم مؤسساتها في فرنسا والمستعمرات الفرنسية إلى السلطات الرسمية، كما المرسوم اللاحق بتاريخ الثالث من نيسان عام 1880، إضافة إلى القوانين والمراسيم التي تبعت، على غرار قانون 28 آذار 1882 المتعلق بعلمنة برامج الدروس على الأراضي الفرنسية، وقانون 30 تشرين الأول عام 1886 المتعلق بعلمنة الهيئة التعليمية، وقانون الأول من تموز 1901 المتعلق بالرهبانيات الدينية، وأخيراً قانون 9 كانون الأول 1905 القاضي بفصل أمور الكنيسة عن أمور الدولة؛ إن هذه القوانين جميعها أكدت على علمانية التعليم في فرنسا ودور المؤسسات الرسمية في الحقل التعليمي.

أثناء الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا، ساءت الأحوال أكثر فأكثر بين الحكومة الفرنسية والرهبانية اليسوعية، ذلك لأن السلطة الانتدابية ازداد نفوذها محلياً أكثر مما كان عليه أيام القناصلة أثناء الحكم العثماني. وبعد احتدام الخلافات بين الدولة الفرنسية العلمانية والرهبانية اليسوعية الدينية، بدأت تظهر ملامح «المجلس الأعلى لكلية الطب الفرنسية في بيروت»، وهو الذي لعب دوراً هاماً في تاريخ هذه الكلية بين عامي 1932–1939 ثم بين عامي 1945–1975 . وخلال الحرب العالمية الثانية انقطعت العلاقات بين لبنان وفرنسا المحتلة من النازيين، ولكن المندوب السامي الجنرال كاترو أنشأ مجلس كلية الطب ابتداءً من الثالث من نيسان 1942، وهو الذي دعا إلى الاجتماع في باريس بعد التحرير بتاريخ

28 تموز 1945، وأصبحت النشاطات مقتصرة على التعليم السريري في مستشفى أوتيل ديو دو فرانس، وأخيراً في عام 1972 أنشئت «لجنة التنسيق بين المستشفى والجامعة».

إن تسمية «كلية الطب الكاثوليكية والفرنسية في بيروت» هي نفسها التي تمّ اعتمادها منذ البداية وحتى عام 1914، وإن إدخال تسمية «الكاثوليكية» لم تكن رداً على تسمية «الكولدج السوري البروتستانتي»، كما يقول الأب دوكرويه؛ فجامعة القديس يوسف ورثت تسميتها هذه عن معهد القديس يوسف في غزير، علماً أن اعتماد تسمية «كلية الطب والصيدلة الفرنسية في بيروت» أضيف عليها لاحقاً كلية طب الأسنان ابتداءً من العام الدراسي 1961-1962. وبعد اعتماد الأنظمة الأساسية عام 1975، أصبح الطب والصيدلة وطب الأسنان في كليات مستقلة ولكنها تابعة جميعها إلى جامعة القديس يوسف.

نهار الأحد الواقع فيه 30 نيسان 1950 أقيم قداس احتفالي في كنيسة الجامعة بحضور رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشاره الخوري وحشد غفير من الشخصيات الدبلوماسية والسياسية، حيث تمّ وضع الحجر الأساس لمعهد سيدة الجمهور؛ إذ حفر القاصد الرسولي إشارة الصليب على الصخر وقام بالصلاة ورشّ المياه المقدسة على الحجر الذي وضعه رئيس الجمهورية.

وفي العام 1953 انتقل المعهد الثانوي من الجامعة اليسوعية في بيروت إلى منطقة الجمهور القريبة متخذاً اسم معهد سيدة الجمهور، وعام 2000 تمّ الاحتفال رسمياً بالعيد الـ125 لتأسيس المعهد[52] حيث تكلم الأب بيترهانس كولفنباخ متوجهاً إلى قدامى التلامذة قائلاً أن 23 ألف تلميذ درسوا في المعهد الثانوي التابع لجامعة القديس يوسف الذي أصبح لاحقاً معهد سيدة الجمهور، وهو قد وجه في هذا الكتاب تحية إلى جميع الأساتذة والمربّين الذين تعاقبوا على تنشئة أجيال من الطلاب منذ الحكم العثماني وصولاً إلى لبنان الحاضر، إذ إن شركة يسوع وكل الذين تعاونوا معها في مهمتها «تحلوا بالقوة الممنوحة من سيدنا يسوع المسيح كي يضعوا أنفسهم في خدمة الشباب اللبناني».

إن الأحداث الأليمة التي هزّت ركائز البلاد والمآسي المتعددة التي تركت بصماتها، لم تؤدِ سوى إلى تمتين أواصر علاقات المربين اليسوعيين والمدنيين، الذين بذلوا التضحيات

من أجل تأمين تربية صالحة وأمينة لروح الرهبانية اليسوعية. أما الوزير السابق ميشال أده فهو يشيد بمعهد الجمهور قائلاً: إنه «من رواد النظام التعليمي من المستوى الراقي الذي أعطى لبنان كوادره طوال القرن العشرين؛ لقد كان هذا المعهد منبت الرؤساء والوزراء والنواب وكبار الموظفين والكتاب والصحافيين والمفكرين والباحثين والأساتذة الجامعيين والقضاة والمحامين والمهندسين والأطباء والإقتصاديين ورجال المال والأعمال الذين أسهموا جميعهم في بناء وتطوير وإشعاع وازدهار لبنان». أما الأب جيليه المرشد الروحي لتلامذة الصف السادس في مدرسة الجمهور الذي كان يسوعياً مطيعاً إلى أقصى الحدود، فإنه يقول: إن «إرادة الأب الرئيس العام هي إرادة السماء وليست إرادة الأرض».

انصرف الرهبان اليسوعيون إلى تأليف الكتب في اللغة العربية، من روحية ولغوية وأدبية وفكرية ومدرسية ابتداءً من القرن الثامن عشر حتى اليوم، ثم قاموا بإنشاء الجامعة اليسوعية أو جامعة القديس يوسف (U.S.J) عام 1875، وإنّ الحرب اللبنانية التي دامت من عام 1975 إلى عام 1990 حصدت مئات آلاف القتلى والجرحى وأوقعت سبعة رهبان يسوعيين ذهبوا ضحية الواجب واستشهدوا على أرض لبنان وكلهم من التابعية الأجنبية[53]، وهم:

أولاً: الأب اليسوعي موريس مانيه من الجنسية الفرنسية، وهو مهندس بحري من معهد بوليتكنيك الشهير، كان أستاذ الرياضيات والعلوم في مدرسة القديسة جنفييف وهي من «المدارس الفرنسية الكبرى». في العام 1965 أرسل إلى كلية الهندسة في بيروت وتبوأ فيها منصب نائب العميد مدة سنتين، وكان «عالماً مميزاً ومثالاً في التواضع واللطف ودماثة الأخلاق». في 30 أيلول 1975 وأثناء عودته من فرنسا، انفجرت الطائرة التي كان على متنها، ظناً من المجرمين أن أحد أمراء الحرب اللبنانية كان في عداد الركاب.

ثانياً: الأب لويس دوما :ولد في مدينة بواتييه في وسط فرنسا ودرّس الفيزياء مدة سنتين في ثانوية الرهبان اليسوعيين من 1926 إلى 1928، ثم أرسل إلى الصين لمدة طويلة حيث كان عميداً ثم رئيساً لكلية الهندسة في جامعة الفجر اليسوعية. عندما أحكم الشيوعيون قبضتهم على الصين في منتصف القرن العشرين قاموا بطرد اليسوعيين الذين التجأوا إلى بيروت. لقد مارس الأب دوما تدريس الفيزياء في كلية الهندسة ثم انتقل إلى كلية الطب البشري،

«بالإضافة إلى توليه إدارة كلية طب الأسنان التي جدد بناءها وأعاد تنظيمها (1959 – 1969). ومكّنه تضلعه في العلوم من أن يرافق عدداً كبيراً من معدّي أطروحات الدكتوراه الذين قدروا دوماً كفايته ونصائحه وتفانيه في سبيل خدمتهم». في صباح نهار 25 تشرين الأول 1975 وأثناء عودته متكئاً على عصاه بعد قيامه بالاحتفال بالقداس الإلهي في أحد أديرة الراهبات القريب من كلية الطب في طريق الشام، كان هذا الأب الجليل على موعد مع الشهادة في سبيل الله، على يد قنّاص عديم الضمير والأخلاق كسائر القناصين الشياطين.

ثالثاً: الأب ميشال ألار: مستشرق ورائد في الحوار المسيحي الإسلامي، باحث واداري جامعي، ولد عام 1924 في مدينة برست الفرنسية، درس اللغة العربية وآدابها عام 1946 في بكفيا، لبنان، وتابع تخصصه في جامعة السوربون في العاصمة الفرنسية حيث نال شهادة الدكتوراه. أصدر لاحقاً عدة كتب في الشؤون الإسلامية مع رفيقه اليسوعي الأب فرنسيس أور، وعين مديراً لمعهد الآداب الشرقية حتى يوم استشهاده مساء 15 كانون الثاني 1976 على أثر إصابة غرفته في الطابق السابع بقذيفة مدفعية، وكان يناهز الثانية والخمسين من العمر.

رابعاً: الأب ألبان دو جرفانيون: فرنسي الجنسية، ولد عام 1901، واستشهد يوم الرابع عشر من شهر آذار 1976 إذ أُصيب بطلقات نارية غادرة على طريق مطار بيروت. كان هذا الأب اليسوعي سليل عائلة نبيلة وأستاذ الأدب الفرنسي، وكان له 21 سنة من العمر عندما بدأ في ثانوية القديس يوسف في بيروت. عُين وكيلاً لكلية الطب في الجامعة اليسوعية ثم وكيلاً لكلية الهندسة ورئيساً للجامعة من عام 1958 إلى عام 1965، وخدم في مجلس إدارة المطبعة الكاثوليكية ثم وكيلاً لمدرسة الجمهور حتى استشهاده.

خامساً: الأب جيمس فينيكان: أميركي الجنسية من أصل أيرلندي، ولد في نيويورك عام 1912، تطوع للعمل في البلدان العربية والإسلامية، رُسم كاهناً في بيروت عام 1944، وكان مختصاً بالفلسفة اليونانية، ودرّس هذه المادة في الجامعة اليسوعية وجامعة الروح القدس في الكسليك والجامعة اللبنانية وفي معهد القديس بولس في حريصا. مساء يوم 26 شباط 1984 حصدته قذيفة مدفعية وهو في طريقه إلى مستشفى أوتيل ديو من أجل الاحتفال بالذبيحة الإلهية.

سادساً: الأب نيكولا كلويترس: هولندي الجنسية، رُسم كاهناً في أمستردام عام 1973 وتطوع من أجل الذهاب إلى لبنان، حيث تمّ تعيينه في دير تعنايل في البقاع عام 1974. عند اندلاع الحرب اللبنانية عام 1975 عمل على ترميم الكنيسة في قرية برقا وبنى منزلاً لكاهن الرعية ومدرسة وديراً أواخر عام 1984، بواسطة المساعدات التي كان يتلقاها من هولندا. في مساء 13 آذار 1985 وهو عائد إلى برقا من بلدة الهرمل اختفى أثره، ثم عُثر على جثته بعد مضي سبعة عشر يوماً على اختفائه، مصاباً بطلقين ناريين، مشنوقاً ومخوزقاً وآثار التعذيب بادية على الجثة.

سابعاً: الأب أندريه ماس: فرنسي الجنسية، ولد عام 1940، وعُيّن بعيد قدومه إلى لبنان مديراً لمركز صيدا، وواظب على دراسة اللغة العربية، والتحق في مركز عاصمة لبنان الجنوبي. في أيلول 1987 طلب شابان مجهولان مقابلة الأب ماس، وأطلقا عليه رصاصات غادرة استقرت ثلاث منها في رأسه، وهرب الجانيان من دون أن يعرف سبب هذه الجريمة البشعة.

الرهبانية اليسوعية تعتمد اليوم أكثر من أي وقت مضى على العلمانيين من قدامى خرّيجي مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم المرموقة، في ظلّ تراجع عدد رجال الإكليروس وانحسار الدعوات وبلوغ المخضرمين سن الكهولة. في هذا الإطار، تحاول روابط قدامى الخرّيجين لملمة الشمل وتمتين أواصر الصداقة، مستعيدة ذكريات الماضي السعيدة من أجل تأمين الدعم والمساندة إلى أعضائها ضمن العائلة الواحدة. تبقى أهداف هذه الروابط نبيلة حتى ولو اتسمت طرق تنفيذ الأهداف بعراقيل متعددة وتدخّل الإدارات بأدق التفاصيل، مما يخلق أجواء من التململ والإنزعاج وحتى الإبتعاد في صفوف قدامى الخريجين، وهو أمر يؤسف له ويُقلق راحة بال الكثيرين ممن تعلموا في المؤسسة وأحبوها واحترموها.

في عودة إلى كتاب دوكرويه[51] يذكر هذا الأب الجليل كيفية تأسيس رابطة قدامى خريجي الجامعة اليسوعية وأهدافها ومراحلها، وذلك في 28 نيسان 1897 عندما تمّ لقاء في عيد مدير الدروس في الجامعة (Le Chancelier) اتفق خلاله على عقد لقاء سنوي وقداس على نية المتوفين من رهبان وأساتذة وطلاب. وفي لقاء 1898 شدّد البروفسور نيغرعلى

أهمية هذه الرابطة ودورها، حيث يعيش الجميع في حرم الجامعة في علاقات ودية يسودها الاحترام المتبادل والثقة؛ فالرابطة تهدف إلى استمرار العلاقات الطيبة بين الخريجين كافة وإدارة المؤسسة، إذ لا يكفي أن ينال الطالب شهادته مبتعداً عن كل ما يربطه بالجامعة، لأنّ الهدف الأساسي ليس حيازة الشهادة.

يقول الأب دوكرويه: «إن رابطة قدامى الخريجين كما كل رابطة من هذا النوع عرفت أوقات نشاط لافتة كما أوقات عمل صعبة، وأثناء زيارتي الأخيرة إلى المدن السورية، التقيت مع بعض قدامى خريجي الجامعة اليسوعية، وتبين لي أن الوضع في سوريا مختلف عن الوضع في لبنان، إذ تسود هنالك علاقات أخوية على مختلف المستويات، مما يجعلني آمل بعلاقات مماثلة في بيروت، نظراً لأنّ المصالح والمصاعب والمبادىء ذاتها تجمع بين قدامى الخريجين». من ناحيته يقول الدكتور جوزف شعيا رئيس رابطة قدامى خريجي كلية الطب في جامعة القديس يوسف، في العام 1974: «إنكم تتساءلون ربما عن دور الرابطة، وهل إن دورها يقتصر على تنظيم عشاء سنوي أو مسرحيات؟ نعم، إن هذا صحيح، ولكن الرابطة عندها نشاطات أخرى تلبي حاجات أعضائها، إذ إن واقع الحال هذا يمثل فقط الجزء المرئي من جبل الجليد؛ فمهمة الرابطة تتمثل بتوزيع المساعدات على الذين يمرون بأوقات صعبة أو من هم في حالة المرض، أو الذين هم بحاجة لإجراء عملية جراحية لهم أو لأفراد عائلتهم أو تأمين مساعدة مدرسية أو منح.

قال الأب الرئيس العام كولفنباخ إن «تعاون قدامى الخريجين أمر ضروري في تنشئة الأجيال الشابة في الوقت الحاضر، وهذا أمر جزئياً من مسؤولياتكم. أنتم مدعوون بصفتكم من قدامى الطلاب إلى لعب دور هام في مجتمعنا من أجل تحقيق رغبة أغناطيوس المتعلقة بالمشروع التعليمي في مؤسساتنا المدرسية، أي نقل القيم الإنجيلية والإنسانية إلى نساء زمننا الحاضر ورجاله، وفتح قنوات الحوار بين الأديان والثقافات من أجل إرساء جو من التلاقي والسلام».

الرئيس الأميركي الأسبق بيل كلينتون أمضى أربع سنوات في جامعة جورجتاون وحاز على شهادة في العلاقات الدولية، ولكن علاقاته الشخصية مع الآباء اليسوعيين توقفت عند

هذا الحد، خلافاً ربما لغيره من قدامى الخريجين. أما «الاتحاد العالمي لقدامى طلاب رفقة يسوع» (*Antiqui Societatis Iesus Alumni*) أو(*ASIA*) فقد تأسس في 31 تموز 1956 في بيلباوو (Bilbao) خلال الاحتفالات بذكرى وفاة أغناطيوس دي لويولا، وهذا الاتحاد على صورة الرهبانية اليسوعية منظم خير تنظيم على الصعيدين الدولي والمحلي.

يقول هيرفي يانو[21] في كتابه: «هذه التجمعات ليست فولكلورية، من أجل تنظيم الرحلات والنزهات والولائم واللقاءات مرة في السنة بغية استعادة بعض الذكريات، بل هي جمعيات تهدف إلى مد يد العون والمساعدة إلى قدامى الخريجين في أوقات الشدة». ويصرّح الأب الرئيس العام السابق كولفنباخ أثناء إنعقاد مؤتمر الكونفيديرالية الأوروبي عام 2001 بأنّ «التربية اليسوعية هي نوع من المشاركة في الإرث الروحي الإغناطي من أجل مواجهة الوضع الأوروبي والعالمي الحالي»، وإنّ هذه التجمعات والروابط يجب أن تبقى «نقطة التلاقي من أجل المشاركة في رؤية موحدة للعالم المعاصر، ومن أجل إيجاد الدعم اللازم بغية الالتزام في العمل من أجل الآخرين ضمن إطار العدالة والرحمة».

وفي العام 1986 تمّ تأسيس «رابطة بدرو أروبي العالمية» بغية جمع التبرعات من أجل الأعمال الاجتماعية لقدامى تلامذة اليسوعيين، ولكن أيضاً من أجل تمويل «المركز اليسوعي للاجئين» (JRS) . وبهدف تمويل أعمالها الخيرية، تجمع مؤسسة (ASIA) سنوياً «الدولار أروبي» من كل خريج يسوعي مما يشكل أربعة ملايين دولار سنوياً. إن جميع روابط قدامى الخريجين ملزمة بدفع مساهمة سنوية قيمتها مئة يورو للاتحاد بالنسبة إلى قدامى خريجي المدارس والمعاهد الثانوية، ومئتي يورو بالنسبة إلى مؤسسات التعليم العالي إضافة إلى اقتطاع دولار واحد سنوياً عن كل اشتراك في أية رابطة وفي جميع أنحاء العالم، وإنّ الكونفيديرالية اليسوعية الأوروبية التي اجتمعت في روما في شهر تشرين الأول عام 2004 شدّدت على تمتين أواصر العلاقات بين مختلف مكونات الاتحاد، وإنّ قدامى الخريجين هم من أهم موارد الرهبانية اليسوعية، والهدف الأول هو المحافظة على استمرارية العلاقات الطيبة بين الآباء اليسوعيين وبينهم.

إن عدد قدامى الطلاب اليسوعيين بلغ في الثمانينيات من القرن العشرين ثلاثة ملايين

و750 ألفاً، بينهم 60 ألفاً في فرنسا وحدها. ويتجمع هؤلاء القدامى في جمعيات أو روابط هدفها المحافظة على علاقات صداقة وتضامن، من أجل مساعدة مؤسسات التعليم اليسوعية، وهي كناية عن شبكة تضم 1300 معهد أو جامعة، حيث يمارس التعليم أكثر من عشرة آلاف أب يسوعي. وخلال اجتماع «الاتحاد العالمي لقدامى الآباء اليسوعيين» الذي انعقد في فرساي عام 1986، والذي ضمّ ما يقارب 700 مندوب يمثلون 27 بلداً حول العالم، شدّد الرئيس العام الأب بيتر هانس كولفنباخ على أهمية توزيع المهام معتمداً على انخراط العلمانيين القوي، قائلاً: إنّ «أهمية التربية اليسوعية هي أن لا تعودوا في حاجة الينا، لأنه ليس لدينا النية في التخلي عنكم، وليس عندنا النية أيضاً لإدارتكم وتوجيهكم، كما نتمنى أن تبادروا أنفسكم إلى تفعيل وإثمار وإشاعة التربية التي حصلتم عليها في طريقة عيشكم وفي العالم كله». لقد كان هذا النداء بمثابة دعوة إلى «جيش الاحتياط» أي العلمانيين من أجل تسلم مسؤولياتهم. كذلك ذكر الأب كولفنباخ أن «الرسالة التبشيرية التربوية تذهب أبعد من نطاق المعاهد والجامعات، لأن ما هو مطلوب اليوم إشاعة العدالة والدفاع عن الفقراء والتضحية، حتى لو اقتضى الأمر خسارة ممتلكاتنا وفقدان حياتنا»، لأنه ساد الاعتقاد طويلاً أنّ التربية اليسوعية تعمل على إنشاء النخب، إلى حد أنه تمّ خلال فترة طويلة الخلط بين هؤلاء «الرجال الذين يرتدون الأسود» والطبقة البورجوازية العليا.

يتساءل المرء عن القواسم المشتركة بين فيديل كاسترو والجنرال ياروزلسكي وبين لويس بونيول والفرد هيتشكوك. فكاسترو كما ياروزلسكي كانا رئيسَيْ دولة بينما بونيول وهيتشكوك كانا مخرجين سينمائيين، ولكن الجامع بين هؤلاء الرجال الأربعة أنهم ينتمون إلى قدامى الآباء اليسوعيين. لذلك، فإنه من الضروري هنا إعطاء بعض التفاصيل التاريخية عن سيرة هؤلاء الرجال الذين تأثر كل واحد منهم بالتربية اليسوعية بغض النظر عن الفوارق في شخصية كل منهم. ففيدل كاسترو الذي ترأس الثورة في كوبا عام 1959 أصبح رئيساً للدولة عام 1976 واشتهر بنضاله ضد الإمبريالية في العالم حتى أصبح الناطق باسم العالم الثالث. اما الجنرال ياروزلسكي الذي قمع العمال ونقابتهم «التضامن» في بولندا وتوصل إلى مركز رئيس الدولة عام1989، فإنه استعمل جميع الطرق العسكرية القمعية في تحالفه

مع الاتحاد السوفياتي. أما الفرد هيتشكوك المخرج السينمائي البريطاني الذي حاز لاحقاً على الجنسية الأميركية فكان من أبرز مخرجي أفلام الإثارة، بينما لويس بونيول المخرج السينمائي المكسيكي من أصل إسباني، فهو هاجم بعنف التقيّد المُفرط بالتقاليد وسلطة الدين وتداخله في أمور الدنيا.

إن لائحة عظماء الرجال الذين تخرجوا على أيدي الآباء اليسوعيين لا تنتهي، وتحمل الكثير من الفوارق والتناقضات، مع العلم أنّ الرهبانية اليسوعية تنازلت عن بعض مواقعها في قطاع التربية نظراً لتراجع أعداد الدعوات في عدادها ولأسباب أخرى متعددة، خصوصاً في فرنسا العلمانية، وتركت لغيرها مسؤولية تنشئة كبار البورجوازيين وكوادر الدولة، وتخلت عن النخبوية التي صنعت مجدها وعارها، والتي تسببت بالإعجاب وبالغيرة حتى الحقد، مع العلم أنه لم تحظَ أية مؤسسة كنسية في العالم الكاثوليكي بهذا القدر الهائل من الإعجاب طوال أكثر من أربعة قرون، وعلى هذا الكم اللافت من السيطرة على العقول، ومن الغرابة وعدم التفهم، ومن الاجتذاب والنفور.

الأب بيار أوليفين اليسوعي[54] الفرنسي من مواليد عام 1816 كان خبازاً توصل إلى نيل أعلى شهادات الدكتوراه في علم التاريخ، ثم التحق بالرهبانية اليسوعية عام 1845، ولقد انخرط في النضال العمالي وتمّ إلقاء القبض عليه في الأول من نيسان عام 1871 وأعدم في 27 أيار من العام نفسه. إن قصة «مؤتمر أوليفين» بقيت متصلة بتاريخ اليسوعيين حتى العام 1968، إذ بعد عودتهم إلى فرنسا من المنفى عام 1852، عملت الرهبانية اليسوعية على إطلاق «مؤتمر أوليفين» في تشرين الثاني عام 1874، بهدف تنشئة نخبة كاثوليكية تتولى إدارة البلاد، مع الإشارة إلى أنّ هذه الحلقة من الطلاب الكاثوليكيين أفرزت رجالاً لعبوا دوراً سياسياً هاماً في الجمهوريتين الرابعة والخامسة.

فرض نابليون رقابة صارمة على كل الأوساط السياسية، ولكن هؤلاء الطلاب الكاثوليك من قدامى الآباء اليسوعيين كانت تتلطى خلفهم مجموعة ذات تفكير إيديولوجي أكثر منه أدبي. أما أهداف هذا المؤتمر فكانت تتجسد في حماية هؤلاء الشباب من حياة باريس الماجنة وزيادة عدد الدعوات إلى الرهبانية اليسوعية، ثم تحضير أعضائها لإتقان فن

البلاغة من أجل «الدفاع عن مصالح الكنيسة والبلاد»، خصوصاً أنّ البابوات بيوس التاسع ولاون الثالث عشر وبيوس الثاني عشر منحوا هذا المؤتمر بركتهم الرسولية ودعمهم. وابتداءً من العام 1888 التحق «مؤتمر أوليفين» برابطة الشبيبة الكاثوليكية الفرنسية، وخرج من صفوفها كوادر من الطبقة القيادية التي أدارت شؤون الدولة الفرنسية.

ومن صفوف هذه المجموعة الكاثوليكية المحافظة برز عدّة رجال دولة تحت راية اليسوعيين ومنهم رئيسها لويس ديلسول (Louis Delsol) الذي لعب دوراً هاماً في قضية درايفوس الشهيرة التي أساءت بطابعها المعادي للسامية إلى الرهبانية اليسوعية، ولوثت سمعتها. وفي عام 1942 قررت الرهبانية اليسوعية تحويل «مؤتمر أوليفين» إلى جمعية مرشدين لطلاب معهد العلوم السياسية الذي خرّج من صفوفه كبار كوادر الدولة ورجال القانون. ومع مرور الوقت انتقلت نشاطات المؤتمر إلى المعاهد الكبرى على غرار بوليتكنيك (Polytechnique)، وسنترال (Centrale) و(HEC)، وكان الهدف هو الوصول إلى الـ(ENA) التي أنشئت عند التحرير وكانت مهمتها إعطاء فرنسا كبار الموظفين في الدولة. أما بالنسبة للنساء فلم يكن يحق لهنّ الالتحاق كلياً بهذا المؤتمر بينما كان يحق لجميع الرجال ومن جميع الطوائف والاتجاهات السياسية الالتحاق باستثناء الملحدين. لقد مرّ في عداد هذا المؤتمر رجال دولة ورجال قانون وأدباء ومفكرون فرنسيون من الطراز الأول، ولكن تراجعت قوة هذا المؤتمر ونفوذه في الستينيات من القرن العشرين مع تراجع حركة الديموقراطية المسيحية.

هكذا ابتعد هذا المؤتمر عن حركات الشبيبة الكاثوليكية، ثم انفصل كلياً عن الآباء اليسوعيين، معلناً رسمياً عن انتمائه العلماني في السبعينيات من القرن الماضي. ولكن البابا الحالي بنيديكتوس السادس عشر وجه تحية حارة وخاصة الى قدامى هذه الحركة، أي مؤتمر أوليفين وجميع أعضائه، بتاريخ 26 تشرين الثاني عام 2006 خلال صلاة التبشير (Angelus)؛ إنّ التقليد الأغناطي المتمثّل بالاهتمام بالشبيبة والنخب الكاثوليكية بقي ساري المفعول، وكان المرشدون الروحيون في أهم مراكز التعليم العالي ومعاهده في فرنسا، ينتمون إلى الرهبانية اليسوعية، على مثال رابطة «المسيحيين في المدارس الكبرى» و«شبكة

الشبيبة الأغناطية» التي أنشئت عام 1984. يُذكر أنه، ومنذ العام 1996 وكل سنتين يتم انعقاد حلقة جامعية في الصيف تتداول في تنشئة النخبة السياسية الكاثوليكية، من أجل حثّ المجتمعين على العمل في هذا النطاق وتمتين العلاقات بين الكنيسة والعالم. وأخيراً إن «الشبكة العالمية للشبيبة الأغناطية» (Inygo) التي تأسست عام 2002 تعمل على لم شمل العائلة الإغناطية المنتشرة في مختلف مناطق العالم، وتسهر على تنشئة المسؤولين الكبار والإحاطة بهم في المجتمعات والبلدان كافةً.

إن التواضع لم يكن دوماً فضيلة رهبانية صرفت اهتماماتها على الدوام على الملوك والأمراء والنخب، لذلك فإنها ومن أجل تخليد الذكرى المئوية الأولى لرفقة يسوع، قامت، وخلال العام 1640 بإصدار ألبوم (album souvenir) تحت عنوان *(Imago primi saeculi Societatis Iesu)* تمّت طباعته الفاخرة في أكبر مطابع مدينة أنفيرس. وبعد عودة الرهبانية اليسوعية إلى الوجود عام 1814، التي كان قد ألغاها البابا كليمنس الرابع عشر عام 1773، قام الجنرال لويس مارتن في نهاية القرن التاسع عشر بطبع وإصدار أثر تذكاري *(Monumenta Historiae Societatis lesu)* بغية تمجيد تاريخ رهبانية إستثنائية من ناحية التراث والأرث الفكري والروحي. كذلك أنشأت الرهبانية اليسوعية لاحقاً مراكز أبحاث تعنى بذاكرتها ومنجزاتها، أهمها مركز في روما وآخر في سانت لويس في الولايات المتحدة الأميركية.

عادت الرهبانية إلى حالة النعمة بعدما تجاوزت جميع المحن على مرّ التاريخ، وأصبحت معاداة اليسوعيين من مخلفات الماضي، وأصبح اسمها وتاريخها مرتبطاً بإنجازات العالم الغربي وتاريخه من الناحيتين العلمية والثقافية. وعلى الرغم من كل الثغرات والإشاعات والأضاليل أصبحت الرهبانية اليسوعية عنوان الانفتاح والحداثة في الكنيسة الكاثوليكية، حتى ولو أدت هذه السياسة الاشتراكية التقدمية إلى الصدام مع الكرسي الرسولي، على غرار ما حصل بين بدرو أروبي وقداسة البابا يوحنا بولس الثاني.

في كانون الثاني من العام 2008 عادت الرهبانية اليسوعية إلى خطوط المواجهة الأمامية مع انعقاد مجمعها العام الخامس والثلاثين في روما، علماً أن هذا المجمع لا ينعقد سوى مرة واحدة خلال كل ثلاث عشرة سنة؛ فطوال أسابيع عديدة، بحث الآباء في مشاكل الرهبانية

اليسوعية والكنيسة الكاثوليكية مع بداية الألفية الثالثة، وقاموا بانتخاب البابا الأسود الجديد الأب أدولفو ألفونسو بعد استقالة الأب الرئيس العام بيتر هانس كولفنباخ الذي قالوا إنه تقدم كثيراً في العمر بعد بلوغه سن الثمانين، والذي عاد إلى لبنان حيث أمضى فيه فترة طويلة من حياته؛ لكن من المستغرب أن يستقيل الأب الرئيس العام، علماً أنّ الاستقالة تعني التخلي عن المسؤوليات، وهي ممنوعة في القوانين التأسيسية لأن الرئيس العام على مثال الملوك والبابوات، إضافة إلى الديكتاتوريين يتسلمون مقاليد الحكم مدى الحياة.

إن مجلس الكرادلة في روما كما الحبر الأعظم الحالي ليسوا أصغر سناً من الأب كولفنباخ، ولكننا نعود بالذاكرة إلى الصراع بين البابا يوحنا بولس الثاني والأب الرئيس العام بدرو أروبي من أجل استخلاص بعض العبر. تجدر الإشارة إلى أن الرهبانية اليسوعية كانت تعّد في عام 2008 حوالى 19216 راهباً في العائلة الأغناطية التي تعاني حالياً أزمة هوية مع تراجع عدد الدعوات كما سبق وذكرنا، وتقدم الآباء في السن، خصوصاً في أوروبا، على صورة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومثالها. وإنه لمن الجدير بالذكر التأكيد أنه في الواقع يوجد ثلاثة بابوات في روما، البابا الأبيض خليفة القديس بطرس أي الحبر الأعظم، والبابا الأحمر وهو المسؤول عن الكِهانة الرومانية والتبشير بالإنجيل المقدس لجميع شعوب الأرض، وهي المؤسسة التي تمتد سلطتها على أراضي بعثات الكنيسة الكاثوليكية كافةً والتي تعتبر عن حق كنيسة في قلب الكنيسة، ومركزها في الجهة المقابلة للفاتيكان أي في «ساحة إسبانيا» (Place d'Espagne). أما البابا الثالث فهو البابا الأسود أو الجنرال اليسوعي ومقره على مرمى حجر من الحبر الأعظم، وهو كما سبق أن قلنا منتخب مدى الحياة، ولكنه من غير المسموح له قانونياً أن يُرشّح نفسه وأن يقوم بأية حملة انتخابية، ولا يحق له رفض انتخابه خلافاً للكاردينال الذي يُنتخب حبراً أعظم. يُذكر أنّ البابا الأسود هو الشخص الوحيد ضمن الهيكلية اليسوعية الذي يتم انتخابه خلافاً لباقي أعضاء الرهبانية الذين يتم تعيينهم في مراكزهم.

إن الجنرال اليسوعي ليس أسقفاً ولا كاردينالاً، ولا يطاله شرط العمر، خلافاً للأساقفة الذين يتوجب عليهم تقديم استقالتهم إلى الحبر الأعظم بعد بلوغهم سن الخمسة وسبعين

عاماً، ويبقى البابا المرجع الوحيد الذي يعود إليه رفض الاستقالة أو قبولها، أما الكرادلة، فعند بلوغهم سن الثمانين، فلا يعود يحق لهم المشاركة في انتخاب حبر أعظم جديد. ومنذ العام 1974 فإنّ الرئيس العام ملزم باعتماد مستشار له الحق مع زملائه فرض استقالة البابا الأسود في حال إصابته بمرض أو عائق يحول دون استمراره في تحمل مسؤولياته، خصوصاً إذا كان هذا المرض عقلياً. فالأب بيتر هانس كولفنباخ قبل تقديم استقالته إلى يوحنا بولس الثاني، عرض على مستشاريه وعلى جميع رؤساء الأقاليم الأسباب التي تبرر طلب تنحيه، وبعد اقتراع سري تمّ قبول الاستقالة التي أحيلت على الحبر الأعظم، بعد أن اعتبر المجتمعون أنه بلغ سناً متقدمةً، وبعد أن طالت مدة توليه الرئاسة خمسة وعشرين عاماً، أصبح من الأفضل إحالته على التقاعد. لقد تمّ انتخاب البابا بينيديكتوس السادس عشر على رأس السدة البطرسية في عمر الثمانية وسبعين عاماً، وعندما قبل استقالة كولفنباخ كان هذا الأخير في العمر ذاته تقريباً، عندما رفض البابا الدخول في متاهات انتخاب الرئيس العام مدى الحياة، وهو الأمر الذي كان السبب وراء خلافات حادة مع عدة بابوات.

فالرهبانية اليسوعية تضم قوة هائلة انطلاقاً من روما حيث توجد عدة جامعات أهمها الجامعة الغريغورية وهي متفرعة من المعهد الروماني الذي أسسه أغناطيوس دي لويولا، إضافة إلى المعهد الإنجيلي البابوي الذي أنشأه البابا بيوس العاشر عام 1909، والمعهد البابوي للدراسات الشرقية الذي أسسه البابا بينيديكتوس الخامس عشر والذي أصبح رئيسه لاحقاً في 13 أيلول 1983 الأب بيترهانس كولفنباخ الخلف التاسع والعشرون للقديس أغناطيوس على رأس الرهبانية اليسوعية، لذلك نراها تستمر في تزويد الكنيسة الكاثوليكية بالمفكرين واللاهوتيين الكبار، وبين الأكثر حداثة وتفوقاً منهم الأب بيار تايلار دو شاردان (1881-1995) الفيلسوف وعالِم المتحجرات، الذي حاول تطبيق نظرية جعل الكاثوليكية تتماشى مع متطلبات العالم العلمي الحديث.

اعتقد دو شاردان أنّ باستطاعة الإنسان التوصل إلى درجة معمّقة من الروحانية، أطلق عليها اسم «النقطة أوميغا». ومن أهم المفكرين الأب جون كورتني موراي صاحب المرسوم المتسامح عن الحرية الدينية، وجوزف يونغمن اختصاصي الطقوس المسيحية، وكارل

وهوغو راهنر وهنري دولوباك وهو من علماء اللاهوت، وجان دانيللو وهو اختصاصي في مؤلفات آباء الكنيسة الكاثوليكية (Patrologue)، والشاعر جيرار مانلي هوبكينز إضافة إلى كبار الفلاسفة، وروبرتو توتشي المدير السابق لراديو الفاتيكان. يُذكر أنّ وسائل الإعلام تمثّل حالياً إطار العمل المفضل عند اليسوعيين، من وسائل الإعلام المكتوبة والمجلات المتخصصة في بلدان عدة، إلى الراديو والتلفزيون والسينما إلى إذاعة الفاتيكان الرسمية التي تذيع يومياً في أكثر من 30 لغة، إلى اهتماماتهم الجديدة في نطاق البحوث العلمية، والطب والتحليل النفساني، كما الثقافة الاجتماعية والدينية في العالم الثالث.

في عام 1965 أوكل البابا بولس السادس إلى اليسوعيين مهمة التصدي للإلحاد، فأنشأوا لأجل فهم أسبابه وانتشاره في الغرب خصوصاً، معهداً خاصاً في ألمانيا تحت اسم «معهد الإلحاد» الذي أصبح ملتقى المسيحيين والماركسيين، ومعهداً آخر في مدريد تحت عنوان: «معهد الإيمان والعلمنة» من أجل التفهم والتصدي لابتعاد الناس عن الديانة المسيحية. ولكن بالرغم من نشاطات اليسوعيين في الميادين كافة، فإنهم لم يستطيعوا النأي بأنفسهم عن الأزمة العميقة التي مرت بها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، إذ تبقى الأرقام معبرة أفضل تعبير عن الواقع المتأزم، مع تراجع عدد الرهبان اليسوعيين من 36038 عام 1965 إلى 26 الفاً عام 1983 ثم إلى 25 الفاً وصولاً إلى 19126. لكن الأب كولفنباخ يدعو إلى «عدم التخوف والهلع والابتعاد عن سياسة إدارة الأزمات ومحاولة سد الثغرات عبر زيادة الأعداد في شكل عشوائي». كما أنّ الأب بدرو أروبي الذي ترأس الرهبانية حتى عام 1983، فقد أعرب عام 1973 عن قلقه من الأزمة ومن تضاؤل عدد الدعوات الجديدة، الذي يبقى غير مصيري قائلاً: إنّ «قديساً واحداً مفيداً للكنيسة أكثر من جيش من الآباء اليسوعيين».

إن القرار الأول الذي كان قد أعلن عنه الأب بدرو أروبي فور انتخابه عام 1966 هو إطلاق حملة استقصاء من أجل الاطلاع على ذهنية ومشاكل وتطلعات اليسوعيين، والهدف تحضير المؤسسة من أجل أن تتماشى مع حاجات العصر المتبدلة. ويلاحظ المراقبون أنّ هذه المبادرة كانت سابقة لا مثيل لها في تاريخ مؤسسة غير ديموقراطية مثل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ولقد جاءت النتائج خطيرة بمدلولها إذ أضاءت على التململ والانزعاج، في

Riyad Nassar Library

صفوف الآباء اليسوعيين، اللذين لهما أبعاد خارجية اجتماعية إضافة إلى البعد الداخلي المتعلق بالإيمان؛ فهل هي أزمة هوية؟ أزمة سلطة؟ أزمة طاعة؟ كل هذه الأمور أسهمت في إيجاد جو محموم ساعد في زيادة عدد الذين تخلّوا وفي انهيار عدد الدعوات.

ففي بداية السبعينيات من القرن المنصرم، كانت الرهبانية اليسوعية تسجل كل أسبوع ستة انتسابات جديدة وسبع وفيات. في العام 1969، وتحت ضغوطات حاضرة الفاتيكان اضطرت الرهبانية إلى فصل ثلاثة مرشدين هولنديين دافعوا عن حق الكهنة في الزواج مما أدى إلى استقالة الرئيس الإقليمي الهولندي يان هرموس، وتوالت الاستقالات والتخليات في عدة بلدان أوروبية. من جهته الأب بدرو أروبي الذي أظهر ولاءه المطلق للحبر الأعظم، فإنه تأثر أشد التأثير بأزمة السلطة هذه، ولكنه تفهم ودافع على الرغم من ذلك كله عن الإصلاحات الجذرية التي أوصى بها المجمع الفاتيكاني، وإنّ الرهبانية اليسوعية ولا سيما الجناح التقدمي المدعوم من الأب أروبي أزعج الحبر الأعظم على الرغم من انصياعه لمبدأ الطاعة العمياء، وطلب من «فرقة خيالة الكنيسة الخفيفة أن تترجل عن حصانها وتسير مع الآخرين» كما قال الأب بيتو، مما يفسر ربما أبعاد الصراع الخفي بين البابا الأبيض والبابا الأسود.

يتبين هنا أن الرهبانية التي أنشأها أغناطيوس من أجل أن تكون في خدمة الحبر الأعظم والكرسي الرسولي عبر تنفيذ الأوامر والمهمات التي تسند اليها بطريقة عمياء، كانت لديها في المقابل أكبر الخلافات والمشاكل مع البابوات الثلاثة الأخيرين. وإذا كان انتخاب بدرو أروبي وهو الرئيس العام الثامن والعشرون قد تزامن مع انتهاء أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني، فبعد سنتين على انتخاب البابا يوحنا بولس الثاني استقال بدرو أروبي من منصبه وحلّ مكانه الأب بيترهانس كولفنباخ، مما سمح للكرسي الرسولي بأن يأمل برؤية النهضة الإصلاحية المرجوة تتحقق؛ وإنّ تخوف البابا بولس السادس من النزعات التقدمية عند بعض الآباء اليسوعيين النافذين جعلت الحبر الأعظم يتدخل في أدق تفاصيل أعمال المجمع العام الثاني والثلاثين للرهبانية اليسوعية مرغماً اليسوعيين على التخلي عن مشروعهم في إلغاء الدرجات الثلاث في عضوية الرهبانية. لكن وفاة البابا بولس السادس وانتخاب البابا

يوحنا بولس الأول الذي على الرغم من ولايته القصيرة جداً، فإنه قد حضّر خطاباً كان من المزمع أن يلقيه في اليوم الذي تلى وفاته، لكن تبين أنه كان متبنياً وجهة نظر البابا بولس السادس. على الأثر، تمّ انتخاب يوحنا بولس الثاني الذي لمس الانحطاط المؤسف في الرهبانية اليسوعية، والذي بادر إلى رفض استقالة بدرو أروبي الذي أصيب لاحقاً بشلل دماغي، مما اضطر يوحنا بولس الثاني إلى الدعوة لانتخاب خلف له.

في أيلول 1983، إنتخب بيترهانس كولفنباخ في الدورة الأولى، وكان له من العمر 54 سنة وهو ثاني راهب هولندي يترأس الرهبانية اليسوعية، ولقد كان هذا الحدث نوعاً من المناورات الناجحة والطاعة العمياء المدروسة والموزونة من أجل تجنب المواجهة مع يوحنا بولس الثاني، إذ تمّ استبعاد كلّ من الأب ديزا والأب بيتو والأب فنسنت أوكيف، وتمّ اختيار المستشرق الأب كولفنباخ الذي كان يشبه رجال الأكليروس الشرقيين، وهو الذي أمضى عشرين سنة في لبنان، وهو من أب هولندي وأم إيطالية؛ إنه رجل زاهد، يأكل قليلاً وينام أقل، أستاذ الألسنية، يتكلم أكثر من ثماني لغات، وهو الذي برهن على أنه رجل الحوار أثناء الأحداث الأليمة التي عصفت بوطن الأرز.

نجح الأب الجليل بيترهانس كولفنباخ بالابتعاد عن خط جميع الأطراف محاولاً جعل الجامعة اليسوعية في لبنان همزة الوصل والتلاقي، الأمر الذي لم يمنع استشهاد بعض الكهنة اليسوعيين وتدمير بعض المباني والمنشآت الجامعية، خصوصاً الواقعة منها على خطوط التماس. أمّا عملية انتخابه على رأس الرهبانية اليسوعية فإنها كانت خطوة ذكية كونه أقام علاقات مميزة مع الكنائس الأرثوذكسية وخصوصاً الكنيسة الروسية. لقد تابع كولفنباخ خط أروبي على الرغم من الخلافات الشكلية لا الجوهرية بين الرجلين، مع الاختلاف في الطباع، الأمر الذي يُجمع عليه معاونو رئيس الرهبانية اليسوعية. فالأب سيمون دوكلو الذي كان رئيس كولفنباخ يقول عنه إنه أكثر دبلوماسية من سلفه أروبي القادم من اليابان مع طريقته الصريحة في الكلام، والذي كان يجهل خبايا الفاتيكان.

كان الأب كولفنباخ صاحب رؤيا، لديه كاريزما، ويعرف استعمال سحرية الكلام، كما كان يقول عنه الأب أور الذي تبوأ سدة إدارة الدروس في كلية الطب في بيروت (Chancelier).

فهذا الرجل الهادىء المسالم الذي اطمئن إليه يوحنا بولس الثاني الذي لم يجد في شخصيته أي تهديد لسلطته البابوية، كان يكره الظهور، وكان متحدثاً لبقاً ومستمعاً جيداً، و«اكتسب مناعة من جراء إقامته الطويلة في لبنان»، كما قال الأب بيتو. وفي الخامس من أيلول 1990 تم عقد اجتماع لجميع الرؤساء الإقليميين من أجل تحديد أولويات الرهبانية وأهمية أفريقيا والصين وبلدان أوروبا الشرقية والمشاكل الإكليريكية ووضع الكنائس الأغناطية، وتوقف الآباء عند أهمية 5 أيلول، عندما أعطى البابا بولس الثالث منذ 450 سنة أول موافقة كهنوتية على إنشاء الرهبانية اليسوعية، وانتهى اللقاء في 31 تموز 1991 يوم عيد القديس أغناطيوس دي لويولا بشتّى أنواع الاحتفالات، وشعر اليسوعيون بنشوة الانتصار، مما دفع بالأب كولفنباخ في رسالة وجهها إلى قياديي الرهبانية من أجل «التركيز على القديس أغناطيوس وتعاليمه لا على الرهبانية اليسوعية، والتطلع نحو المستقبل لا نحو الماضي».

أما الانتشار اليسوعي الجغرافي في العالم، فإنه يتناول تمركزهم في أنحاء الكرة الأرضية كافةً، وتأتي القارة الأوروبية في الطليعة مع مؤسساتها التي تبلغ مئة وخمساً وثلاثين، إضافة إلى تسعين منظمة يسوعية في الهند وثماني وسبعين في الولايات المتحدة الأميركية وستّ في كندا وخمس وسبعين في أميركا اللاتينية. كذلك فإنّ القارة الآسيوية تتضمن إحدى وعشرين منظمة، وأفريقيا ثماني عشرة، كما نجد جمعيات لقدامى خريجي الجامعة اليسوعية في الشرق الأوسط، في مصر ولبنان، وكذلك «الاتحاد الوطني الأوسترالي» وجمعية في النيبال.

فأغناطيوس كان أول من عرف أهمية الفكر والثقافة والعلم في خدمة النفوس، عندما عاد إلى مقاعد الدراسة في سن متقدّمة وقرر بدء حياته الجديدة في خدمة الله تعالى، وهو قد آمن أنّ أفضل طريقة من أجل خدمة الخالق هي في تنمية الفكر، لذلك أحاط نفسه منذ بداية رحلته الإنجيلية بأشخاص أذكياء، أتقياء ومثقفين، من أجل مقارعة البروتستانت فكرياً ودينياً والدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، لذلك فإنّ الرفاق الأوائل الذين كانوا بعيدين كل البعد عن التعليم والمدارس والمعاهد، أصبحوا أكبر وأفضل رهبانية تعليمية، إذ تبين لهم سريعاً أنّ هذه الوسيلة هي الأنجح، في سبيل التأثير على عقول الأجيال الشابة وخدمة

رسالتهم ومصالحهم، ولهذا يمكننا القول إن اليسوعيين أصبحوا معلمين رغماً عنهم، ولكن القديس أغناطيوس كان يعلم في قرارة نفسه أنّ الأمور الدينية أصبحت تتطلب المزيد من الفكر، وأنه لا يوجد أي عائق بين الإيمان بالله والعقل.

فاليسوعيون الأوائل كانوا في معظمهم من الحائزين على أعلى الشهادات، ولكن المؤسس كان يخشى من أن يحوّل التعليم العالي المرشحين من الدخول إلى الرهبانية نحو مسارات أخرى دنيوية مادية ومربحة. وعلى الرغم من ذلك، أحاط الرئيس العام الأول نفسه بنخبة مثقفة وعالمة، وبدأت فكرة إنشاء المعاهد المتخصصة في تعليم يسوعيي المستقبل تشق طريقها إلى أرض الواقع ابتداءً من العام 1539. وفي عام 1548 طلب منه صديقه نائب ملك صقلية إنشاء معهد في مدينته مسّينا، حيث تم إرسال عشرة رفاق تحت إدارة جيروم نادال، الذي لاقى نجاحاً منقطع النظير، وبدأ يراود أغناطيوس حلم إنشاء جامعة يسوعية. وفي أقل من نصف قرن، أصبحت شركة يسوع أول رهبانية كاثوليكية تركز اهتماماتها على التعليم والتثقيف وتنشئة النخب، علماً أن الشعار الأغناطي كان في البدء: «لا معاهد ولا جامعات في الرهبانية اليسوعية[27]».

وفي الوقت الذي تكاثرت فيه الاهتمامات بتعليم الناشئة، فهمت مختلف المؤسسات العلمانية والدينية بأن طريق النجاح في الحياة يمر حكماً بالمدرسة، خصوصاً وأنّ التعليم كان مجانياً في المدارس والمعاهد اليسوعية في القرن السادس عشر. إن مقومات حياة واستمرار المعاهد من مالية ومادية كانت تمر عبر تبرعات المحسنين الأغنياء، الذين كانوا يكتفون بإقامة القداديس في تلك المؤسسات على نيتهم. وفي العام 1556 عند وفاة أغناطيوس كان عدد المعاهد قد وصل إلى 42 معهداً، وعام 1579 وصل هذا العدد إلى 163 معهداً، وعام 1710 فاق هذا العدد 714 معهداً. ففي روما، وابتداءً من العام 1564 تحول المعهد اليسوعي إلى جامعة، إذ إن تنشئة الكهنة كانت من أولويات البابوية التي منحت الرهبانية اليسوعية استقلاليتها وامتيازاتها وتمركزها في الدول الأوروبية مما أثار السخط والحسد والتخوف من تدخل روما في أمور هذه الدول. ولكن، الرهبانية اليسوعية في بداية مشوارها التعليمي لم تعرف، النجاح إلّا في ألمانيا، عندما أراد الآباء التمركز في الأوساط الجامعية الكبرى،

Riyad Nassar Library

خصوصاً في باريس التي كانت تضم أعرق وأشهر جامعة في أوروبا قاطبة.

رفض البرلمان الاعتراف رسمياً بمعهد شارع لاهارب La Harpe ، والذي كان منحه إلى اليسوعيين المونسينيور غليوم دوبرا، أسقف كليرمون، الذي اعتبره، أي البرلمان بابوياً أكثر منه وطنياً. في الوقت ذاته، ندّدت كلية اللاهوت بتسمية شركة يسوع المتعجرفة، وكان على اليسوعيين الانتظار عشر سنوات من أجل الحصول على اعتراف الإكليروس الفرنسي بحقهم في التمركز في أرجاء المملكة، تحت شرط احترام مبادىء الكنيسة الفرنسية الوطنية. وهكذا تمركزت الرهبانية اليسوعية بداية في الحي اللاتيني في باريس، وحازت على نجاح كبير على يد الأب مولدونا عالِم اللاهوت الشهير، مما أثار غضب جامعة باريس وجّر أتباع أغناطيوس أمام المحاكم، ولقد كان رجل القانون إتيان باسكييه من أشرس مهاجمي رفقة يسوع عندما أبرز عام 1602 كتاب «التعليم المسيحي للآباء اليسوعيين»، مندّداً بكل ما جاء فيه، فاتحاً الباب على مصراعيه أمام أعداء الرهبانية الكثر، وذلك حتى صدور مرسوم إلغاء الرهبانية اليسوعية عام 1773.

أما في إيطاليا، وفي بادوفا بالتحديد، فقد تمكن سيزاري كريموني[21] من الحصول على مرسوم صادر عن مجلس الشيوخ في البندقية يحظّر على اليسوعيين ممارسة التعليم؛ ولقد هاجم الأساتذة العلمانيون بشدة رجال الدين الذين يمارسون التعليم المجاني والمضاربة غير المشروعة، خصوصاً وأنهم ليس لديهم عائلات يتحملون مسؤوليتها. لقد أعلن المتضررون أنّ نذر الفقر الإنجيلي هو نوع من الكذب والرياء، هدفه تجويع باقي الأساتذة، خصوصاً وأن اليسوعيين يستفيدون من الإعانات والمساعدات على عكس الباقين. ولكن على الرغم من ذلك، فقد توصلت الرهبانية اليسوعية إلى فرض احترامها ووجودها في عصر التغيّرات وأصبح اسمها مرتبطاً بالنخبة، ولم تتوانَ عن الإجهار بهذه الحقيقة، وبطريقتها التربوية المتفوقة على جميع الأصعدة.

وضع الآباء سياسة تربوية متطورة ترتكز على استيعاب المعارف تدريجاً وعلى مراقبة مستمرة لهذه الإنجازات، إذ نجحوا إلى حد بعيد في دمج الطرائق القديمة والحديثة معاً، كما ركزوا جلّ اهتماماتهم على تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، وعلى تزويد تلامذتهم

بثقافة أدبية واسعة إضافة إلى فن البلاغة، واللغة العبرية في بعض المعاهد المخصصة لعلم اللاهوت، وذلك ضمن إدارة تخضع لأشد أنواع الهرمية، مستمدين أفكارهم من أسلوب جان ستيرم البروتستانتي. ولهذا نرى أنّ الطريقة التعليمية اليسوعية المستحدثة مع توزيع الجوائز علناً على الطلاب المتفوقين قد ألهمت نابوليون في إنشاء المدارس الثانوية والرسمية، كما الصفوف التحضيرية من أجل الالتحاق بالمعاهد الكبرى(Les Grandes Ecoles) .

بعد عودة اليسوعيين إلى فرنسا عام 1814، استمر انتشار مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم، وصولاً إلى المجمع الفاتيكاني الثاني، حيث أصبح اليسوعيون من المحافظين بعد أن تراجعوا عن مهمتهم التعليمية الحديثة وعادوا إلى محاولة نشر الديانة المسيحية وتنشئة نخبة متحدرة من الطبقة الأرستقراطية والبورجوازية الميسورة، فأنشأوا في عام 1854، مدرسة سانت جنفييف التحضيرية من أجل اختراق المجتمع العسكري والمدني في الدولة الفرنسية، والذي كان قد ابتعد عن الكنيسة الكاثوليكية، وفي عام 1907 وقت فصل أمور الكنيسة عن أمور الدولة، افتتحوا معهد سانت جنفييف الاقتصادي من أجل تحضير كوادر ورؤساء المؤسسات التجارية والصناعية، وأطلقوا في عام 1913 «معهد الدروس العليا في العلوم الاقتصادية والتجارية» (ESSEC) الذي أصبح بعد أقل من مئة سنة من أشهر مدارس إدارة المؤسسات في العالم.

فمع بداية القرن العشرين أصبحت المدارس الداخلية اليسوعية عنوان المحافظة والتفوق والصرامة والنظام والنجاح، ولكن بعد انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني تغيرت هذه السياسة مع التغيرات التي طرأت على سائر المجتمعات، وانضوت الرهبانية تحت لواء محاربة الفقر والتهميش والظلم. ولقد برهنت الإحصاءات أنه وفي عام 2006 كان التعليم اليسوعي يشمل أكثر من مليونين ونصف من التلامذة والطلاب الموزعين على تسعة عشر بلداً، وبلغ حجم الهيئة التعليمية 130 ألف أستاذ من ضمنهم أربعة آلاف راهب يسوعي فقط؛ إن مؤسسات تربوية أوضاعها مختلفة كل الاختلاف عن المعاهد التقليدية، أخذت تنتشر وتتمدد، لعل أبرزها حركة «الإيمان والحبور» (*Fe y Alegria*) في أميركا اللاتينية، التي تهتم بالتعليم في الأوساط الشعبية الفقيرة والمحرومة؛ وإنّ هذه الحركة نشأت عام 1956 في

Riyad Nassar Library

كاراكاس، فنزويلا، تحت إدارة الأب خوسي ماريا فيلاز، ثم انتشرت ابتداءً من العام 1964 وصولاً إلى بداية الألفية الثالثة في كل من باناما والبيرو وبوليفيا والسالفادور وكولومبيا ونيكارغوا وغواتيمالا والبرازيل والهندوراس والتشيلي وأخيراً هاييتي، وإنّ المستفيدين من هذه الحركة هم في حدود السبعة ملايين شخص، ونسبة الإكليروس الذين يهتمون بهم لا تتعدى نسبة الثلاثة في المئة، ولكن يبقى القرار في يد الرهبانية اليسوعية.

هنالك حركات مماثلة في مختلف بلدان العالم على مثال قرية كونار(Konar Village) في الهند والمنظمات غير الحكومية (ONG) اليسوعية على مثال (Entrecultures) في إسبانيا التي تشكل منصة الدعم لمؤسسات أميركا اللاتينية، وشبكة (Nativity Schools) في الولايات المتحدة الأميركية، ومنظمة يسوع الملك (Christo Rey) التي تهتم بالأميركيين الناطقين باللغة الإسبانية. ولكن الرهبانية اليسوعية التي حوّلت اتجاهاتها واهتماماتها في التعليم الابتدائي والثانوي تلبية لحاجات العصر الراهن حافظت على نزعتها النخبوية في جامعات إسبانيا والولايات المتحدة الأميركية خاصة، مع جامعة «ماركيت» في ميلووكي وجامعة «ديترويت- ميرسي» وجامعة «هولي كروس» وجامعة «لويولا» في شيكاغو وجامعة «ماري مَونت» في لوس أنجلوس وجامعة «سانتا كلارا» في سان فرنسيسكو وجامعة «سانت لويس» مع مستشفاها الشهير وطلابها الإثني عشر ألفاً، من دون أن ننسى جامعة «جورجتاون» في واشنطن، وهي أول جامعة كاثوليكية في أميركا الشمالية تم تأسيسها عام 1789. ومع تضاؤل عدد الدعوات الكهنوتية حاول الآباء اليسوعيون الاعتماد على جيش الاحتياط، أي العلمانيين، ولكن العلاقات بين الأساتذة وقدامى الخريجين والرهبانية لم تكن دوماً على ما يرام؛ فجامعة (Sogang) في كوريا الجنوبية يشرف على إدارتها راهب يسوعي منذ تأسيسها في عام 1960، وهي التي عرفت فضيحة مدوية بعد اتهام الإدارة وكذلك اليسوعيين بتسريب أسئلة الدخول إلى الجامعة، بعد أن تمّت أيضاً إدانة رئيس الجامعة بسوء الإدارة المالية. هاتان الفضيحتان عجلتا في إقصاء الآباء اليسوعيين جزئياً عن إدارة المؤسسة، بعد أن تبوأ رئاستها رجل أعمال مدني. لكنّ المثال الأهم على انخراط العلمانيين أكثر فأكثر في الجامعات اليسوعية، هو وجود سبعة يسوعيين وسبعة وثلاثين علمانياً في مجلس إدارة جامعة «جورجتاون» المرموقة.

من جهتها، تنظر حاضرة الفاتيكان بحذر شديد إلى الليبيرالية المتفشية في أوساط الكنيسة الكاثوليكية عامة والرهبانية اليسوعية خاصة، والمثل على ذلك الأب تيموتي هيدي المحافظ (Timothy S. Heady) الذي دفع بجامعة جورجتاون إلى مركز الصدارة عالمياً. ولكن بعد انتهاء ولايته، خلفه الأب ليو أودونافن الذي أثار استياء الكرسي الرسولي، الذي أرغمه على منع مجموعة مؤيدة للإجهاض من الدخول إلى حرم الجامعة؛ هذا الأب أحيل على التقاعد وحلّ محله شخص علماني.

هذا الأمر يعطي صورة عن التعاون بين اليسوعيين والعلمانيين المتكاثرين يوماً بعد يوم، وهم الذين أصبحوا نوعاً ما في مراكز القرار، والنسبة الحالية خير دليل على هذا التبدل، اذ إن اليسوعيين يشكلون فقط ثلاثة في المئة من مجموع الأساتذة الجامعيين. وفي هذا الخصوص، يقول الرئيس العام السابق بيتر هانس كولفنباخ في «الاجتماع العالمي للتعليم العالي اليسوعي» الذي انعقد في روما بتاريخ 21 أيار 2001: «ليس المطلوب أن يصبح العلمانيون يسوعيين مصغّرين، ولكن الرهبانية اليسوعية تطلب من جميع الأشخاص حتى من الديانات أو الطوائف الأخرى أن يقبلوا ويتقيدوا بالمبادىء الروحية الأغناطية». إن شركة يسوع تبقى حريصة كل الحرص على المحافظة على هويتها الكاثوليكية، على الرغم من أن معظم الطلاب في الجامعات اليسوعية يسعون قبل كل شيء للحصول على شهادات مميزة تسمح لهم بالتنافس مع أي كان في أسواق العمل، وتأمين مستقبل زاهر.

إن شعار اليسوعيين «من أجل مجد الله الأعظم» *(Ad majorem Dei gloriam)* يشكل وحده برنامجاً واسعاً، ويفسر ربما توجهاتهم نحو الإرساليات في بلاد الله الواسعة؛ ففي العام 1986 عادت السعفة الذهبية في مهرجان كَان السينمائي إلى فيلم الإرسالية (The Mission) الذي تطرق إلى رسالة اليسوعيين في أميركا اللاتينية في القرن الثامن عشر. وعلى وقع موسيقى أنريكو موريكوني الرائعة، لعب جيريمي أيرونز دور الأب غبريال وروبرت دي نيرو دور المرتزقة تجار العبيد، في إرسالية تهدف إلى هداية السكان الهنود الأصليين الكواراني، على عكس الفاتحين العسكريين البرتغاليين والإسبان، لأنه في مثل هذه القرى

Riyad Nassar Library

الهندية النموذجية (Réductions) في الأرجنتين والباراغواي والبرازيل كان الشعب القبلي يعيش في أجواء القانون والعدل، لأنّ حكم الإعدام قد تمّ إلغاؤه.

وهكذا نرى أنّ الرهبانية اليسوعية كمجتمع تيوقراطي تستمد فيه السلطة شرعيتها من الدين والقدرة الإلهية، قادرة على التصدي للغزاة الأوروبيين، ولكن الشهية الكولونيالية الإسبانية والبرتغالية توصلت إلى إقناع روما بوضع حد نهائي لهذه الإرسالية اليسوعية، وأغرقت هذه المناطق في بحر من الدم. لقد كانت الإرساليات خارج حدود أوروبا من أهداف الرهبانية اليسوعية منذ نشأتها، إذ إن أغناطيوس كان حلمه الأكبر الاستقرار في القدس والانصراف إلى مهمته التبشيرية. أما دييغو دي غويفا فهو الذي همس في أذن البابا بولس الثالث عام 1538 بإرسال دكاترة باريس إلى بلاد الهند، وهكذا توجه فرانسوا كزافير إلى غوا(Goa) عام 1541 في أول مهمة تبشيرية.

إن الحبر الأعظم بولس الثالث ثم يوليوس الثالث أعربا عن رغبتيهما في بعث المرسَلين إلى الأتراك المسلمين، وإلى الكفار في أميركا وبلاد الهند، وإلى اللوثريين والهراطقة والمنشقين، وإنّ يوحنا بولس الثاني وبعد مرور مئات السنين، أوضح في رسالته البابوية عام 1990 *(Redemptoris Missio)* بأنّ الإرساليات عليها ألّا تتقيد بحدود جغرافية، مما يعني بأن عليها أن تشمل جميع الأراضي التي يتحكم فيها الفقر والظلم والتهميش، ولهذا فإننا نجد اليسوعيين في كل مكان وخصوصاً حيث لا ننتظرهم، في الأحياء الراقية كما في المستوصفات والجامعات اضافة إلى المجتمعات المعدومة. ففي الهند يعمل الآباء على إدارة عشرين مركزاً محاولين الدفاع عن الطبقات المحرومة، وفي وسط طوكيو يبقى نجاح جامعتهم «صوفيا» أقوى دليل على نفوذهم، وفي ماكاو أصبح معهد ماتيو ريتشي ملتقى رجال الفكر الصينيين والغربيين، كذلك ينشطون أيضاً في المدن الكبيرة في آسيا وأميركا، خصوصاً في الأحياء المحرومة، وهم في المواقع الأمامية في مناطق عاشت جلجلتها كما في لبنان وتيمور الشرقية وإيرلندا وكولومبيا وفي مخيمات اللاجئين في أفريقيا.

هذا الالتزام الرسولي دفعت ثمنه الرهبانية اليسوعية دماً وتضحية واستشهاداً «من أجل مجد الله الأعظم»؛ فهكذا في السالفادور عام 1989 تمّ اغتيال ستة رهبان يسوعيين، وفي عام

2002 وزعت الحكومة الأميركية وثيقة تصنّف فيها اليسوعيين في أميركا اللاتينية بالإرهابيين، قبل أن تتراجع عن اتهاماتها، وفي شباط 2003 إتهم الأب اليسوعي (Txema Auzmendi) بالتعامل مع المنظمة الإرهابية (ETA) في بلاد الباسك الإسبانية، وأودع السجن، ولكنه رفض التعامل مع السلطات، ثم أطلق سراحه بكفالة. وفي شباط 2006، تمّ اغتيال الأب اليسوعي البوروندي إيلي كوما على أيدي الثوار الهوتو (Hutus)، وذهب ضحية الحرب الأهلية التي وضعت في المواجهة بدءاً من العام 1993 أثنيات الهوتو والتوتسي (Tutsi) .

وصلت الرهبانية اليسوعية إلى القمة عددياً في عام 1965، حيث كانت تضم وقتها في عدادها 30036 عضواً، ولكن هذه الأعداد بدأت تتضاءل تدريجاً إلى أن وصلت في كانون الثاني عام 2007 إلى 19216 موزعين على الشكل التالي: 13491 كاهناً، 3049 كاهناً في طور الأعداد، و 1810 من الأخوة إضافة إلى 866 مبتدئاً. إن متوسط العمر عند الآباء اليسوعيين هو57 عاماً، وبين عامي 2006–2007 فقدت رفقة يسوع 364 عضواً، وهي من أسوأ النتائج خلال عشرين سنة. تجدر الإشارة إلى أن هذا النزيف مستمر منذ أربعين سنة، وعدد الذين تخلّوا عن الدعوات هو الذي يزيد الطين بلة، حيث فاق العدد 378 تخلياً عام 2007 وحده؛ هذه الأرقام تظهر بوضوح عمق الأزمة التي تتخبط فيها الكنيسة الكاثوليكية عامة والرهبانية اليسوعية خاصة، مع انخفاض عدد الدعوات وتزايد عدد التخليات وتقدم الجسم الكهنوتي بالسن. لكن على الرغم من ذلك، تبقى الرهبانية اليسوعية من أهم الرهبانيات عددياً في العالم إذا استثنينا الفرنسيسيين البالغ عددهم 31500 من جميع الفئات والدرجات، بينما يبلغ عدد الدومينيكيين ستة آلاف فقط.

فالرهبانية اليسوعية تمارس نشاطاتها حالياً في 112 بلداً، حيث انتقل ثقل التمثيل العددي من أوروبا وأميركا الشمالية إلى بلدان العالم الثالث، بينما مركز القرار لم يتغير، إذ بقيت روما محافظة على موقعها. اليوم، إن آسيا الوسطى من السيريلانكا إلى النيبال تضم وحدها نسبة ٪20 من اليسوعيين، حيث عدد المدارس يبلغ 181 مدرسة وعدد الجامعات 32 جامعة والمدارس الإكليريكية ثماني، وهي تدير أكثر من مئتي رعية تشرف على سبعين مركز مساعدات اجتماعية. أما آسيا الشرقية أي الصين وأستراليا وأندونيسيا والفيتنام واليابان

Riyad Nassar Library

والفيليبين وكوريا وتايلاندا، فهي تضم 1663 يسوعياً وعشرين جامعة و 39 مركزاً اجتماعياً إضافة إلى 120 رعية. في حين تمثّل الولايات المتحدة الأميركية ثاني أكبر تجمع يسوعي في العالم مع نسبة ٪16، علماً أن اليسوعيين في كندا الناطقين باللغتين الفرنسية والإنكليزية يُعتبرون ضمن دائرة أوروبا الغربية، بينما ميامي في الولايات المتحدة الأميركية فهي تعتبر ضمن مقاطعة جزر الأنتيل (Antilles)، وإنّ أتباع القديس أغناطيوس في الولايات المتحدة يصل عددهم إلى 3043 يسوعياً، حيث نفوذهم يصل إلى القمة بسبب الجامعات والمعاهد والمدارس التي أنشأوها في القرن التاسع عشر، وتبقى جامعة «جورجتاون» في واشنطن مشتل الدبلوماسيين والاختصاصيين في العلاقات الدولية.

هكذا تلعب الرهبانية اليسوعية دوراً ريادياً في تنشئة النخب الأميركية والكوادر في الإدارة عبر جامعاتها المرموقة التي هي في عداد الثماني والعشرين، وهي تمنح الشهادات العالية إلى أكثر من 183 ألف طالب سنوياً، وحيث يدور في فلكها حوالى المليون شخص يشكلون قسماً لا يستهان به من القيادات الأميركية، علماً أن ثمانية وعشرين راهباً يسوعياً فقط يمتهنون التدريس في هذه المؤسسات الجامعية.

أما في أوروبا، فهناك راهب يسوعي واحد من أصل ثلاثة يعيشون على أراضي القارة القديمة، والمقاطعات التي فيها أعلى نسبة من اليسوعيين هي إيطاليا التي سجلت 697 عضواً وقشطالة ثم فرنسا، ولكنهم جميعهم متقدمون في السن بينما لا يشكل المبتدئون سوى عشرة في المئة من مجمل المتطوعين الجدد في شركة يسوع. وفي أوروبا الجنوبية مهد الرهبانية، فهناك إسبانيا ومقاطعة البرتغال التي تشمل أيضاً أنغولا والموزامبيق كما على أيام المستعمرات، إضافة إلى إيطاليا التي تشمل أيضاً ألبانيا وتعد 2527 راهباً يسوعياً. في هذه المنطقة أو في هذه الأقاليم، هناك 408 من اليسوعيين يشرفون على سبع وأربعين مدرسة ابتدائية وثانوية وعلى أكثر من 62141 تلميذاً. وتبقى إسبانيا مركز الثقل أوروبياً مع أحد عشر مركزاً جامعياً تضم 27 ألف طالب وخمسة عشر ألف باحث، و108 راهب يسوعي فقط في مجال التعليم بينما يصل عدد الأساتذة العلمانيين إلى 2024 إضافة إلى 3650 أستاذاً زائراً.

تضمّ أوروبا الغربية ضمن أقاليمها حسب التصنيف المعتمد في الرهبانية اليسوعية،

2037 عضواً، وهذا يشمل فرنسا، بريطانيا، إيرلندا، بلجيكا، اليونان، لبنان، سوريا، المغرب، الجزائر، إسرائيل، كندا، أفريقيا الجنوبية وبعض الجزر. أما أوروبا الشرقية فهي التي تضم 1137 يسوعياً موزعين على بولندا، بوهيميا، سلوفاكيا، كرواتيا، سلوفينيا، رومانيا ومنطقة روسياً التي أنشئت عام 1992، ولكن اليسوعيين لم يجازفوا في محاولة اختراق الأراضي الأرثوذكسية في كلٍّ من بلغاريا وصربيا. وأخيراً، إن مقاطعة أوروبا الوسطى تضم 746 عضواً موزعين على النمسا وهنغاريا والمانيا وسويسرا والدانمارك وباقي البلدان السكندينافية.

من جهتها أميركا اللاتينية تشمل نسبة 15 % من عدد الرهبان اليسوعيين الإجمالي، وتضم 1530 عضواً، في البيرو وبوليفيا والتشيلي والباراغواي والأرجنتين والأوروغواي والبرازيل، وإنّ رفقة يسوع تلعب دوراً تعليمياً هاماً في هذه المناطق من العالم، إذ تشرف على 67 مدرسة إبتدائية وثانوية و81788 طالباً، بالإضافة إلى تسع مدارس تقنية تشرف على تنشئة 3750 طالباً وعشر مدارس إكليركية تحضّر 497 كاهناً مستقبلياً. أما أميركا اللاتينية الشمالية فهي تضم 1420 راهباً يسوعياً يشرفون على ما مجموعه خمسة وأربعين ألف تلميذ موزعين على أربع وأربعين مدرسة، كما أنّ مؤسساتهم التقنية الخمس ومدارسهم الإكليركية الستّ وجامعاتهم الثلاث عشرة فإنها تضم مئة ألف طالب موزعين بين المكسيك وغواتيمالا والهندوراس والسلفادور وكوستاريكا وبورتوريكو وكولومبيا وفنزويلا والأكوادور وكوبا وأخيراً ميامي في الولايات المتحدة الأميركية. أما القارة الإفريقية فهي تمثل وضعاً خاصاً حيث تتزايد أعداد اليسوعيين خلافاً لباقي المناطق الجغرافية، إذ يبلغ عددهم 1430 راهباً، أي ما يوازي نسبة ٧٪ من المجموع العام، وإنّ التقسيم المعتمد في أفريقيا يضم سبعة أقاليم حيث يشرف الآباء على تسع عشرة مدرسة إبتدائية وثانوية تضم ثلاثة عشر ألف تلميذ، مع ستة معاهد تقنية وجامعتين، علماً أنّ بعض البلدان الإفريقية ملحقة بقارات أخرى، وذلك نتيجة الحقبة الاستعمارية وتقاسم النفوذ على بعض المناطق في طريقة مغايرة تماماً للوضع القائم.

في عام 2004 تمّ دمج مقاطعة توليدو مع مقاطعة قشطالة، وفي عام 2005 أصبحت كوريا إقليماً يسوعياً، مما يدل على ديناميكية الرهبانية اليسوعية في القارة الآسيوية. وفي

شهر تموز من العام نفسه أصبحت منطقة نيجيريا وغانا مقاطعة في أفريقيا الشمالية الغربية. لقد أصبحت هذه الهيكلية الإفريقية تضم ليبيريا وسيراليون وغامبيا، وفي عام 2007 تمّ ترفيع فيتنام إلى مستوى إقليم بعد مرور خمسين سنة على عودتهم إلى هذه البلاد. ولكن على رغم هذا الانتشار الهام يبقى وجود شركة يسوع شبه معدوم في شبه الجزيرة العربية وآسيا الوسطى ومونغوليا، خصوصاً في المناطق الإسلامية، علماً أن مقاطعة الشرق الأوسط كما منطقة المغرب العربي تبقى حسب التقسيم القديم المتبع حتى اليوم، تابعة لأوروبا الغربية.

إن رفقة يسوع الغائبة كلياً في تركيا وإيران، تعمل نوعاً ما في الخفاء كما كانت الحال في الاتحاد السوفياتي سابقاً، وهكذا اليوم في العراق وفي الأردن، حفاظاً على الأمن النسبي لثلاثة في المئة من المواطنين المسيحيين واللاجئين الفلسطينيين والعراقيين. ففي نيسان عام 2006 وصل إلى كابول اليسوعيان أنطوني سانتياغو ونويل أوليفير من أجل دراسة التمركز في الأراضي الإسلامية، وتمّ تسجيل مؤسستهما كمنظمة غير حكومية (ONG) وأرسلا إلى منطقة تقع على الحدود الإيرانية، وهي كانت بعيدة كل البعد عن مخاطر الحرب الأهلية. وانطلاقاً من قواعدها في روسيا، تمّ تكليف شركة يسوع من طرف الكرسي الرسولي، بالتمركز في غيرغيستان وفي حزيران 2006 تمّ تعيين الأب نيكولاوس ميسنر أول أسقف كاثوليكي في هذه الجمهورية السابقة في الاتحاد السوفياتي، وهي التي تضم 75 % من سكانها المسلمين وعشرين بالمئة من الأرثوذوكسيين الروس الذين لا ينظرون بعين الرضى إلى تغلغل البابويين السابقين، الذين تمّ نفيهم على يد ستالين.

تعمل الرهبانية اليسوعية على توسيع نفوذها عبر تنظيم شبكاتها (Networks) على الصعيد العالمي، مستندة خصوصاً إلى جيش الاحتياط. فمنذ عام 1956 تمّ إنشاء «المكتب اليسوعي الأوروبي» في بروكسيل وفرصوفيا وستراسبورغ من أجل المساعدة على إنشاء الاتحاد الأوروبي، كذلك الأمر عندما عمل الأب الرئيس العام بدرو أروبي عام 1980 على تفعيل دور «المركز اليسوعي للاجئين» (JRS)، الذي صبّ اهتمامه على فيتنام ثم على الصومال وأثيوبيا والكامبودج واللاوس، ومن بعدها على تايلاندا والنيبال وكولومبيا والجمهورية الدومينيكية.

هذا القسم اليسوعي يعمل على محاربة التمييز العنصري وعلى إدماج المهاجرين في المجتمعات الأميركية والأوروبية، وعلى فتح أبواب أسواق العمل، وذلك منذ ثلاثين سنة، وإنّ «المركز اليسوعي للاجئين» (JRS) وبالتعاون مع منظمات غير حكومية، من مسيحية وإسلامية ويهودية يسهم إلى حد بعيد في تخطي العقبات الدينية والعرقية والثقافية، من أجل خدمة الجنس البشري ومحاربة تفشي الأمراض والأوبئة والمحافظة على سلامة وكرامة وحقوق الإنسان في جميع القارات. إن الرهبانية اليسوعية تسعى إلى تجنيد مختلف الطاقات والتيارات في العالم من أجل خدمة الإنسان، عبر شبكة من المجلات العلمية والفكرية يفوق عددها الستماية، على سبيل المثال، الأسبوعية «أميركا» (America) في الولايات المتحدة وكندا، «ذي تابلت» (The Tablet) في إنكلترا، و«أوريكا»(Eureka) في أستراليا، و«بابولي» (Papoli) المجلة اليسوعية العالمية، وأخيراً «بيبليكا» (Biblica) المتخصصة في دراسات الكتاب المقدس.

أفضل مثال على تأثير الآباء اليسوعيين في هذا الحقل الفكري هو مجلة «دراسات» (Etudes) التي أنشئت في فرنسا من أجل التبشير بالإنجيل المبارك في روسيا، ثم تحولت إلى سلاح فتاك في مواجهة أفكار الجمهورية الفرنسية الثالثة العلمانية، وقد أصبحت هذه المجلة مرجعاً كاثوليكياً إيديولوجياً هاماً وموقعاً مميزاً في المقاومة الفرنسية أثناء الحقبة النازية، وبعد الحرب العالمية الثانية، شكّلت دعماً أساسياً لحركة الكهنة العمال، التي منعتها روما عام 1954. كذلك فإنّ مجلة (Etudes) اتخذت خيارات ليبيرالية أغضبت الحبر الأعظم بولس السادس، خصوصاً في شأن تحديد الولادات، مما جعل الصحيفة الفرنسية اليسارية ليبيراسيون (Libération) تصفها بمنارة الفكر الكاثوليكي، تحت إدارة الأب اليسوعي أندره ماس الذي استشهد لاحقاً في لبنان، وبول فالاديير، وجان إيف كالفي وهنري مادولين؛ لقد أصبحت هذه المجلة المرموقة مستنداً ومرجعاً مسيحياً بالنسبة إلى المؤمنين وغير المؤمنين، في النقاشات الثقافية والفلسفية المعاصرة.

استثمرت الرهبانية أيضاً في وسائل الاتصالات الحديثة، بعد أن تأكد للآباء الأفاضل مدى تأثير الإعلام على الرأي العام، وتوجيهه نحو الإيمان المسيحي الكاثوليكي؛ فبعد

الحرب العالمية الثانية، وجه الجنرال اليسوعي جان باتيست ينسنز نداء إلى جيشه يطلب فيه من جميع أفراده أن يتعلموا التواصل من جديد مع الآخرين. وابتداءً من العام 1958 أنشأ يسوعيو تايوان قسم (Kuangchi Program Service) وهو أول مركز إنتاجي تلفزيوني مستقل، مهمته نقل البرامج والأفلام الوثائقية عن القارة الاسيوية إلى جميع أنحاء العالم. وفي العام 1965 تمّ إطلاق: «الأمانة العامة للتواصل الاجتماعي في الرهبانية اليسوعية» (JESCOM) من روما، ثم خدمات شبكة الإنترنت التي يزورها ملايين الأشخاص يومياً. وفي الفيليبين أصبحت (JESCOM) سلاحاً إعلامياً هاماً عبر إنتاجاتها السمعية البصرية كما محطة التلفزيون الكاثوليكية (Tele Veritas)؛ هكذا الأمر في أميركا الشمالية مع منتوجات (Loyola Production) من لوس أنجيليس، وفي كندا (The Jesuit Communication Project)، وغيره.

أما في حرم جامعة نيبراسكا فقد تمّ منذ العام 1981 إطلاق القمر الاصطناعي (Satellite Communications for Learning) أو (Scola) الذي أصبح مع الوقت مؤسسة تعليمية تثقيفية تستقبل ثم توزع برامج تلفزيونية على 120 بلداً وفي ثمانين لغة. إن إرسالات Scola تطال أربعمائة وخمسين جامعة وستة آلاف مدرسة، كما تعمل مع منظمات حكومية أميركية ، كما الجيش الأميركي، الذي يستعمل خدمات هذا النظام من أجل المساعدة على تطوير التنشئة الثقافية واللغوية لكوادره المدنية والعسكرية. وهكذا استعاضت الرهبانية اليسوعية عن النقص العددي لديها، من أجل التوسع والتمدد والانتشار الفكري والثقافي والديني في أرجاء الكرة الأرضية كافة.

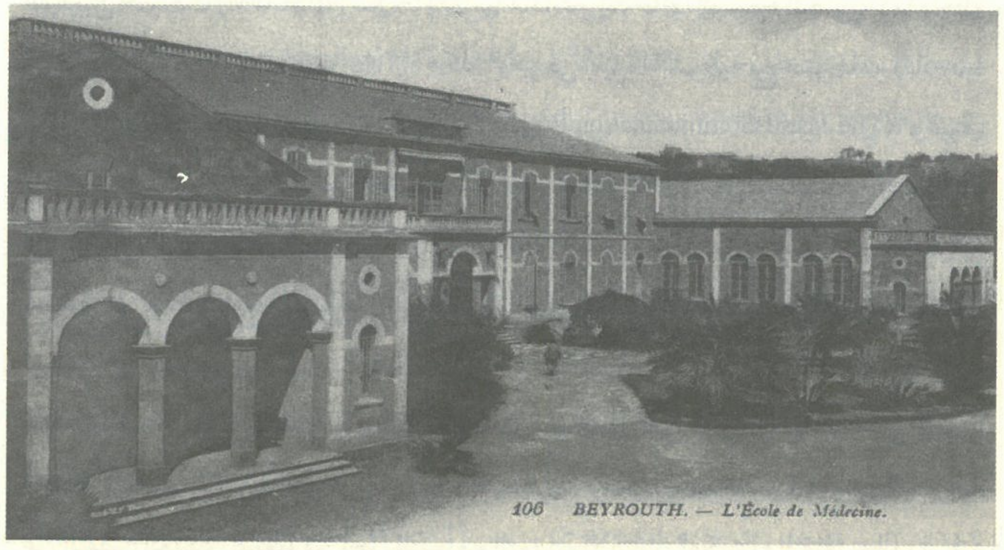

كلية الطب في بيروت – طريق الشام

الخاتمة

تضاربت الآراء حول الرهبانية اليسوعية منذ بداياتها حتى اليوم، لا بل منذ أن أبصر النور مؤسسها إينيغو لوبيز دي لويولا عام 1491 في إسبانيا. بعد اكتشاف القارة الأميركية على يد كريستوف كولومبوس، وسقوط الأندلس تحت ضربات إيزابيل وفرديناند الكاثوليكيان، شعر بلاط قشطالة بالنشوة وتملكه الطموح إذ راح يبحث عن كيفية بسط هيمنته وتوسعه على بلاد الله الواسعة. في ذلك الوقت، كانت أوروبا عرضة للحروب الداخلية بينما كانت روما عاصمة الكثلكة ترزح تحت سيطرة البابوات المتحدّرين من العائلات النافذة والمتناحرة على السلطة مع كل ما تمثله هذه السلطة من امتيازات ومصالح دُنيوية.

شاءت الإرادة الإلهية كي لا نقول الظروف وضع أغناطيوس دي لويولا على طريق القداسة بعد أن التزم مساعدة النفوس وهداية «الكفّار» عبر حملهم على اعتناق الديانة المسيحية. هكذا، وضعت المؤسسة الأغناطية الفتية نفسها في خدمة الكرسي الرسولي وجعلت من الطاعة المطلقة للحبر الأعظم، التي وصفها البعض بالطاعة العمياء *(perinde ac cadaver)* عنوان النذر الرابع. كان موضوع الطاعة هذا موضع خلاف واستهجان من طرف الرهبانيات الكاثوليكية الأخرى، ومعظم الأطراف حتى يومنا هذا.

إن ولاء اليسوعيين المطلق لممثل يسوع المسيح على الأرض، رئيس السدة البطرسية، اعترته الشوائب منذ ولاية البابا بولس الرابع في القرن السادس عشر، وصولاً إلى حبرية يوحنا بولس الثاني في مطلع الألفية الثالثة. لقب البابا الأسود الذي أطلقه البعض على الجنرال اليسوعي في ثيابه الإكليريكية السوداء يدّل خير دلالة على مدى نفوذ الرئيس العام

اليسوعي، وعلى الصراعات المستمرة حول السلطة بينه وبين البابا الأبيض سيد روما الفعلي والشرعي.

من جهة أخرى، وفي عودة إلى مبدأ «نقاوة الدم» في ضوء إلتحاق المغاربة المسلمين كما اليهود بالمؤسسات الدينية المسيحية بحثاً عن الأمان، نلاحظ أهمية الصراع العقائدي الدائر في تلك الأزمنة، ومدى التعصب الديني الذي أوصل آلاف البشر إلى محارق محاكم التفتيش المتوقدة بتهمة الكفر والسحر والشعوذة. في هذه الأجواء المضطربة، بدأت شركة يسوع مسيرتها في تأسيس رهبنة تعنى أولاً وآخراً بحضّ المؤمنين على ممارسة الرياضات الروحية وهداية «الكافرين» والتواصل مع الخالق «من أجل مجد الله الأعظم» *(ad majorem Dei gloriam)*.

عند وضع القوانين التأسيسية (Constitutions) لهذه الرهبانية لم يكن في نية أغناطيوس ورفاقه الأوائل إنشاء مؤسسة تعليمية، بل رهبانية دينية. كذلك، تم إقصاء المرأة عنها، إذ تفردت هذه المؤسسة الكاثوليكية دون غيرها، برفض قاطع لإنضواء النساء تحت راية الصليب ومن أجل مجد الله الأعظم. إن جميع الوعود التي قطعتها الرهبانية الأغناطية مؤخراً في هذا المجال، لم تجعلها تقبل بين صفوفها نساءً على الرغم من المرسوم رقم 14 الصادر عن المجمع العام للرهبانية اليسوعية في العام 1995 والمتعلق بـ«أوضاع النساء في الكنيسة الكاثوليكية». تجدر الإشارة إلى أن بعض النساء العلمانيات بدأن مؤخراً تبوُّء مراكز المسؤولية ضمن الهيئات التعليمية اليسوعية، وهذا ربما هو بادرة خير على طريق إيفاء المرأة بعضاً من حقوقها الطبيعية والشرعية.

طغى الطابع العسكري على هذه الرهبانية إنطلاقاً من تاريخ مؤسسها وصرامة قوانينها وهرمية سلطتها وطاعة أفرادها وانضباط عناصرها، مما جعلها تحمل عن جدارة لقب «قوة الفاتيكان الضاربة». يرفض الآباء اليسوعيون رفضاً قاطعاً هذه الوقائع، علماً أن القديس أغناطيوس كان يراه العديدون إنساناً متسلطاً، وديكتاتوراً كما وصفه قداسة الحبر الأعظم بولس الرابع، أو «ديكتاتور النفوس» كما قال عنه ليون ماركوس. ولكن علينا ألّا ننسى أيضاً أن الرهبان اليسوعيين ساروا على درب الشهادة دفاعاً عن المظلومين ومن أجل البشارة،

Riyad Nassar Library

وعمدوا إلى تدريب الهنود الكواراني وغيرهم على فنون القتال، وحملوا السلاح وقاتلوا وقَتلوا وقُتلوا في ساحات الوغى.

في المقابل، كان الآباء الأفاضل من أشرس المدافعين عن حقوق الإنسان واحترام الآخر مع حركة الكهنة - العمّال وغيرها من الحركات التقدمية الإشتراكية في القرن العشرين. وعلينا أن نُبقي حاضرة في ذاكرتنا جميع قرارات إلغاء الرهبانية اليسوعية، ونفي رهبانها وطردهم، ومصادرة مؤسساتها وممتلكاتها، وهي التي برهنت على مر العصور أنها ربما جثة، ولكنها ليست هامدة بل دائمة الحراك. ولكن يبدو أن الرهبانية اليسوعية تمر حالياً بأزمة حقيقية تتمثل بتضاؤل عدد أفرادها وانحسار الدعوات في زمن تغلبت فيه المادية على الروحانية، وابتعد المؤمنون عن أمور الروح وانغمسوا في ملذات الدنيا.

مما لا شك فيه أن للرهبانية اليسوعية أيادي بيضاء على لبنان واللبنانيين، لأنها كانت وما زالت في أساس النهضة الثقافية والعلمية التي دفعت بوطننا إلى التربّع على أريكة التألق. هؤلاء الآباء الأفاضل إنتقلوا منذ البدء من الإيمان إلى المعرفة، وشيّدوا الصروح الجامعية والمدرسية في بقاع الأرض قاطبة، وأصبحت التربية اليسوعية عنواناً للجودة والتفوق.

وأنا الذي قضيت حوالى نصف قرن في رحاب جامعة القديس يوسف في بيروت أو بالأحرى الجامعة اليسوعية، تعلمت وعلمت فيها، واحتفظت بالكثير من الذكريات الطيبة، وكان لي فخر معاصرة بعض الرهبان العلماء الأتقياء والأنقياء فيها، أقول إن الرهبان اليسوعيين أأحببتهم أم كرهتهم، وجب عليك دوماً أن تحترمهم لما هم ولما فعلوا ويفعلون لخير البشرية والكنيسة.

الملك فريدريك اللوثري منقذ الرهبانية اليسوعية في أيام الشدة

لائحة بأسماء الجنرالات اليسوعيين وجنسياتهم

1 ـ أغناطيوس دي لويولا Ignace de Loyola: 19 نيسان 1541 – 31 أيار 1556 اسباني.

2 ـ دييغو لينيث Diego Laynez: 2 حزيران 1558 – 19 كانون الثاني 1565 اسباني.

3 ـ فرنشيسكو بورجيا Francesco Borgia: 2 حزيران 1565 – 1 تشرين الأول 1572 اسباني.

4 ـ إيفيرارد دو ماركور أو مركوريان Everard Lardinois de Marcourt, dit Mercurian: 23 نيسان 1573 – 1 آب 1580 فلمندي.

5 ـ كلوديو أكوافيفا Claudio Aquaviva: 19 شباط 1581 – 31 كانون الثاني 1615 إيطالي.

6 ـ موتزيو فيتيلتشي Muzio Vitelleschi : 15 تشرين الثاني 1615 – 9 شباط 1645 إيطالي.

7 ـ فينسينزو كارافا Vincenzo Carrafa: 7 كانون الثاني 1646 – 8 حزيران 1649 إيطالي.

8 ـ فرنشيسكو بيكولوميني Francesco Piccolomini: 21 كانون الأول 1649 – 17 حزيران 1651 إيطالي.

9 ـ لويجي غوتيفريدي Luigi Gottifredi: 21 كانون الثاني 1652 – 12 آذار 1652 إيطالي.

10 ـ غوسفين نيكيل Goswin Nickel: 17 آذار 1652 – 31 تموز 1664 الماني.

11 ـ جيوفاني باولو أوليفا Giovanni Paolo Oliva: 31 تموز 1664 – 26 تشرين الثاني 1681 إيطالي.

12 ـ شارل دو نوايل Charles de Noyelle: 5 تموز 1682 – 12 كانون الأول 1686 بلجيكي.

13 ـ تيرزوس غونزاليس دي سانتالا Thyrsus Gonzalez de Santalla: 6 تموز 1687 – 27 كانون الأول 1705 اسباني.

14 ـ مايكل أنجيلو طمبوريني Michelangelo Tamburini: 31 كانون الثاني 1706 – 28 شباط 1730 إيطالي.

15 ـ فرنتزيك ريتز Frantzek Retz: 30 تشرين الثاني 1730 – 19 تشرين الثاني 1750 تشيكي.

16 ـ إيغناسيو فيسكونتي Ignazio Visconti : 4 تموز 1751 – 4 أيار 1755 إيطالي.

17 ـ لويجي سنتوريوني Luigi Centurione: 30 تشرين الثاني 1755 – 2 تشرين الأول 1757 إيطالي.

18 ـ لورنزو ريتشي Lorenzo Ricci: 21 أيار 1758 – 16 حزيران 1773 إيطالي.

19 ـ تادوز برزوزوفسكي Tadeusz Brzozowski: 7 آب 1814 – 5 شباط 1820 بولندي.

20 ـ لويجي فورتيس Luigi Fortis: 18 تشرين الأول 1820 – 27 كانون الثاني 1829 إيطالي.

21 ـ فيليب روثان Philipp Roothan: 9 حزيران 1829 – 8 أيار 1853 هولندي.

22 ـ بيتر جان بيكس Pieter Jean Beckx : 2 حزيران 1853 – 4 آذار 1887 بلجيكي.

23 ـ أنطون ماريا أندرليدي Anton Maria Anderledy: 4 آذار 1887 – 18 كانون الثاني 1892 سويسري.

24 ـ لويس مارتن Luis Martin : 2 تشرين الأول 1892 – 18 نيسان 1906 اسباني

25 ـ فرانز فيرنز Franz Wernz : 8 أيلول 1906 – 19 آب 1914 الماني

26 ـ فلاديمير ليدوتشوفسكي Wladimir Ledochowski : 11 شباط 1915 – 13 كانون الأول 1942 بولندي.

27 ـ جان باتيست يانسنز Jean Baptiste Janssens : 15 أيلول 1946 – 5 تشرين الأول 1964 بلجيكي.

28 ـ بدرو أروبي Pedro Arrupe : 22 أيار 1965 – 13 أيلول 1983 اسباني.

29 ـ بيتر هانس كولفنباخ Peter-Hans Kolvenbäch : 13 أيلول 1983 – 5 كانون الثاني 2008 هولندي.

30 ـ أدولفو نيكولاس Adolfo Nicolàs : 20 كانون الثاني 2008... اسباني.

بين عامي 1773 و 1814 في المنفى في روسيا

1 ـ ستانيسلاوس زرنييفيتس Stanislaus Czerniewicz : 1782 – 1785 لتواني.

2 ـ غبريال لنكييفيتس Gabriel Lenkiewicz: 1785 – 1798 لتواني.

3 ـ فرانز كاريو Franz X. Karew : 1799 – 1802 لتواني.

4 ـ غبريال غروبر Gabriel Gruber: 1802 – 1805 نمساوي.

5 ـ تادوز برزوزوفسكي Tadeuz Berzozowski : 1805 – 1814 بولندي.

ملاحظة: لم تعرف الرهبانية اليسوعية في تاريخها أي رئيس عام من التابعية الفرنسية.

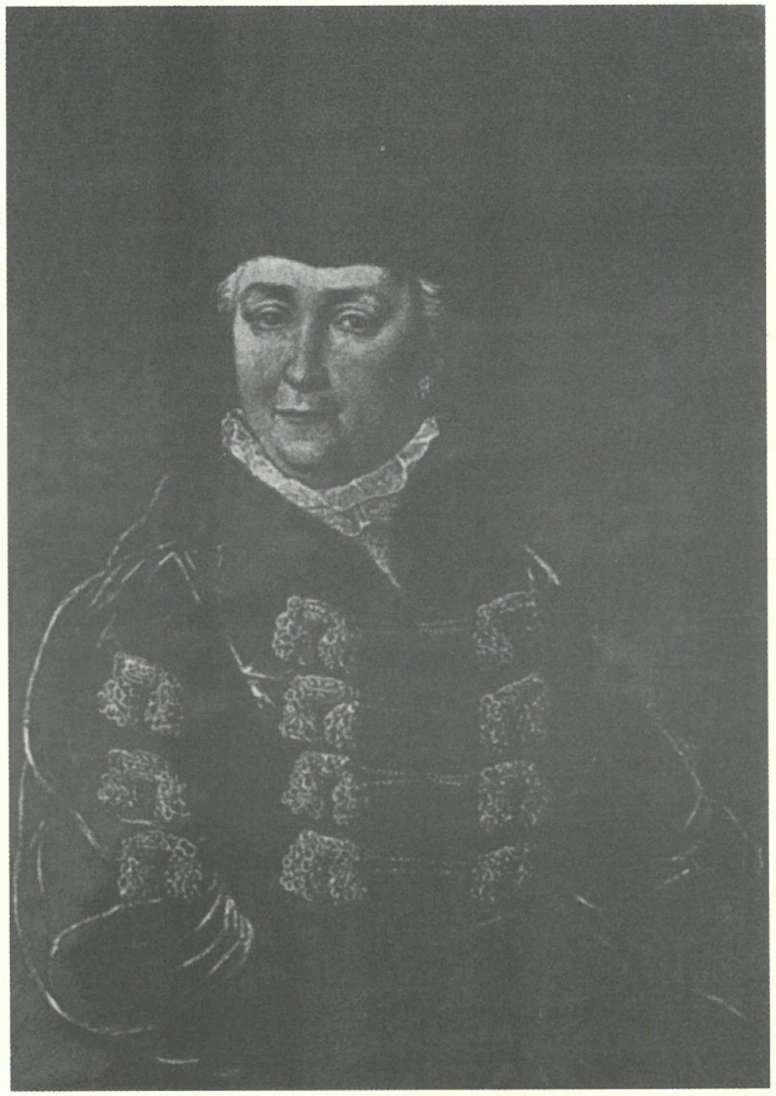

امبراطورة روسيا الأرثوذكسية كاثرين منقذة الرهبانية اليسوعية أيام المنفى

لمـــاذا؟

يجد القارىء بعد خاتمة هذا الكتاب، مقالة كان من المفترض نشرها بتوقيعي على صفحات المجلة الطلابية «أملغم» (Amalgame) التي تصدر مرة في السنة باللغة الفرنسية، ويتم توزيعها مجّاناً على جميع طلاب كلية طب الأسنان وأساتذتها.

إتصلت بي ذات يوم مجموعة من الطلاب والأساتذة، إثر إحالتي على التقاعد طالبةً مني إبداء رأيي صراحةً حول بعض المواضيع، خصوصاً تلك المتعلقة بأوضاع الجامعة، والعلاقات المتردّية في بعض الأحيان بين الجسم الطالبي وإدارة الكلية.

كتبت هذه المقالة مقتنعاً بفحواها وجدواها، علّ وعسى أن تؤدي إلى الاتعاظ برأي شخص انضم إلى الهيئة التعليمية عام 1966 بعد أن احتل المرتبة الاولى في مباراة الدخول (Concours d'entrée)، وغادرها عام 2010 يحمل ميدالية الشرف من جامعة القديس يوسف، مطمئن البال مرتاح الضمير.

وكم كانت دهشتي كبيرة عندما تمنّعت إدارة الكلية عن نشرها، كما يُقال، إذ ربّما الصّياغة الرديئة كانت سبباً لرفضها أو ربما العنوان، وكذلك المحتوى. من أجل هذه الأسباب مجتمعة، تراني أتركها في عهدة القارئ، والطلاب إذا أمكن، مرة أخرى، علّ وعسى.

حفل تدشين كلية الطب في بيروت

Perinde ac Cadaver

Au terme de quarante-huit années passées à l'USJ et à l'heure de tourner une page de ma vie professionnelle, un bilan personnel s'impose il me semble. Un bilan, ou plutôt un survol nostalgique, quelque fois peut-être subjectif mais certainement enrichissant, de toutes ces années où j'ai côtoyé des générations si diverses d'étudiants et … d'administrateurs.

Tout au long de cette période, j'ai pu constater le souci permanent de notre institution d'assurer la meilleure formation académique à ses étudiants. De l'âge d'or au cataclysme de la guerre qui a « exilé » la Faculté à Jdeideh, Zouk puis Jounieh, un même objectif a été poursuivi : assurer la poursuite des cours en dépit de conditions précaires et souvent dangereuses afin de garantir l'avenir des étudiants.

Cependant, je me permets, au titre d'avoir été l'un de ces enseignants et d'avoir connu de près ces jeunes, de témoigner de leur malaise. Malaise au niveau de relations conflictuelles avec l'autorité suprême, malaise face à un avenir incertain par suite d'une saturation de la profession, malaise au niveau de principes et de valeurs moraux inculqués par la Charte de l'USJ, mais qui se trouvent tous les jours démentis et malmenés au contact de la réalité.

Il est vrai que ces jeunes sont là dans le but d'apprendre, de s'instruire, dans un esprit d'écoute et de respect des lois établies. Mais j'ai toujours eu à cœur de tenir compte de leurs divergences, de leurs particularités et de leurs doléances.

L'USJ n'est pas à mon avis une simple assemblée de facultés qui, pour

survivre, doit appliquer à la lettre les recommandations de Saint Ignace de Loyola dans ses « Constitutions»:

Perinde ac Cadaver : « Obéir comme un cadavre»

Pourquoi ? Que peut-on craindre de quelqu'un qui exprime tout haut ce qu'il pense ? Une obéissance aveugle, forcée ou servile annihile le cerveau. Peut-être me reprochera-t-on d'avoir été un électron libre, de m'être démarqué des schémas conventionnels. Mais, en cela, je n'aurais fait que suivre l'esprit de Saint Ignace qui, en plus d'exhorter à la discipline et à l'obéissance, rappelait d'en référer à la Conscience.

Loin de moi l'idée de prêcher la rébellion ou de faire l'éloge de l'anarchie. Au contraire, ce que je prône et souhaite est une recherche d'un terrain d'entente respectueux de la dignité de chacun, d'une fusion entre la hiérarchie, le corps enseignant et les étudiants, un amalgame en quelque sorte dans lequel se fondrait le meilleur de chacun.

الطاعة العمياء (perinde ac cadaver)

بعد انقضاء ثمانية وأربعين عاماً على وجودي في جامعة القديس يوسف في بيروت، وفي الوقت الذي طويت فيه صفحة من حياتي المهنية، شعرت بضرورة إجراء تقييم لهذه المرحلة، أو، بالأحرى، بعودة سريعة إليها لا تخلو من الحنين. هي جردة حساب ربما شخصية، ولكنها بالتأكيد غنية وشيّقة حيث عايشت أجيالاً من الطلاب، والإداريين على اختلافهم.

طوال هذه المرحلة لمست حرص مؤسستنا الدائم على تأمين أفضل طرق التعليم الأكاديمي لهؤلاء الطلاب، إن كان في العصر الذهبي قبل الحرب المدمرة أو أثناءها، حينما اضطرت الجامعة للسّير على طريق المنفى والترحال نحو جديدة المتن ثم ذوق مكايل وأخيراً جونية. ولكن الهدف بقي واحداً، أي مواصلة الدروس على الرغم من الأوضاع المضطربة والخطرة غالباً، بغية تأمين مستقبل الطلاب.

إنما، وبصفتي واحداً من هؤلاء الأساتذة، وكوني عرفت هؤلاء الطلاب من قرب، أسمح لنفسي هنا أن أعبّر عن وجود قلق في الوسط الطلابي، قلق على مستوى العلاقات المتشنجة والخلافية مع الإدارة، قلق في مواجهة مستقبل غامض ناتج عن التضخم العددي لمزاولي مهنتنا، وقلق على القيم والمبادىء المعلنة في شرعة الجامعة اليسوعية، والتي باتت، لسوء الحظ، عرضة للتكذيب والتهشيم يوميّاً على أرض الواقع.

من المُسلّم به أنّ هؤلاء الطلاب أتوا إلى الجامعة من أجل اكتساب العلم والمعرفة في إطار احترام القوانين المرعية الاجراء. إنما حرصت دوماً على تفهّم مشاكلهم واحترام خصوصياتهم وتنوعهم وشكاواهم كما مطالبهم.

إنّ الجامعة اليسوعية ليست في نظري مجرد مجموعة من الكليات بحاجة، كي تستمر، إلى أن تطبّق حرفياً إرشادات القديس أغناطيوس دي لويولا التي وردت في القوانين التأسيسية:

الطاعة على غرار جثة هامدة (perinde ac cadaver)

لماذا كلّ هذا التخوّف من الذي يصرّح، ويرفع لغة الصوت علناً وعالياً عن كل ما يجول في فكره؟ إن الطاعة العمياء التي تستند إلى القوة، هي طاعة خانعة، تشلّ العقل وتحدّ من قدراته. ربما، يأخذ عليّ بعضهم بأني إلكترون حر، أتحرك في إطار غير تقليدي، بينما حرصت باستمرار على احترام تعليمات أغناطيوس، الذي أوصى فعلاً بالطاعة، ولكنه أوصى أيضاً بالاحتكام إلى الضمير.

لم يخطر في ذهني أبداً التغنّي بالتمرّد أو الحثّ على الفوضى، بل كنت أسعى إلى إيجاد طرق التواصل بين الجميع، أي بين المؤسسة والأساتذة والطلاب، في جو من الاحترام المتبادل والانصهار البنّاء.

المراجع

1- Emile Rideau : les ordres religieux actifs. *Ed. Flammarion, 1980.*

2- Autobiographie.

3- الأب ألبير لونشان اليسوعي: أغناطيوس دي لويولا سيرة مختصرة، دار المشرق، بيروت 2001.

4- Au cœur religieux du XVIe siècle, *op. cit.*

5- Jean Lacouture. Jésuites, une multibiographie, tome I : les conquérants, *Editions du seuil, 1991.*

6- Léon Marcuse. Ignace de Loyola, le dictateur des âmes, *Paris, Payot, 1936.*

7- «Livre de vie», *Paris, Le Seuil, 1962*, présenté par Alain Guillermou.

8- الأب سليم دكاش اليسوعي نقله الى العربية: أغناطيوس دي لويولا ورفاقه اليسوعيون، دار المشرق، بيروت 1999.

9- de Leturia Pedro, S.J. El Gentilhombre Inigo Lopez de Loyola, *Paris, Le Cerf, 1982.*

10- Dominique Bertrand. La politique de Saint Ignace de Loyola, *Paris, Le Cerf, 1982.*

11- Cecil Roth. Histoire des marranes, *Paris, Liana Levi, 1990.*

12- A. Astrain. Histoire de la Compagnie de Jésus en Espagne, *Madrid, t. III.*

13- الأب سليم دكاش اليسوعي: واقع الحوار الإسلامي المسيحي، دار المشرق، بيروت، 2006.

14- الأب بيتر هانس كولفنباخ اليسوعي: ضاحية الروح القدس، نقله إلى العربية الأب سليم دكاش اليسوعي، دار المشرق، بيروت، 2006.

15- البابا بنديكتوس السادس عشر. نور العالم: البابا، الكنيسة وعلامات الأزمنة، دار الفارابي - بيروت- لبنان، 2012. نقله إلى العربية الخوري الدكتور أنطوان شبير.

16- R.P. Fouqueray. Histoire de la Compagnie de Jésus en France, *Paris, 1910.*

17- Michel de Certeau. La faiblesse de croire, *Paris, éd. Du Seuil, 1986.*

18- Shurhammer Georg s.j. Francis Xavier, his Life, his Time, traduit de l'allemand, *Rome, 1982, 4 vol.*

19- Leclerc Joseph s.j. Histoire de la tolérance au siècle de la Réforme, *Paris, Aubier, 1955.*

20- نصوص ودروس أغناطية : القديس أغناطيوس دي لويولا. الرياضات الروحية. نقلها الى العربية الأب صبحي حموي اليسوعي والأب فاضل سيداروس اليسوعي. دار المشرق ، بيروت ، 1995.

21- Hervé Yannou. Jésuites et compagnie , *Lethielleux, Paris, 2008.*

22- الأب أولفر برج أوليفييه : رياضات القديس أغناطيوس، بنيتها وجوهرها وديناميتها. نقلها الى العربية الأب صبحي حموي اليسوعي. دار المشرق - بيروت - الطبعة الثالثة 2006.

23- الرهبانية اليسوعية: القوانين التأسيسية: وضعها أغناطيوس دي لويولا. نقلها الى العربية الأب صبحي حموي اليسوعي. دار المشرق - بيروت - الطبعة الثالثة 2006.

24- Ravier André s.j. Ignace de Loyola fonde la Compagnie de Jésus, *Paris, Desclée de Brouwer, 1973.*

25- E. Antébi et F. Lebrun. Les jésuites ou la gloire de Dieu, *Paris, Stock-Antébi, 1990.*

26- Jules Michelet et Edgar Quinet. Des jésuites, *Coda, 2010.*

Riyad Nassar Library

27- Alain Woodrow. Les jésuites : histoire de pouvoirs. *Editions Jean-Claude Lattès, 1984.*

28 - الأب فاضل سيداروس اليسوعي. خواطر في الطاعة الرهبانية ، دار المشرق ، بيروت 2000 .

29 -Crétineau-Joly, Jacques. Histoire religieuse, politique et littéraire de la Compagnie de Jésus, *Paris-Lyon, 1844-1846, 6 vol.*

30 -Dante Vacchi et Anne Vuylsteke. Les jésuites en liberté. *Editions Filipacchi, 1990.*

31 -Pedro Arrupe. Itinéraire d'un jésuite, *Centurion, Paris 1993.*

32 -Marie-Josèphe Rondeau. «Le père Daniélou au Concile. Quelques aperçus», dans le Deuxième Concile du Vatican (1959-1965), *Rome, Ecole Française de Rome, 113, 1989.*

33 -Christopher Hollis. Histoire des jésuites. *Ed. Fayard, 1969.*

34 -Francois Fournier. *Revue Cultures et foi, no. 55, 56, 1977.*

35 -In: Les grands ordres religieux. *Ed. Flammarion, 1980.*

36 -Jean-Yves Calvez. La pensée de Karl Marx. *Ed. du seuil.*

37 -P. Bigo. Marxisme et humanisme. *Presse universitaire de France, 1953.*

38 -Henri Madelin. Les chrétiens entrent en politique. *Ed. du Cerf, 1975.*

39 -Itinéraire d'Henri Perrin. *Ed. Seuil, 1958.*

40 -Pedro Arrupe. Ecrits pour évangéliser, textes présentés par Jean-Yves Calvez, coll. Christus no.59. *Ed. Desclée de Brouwer, Paris 1985.*

41-Pedro Arrupe. Comme je vous ai aimés : méditations sur le cœur de Jésus, préface de Karl Rahner. *Ed. de l'Emmanuel, Paris 2004.*

42 -Jésuites : la mission aux frontières de l'Eglise, dans l'Actualité religieuse dans le monde, *no.2, 1983.*

43- الأب وليم سِيدهم اليسوعي. الدين وحقوق الإنسان: رؤية مسيحية - دار المشرق بيروت 1996 .

44 -Jacques Maritain. Christianisme et démocratie. *Ed. Hartmann, 1945.*

45- الأب لويس شيخو. الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، دار المشرق، بيروت 2003.

46- Sami Kuri, S.J. Une histoire du Liban à travers les archives des jésuites, 1816-1845. *Editions Dar el-Machrek, 1991.*

47- Sami Kuri, S.J. Une histoire du Liban à travers les archives des jésuites, 1846-1862. *Editions Dar el-Machreq, 1991.*

48- Sami Kuri, S.J. Une histoire du Liban à travers les archives des jésuites, 1862-1873. *Editions Dar el-Machreq, 1996.*

49- Stephen B.L. Penrose Jr. That they may have life. The story of the American University of Beirut *1866-1941.*

50- الأب جان دَلمِه اليسوعي. مفهوم التربية عند اليسوعيين. نقله إلى العربية الأب صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق، بيروت 1991.

51- Jean Ducruet. Un siècle de coopération franco-libanaise au service des professions de la santé, *1992.*

52- Collège de Jamhour : le livre des 125 ans *(1875-2000).*

53- الأب كميل حشيمي اليسوعي. شهداء يسوعيون في خدمة المشرق العربي (1975– 1989) دار المشرق، بيروت، 2006.

54- David Colon. Un cercle d'étudiants catholiques sous la IVe République : la conférence Olivaint (1875-1940). Paris, institut d'études politiques, *cycle d'histoire du XXe siècle, 1996.*

Riyad Nassar Library

المحتويات

المقدمــة	7
الآباء اليسوعيون: تاريخ وتأريخ	7
التمهيـد	9
الفصل الأول: السيرة والمسيرة.	11
الفصل الثاني: اليسوعيون ونقاوة الدم	27
الفصل الثالث: دكاترة باريس	37
الفصل الرابع: موجز عن الرياضات الروحية والقوانين التأسيسية	59
الفصل الخامس: لا للنساء في الرهبانية اليسوعية	83
الفصل السادس: رهبانية دينية أم سرّية عسكرية؟	95
الفصل السابع: جثة هامدة (Perinde ac cadaver)	105
الفصل الثامن: جثة متحركة	129
الفصل التاسع: البابا الأسود في مواجهة البابا الأبيض	153
الفصل العاشر: الآباء اليسوعيون وحقوق الإنسان	171
الفصل الحادي عشر: الرهبانية اليسوعية والطائفة المارونية	195
الفصل الثاني عشر: الإنتشار اليسوعي في لبنان والعالم	225

الخاتمة 259
لائحة بأسماء الجنرالات اليسوعيين وجنسياتهم.. 263
لمــاذا؟.. 267
Perinde ac Cadaver 269
الطاعة العمياء 271

هذا كتاب خارج عن المألوف بموضوعه ومضمونه.
إنه يؤكد لنا أنَّ الكمال ليس من هذا العالم، حتى في أعرق المؤسسات وأعظمها، وأنَّ هذه المؤسسة العملاقة التي هي الكنيسة تواجه، هي أيضاً، إلى قدسيتها وعطاءاتها وإنجازاتها البهية الباهية، التجارب والإغراءات والضعف البشري والأخطاء والخطايا وذلك، ربما، للدلالة مرة أخرى أنَّ الله وحده هو العلي القدير الصمد الكلي التمام والكمال. يبقى أنَّ الآباء اليسوعيين عنوان هذا السِفر، قد أدّوا للعالم أجلّ الخدمات في التربية والتعليم، ورفدوا مجتمعاته بجحافل من رجالات الدولة والعلماء والمفكرين المبدعين وأعلاماً في كل حقل ومجال وعطاءات لا يمكن أن ينكرها إلا الحسّاد والجاحدون.

السفير فؤاد الترك
أمين عام وزارة الخارجية سابقاً
رئيس منتدى سفراء لبنان

البروفسور الياس موريس معلوف، مواليد زحلة 1945.

- **أتمّ دروسه الثانوية في مدرسة الحكمة ـ بيروت.**
- **أستاذ في كلية طب الأسنان ـ جامعة القديس يوسف ـ بيروت** (1966 ـ 2010).
- **نقيب أطباء الأسنان في لبنان** (1991 ـ 1994) و(2003 ـ 2006).
- **الأمين العام لاتحاد منظمات أطباء الأسنان العرب** (1998 ـ 2000).
- **صاحب أول اختراعين لبنانيين في طب الأسنان معترف بهما دولياً** (Deep Star ـ Farside).
- **له مئات المحاضرات والمنشورات العلمية في لبنان والعالم.**
- **مؤسس ومدير برنامج الدراسات العليا في المعالجة اللُّبيّة ـ جامعة القديس يوسف ـ على فترات متلاحقة.**
- **حائز على الوسام الصحي اللبناني عام 1994، وعلى وسام الأرز الوطني من رتبة ضابط عام 2007، وكذلك على ميدالية الشرف من جامعة القديس يوسف في بيروت عام 2010.**

ISBN 978-9953-71-901-6